



المدعوة

ترجمة : دانيال صالح

سيمون دو بوڤوار



المدعوة

سيمون دوبوفوار

المدعوة

ترجمة:

دانيال صالح

٨٤٣
دوم د
دوبوفوار، سيمون.
الدعوة/ سيمون دوبوفوار؛ ترجمة دانيال صالح.- ط ١ - أبوظبي : المجمع الثقافي،
١٩٩٩م.
٦٠٥ص؛ ٢٠سم.
١ - القصص الفرنسية.
أ - دانيال صالح، مترجم.
ب - العنوان.

المجمع الثقافي - ١٩٩٩م
أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة-ص.ب ٢٣٨٠-هاتف : ٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

دار الانتشار العربي
بيروت-لبنان-ص.ب: ١١٣/٥٧٥٢
Email:arab diffusion @t-net.com.lb
P.o.box:113/5752 - Beirut



المحتويات

الفصل (١)

رفعت فرنسواز نظرها. كانت أصابع جيربير تتقافز على حروف الآلة الكاتبة وهو يحدّق بشراسة في المخطوطة. بدا متعباً. كانت فرنسواز تشعر أيضاً بالنعاس، غير أنّ تعبها هي كان حميماً بعض الشيء، مريحاً بعض الشيء. لم تكن تعجبها تلك الظلال القاتمة تحت عيني جيربير. كان وجهه ذاوياً، وكأنما اكتسب قسوة، كادت تظهر عليه سنواته العشرون.

ـ ألا تريد أن تتوقف؟ سألت.

ـ لا، قال جيربير، الأمر محتمل.

ـ على كلّ حال، تابعت فرنسواز، لم يعد لديّ سوى مشهد واحد عليّ أن أنجزه.

طوت صفحة. كانت الساعة الثانية دقّت منذ وقت. ليس من الممكن عادة في مثل هذه الساعة العثور على شخص حيّ في المسرح. غير أنّه في تلك الليلة كان حيّاً. الآلة الكاتبة تطقطق، اللمبة تسكب نوراً ورديّاً على الأوراق. وأنا هنا، وقلبي يخفق. للمسرح الليلة قلب نابض.

ـ أحبّ العمل ليلاً، قالت.

ـ أجل، وافق جيربير، الليل هادىء.

تتثاءب. كانت المنفضة مليئة بأعقاب السجائر الشقراء، وعلى الطاولة الصغيرة المستديرة كأسان وزجاجة فارغة. نظرت فرنسواز إلى جدران مكتبها الضيّق. الجو الورديّ يشعّ دفئاً ونوراً بشرياً. في الخارج كان المسرح الداكنَ غير البشري، بممراته المقفرة، حول فوقعة كبيرة جوفاء. وضعت فرنسواز القلم أمامها.

ـ ألا ترغب في تناول كأس آخر؟ سألت.

آه، لن أرفض، أجاب جيربير.

ـ سأذهب لإحضار زجاجة أخرى في مقصورة بيار.

خرجت من المكتب. لم تكن رغبتها كبيرة في تناول الويسكي، بل كانت تلك الممرّات المعتمة هي التي تجذبها. رائحة الغبار تلك، تلك الظلمة، تلك الوحدة الموحشة، كلّها غير موجودة من أجل أحد حين لم تكن هي هناك، غير موجودة على الإطلاق. أمّا الآن وهي هناك، فكانت حمرة البساط تنبجس في العتمة كضوء ضئيل خفر. كانت تمتلك تلك القدرة، حضورها ينتشل كلّ ما هناك في غيبوبته، يضفي عليه اللون والرائحة. هبطت طبقة ودفعت باب القائمة، وكأنّما مهمّة أُوكلت إليها، مهمة أن تمنح وجوداً إلى تلك القاعة الخالية الممتلئة ليلاً. كان الستار الحديدي منسدلاً، الجدران تبعث رائحة طلاء حديث، المقاعد المخملية الحمراء مرصوفة، هامدة، متربّصة. منذ قليل لم تكن تنتظر شيئاً. أما الآن وقد حضرت، كانت المقاعد تمدّ أذرعها. تحملق في المسرح المتواري خلف الستار الحديدي، تنادي بيار، صفّ الأضواء الأمامية وحشداً ممعناً. كان يجدر أن تبقى هناك إلى الأبد لتبقى

تلك الوحدة وذلك الانتظار. لكنه كان يجدر أيضاً أن تكون في مكان آخر، في مخزن الألبسة، في المقصورات، في الردهة. كان ينبغي أن تكون في الوقت ذاته في كلّ مكان. عبرت إحدى المقصورات، في الردهة. كان ينبغي أن تكون في الوقت ذاته في كلّ مكان. عبرت إحدى المقصورات الجانبية المؤدية إلى المسرح وصعدت إلى الخشبة. فتحت باب الجناح الداخلي، انحدرت إلى الفناء حيث تتعفّن ديكورات قديمة. هي وحدها تستشفّ المعنى خلف وجود تلك الأماكن المهجورة، تلك الأشياء الغارقة في السبات. إنها هنا، وكل ما من حولها ملك لها. العالم برمّته ملك لها.

اجتازت الباب الحديدي الضيّق المؤدي إلى جناح الفنانين وتقدّمت إلى وسط السهلة. كانت البيوت من حول الساحة نائمة. المسرح أيضاً نائم، فقط أحد شبابيكه كان وردياً. جلست على مقعد. فوق أشجار الكستناء التمعت السماء قاتمة. يخال الواحد نفسه في قلب بلدة فرعية هادئة. في تلك اللحظة لم تأسف لعدم وجود بيار إلى جانبها. ثمة بهجات لا يمكن أن تعيشها في حضوره، كلّ بهجات الوحدة. فقدتها منذ ثماني سنوات وينتابها من وقت لآخر شيء من الندم. استرخت متكئة على خشب المقعد القاسي. تردّد وقع خطى سريعة على اسفلت الرصيف، عبرت شاحنة الجادة. كان ثمّة ذلك الضجيج المتحرّك، السماء، أوراق الأشجار الحائرة، شبّاك ورديّ في واجهة داكنة. لم يعد هناك أي فرنسواز، لم يعد أي كان موجوداً في أي مكان.

وثبت فرنسواز واقفة. أمر عجيب أن تعود أحداً ما، مجرّد امرأة، امرأة تسرع لأن ثمة عملاً عاجلاً في انتظارها. لم تكن هذه

سوى لحظة كسواها من لحظات حياتها. وضعت يدها على قبضة الباب واستدارت، وفي قلبها غصّة. كان ما تفعله أشبه بالتخلّي، بالخيانة. الليل سيكتنف من جديد الساحة الريفيّة الصغيرة. النافذة الورديّة سترسل بريقها سدىً، لن تلمع من أجل أحد. ستضيع عذوبة ذلك الوقت من الليل للأبد. كلّ هذه العذوبة المفقودة من غير أن تدركها الأرض. عبرت الفناء وصعدت السلالم الخشبية الخضراء. كانت تخلّت عن هذا النوع من الأسف منذ وقت طويل. وحدها حياتها حقيقية. دخلت مقصورة بيار وتناولت زجاجة ويسكي من الخزانة ثم عادت وصعدت راكضة إلى مكتبها.

ـ جلبت كل ما سيعيد إليك قواك، قالت. كيف تريده، مع ماء أو بدون ماء؟

ـ بدون ماء، أجاب جيربير.

ـ هل ستتمكن من العودة إلى منزلك؟

ـ آه! بدأت أحتمل الويسكي، قال جيربير بوقار.

ـ بدأتَ... قالت فرنسواز.

ـ حي أصبح ثرياً وأسكن منزلاً لي، سأحتفظ على الدوام بزجاجة «فات ٦٩» في درجي، أضاف جيربير.

ـ ستكون هذه نهاية حياتك المهنية، قالت فرنسواز. نظرت إليه نظرة فيها بعض الحنان. كان أخرج غليونه من جيبه وأخذ يحشوه بانكباب. كان ذلك أوّل غليون يدخنه كل مساء، بعد أن يفرغا زجاجة نبيذ البوجوليه، كان يضعها على الطاولة ويرمقها باعتزاز أشبه باعتزاز طفل. كان يدخن وهو يتناول كأساً من المشروب. ثم يتسكّعان في الشوارع، ورأساهما ملتهبان بعض الشيء بسبب ما

أنجزاه من عمل خلال النهار، وكذلك النبيذ والكحول. جيربير يمشي بخطى واسعة، خصلته السوداء في عرض وجهه، غارزاً يديه في جيبيه. لكن الأمر انتهى الآن. سوف تعود وتراه مراراً، لكن مع بيار، مع كل الآخرين. سيمسيان غريبين من جديد.

ـ أنت أيضاً تحتملين الويسكي بشكل جيد بالنسبة لامرأة، لاحظ جيربير بنبرة موضوعية.

تفحّص فرنسواز.

ـ لكنك عملت كثيراً اليوم. يجدر بك أن تنامي قليلاً. سأوقظك إن أردت.

ـ لا، أفضّل أن أنهي الأمر، أجابت فرنسواز.

ـ ألست جائعة؟ ألا تريدينني أن أذهب وأحضر لك بعض السندويشات؟

ـ شكراً، قالت فرنسواز. ابتسمت له. لطالما كان ودوداً واعتنى بها باهتمام. كلما وهن عزمها لم يكن عليها سوى النظر في عينيه الرماديتين لاستعادة ثقتها. ودّت لو تجد كلاماً تشكره به.

ـ أكاد آسف أن نكون انتهينا، قالت. اعتدت العمل معك.

لكنّ الأمر سيكون مسلّياً أكثر عندما نعمل في الإخراج، أجاب جيربير، إلتمعت عيناه، كانت الكحول أضرمت وجنتيه.

أمر مثير للغاية أن تفكّر أن كلّ شيء سيعود ويبدأ بعد ثلاثة أيام. أكثر ما أحب بداية الموسم.

ـ أجل، سيكون هذا ممتعاً، وافقت فرنسواز. جذبت الأوراق إليها. كان يترقّب بلا أسف انتهاء تلك الأيام العشرة التي أمضياها على انفراد. هذا طبيعي هي أيضاً لا تشعر بالأسف، ولا يمكنها

بمطلق الأحوال أن تنتظر من جيربير أن يشعر بالأسف من طرف واحد.

ـ ذلك المسرح الميت، كلما عبرته اعترتني القشعريرة، قال جيربير. إنه كئيب. ظننت حقاً هذه المرة أنه سيظل مقفلاً طوال السنة.

ـ نجونا في اللحظة الأخيرة.

ـ المهمّ أن يدوم الأمر.

ـ سوف يدوم، أكّدت فرنسواز.

هي لم تؤمن يوماً بالحرب. الحرب أشبه بالسلّ أو بحوادث السكك الحديد، لا يمكن أن تصيبني أنا. أمور كهذه لا تحصل سوى للآخرين.

ـ هل يمكنك أنت أن تتصوّر مصيبة حقيقية كبيرة تنقضّ على رأسك؟ اعتلت تكشيرة وجه جيربير.

ـ آه، يمكنني بكلّ سهولة تصوّرَ ذلك، قال.

ـ أنا لا، تابعت فرنسواز. لم يكن الأمر يستحقّ حتّى التفكير من الواجب تحسّب الأخطار التي يمكننا الإحتماء منها، غير أنّ الحرب لم تكن على مقياس البشر. وإن اندلعت يوماً، فسوف لا تعود هناك أهمية لمطلق أمر، لا حتّى الحياة أو الموت.

ـ لكن هذا لن يحدث ، ردّدت فرنسواز لنفسها. انحنت فوق المخطوطة. كانت الآلة الكاتبة تطقطق والغرفة تعبق بالتبغ الأشقر والحبر والليل. من الجانب الآخر من النافذة، كانت الساحة الصغيرة المساهمة نائمةً تحت السماء الحالكة. وسط الحقول المقفرة عبر قطار. إنني هنا. وفي نظري أنا الماثلة هنا، الساحة موجودة،

وكذلك القطار العابر، باريس برمّتها والكوكب بكامله في عتمة المكتب الصغير الورديّة. وأيضاً في تلك اللحظة كلّ سنوات السعادة المديدة. أنا هنا في قلب حياتي.

ـ من المؤسف أن يضطر الواحد إلى النوم، قالت فرنسواز.

ـ المؤسف بالدرجة الأولى أنّه لا يسعنا أن نشعر بأننا نائمون، ردّ جيربير. ما إن ندرك أننا نائمون حتى نستيقظ. لا نفيد من نومنا.

ـ لكن ألا ترى مذهلاً أن نكون ساهرين في حين أنّ الآخرين نائمون؟ وضعت فرنسواز قلمها وأرهفت السمع. لم يكن يسمع مطلق صوت، الساحة حالكة والمسرح حالك.

ـ أودّ أن أتخيّل أن الجميع نائم، وأننا أنا وأنت في هذه اللحظة الوحيدان على قيد الحياة على وجه الأرض.

ـ أرى أن هذا الخاطر يبعث بالأحرى على الخوف، قال جيربير. ردّ الخصلة السوداء الطويلة المنسدلة على عينيه إلى الوراء. مثل التفكير في القمر: جبال الجليد تلك وتلك الحفر، ولا أحد هناك. لا بدّ أن يكون جريئاً، أول من سيطأ هناك.

ـ لن أرفض لو اقتُرح ذلك عليّ، قالت فرنسواز. نظرت إلى جيربير. كانا يجلسان عادة جنباً إلى جنب. يسرّها أن تشعر به قربها، لكنهما لايتحادثان. في تلك الليلة كانت ترغب في التكلّم إليه. تشعر بالغرابة حين تفكر في الأمور كما هي في غيابنا، قالت.

ـ أجل، إنه شعور غريب، أجاب جيربير.

ـ كأن نحاول أن نتصوّر أننا متنا. نعجز عن ذلك، نفترض على الدوم أننا في زاوية ما، نراقب.

ـ أمر مضحك، كلّ ما لن ترى أبداً، قال جيربير.

ـ كان يؤسفني في ما مضى أن أفكر أنني لن أعرف يوماً سوى بقعة صغيرة بائسة من العالم. ألا تشاطرني الرأي؟

ـ ربما.

ابتسمت فرنسواز. حين يتحدث الواحد مع جيربير، يواجه أحياناً بعض المقاومة، لكن من الصعب أن ينتزع منه رأياً إيجابياً.

ـ إنني مطمئنة الآن، لأنني واثقة من أنني أينما أتوجه يرافقني باقي العالم. وهذا ما ينقذني من أي شعور بالأسف.

ـ الأسف لكوني أسكن جسدي فحسب، في حين أنّ العالم شاسع وحسب. نظر جيربير إلى فرنسواز.

ـ أجل، خاصة وأنك تعيشين حياة منتظمة؟

كان على الدوم شديد التكتّم. ذلك السؤال الملتوي كان بالنسبة له أشبه بخطوة جريئة. أكان يرى حياة فرنسواز منتظمة أكثر مما ينبغي؟ أكان يحكم عليها؟ ترى كيف عساه يراني؟... ذلك المكتب، المسرح، غرفتي، كتب، أوراق، العمل. حياة منتظمة إلى حدّ بعيد.

ـ أدركت أنه يتحتّم علينا الاستسلام والاختيار، قالت.

ـ لا أحبّ حين يترتّب الاختيار، قال جيربير.

ـ في البدء كلّفني الأمر كثيراً. لكنني الآن لم أعد أشعر بأي أسف، لأن ما هو غير موجود بالنسبة لي، يخيّل لي أنه غير موجود على الإطلاق.

ـ كيف هذا؟

تردّدت فرنسواز. كانت تحسّ بما تقوله بقوة. الممرّات، الصالة،

خشبة المسرح، كلّها لم تختفِ حين أغلقت الباب عليها، لكنها لم تعد موجودة سوى خلف الباب، على مسافة. على مسافة، كان القطار يجري عابراً الحقول الصامتة، امتداد حياة المكتب الصغير الدافئة في قعر الليل.

ـ الأمر أشبه بالمشهد القمريّ، تابعت فرنسواز. ليس حقيقياً. ليس سوى ما يقال عنه. ألا تشعر بذلك؟

فكّر جيربير:

ـ ما يزعجني شخصياً هو الآخرون. أكره أن يحدّثني أحد عن شخص لا أعرفه، خاصّة إذا كلّمني عنه بتقدير. شخص يعيش هنا، في حاله، ويجهل حتى وجودي.

كان أمراً نادراً أن يتحدث بهذا القدر عن نفسه. أكان يشعر هو أيضاً بالحميمية المؤثرة والمؤقتة لتلك الساعات الأخيرة؟

وحدهما كان يحيان داخل دائرة الضوء الورديّ. الضوء ذاته لكليهما، الليل ذاته. أمعنت فرنسواز في العينين الخضراوين الرائعتين تحت الأهداب المعقوفة، في الشفتين المترقّبتين: ـ لو وددت... ربما لم يفت الأوان. لكن ما الذي يمكن أن ترغب فيه؟

ـ أجل، إنه لأمر مهين، وافقت.

ـ ما إن نعرف الشخص حتى يصبح الوضع أفضل، أضاف جيربير.

ـ لا يمكننا أن ندرك أنّ الآخرين ضمائر تشعر من الداخل مثلما تشعر أنفسنا، قالت فرنسواز. حين نتبيّن ذلك، أرى أنّ الأمر مريع: يخيّل لنا أننا لم نعد سوى صورة في ذهن شخص آخر. هذا يكاد لا يحصل أبداً، ولا يحصل على الإطلاق بشكل تام.

ـ صحيح، اندفع جيربير. ربما لذلك أرى مزعجاً جداً أن يحدثني أحد ما عن نفسي، وإن فعل تحبباً. يتهيأ له أنه إنما يأتي من موقع متفوّق عليّ.

ـ أنا لا يهمني رأي الناس بي، قالت فرنسواز.

أخذ جيربير يضحك.

ـ الحقيقة أنه لا يمكن القول إنك تتحلّين بقدر كبير من عزّة النفس.

ـ أفكارهم بالنسبة لي مثل كلامهم ووجوههم تماماً: أشياء موجودة في عالمي أنا. تتعجّب اليزابيت من قلة طموحي، لكن هذا هو أحد الأسباب أيضاً. لست بحاجة لأن أجد لنفسي مكانة مميّزة في العالم. أشعر أنني قد أقمت في مكان لي. ابتسمت لجيربير:

ـ أنت أيضاً لست طموحاً.

ـ لا، أجاب جيربير، ما الفائدة؟ تردّد. لكنني أرغب في أن أصبح في أحد الأيام ممثلاً جيداً.

ـ أنا أيضاً، أود أن أؤلّف يوماً كتاباً جيداً. كلنا يرغب في إتقان عمله. لكن ليس من أجل المجد والتكريم.

ـ لا، قال جيربير.

عبرت تحت النوافذ سيارة بائع حليب. قريباً يشحب الليل. كان القطار اجتاز شاتورو وهو الآن يقترب من فيارزون. تثاءب جيربير وتورّدت عيناه كعيني ولد نعس.

ـ يجدر بك أن تنام، قالت فرنسواز.

فرك جيربير عينيه.

ـ يجب أن نقدّم العمل منجزاً إلى لابروس، قال متعنتاً. تناول الزجاجة وملأ كأساً من الويسكي.

ـ على كلّ حال، لا أشعر بالنعاس، بل بالعطش! شرب ثم أعاد الكأس إلى الطاولة. فكّر لبرهة.

ـ قد أكون نعساً على كل حال.

ـ عطش أم نعاس، ينبغي أن تقرر، قالت فرنسواز مرحة.

ـ لا يمكنني أبداً أن أميّز بشكل جيد.

ـ إسمع، سأقول لك ماذا تفعل. تمدّد على الكنبة ونم، سأكمل مراجعة هذا المشهد الأخير، ثم تدققه حين أذهب لملاقاة بيار في المحطة.

ـ وأنت؟ سأل جيربير.

ـ سأنام بعد أن أنتهي. الكنبة واسعة ولن تزعجني. خذ أريكة وتمدّد تحت الغطاء.

ـ أود ذلك، قال جيربير.

تمطّت فرنسواز وأمسكت قلمها من جديد. إستدارت بعد هنيهة. كان جيربير ممدداً على ظهره، مغمّض العينين، وشفتاه تنفثان نفساً متواتراً وقد غفا. كان رائعاً. تأملته لوقت طويل قبل أن تعود إلى عملها. هناك، في القطار المسرع، كان بيار نائماً هو أيضاً، ورأسه متكيء على الأرائك الجلدية، ووجهه يعكس البراءة. سوف يقفز من القطار، يرتقي متطاولاً بقامته القصيرة، ثم يمضي راكضاً على رصيف المحطّة وسيمسك ذراعي.

ـ ها قد انتهيت! قالت فرنسواز. تفحّصت المخطوطة مسرورة. آمل أن يجدها جيدة! أعتقد أنه سيفعل. دفعت مقعدها إلى

الخلف. كان ضباب ورديّ يتصاعد في السماء. خلعت حذائيها وانسلّت تحت الغطاء، إلى جانب جيربير. أطلق أنيناً، تدحرج رأسه على الأريكة حتى التصق بكتف فرنسواز.

ـ مسكين جيربير الصغير، كم كان نعساً، فكرّت. جذبت الغطاء قليلاً ومكثت بلا حراك، محملقة. انتابها النعاس هي أيضاً، لكنها لم تكن ترغب في النوم بعد. تأمّلت جفون جيربير النضرة، أهدابه الشبيهة بأهداب فتاة. كان مستغرقاً في النوم، مستسلماً، غير آبه. أحسّت بشعره. الأسود الناعم يلامس عنقها.

ـ هذا أكثر ما يمكن أن أجني منه أبداً، خطر لي.

سيصادف نساء يداعبن تلك الخصلات الفاتنة كخصلات فتاة صينية، يضعن شفاههن على جفون الطفل تلك، يضمّن ذلك الجسد النحيل المشوق. سيقول لإحداهنّ ذات يوم: أحبّك.

أحسّت فرنسواز بغصّة في قلبها. لم يفت الوقت بعد. ما زال في مقدورها أن تلصق وجنتها بتلك الوجنة وتعبّر عن الكلام الذي يتبادر إلى شفتيها.

أغمضت عينيها. لم يكن في وسعها أن تقول: أحبّك. لم يكن في وسعها أن تفكّر حتى في حبّه. فهي تحبّ بيار. ولا مكان في حياتها لحبّ آخر.

لكنها فكّرة قلقة أنها ستعرف بهجات شبيهة بتلك. كان رأسه يضغط على كتفها. لم يكن ذلك الثقل المضني هو العزيز على نفسها، بل حنان جيربير، ثقته، استسلامه، الحبّ الذي تغمره به غير. أن جيربير غارق في النوم، والحبّ والحنان لم يكونا سوى حلم. ربما لو ضمّها بين ذراعيه، لكان الحلم خدعها وصدّقته. لكن كيف عساها تحلم حبّاً لا ترغب في عيشه حقيقة!

نظرت إلى جيربير. إنها حرّة بكلامها، بأفعالها. بيار يترك لها حرّيتها. غير أن الأفعال والكلام لن تكون سوى أكاذيب. وكذب ثقل ذلك الرأس على كتفها. لم يكن جيربير يحبّها. لا يمكنها أن تتمنّى أن يحبّها!

ارتدت السماء خلف النافذة وشاحاً وردياً. غمر قلب فرنسواز حزن نهم ورديّ كالفجر. غير أنها لم تكن تشعر بأي أسف. لم يكن يحق لها حتى بتلك السوداوية التي تخدّر جسدها النعس. إنه عدول نهائي وبلا مكافأة.

الفصل (٢)

كانت فرنسواز وكزافيير جالستين في قعر المقهى المغربي، على وسادات من الصوف الخشن، تتأمّلان الراقصة العربية.

ـ أود لو أحسن الرقص هكذا، قالت كزافيير. ارتعشت كتفاها وانتابت اختلاجة طفيفة جسدها. ابتسمت لها فرنسواز. شعرت بالأسف لانتهاء النهار. كانت كزافيير ظريفة طوال اليوم.

ـ في حيّ المواخير في فاس، روت فرنسواز، شاهدنا مرّة أنا ولابروس راقصات يرقصن عاريات، لكن الأمر كان أشبه بعرض بيولوجي.

ـ كم شاهدت أشياء! تعجبت كزافيير بقليل من الحقد.

ـ سوف تشاهدين أشياء بدورك، أكّدت فرنسواز.

ـ للأسف!

ـ لن تبقي طوال حياتك في روان.

ـ ماذا بوسعي أن أفعل؟ قالت كزافيير بحزن. تأملت أصابعها مطرقة. كانت حمراء، أشبه بأصابع فلاّحة، تتباين مع رقّة

معصميها. ربما يمكنني أن أجرّب حظّي في البغاء، لكنني لم أكتسب ما يكفي من الخشونة بعد.

ـ إنها مهنة قاسية، تعلمين، قالت فرنسواز وهي تضحك.

ـ المهمّ ألاّ أخشى الناس، أجابت كزافيير برزانة. هزّت رأسها: إنّني أحرز تقدماً. لم أعد أصرخ حين يلامسني رجل ما في الشارع.

ـ كما أنك تدخلين المقاهي وحدك، وهذا رائع، لاحظت فرنسواز.

رمقتها كزافيير مرتبكة: ـ أجل، لكني لم أخبرك كلّ ما هنالك. في ذلك المرقص الصغير الذي قصدته مساء أمس، دعاني بحّار للرقص ورفضت. أنهيت بسرعة كأس الكلفادوس وهربت مثل جبانة. علت وجهها تكشيرة. مريع، ذلك الكلفادوس.

ـ لا شكّ أنه كان مشروباً رديئاً للغاية، قالت فرنسواز. أظنّ أنه يمكنك أن تراقصي بحّارك. قمت بمغامرات كثيرة كهذه في صباي ولم يتأتّ عنها يوماً سوء.

ـ سأوافق في المرة المقبلة، أكّدت كزافيير.

ـ ألا تخشين أن تستيقظ عمّتك ذات ليلة؟ أتصوّر ماذا يمكن أن يحصل.

ـ لن تجرؤ على دخول غرفتي، قالت كزافيير بتحدٍ. ابتسمت ونقّبت في حقيبتها: رسمت رسمة صغيرة لك.

كانت امرأة تشبه فرنسواز قليلاً مستندة إلى كونتر حانة. وجنتاها ملوّنتان بالأخضر وفستانها بالأصفر. عند أسفل الرسمة كتبت كزافيير بحروف بنفسجيّة ضخمة: درب الرذيلة.

ـ ينبغي أن تكتبي لي إهداءً، قالت فرنسواز.

نظرت كزافيير إليها، نظرت إلى الرسمة ثم دفعتها بعيداً.

ـ هذا صعب جداً، قالت.

تقدّمت الراقصة إلى وسط الصالة. كان وركاها يتماوجان وبطنها يهتزّ على وقع الدفّ.

ـ كأن شيطاناً يحاول الخروج من جسدها، قالت كزافيير. انحنت إلى الأمام، مذهولة. كانت فكرة ممتازة أن تصطحبها فرنسواز إلى هنا. لم يسبق لكزافيير أن تتكلّم عن نفسها بهذا القدر. كانت تروي ما عندها بطريقة فاتنة.

انغرزت فرنسواز بين الوسادات. كلّ هذه الأجواء البرّاقة السهلة تؤثر في نفسها هي أيضاً، غير أن ما كان يفتنها بصورة خاصة هو أنها ضمّت إلى حياتها ذلك الوجود الضئيل الحزين. كزافيير باتت الآن ملكها، مثلما جيربير، إينيس، كانزيتي من قبل. ليس هناك أبداً ما يمنع فرنسواز جذلاً كهذا النوع من الامتلاك. كانت كزافيير مستغرقة في تأمّل الراقصة. لم تكن ترى وجهها هي نفسها، وجهها الذي يضفي عليه الشغف جمالاً. يدها تحسّ بشكل تلك اليد: إيماءات كزافيير، وجهها، حياتها حتى بحاجة إلى فرنسواز لتكتسب وجودها. في هذه اللحظة لم تكن كزافيير بالنسبة لنفسها سوى.طعم قهوة، موسيقى مؤلمة، رقصة، ارتياحٍ طفيفٍ. أمّا في نظر فرنسواز، فإن طفولة كزافيير، نهاراتها الخامدة، اشمئزازها، كلها تؤلف قصّة خيالية حقيقية بقدر ما هو حقيقية خطّ وجنتها الرقيق. وتلك القصة تفضي تحديداً إلى هنا، بين الستائر المزركشة، في هذه اللحظة بالذات من حياة فرنسواز حيث تستدير نحو كزافيير وتتأملها.

ـ صارت الساعة السابعة، قالت فرنسواز. كان يزعجها كثيراً

أن تمضي السهرة مع اليزابيت، غير أنه لم يكن في المستطاع تفادي ذلك.

هل ستخرجين مع إينيس الليلة؟

- على ما أظن، أجابت كزافيير بصوت كئيب.

- كم من الوقت ستمكثين في باريس؟

- أغادر غداً. عبرت ومضة غضب عيني كزافيير. في الغد يكون كل ما هنالك مازال في مكانه، وأنا أكون في روان.

- لِمَ لا تتلقين دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة، كما نصحتك؟ قد أتمكن من العثور على وظيفة لك.

رفعت كزافيير كتفيها، واهنة العزم.

- لن أتمكن من ذلك، قالت.

- بل تتمكنين بالتأكيد، ليس هذا صعباً، أجابت فرنسواز.

- حاولت عمّتي أيضاً أن تعلّمني حياكة الصوف، قالت كزافيير، فكان جوربي الأخير كارثة حقيقية. نظرت إلى فرنسواز نظرة حزينة فيها بعض التحدّي. إنها على حق: لن يتمكن أحد يوماً من الإفادة مني بمطلق أمر.

- لن تكوني بالتأكيد ربّة منزل من الطراز الأول، قالت فرانسواز بخفّة، لكن يمكن الإستغناء عن ذلك.

- ليس الجورب هو السبب، أوضحت كزافيير بصوت مستسلم للمحتوم. لكنه بالتأكيد إشارة ذات مغزى.

- إنك تفقدين عزمك بسرعة كبيرة، قالت فرنسواز. لكنك رغم ذلك تشعرين برغبة كبيرة في مغادرة روان؟ ألا تكترثين لأي شيء أو لأي كان هناك؟

ـ أكرههم، قالت كزافيير. أكره تلك المدينة القذرة والناس في الشارع بنظراتهم مثل بزّاقات.

ـ لا يمكن أن يدوم ذلك، طمأنتها فرنسواز.

ـ سيدوم، قالت كزافيير. نهضت فجأة. إنني عائدة.

ـ مهلاً، سأرافقك، قالت فرنسواز.

ـ لا، لا تزعجي نفسك. سلبتك وقتك كل ما بعد الظهيرة.

ـ لم تسلب مني شيئاً، أجابت فرانسواز. كم أنك غريبة الأطوار!

تفحّصت ببعض الحيرة وجه كزافيير المقطّب. إنها مربكة. تكاد تبدو بهذا البيريه الذي يخفي شعرها الأشقر أشبه بصبيّ. لكن وجه الشابة هو الذي فتن فرانسواز قبل ستة أشهر. طال الصمت.

ـ أعذرني، قالت كزافيير. أشعر بصداع مريع. لامست صدغيها متألمة. لا بدّ أنه ذلك الدخان. أشعر بألم هنا، وهنا.

كان أسفل عينيها متورماً، ووجهها متكدّراً. الحقيقة أن رائحة البخور والتبغ الكثيفة جعلت من المتعذّر تقريباً تنفّس هواء الصالة. نادت فرانسواز النادل.

ـ أمر مؤسف! قالت. لو لم تكوني متعبة إلى هذا الحدّ، لكنت اصطحبتك للرقص هذا المساء.

ـ كنت أظن أنك مرتبطة بموعد مع صديقة، قالت كزافيير.

ـ يمكنها أن ترافقنا. إنها شقيقة لابروس، فتاة صهباء تسرّح شعرها كالصبيان. لا شكّ أنك رأيتها في العرض المئة لمسرحية «فيلوكتيت».

ـ لا أذكر، أجابت كزافيير. انتعشت عيناها. لا أذكر سواك:

كنت ترتدين تنورة سوداء طويلة ضيّقة وقميصاً مقصّباً وفي شعرك شبكة فضيّة. كم كنت جميلة!

ابتسمت فرنسواز: لم تكن جميلة، غير أن وجهها كان يعجبها. كانت تشعرعلى الدوام بالسرور عندما تفاجأ بوجهها في مرآة. لم تكن عادة تفكر بأن لها وجهاً.

ـ أنت كنت ترتدين فستاناً أزرق ظريفاً، قالت. وكنت ثملة.

ـ جلبت فستاني معي، قالت كزفيير. سأرتديه الليلة.

ـ هل أنه قرار عاقل، إن كنت تشعرين بالصداع؟

ـ لم يعد رأسي يؤلمني، أجابت كزافيير. كان مجرّد دوار.

كانت عيناها تلتمعان وقد استعاد وجهها بياضه المتألق.

ـ اتّفقنا إذاً، قالت فرنسواز. دفعت الباب. غير أن إينيس ستستاء إن كانت تعتمد على رفقتك الليلة.

ـ حسناً، فلتفعل، قالت كزافيير وعلى شفيتها تكشيرة متعالية.

استوقفت فرنسواز سيارة أجرة.

ـ سأوصلك إلى منزلها. وألتقيك في الـ «دوم» في التاسعة والنصف. ليس عليك سوى أن تسلكي جادة مونتبارناس في خط مستقيم.

ـ أعرف المكان، قالت كزافيير.

جلست فرنسواز إلى جانبها في سيارة الأجرة وتأبطت ذراعها.

ـ يسعدني أنه مازال لدينا بضع ساعات طويلة نمضيها معاً.

ـ أنا أيضاً سعيدة لذلك، أجابت كزافيير بصوت منخفض.

توقفت سيارة الأجرة عند زاوية شارع رين. خرجت كزافيير وطلبت فرنسواز من السائق أن يقودها إلى المسرح. كان بيار في

مقصورته بالروب الداخلي، يأكل سندويش جمبون.

ـ كيف كان التمرين؟ جيداً؟ سألت فرنسواز.

ـ عملنا جيداً، أجاب بيار. أشار إلى المخطوطة الموضوعة على مكتبه.

ـ جيد، قال. ممتاز.

ـ صحيح؟ كم أنا مسرورة! أحزنني قليلاً أن أقطع موت لوسيليوس، لكن أعتقد أن ذلك كان ضرورياً.

ـ أجل كان ضرورياً، قال بيار. هذا هزار بدّل حركة الفصل برمّتها. تناول لقمة من السندويش. ألم تتناول العشاء؟ أتريدين سندويشاً؟

ـ أجل، بسرور. تناولت شطيرة ونظرت إلى بيار نظرة لوم. إنك لا تتغذى بشكل كافٍ. وجهك شاحب.

ـ لا أريد أن أسمن.

ـ لم يكن سيزار نحيلاً، قالت فرنسواز. ابتسمت. هلا اتصلت بالبوابة وطلبت منها أن تحضر لنا زجاجة «شاتو مارغو»؟

ـ فكرة جيدة، قال بيار. أخذ السماعة في حين جلست فرنسواز على الكنبة: هنا ينام بيار عندما لا يمضي الليل عندها. كانت تحب هذه المقصورة الصغيرة.

ـ سيأتيك ما طلبت، قال بيار.

ـ إنني مسرورة، قالت فرنسواز. خيّل لي أنني لن أتمكن من إنجاز ذلك الفصل الثالث.

ـ قمت بعمل ممتاز، قال بيار. انحنى فوقها وقبّلها. ألقت فرنسواز بذراعيها حول عنقه. هذا بفضلك، قالت. أتذكر ما كنت

تردّد لي في «ديلوس»؟ أنك تريد أن تدخل إلى المسرح عنصراً جديداً تماماً؟ هذه المرة، نجحت.

ـ أتعتقدين حقاً؟ سأل بيار.

ـ ألا تعتقد؟

ـ أظنّ، إلى حدّ ما.

أخذت فرنسواز تضحك.

ـ بل تظنّ تماماً. تبدو في غاية التكلّف. آه بيار! فقط لو لم تكن تعترضنا مصاعب مالية ضخمة، لكانت السنة المقبلة رائعة بالنسبة لنا!

ما إن نصبح أثرياء قليلاً، سنشتري لك معطفاً جديداً، قال بيار.

ـ اعتدت معطفي هذا.

ـ هذا أكثر من واضح، أجاب بيار. جلس في مقعد قرب فرنسواز.

ـ هل أمضيت وقتاً مسلياً مع صديقتك الصغيرة؟

ـ إنها لطيفة. أمر مؤسف أن يأكلها العفن في روان.

ـ هل أخبرتك قصصاً؟

ـ قصص كثيرة، سأرويها لك يوماً.

ـ أذاً، أنت مسرورة، لم تهدري يومك؟

ـ أحب القصص، قالت فرنسواز.

دقّ أحدهم وفُتح الباب. دخلت البوابة محتارة وهي تحمل صينية عليها كأسان وزجاجة نبيذ.

ـ شكراً، قالت فرنسواز. ملأت الكأسين.

ـ أرجوكِ، قال بيار، لست هنا إن سأل أيّ كان عني.

ـ حاضر، سيّد لابروس، قالت المرأة. خرجت. تناولت فرنسواز كأسها وباشرت بسندويشٍ ثانٍ.

ـ سأصطحب كزافيير معنا هذا المساء، قالت. سنذهب إلى المرقص. هذا يسلّيني. آمل أن تتمكن من التغلّب على اليزابييت.

ـ لا شك أنها في غاية السرور.

ـ يا لها من طفلة مسكينة. أحزنني وضعها كثيراً. إنها مثبطة الهمّة لفكرة عودتها إلى روان.

ـ أما من وسيلة لإخراجها من هناك؟ سأل بيار.

ـ لا، أبداً، أجابت فرنسواز. فهي خمولة وعاجزة إلى أقصى الحدود، ولن تجد يوماً الشجاعة الكافية لتعلّم مهنة. كما أن عمّها لا يتصوّر لها مستقبلاً خارج الزواج من رجل ورع وإنجاب الكثير من الأولاد.

ـ يجدر بك تتولّي أمرها، قال بيار.

ـ كيف تريدين أن أفعل، وأنا لا أراها سوى مرّة في الشهر؟

ـ لمَ لا تستقدمينها إلى باريس؟ هكذا تراقبينها وترغمينها على العمل. لتتعلّم الكتابة المختزلة، وسوف نتدبّر أمرنا لإيجاد عمل ما لها.

ـ عائلتها لن تسمح لها أبداً، قالت فرنسواز.

ـ حسناً! يمكنها الإستغناء عن الإذن. أليست رائدة؟

ـ لا، أجابت فرنسواز. لكن ليست هذه المسألة. لا أظن أنهم سيرسلون رجال الدرك في أعقابها.

ابتسم بيار.

ـ ما هي المسألة؟

تردّدت فرنسواز. الحقيقة أنه لم يخطر لها يوماً أن تكون ثمة أي مسألة مطروحة.

ـ إذاً ما تقترحه هو أن تقيم في باريس على حسابنا في انتظار أن تتدبر أمورها؟

ـ لمَ لا؟ نعرض عليها المسألة بصفتها قرض.

ـ آه، بالتأكيد، أجابت فرنسواز. يدهشها دائماً كيف أن بيار يخلق بأربع كلمات ألف احتمال غير متوقع. حيث كان الآخرون لا يرون سوى أدغال متداخلة يتعذّر ولوجها، كان بيار يبصر إشراقة! مستقبل جديد يعود له أن يعطيه الشكل الذي يريد. هنا يكمن سرّ قوته.

ـ صادفنا في حياتنا قسطاً كبيراً من الحظ، قال بيار. يجدر بنا أن نشرك فيه الآخرين كلما استطعنا.

تفحّصت فرنسواز بحيرة قعر كأسها.

ـ يستهويني هذا الاحتمال بمعنى ما، قالت. لكن سيترتب علي الاهتمام بها بشكل فعلي وليس لدي متسع من الوقت.

ـ يا لك من نملة صغيرة، قال بيار بحنان.

ـ اصطبغ وجه فرنسواز باحمرار طفيف.

ـ أتعلم، ليس لديّ أوقات فراغ كثيرة، قالت.

ـ أعرف هذا جيداً. لكن غريب، كيف تأخذني هذه المسألة ما إن يطرأ عليك أمر جديد.

ـ الأمر الجديد الوحيد الذي يهمني هو مستقبلنا معاً، قالت فرنسواز. ماذا تريدني أن أفعل، فأنا سعيدة هكذا!

ـ آه لا ألومك، قال بيار. على العكس، أجدك أكثر نقاءً مني

بكثير. ليس هناك في حياتك أي خطب.

ـ هذا لأنك أنت لا تعير أهمية كبيرة لحياتك بحدّ ذاتها. عملك هو المهم في نظرك، قالت فرنسواز.

ـ هذا صحيح، أجاب بيار. عضّ أحد أظافره وملامح الارتباك على وجهه، كل ما في حياتي خارج علاقتي بك ليس سوى نزق وهدر.

واصل قضم أصبعه. لن يكفّ إلا عندما يسيل الدم.

ـ لكن ما إن أتخلص من كاتزيني حتى ينتهي كل هذا.

ـ مجرد كلام، قالت فرنسواز.

ـ سأثبت ذلك.

ـ إنك محظوظ، قصصك تنتهي دائماً بشكل لائق.

ـ هذا لأن أياً من تلك النساء لم تكن يوماً متمسّكة بي حقاً!

ـ لا أظن أن كاتزيني فتاة ذات مصلحة.

ـ لا، هدفها ليس الحصول على أدوار. لكنها تخالني رجلاً عظيماً، وتظن أن النبوغ سينفذ من عضوها إلى دماغها.

ـ ثمة في هذا الكلام ما ينطبق على قصتك، قالت فرنسواز وهي تضحك.

ـ لم تعد تلك القصص تسلّيني، تابع بيار. لو أنني على الأقل ذاك الرجل الشهواني، لكن لا يمكنني حتى التذرع بهذه الحجّة. نظر إلى فرنسواز مرتبكاً. كل ما في الأمر أنني أحب البدايات. ألا تفهمين هذا؟

ـ ربما، قالت فرنسواز، غير أن قصة بلا مستقبل لن تهمني أنا

شخصياً.

ـ لا تهمّك؟

ـ لا، قالت. الأمر أقوى منّي. أنا امرأة مخلصة.

ـ لا يمكن التحدث عن إخلاص أو خيانة بيننا، قال بيار. جذب فرنسواز إليه. أنا وأنت واحد. صحيح، أتعلمين؟ لا يمكن تحديد أي منا من دون الآخر.

ـ هذا بفضلك أنت، قالت فرنسواز أمسكت وجه بيار بين يديها وراحت تكسو بالقبلات الوجنتين حيث تمتزج رائحة الغليون بنفحة حلوى صبيانية مفاجئة. إننا واحد، كررت. لم يكن أي حدث يحصل لها حقيقياً طالما أنها لم تخبره لبيار. وإلاّ بات يطفو هامداً، غير واضح، مغلّفاً بالغموض. في الماضي، عندما كان بيار يرهبها، كانت تدع أموراً كثيرة هكذا، جانباً: أفكار مريبة، سلوك متهوّر. إن لم تتحدّث عنها، بدت وكأنها لم تكن. هكذا نما تحت الحياة الحقيقية دغل من النبتات الجوفيّة المعيبة، حيث تجد نفسها وحيدة وتشعر بالاختناق. ثم أفصحت عن كل ما لديها، شيئاً فشيئاً. لم تعد تعرف الوحدة، لكنها اغتسلت من كلّ ذلك العجاج المبهم. كل أوقات حياتها التي تكشفها لبيار يعيدها إليها واضحة، مصقولة، مكتملة، فتصبح أوقاتاً من حياتهما. كانت تعلم أنها تلعب الدور نفسه بالنسبة له. فهو بلا طيّات ولا حفر، ولا يبدو متكتّماً إلا عندما يكون حلق ذقنه بشكل جيد أو حين يكون قميصه متسخاً. عندها يتظاهر بالرشح أو يصرّ على ربط وشاح حول عنقه، ممّا يجعله أشبه بعجوز شاخ قبل أوانه.

ـ عليّ أن أغادرك، قالت بأسف. هل ستنام هنا أم ستأتي إلى

غرفتي؟

ـ سأذهب إلى غرفتك، أجاب بيار. أريد أن ألاقيك في أسرع وقت ممكن.

كانت اليزابيت جالسة في «الروم»، تنفث الدخان محملقة في الفراغ. ثمة خطب ما، فكّرت فرنسواز. كانت تبرّجت بتأنٍ، غير أن وجهها متورّم ومتعب. لمحت فرنسواز وارتسمت على شفتيها ابتسامة مفاجئة بدت وكأنها أنقذتها من أفكارها.

ـ مرحباً. إنني سعيدة لرؤيتك، قالت باندفاع.

ـ أنا أيضاً، أجابت فرنسواز. قولي لي، أيزعجك أن اصطحب معنا باجيس الصغيرة؟ فهي ترغب كثيراً في الذهاب إلى مرقص. سنتمكّن من التحدث حين ترقص هي. ليست مزعجة.

ـ لم أسمع أي موسيقى جاز منذ قرون، قالت اليزابيت، سيكون الأمر مسلياً.

ـ ألم تأتِ بعد؟ قالت فرنسواز. هذا مدهش. استدارت نحو اليزابيت: إذاً، ماذا جرى لتلك الرّحلة؟ قالت بمرح. هل إنك عازمة على المغادرة غداً؟

ـ تظنين أن الأمر بهذه السهولة، أجابت اليزابيت. ضحكت ضحكة خبيثة. يبدو أن ذلك قد يؤلم سوزان، وسوزان عانت كثيراً من جراء أحداث أيلول.

إذاً ذلك ما كان السبب... نظرت فرنسواز إلى اليزابيت بشفقة وسخط. كانت معاملة كلود لها مثيرة للإشمئزاز حقاً.

ـ وكأنك لم تعاني أنت أيضاً.

ـ لكنني أنا متبصرة وقوية، أجابت اليزابيت بسخرية. أنا المرأة التي لا تثير أي مشاحنة أبداً.

ـ على كل حال، لم يعد كلود متمسكاً بسوزان، قالت فرنسواز. فهي عجوز وقبيحة.

ـ لم يعد متمسكاً بها، لكن سوزان أشبه بطير. هو مقتنع بأنه لا يمكنه التوصل إلى أي شيء من دونها. خيّمت برهة صمت. استغرقت اليزابيت في تتبّع دخان لفافتها. كانت تحسن السيطرة على نفسها، لكن لا بدّ أن قلبها كان حالكاً، قاتماً! لطالما ارتقبت هذه الرحلة الطويلة على انفراد، علّها تحمل كلود على اتخاذ قرار بالانفصال أخيراً عن زوجته.

باتت فرنسواز مرتابة في الأمر. مضت سنتان واليزابيت تنتظر الساعة الحاسمة. غير أنها كانت تحسّ بخيبة الزابيت وفي قلبها غصّة تشبه الندم.

ـ علينا أن نقرّ بأن سوزان قوية الشخصية للغاية، قالت اليزابيت. نظرت إلى فرنسواز. هي تحاول حمل مسرح ناتوي على إخراج مسرحية كلود. وهذا من الأسباب التي تستبقيه في باريس.

ـ نانتوي؟ قالت فرنسواز بفتور. إنها فكرة غريبة. نظرت إلى الباب ببعض القلق. لِمَ لا تصل كزافيير؟

هذه حماقة، تابعت اليزابيت بصوت أكثر عزماً. على كل حال، الأمر بسيط: لا أرى غير بيار قادراً على إخراج «تقاسم». سيكون رائعاً في دور أشاب.

ـ إنه دور بديع، قالت فرنسواز.

ـ أتظنين أنه سيغريه؟ سألت اليزابيت وفي صوتها نداء قلق.

ـ «تقاسم» مسرحية مثيرة للإهتمام إلى حدّ بعيد، لكنها لا تسير على الإطلاق في اتجاه بحث بيار. إسمعي، تابعت باندفاع، لم لا يعرض كلود مسرحيته على بيرجيه؟ أتريدين أن يكتب بيار رسالة بهذا الشأن إلى بيرجيه؟

بلعت اليزابيت ريقها بمشقة.

ـ إنك لا تدركين ماذا سيعني لكلود إن وافق بيار على مسرحيته. فهو غير واثق من نفسه إلى حدّ بعيد. وحده بيار قادر على إنقاذه من وضعه هذا.

حوّلت فرنسواز نظرها. كانت مسرحية باتييه رديئة ولا مجال لقبولها. لكنها كانت تدرك كل الآمال التي علّقتها أليزابيت على هذه الفرصة الأخيرة. ما كانت تشعر به أمام وجهها الشاحب المتوتّر كان ندماً حقيقياً. لم تكن تجهل البتة كم أن حياتها ومثالها أثّرا على مصير اليزابيت.

ـ بصراحة، لا يمكن أن ينجح الأمر.

ـ مع أنّ مسرحية «لوس وأرمندا» أحرزت نجاحاً كبيراً، قالت أليزابيت.

ـ لكن بعد «يوليوس قيصر»، يرغب بيار في إطلاق مجهول.

توقفت فرنسواز عن الكلام. شعرت بالارتياح إذ شاهدت كزافيير تقترب. كانت سرّحت شعرها بعناية، وجمّلت وجهها بمكياج طفيف أخفى رأس وجنتيها وخفّف من حجم أنفها الضّخم الشّره.

- تعرفان بعضكما، قالت فرنسواز. ابتسمت لكزافيير. تأخرتِ كثيراً. أنا واثقة من أنك لم تتناول العشاء. ستأكلين شيئاً.

ـ لا، شكراً، لا أشعر أبداً بالجوع، أجابت كزافيير. جلست ونظرت أرضاً. بدت غير مرتاحة. ضعت قليلاً.

كانت اليزابيت تحدّق بها بإصرار. كانت تقيّمها.

ـ ضعتِ؟ هل أنك قادمة من بعيد؟

أدارت كزافيير وجهها نحو اليزابيت.

ـ لا أعرف ما جرى لي. سرت على طول الجادة، بدت وكأنها لن تنتي. وجدت نفسي في جادة مظلمة تماماً. لا شكّ أنني اجتزت «الدوم» من غير أن أنتبه إليه.

شرعت اليزابيت بالضحك.

ـ يستلزم الأمر استعدادات حسنة.

رمقتها كزافيير بغضب.

ـ باختصار، ها أنت هنا، وهذا المهم، قالت فرنسواز. ما رأيك لو ذهبنا إلى الـ «بريري»؟ لم يعد كما في أيام شبابنا، لكننا لن نسأم هناك.

ـ كما تشائين، أجابت اليزابيت.

خرجن من المقهى. على جادة مونبارس كانت ريح قوية تعصف بأوراق الدلب. أخذت فرنسواز تدوسها لتسمع صريرها. تصاعدت منها رائحة جوز جافّ ونبيذ مطهي.

ـ مضت سنة على الأقل منذ قصدت الـ «بريري» للمرة الأخيرة.

لم يسمع أيّ جواب. كانت كزافيير تشدّ ياقة معطفها للإحتماء من البرد. اليزابيت ظلّت ممسكة منديلها بيدها، بدت وكأنها لا تشعر بالبرد ولا ترى شيئاً.

ـ المكان مزدحم في هذه الساعة المبكرة، قالت فرنسواز. كان

الحاضرون يشغلون كل مقاعد البار. اختارت طاولة على انفراد قليلاً.

ـ سأتناول كأس ويسكي، قالت اليزابيت.

ـ كأسا ويسكي، أضافت فرنسواز. وأنتِ؟

ـ مثلكما، أجابت كزافيير.

ـ ثلاثة كؤوس ويسكي، طلبت فرنسواز. رائحة الكحول والدخان تلك ذكرتها بشبابها. لطالما أحبّت أنغام الجاز، الأضواء الصفراء والازدحام في النوادي الليلية؟ كم أنه سهل أن تحيا مغمورة، في عالم يضمّ آثار ديلف، جبال البروفانس الجرداء وذلك الانحباس البشري! ابتسمت لكزافيير.

ـ أنظري إلى البار، الشقراء الخانسة الأُنف. تنزل في فندقي. تتسكع لساعات طويلة في الممرّات بقميص نوم زرقاء. أظن أنها تحاول إغواء الزنجي الذي يسكن فوق رأسي.

ـ ليست جميلة، قالت كزافيير. اتّسعت عيناها. ثمة امرأة سمراء إلى جانبها، إنها جميلة جداً. كم هي رائعة!

ـ إعلمي أنّ عشيقها الحبيب بطل مصارعة. يتنزّهان في الحي شابكين أيديهما.

ـ آه! قالت كزافيير بنبرة لوم.

ـ ليس الذنب ذنبي، اعتذرت فرنسواز.

نهضت كزافيير. كان شابان اقتربا مبتسمين متودّدين.

ـ لا، أنا لا أرقص، قالت فرنسواز.

تردّدت اليزابيت، ثم نهضت بدورها.

ـ إنها تكرهني في هذه اللحظة، خطر لفرنسواز. على الطاولة

المجاورة كانت شقراء مسنّة بعض الشيء وفتى شاب جداً يمسك كل منهما يد الآخر. الشاب يتكلم خافضاً صوته، متّقد الوجه. المرأة تبتسم بحذر من دون أن تظهر تجعيدة واحدة على وجهها الجميل الذاوي. كانت غانية الفندق الفتية تراقص بحّاراً، تلتصق به وعيناها نصف مغمضتين. السمراء الجميلة جالسة على مقعد، تأكل بسأم شرائح موز. ابتسمت فرنسواز بزهو: كلّ من هؤلاء الرجال، كلّ من هؤلاء النساء ماثل هنا، مستغرق في عيش هذه اللحظة من قصّته الفردية الصغرى، كزافيير ترقص، اليزابيت تنتابها ومضات حنق ويأس. أمّا أنا، فهنا في وسط المرقص، غير ملحوظة وحرّة. أتأمل في آن كل هذه الحيوانات وكل هذه الوجوه. إن انصرفت عنهم لتحلّلوا على الفور مثل مشهد مهمل.

عادت اليزابيت وجلست.

ـ تعلمين، بادرتها فرنسواز، آسف لأن الأمور لا يمكن أن تصطلح.

ـ آه! قالت اليزابيت، أفهم جيداً... انهار وجهها. لا يمكنها أن تيسطر على غضبها طويلاً، أو على الأقل، ليس في وجود أشخاص آخرين.

ـ أليست الأمور على ما يرام مع كلود في الآونة الأُخيرة؟ سألت فرنسواز هزّت اليزابيت رأسها. شوّهت وجهها تكشيرة وظنّت فرنسوا أنها ستبكي، غير أنها تمالكت.

ـ يمر كلود بأزمة صعبة. يقول إنه لا يسعه العمل طالما أن أحداً لم يأخذ مسرحيته، طالما أنه لم يشعر بالارتياح والطمأنينة وحين يكون في حال كهذا، فهو فظيع.

ـ لكنك في مطلق الأحوال، لست مسؤولة.

ـ لكنني أنا من يتحمّل دائماً العواقب. ارتجفت شفتاها من جديد. لأنني امرأة قوية. لا يخطر له أن المرأة القوية يمكن أن تتعذّب كأيّ امرأة أخرى، قالت وفي صوتها شفقة، وشغف.

أجهشت بالبكاء.

ـ مسكينة أنت، اليزابيت! قالت فرنسواز ممسكة يدها.

حين تبكي اليزابيت، يستعيد وجهها الدامع بعضاً من الطفولة.

ـ يا للحماقة، قالت. جففت عينيها. لا يمكن أن يستمرّ الوضع على هذه الحال، سوزان تحول بيننا على الدوام.

ـ ماذا تريدين، أتريدينه أن يطلّق؟

ـ لن يطلّق أبداً. عاودت اليزابيت البكاء بحنق. هل أنه يحبني؟ وأنا، لم أعد أعرف حتى إن كنت أحبه. نظرت إلى فرنسواز بعينين تائهتين. مضت سنتان وأنا أناضل من أجل هذا الحبّ، أنهك نفسي من أجله. ضحّيت بكل ما لدي، ولم أعد أدري حتى إن كنا نحب بعضنا.

ـ بالطبع تحبينه، قالت فرنسواز بخساسة. في هذه اللحظة، أنت ناقمة عليه، لذلك لا تشعرين بمطلق إحساس، لكن هذا لا يعني شيئاً. كان ينبغي أن تطمئن اليزابيت بأي ثمن. ما تكتشفه سيكون فظيعاً إن قررت يوماً لزوم الصدق حتى النهاية. لا شك أنها كانت تحس ذلك هي أيضاً، إذ أن ومضات الصحو لديها كانت تتوقف دائماً في الوقت المناسب.

ـ لم أعرف، أجابت اليزابيت.

ضغطت فرنسواز على يدها بقوة أكبر. كان تأثرها حقيقياً.

ـ كلود ضعيف الشخصية، هذا كل ما في الأمر. لكنه أثبت

ألف مرة تمسّكه بك. رفعت رأسها: كانت كزافيير واقفة قرب الطاولة، تتأمل المشهد وعلى شفتيها ابتسامة غريبة.

ـ إجلسي، قالت فرنسواز محرجة.

ـ لا، سأعود للرقص، قالت كزافيير. استشفّت فرنسواز من ملامحها الإزدراء ومايشبه الخبث. تلك النوايا السيئة أحدثت في نفس فرنسواز صدمة بغيضة.

كانت اليزابيت انتصبت وعادت تطلي وجهها بالبودرة.

يجدر أن أتحلّى بالصبر، قالت. إزداد صوتها عزماً. إنها مسألة ضغط ونفوذ. كنت دائماً صريحة للغاية مع كلود وليست لي أي سلطة عليه.

ـ هل قلت له يوماً بكلام واضح إنه لم يعد بوسعك احتمال الوضع؟

ـ لا، أجابت اليزابيت. ينبغي الانتظار. استعادت ملامحها المتيقظة القاسية.

هل كانت تحبّ كلود؟ لم ترتمِ بين ذراعيه إلاّ لتحظى هي أيضاً بحبّ كبير. ذلك الإعجاب الذيِ تكنّه له، لم يكن سوى وسيلة جديدة تحتمي بها من بيار. غير أنه كان يتسبّب لها بعذاب يقف أمامه كلّ من فرنسواز وبيار عاجزين.

ـ يا لها من ورطة مؤسفة، فكّرت فرنسواز وفي قلبها غصّة.

كانت اليزابيت غادرت الطاولة، ترقص متورّمة العينين، مشدودة الشفتين. تملّك فرنسواز شعور يشبه الحسد. قد تكون مشاعر فرنسواز زائفة وزائفة موهبتها وكذلك حياتها برمّتها، غير أن ألمها الحاضر عنيف وحقيقي. نظرت فرنسواز إلى كزافيير.

كانت كزافيير ترقص، ملقية رأسها إلى الخلف قليلاً، وعلى وجهها ملامح الانتشاء. ولم تكن لديها حياة بعد. كلّ الاحتمالات متاحة لها، وتلك السهرة الساحرة إنما تعد بألف افتتان وافتتان لم تعرفها حتى اليوم. بالنسبة لتلك الفتاة، بالنسبة لتلك المرأة المغتمّة القلب، كان لتلك اللحظة طعم لاذع لا يمكن نسيانه. وأنا؟ فكرّت فرنسواز. مجرّد متفرّجة؟ لكن هذا الجاز، طعم الويسكي هذا، هذا الضوء البرتقالي... لم تكن كلها مشهداً فحسب. كان ينبغي أن تنسج منها شيئاً ما. لكن ماذا؟ كانت الموسيقى تدخل نفس اليزابيت الشرسة المتوترة فتتحول ببطء إلى أملٍ. أما كزافيير، فتشحنها بانتظار شغف. وحدها فرنسواز لم تكن تعثر في نفسها على ما ينسجم مع أنغام الساكسافون المؤثرة. بحثت عن رغبة، من أسف. غير أنها لم تعثر سوى على سعادة قاحلة شديدة الانقشاع تمتد لتملأ المساحة خلفها وأمامها. اسم بيار لا يمكن أن يبعث في نفسها يوماً الألم. جيربير، لم تعد تكترث له. لم تعد تعرف المجازفة، ولا الأمل، ولا الخوف. فقط تلك السعادة الخارجة حتى عن سيطرتها. لا مكان لأي سوء تفاهم مع بيار، لن يقوم أي منهما يوماً بعمل لا يمكن إصلاحه. إن حاولت في أحد الأيام أن تعذّب نفسها، فسوف يتفهمها بيار جيداً، حتى أنها ستجد نفسها أسيرة السعادة من جديد. أشعلت سيجارة. لا، لم يكن هناك في نفسها سوى تلك الحسرة الغامضة لعدم وجود ما يمكنها التحسر عليه. شعرت بغصّة في حلقها وأخذ قلبها يختلج، لكن لم يسعها التصديق أنها ملّت حقاً السعادة. ذلك الانزعاج لم يكشف لها أي أمر مؤثر. لم يكن أكثر من حادث بين حوادث أخرى، تبدّل طفيف وشبه مرتقب سيزول في سلام. لم يعد يخدعها أبداً عنف اللحظات، تعرف جيداً أن أياً منها لاقيمة حاسمة له. «أسيرة

السعادة»، تمتمت. غير أنها شعرت بابتسامة ما في داخلها.

نظرت فرنسواز مثبطة الهمّة إلى الكؤوس الفارغة، إلى المنفضة المليئة بأعقاب السجائر. كانت الساعة الرابعة صباحاً. اليزابيت غادرت منذ وقت طويل، غير أن كزافيير لم تسأم من الرقص. لم تكن فرنسواز ترقص، فأسرفت في الشرب والتدخين لتمضية الوقت. والآن تشعر بصداع وبتيبّس النعاس في كل جسمها.

ـ أظن أن الوقت حان للرحيل، قالت.

ـ الآن؟ تعجّبت كزافيير. نظرت إلى فرنسواز بأسف. هل أنت متعبة؟

ـ قليلاً. تردّدت. يمكنك البقاء وحدك. سبق أن ذهبت بمفردك إلى مرقص.

ـ لكنني لا أريد إرغامك على العودة.

رفعت كزافيير كتفيها وكأن الأمر محتومٌ.

ـ آه! لا بأس بالعودة، قالت.

ـ لا، سيكون الأمر مؤسفاً. فلنبقَ قليلاً بعد. انفرجت أسارير كزافيير.

ـ هذا المكان ممتع للغاية، أليس كذلك؟

ابتسمت لشاب انحنى أمامها وتبعته إلى وسط حلبة الرقص.

أشعلت فرنسواز سيجارة جديدة. في نهاية الأمر، ليس هناك ما يرغمها على استئناف عملها منذ الغد. من العبث بعض الشيء أن تمضي ساعات هنا من دون أن ترقص أو تحادث أحداً. لكن إن اقتنع الواحد بالوضع هذا، اكتشف فتنة ما في ذلك الركود. لم يحصل لها منذ سنوات أن تبقى هكذا، تائهة في ضباب الكحول

والتبغ، تلاحق أحلاماً ضئيلة وأفكاراً ضئيلة لا تفضي إلى أي مكان.

عادت كزافيير وجلست قرب فرنسواز.

ـ لمَ لا ترقصين؟ سألت.

ـ لا أجيد الرقص، أجابت فرنسواز.

ـ إذاً تشعرين بالملل؟ قالت كزافيير وهي تنوح.

ـ لا، أبداً. أحبّ أن أشاهد الآخرين يرقصون. على العكس، يسرّني أن أسمع الموسيقى وأرى أناساً.

ابتسمت. كانت مدينة لكزافيير بهذه اللحظات وهذه الليلة. فلِمَ تقاوم إذاً ضمّ تلك الثروة النضرة المتاحة لها إلى حياتها، رفيقة صغيرة جديدة بمطالبها، بابتساماتها الحذرة وردات فعلها غير المتوقعة؟

ـ أفهم الأمر جيداً، لا بدّ أنك لا تجدين التسلية في كل هذا، قالت كزافيير. كان وجهها اكتأب. بدت متعبة قليلاً هي أيضاً.

ـ لكنني أؤكد لك أنني مسرورة، أكدت فرنسواز. لامست معصم كزافير. تسرّني رفقتك.

ابتسمت كزافيير ابتسامة غير مقنعة. رمقتها فرنسواز متورّدة. لم تعد تفهم بوضوح المقاومة التي واجهت بها بيار. ما كان يستهويها تحديداً. كان طعم المغامرة والغموض الطفيف هذا.

ـ تعرفين ما خطر لي الليلة؟ قالت فجأة. إنك لن تتمكني من تحقيق أي شيء طالما أنك في روان. أمامك حلّ واحد، هو أن تأتي للعيش في باريس.

ـ أعيش في باريس؟ قالت كزافيير مندهشة. لكم أودّ ذلك

للأسف!

ـ ما أقوله ليس مجرّد كلام، قالت فرنسواز. تردّدت، خافت أن تعتبرها كزافيير متطفّلة. إليك ما يمكن أن تفعلي: تقيمين في باريس، في فندقي إن شئت. أقرضك المال الضروري وتتعلمين مهنة: الكتابة المختزلة، أو أفضل من هذا، لدي صديقة تدير معهد تجميل، يمكن أن توظفك ما إنْ تحصلي على شهادة.

تكدّر وجه كزافيير.

ـ لن يوافق عمّي أبداً، قالت.

ـ يمكنك الاستغناء عن موافقته. لا يخيفك، أليس كذلك؟

ـ لا، أجابت كزافيير. تفحّصت بعناية أظافرها. كان وجهها شاحباً وخصلاتها الشقراء الطويلة تشعّثت بعد أن قضى الرقص على تسريحتها، فبدت بحال يرثى لها، مثل قنديل بحر جاثم على الرمل الجافّ.

ـ اذاً؟ سألت فرنسواز.

ـ عذراً، قالت كزافيير. نهضت للإنضمام الى أحد مراقصيها الذي أومأ لها، وعادت الحياة الى وجهها. تبعتها فرنسواز بنظرها، مذهولة. كزافيير تظهر مزاجية غريبة. بدا محيّراً بعض الشيء أنها لم تعر لحظة في وقتها للتفكير في إقتراح فرنسواز، رغم أن العرض كان منطقياً للغاية. إنتظرت ببعض من العصبية أن تعود كزافيير الى مقعدها.

ـ إذاً، قالت، ما رأيك بمشروعي؟

ـ أي مشروع؟ قالت كزافيير، وعلى وجهها دهشة صادقة.

ـ أن تأتي إلى باريس، أجابت فرنسواز. يبدو أنك تظنينها فكرة

وهميّة. هزّت كزافيير كتفيها.

ـ لكن لا يمكن أن يحصل هذا، قالت.

ـ يكفي أن تريديه. ما الذي يزعجك؟

ـ مستحيل أن يتحقق هذا، ردّدت كزافيير باستياء. نظرت من حولها. بات الجوّ كئيباً، ألا تظنين؟ يبدو الجميع منهكين. لا يبرحون مكانهم لأنهم لايقوون حتى على جرّ أنفسهم إلى مكان آخر.

ـ فلنذهب إذاً، قالت فرنسواز. عبرت الصالة ودفعت الباب كان فجراً رمادياً ضئيلاً يبزغ. يمكننا السير قليلاً، اقترحت.

ـ أجل، يمكننا ذلك، قالت كزافيير. شدّت معطفها حول عنقها وأخذت تسير بخطى حثيثة. لماذا ترفض التفكير بجديّة في عرض فرنسواز؟ اغتاظت من الإحساس بذلك الذهن الصغير المعادي والمتعنّت إلى جانبها.

ـ عليّ أن أقنعها، فكّرت فرنسواز. النقاش مع بيار، تأملات الليل الساهمة، بداية هذا الحديث، كلها لم تكن حتى ذلك الوقت سوى من باب اللهو. فجأة أصبحت الأمور حقيقية: مقاومة كزافيير حقيقة، وأرادت فرنسواز قهرها. فالأمر مخزٍ: يخيّل لها أنها تسيطر بقوة على كزافيير، تمتلكها حتى في ماضيها وفي ثنايا مستقبلها غير المتوقّعة حتى الآن! ورغم ذلك، تصطدم بتلك الإرادة المتشبثة فتتحطّم إرادتها عندها.

كانت كزافيير تسرع أكثر فأكثر، مقطبة بألم. لم يكن من الممكن التحدّث إليها. تبعتها فرنسواز لوقت ثم ضاق ذرعها.

ـ ألا يزعجك أن تتمشّي؟ سألتها.

ـ لا، إطلاقاً، قالت كزافيير. شوّهت وجهها تكشيرة مأسوية. أكره البرد.

ـ كان عليك أن تقولي هذا، قالت فرنسواز. سندخل أول مقهى مفتوح نصادفه.

ـ لا، لنتنزّه إن كنت ترغبين في ذلك، قالت كزافيير بتفانٍ وشجاعة.

ـ لم أعد أرغب في السير كثيراً. ثم أرغب في تناول قهوة ساخنة.

تباطأتا قليلاً في سيرهما. قرب محطة مونبارناس، عند زاوية شارع أوديسا، كان أناس متجمعين أمام كونتوار أحد المقاهي. دخلت فرنسواز وجلست في زاوية، في قعر الصالة.

ـ قهوتان، طلبت.

أمام إحدى الطاولات كانت امرأة ناعمة، جسدها مثني. على الأرض حقائب وحزم. على طاولة أخرى كان ثلاثة فلاحين بريتونيين يعبّون كؤوس كلفادوس.

نظرت فرنسواز إلى كزافيير.

ـ لا أفهم، قالت.

رمقتها كزافيير بنظرة قلقة.

هل أنك مستاءة مني؟

بل خاب أملي، قالت فرنسواز. ظننتك ستجدين الشجاعة لقبول ما عرضت عليك.

تردّدت كزافيير. نظرت من حولها وكأنها تتعذّب.

ـ لا أرغب في تدليك الوجوه، قالت متذمّرة.

شرعت فرنسواز تضحك.

ـ لست مضطرّة لذلك. يمكنني كذلك أن أدبّر لك عملاً كعارضة أزياء مثلاً. أو يمكنك ببساطة تعلّم الكتابة المختزلة.

ـ لا أرغب في الضرب على الآلة الكاتبة أو عرض الأزياء، قالت كزافيير بعنف.

اضطربت فرنسواز.

ـ أتصوّر أن هذه ستكون مجرّد بداية. بعد أن تمتلكي مهنة سيكون في وسعك التريّث. ما الذي يثير اهتمامك في نهاية الأمر؟ الدراسة، الرسم، المسرح؟

ـ لا أعلم. لا شيء تحديداً. هل أننا بحاجة ماسّة للقيام بأمر ما؟ سألت ببعض العجرفة.

ـ بضع ساعات من العمل المملّ لا تبدو لي ثمناً باهظاً لاستقلالك، أجابت فرنسواز. علت تكشيرة اشمئزاز وجه كزافيير.

ـ أكره هذه المساومات: إن كنا عاجزين عن الحصول على الحياة التي نريد، فليس علينا سوى ألاّ نحيا.

ـ الواقع أنّك لن تقدمي يوماً على قتل نفسك ، قالت فرنسواز بنبرة فيها بعض الجفاف. فالأفضل ان تحاولي الحصول على حياة لائقة.

شربت جرعة قهوة. كانت حقاً قهوة فجر، حرّيفة وحلوة كالقهوة التي نشربها على أرصفة المحطّات بعد سفر ليلي، أو في نزل ريفي في انتظار الباص الأول. طعمها العفن ليّن قلب فرنسواز.

ـ كيف يجدر بالحياة أن تكون، في نظرك؟ سألت برفق.

ـ مثلما كانت وأنا طفلة.

ـ أن تصيبك الأمور من غير أن تسعي إليها. حين كان والدي مثلاً يأخذك على ظهر حصانه الكبير؟

ـ كانت هناك لحظات أخرى كثيرة، قالت كزافيير. عندما كان يصطحبني للصيد في السادسة صباحاً فأجد على العشب خيوط عنكبوت نديّة. كان كل ما هنالك يطبع في نفسي أثراً عميقاً.

ـ لكنك ستستعيدين لحظات سعادة مماثلة في باريس، أجابت فرنسواز. فكري في الأمر، الموسيقى، المسرح، المراقص.

ـ وسيتوجّب عليّ أن أحذو حذو صديقتك: أن أعدّ الكؤوس وانظر إلى ساعتي بلا توقف لأنّ عليّ الذهاب إلى العمل في صباح اليوم التالي.

شعرت فرنسواز بوخز كلامها. كانت هي أيضاً نظرت إلى ساعتها. «تبدو وكأنها ناقمة عليّ، لكن لماذا؟» فكرت. كزافيير تلك المتجهمة وغير المتوقّعة كانت تثير اهتمامها.

ـ في النهاية، أنت تقبلين بحياة بائسة أكثر من حياتها، قالت وأقلّ حرية بكثير. الحقيقة، أن الأمر سهل، أنت تخافين. قد لا تكونين خائفة من عائلتك، لكنك تخشين تبديل عاداتك الصغيرة، تخشين الحرية. خفضت كزافيير رأسها من دون أن تردّ.

ما الأمر؟ سألت فرنسواز برفق. تبدين غير مرتاحة لي إطلاقاً.

ـ بلى، قالت كزافيير بلا حماس.

ـ ما الأمر؟ كرّرت فرنسواز.

ـ أفقد صوابي حين أفكّر في حياتي.

ـ لكن هذا ليس كلّ ما هنالك. كنت غريبة الأطوار طوال الليل. ابتسمت. هل أزعجك وجود اليزابيت معنا؟ لم تعجبك

كثيراً، هذا ما في الأمر؟

ـ لا، لا أبداً، ردّت كزافيير. وأضافت بتكلّف: لا شك أنها شخص مهمّ جداً.

ـ هل صدمك منظرها وهي تبكي أمام الجميع؟ سألت فرنسواز. أقري بأنني صدمتك أنا أيضاً. هل وجدتني رطبة خسيسة؟

جحظت عينا كزافيير قليلاً. كانتا عيني طفل، ساذجتين وزرقاوين.

ـ بعث فيّ الأمر شعوراً بالغرابة، قالت ببراءة.

ظلّت كزافيير محترسة، وكان غير مجدٍ أن تواصل فرنسواز الحديث. كبتت تثاؤبة صغيرة. سأعود إلى غرفتي، قالت. هل ستذهبين عند إينيس؟

ـ نعم، سأحاول أن أجمع أغراضي وأرحل من دون أن أوقظها، قالت كزافيير. وإلاّ تشبثت بي.

ـ ظننتك تحبّين إينيس.

ـ أجل، أحبها. لكنها من الصنف الذي لا يمكننا أن نشرب أمامه كوباً من الحليب من دون أن نشعر بثقل ضميرنا. هل أن خشونة صوتها كانت تستهدف إينيس أو فرانسواز؟ على كل حال، كان من الأفضل عدم الإصرار على الموضوع.

ـ حسناً، لنرحل، قالت فرنسواز. وضعت يدها على كتف كزافيير. آسف أنك لم تمض سهرة مسليّة.

تبدّل وجه كزافيير فجأة واختفت كلّ قسوتها. نظرت الى فرنسواز يائسة.

ـ لكنني أمضيت سهرة جيدة، قالت. خفضت رأسها وتمتمت

بسرعة. لا شكّ أنه لم يكن ممتعاً لك أنت أن تصطحبيني مثل كلب وديع صغير.

ابتسمت فرنسواز. «هذا هو السبب إذاً! فكّرت أنني أصطحبها بدافع الشفقة.» نظرت متعاطفة إلى تلك الفتاة النزقة.

ـ على العكس، كنت سعيدة جداً لوجودك معي، وإلاّ لما كنت عرضت عليك الخروج معي، قالت فرنسواز. لماذا خطرت لك هذه الفكرة؟

نظرت إليها كزافيير بودّ وثقة.

ـ حياتك حافلة، قالت. كلّ هؤلاء الأصدقاء، كلّ هذه الانشغالات. شعرت بنفسي مثل ذرّة.

ـ هذه حماقة، قالت فرنسواز. من المدهش أن تكون كزافيير غارت من فرنسواز. هكذا إذاً، حين كلمتك عن الانتقال إلى باريس، ظننتِ أن الأمر من باب الصدقة؟

ـ قليلاً، قالت كزافيير خانعة.

ـ وكرهتني من أجل ذلك.

ـ لم أكرهك، بل كرهت نفسي.

ـ الأمر سيّان، قالت فرنسواز. غادرت يدها كتف كزافيير وانزلقت فوق ذراعها. لكنني متمسّكة بك. وسوف يفرحني كثيراً وجودك إلى جانبي.

أدارت كزافيير نحوها عينين مشرقتين لا يسعهما تصديق ما يجري.

ـ ألم نكن مسرورتين معاً بعد الظهر؟ سألت فرنسواز.

ـ بلى، قالت كزافيير مرتبكة.

ـ يمكننا أن نعيش لحظات عديدة مماثلة! ألا ترغبين في ذلك؟

ضغطت كزافيير بقوّة على يد فرنسواز.

ـ آه! كم أودّ ذلك، أجابت باندفاع.

ـ إن كان هذا ما تريدين، فاعتبري أنه حصل. سأجعل إينيس تبعث لك رسالة تقول فيها إنها وجدت لك وظيفة. ويوم تتخذين قرارك، لن يكون عليك سوى أن ترسلي لي كلمة. أصل وتصلين أنت. داعبت اليد الدافئة الراقدة بثقة في يدها. سترين، ستكون لك هنا حياة صغيرة جميلة، مذهّبة.

ـ آه! أودّ المجيء، قالت كزافيير. استرخت متثاقلة على كتف فرنسواز ومكثتا بلا حراك لوقت طويل، متكئتين الواحدة على الأخرى. كان شعر كزافيير يلامس وجنة فرنسواز وأصابعها مشبوكة.

ـ يحزنني أن أغادرك، قالت فرنسواز.

ـ أنا أيضاً، قالت كزافيير خافضة صوتها.

ـ صغيرتي كزافيير، همست فرنسواز. كانت كزافيير تنظر إليها بعينين ملتمعتين، وشفتاها مشقوقتان. كانت ذائبة، متراخية، مستسلمة لها تماماً. فرنسواز هي التي ستقودها عبر الحياة بعد الآن.

ـ سوف أسعدها، قررت بتصميم.

الفصل (٣)

كان شعاع من النور يتسرّب من تحت باب كزافيير. سمعت فرنسواز طقطقة طفيفة، حفيف قماش. دقّت على الباب. خيّم صمت عميق.

ـ من هنا؟ سألت كزافيير.

ـ أنا، أجابت فرنسواز. سننطلق بعد قليل.

منذ أن وصلت كزافيير إلى فندق بايار، تعلّمت فرنسواز ألاّ تدقّ أبداً على باب غرفتها بصورة مفاجئة، ألاّ تقدّم ساعة موعد. ورغم ذلك كان وصولها مازال يثير بلبلة غامضة.

ـ هلا انتظرتني لحظة؟ سأصعد إلى غرفتك على الفور.

ـ حسناً، سأكون في انتظارك، أجابت فرنسواز.

صعدت السلالم. كانت كزافيير تحبّ الرسميات. لا تفتح بابها لفرنسواز إلاّ بعد أن تستعد بشكل احتفالي لاستقبالها. لكن الأمر بدا لها مقيتاً لو فوجئت في حميميتها اليومية.

المهمّ أن تجري الأمور على ما يرام الليلة، فكرت فرانسواز، لن

نكون أبداً مهيأتين بعد ثلاثة أيام. جلست على الكنبة وأمسكت إحدى المخطوطات المكدّسة على الطاولة الصغيرة. كان بيار كلّفها قراءة المسرحيات التي يتلقاها. كانت تجد هذا العمل مسلياً عادة. «مارسياس أو التحوّل الغامض». تأملت فرنسواز العنوان مثبطة العزيمة. كانت ما بعد الظهيرة مضت رديئة جداً، والكلّ منهك. بيار بات شديد العصبية، وهو لم ينم منذ ثماني ليالٍ. إن لم تعرض المسرحية لمئة ليلة على الأقل بصالة مليئة، فسوف يعجزون عن تغطية النفقات.

ألقت المخطوطة ونهضت. كان لديها متّسع من الوقت لتتبرّج، غير أنها كانت شديدة الاضطراب. أشعلت سيجارة وابتسمت. الحقيقة أن حمّى اللحظات الأخيرة هذه كانت الأحبّ إليها. هي على يقين بأن كل شيء سيكون جاهزاً في الوقت المحدّد. في وسع بيار إنجاز المعجزات في غضون ثلاثة أيام. سوف يتمكنون في نهاية الأمر من ضبط تلك الإضاءة بالزئبق. لو أنّ تيديسكو يقرّر فقط الاندماج في الحركة العامة...

ـ هل يمكنني الدخول؟ سأل صوت بخجل.

ـ أدخلي، قالت فرنسواز.

كانت كزافيير ترتدي معطفاً غليظاً وقبعتها الصغيرة القبيحة. ارتسمت ابتسامة مرتبكة على وجهها الصبياني.

ـ هل جعلتك تنتظرين؟

ـ لا، هذا جيد، لم نتأخر، قالت فرنسواز على عجلة. كان ينبغي أن تتفادى جعل كزافيير تشعر أنها أخطأت، وإلاّ أصبحت ناقمة مقطّبة. لست مستعدة تماماً بنفسي.

وضعت قليلاً من البودرة على وجهها من حيث المبدأ

واستدارت بسرعة من أمام المرآة. لم يكن وجهها الليلة مهماً، لم يكن موجوداً في نظرها، وكانت تأمل بطريقة ما ألاّ يراه أحد. تناولت مفتاحها، قفازيها، وأغلقت الباب.

ـ هل ذهبت إلى الحفل الموسيقي؟ قالت، هل كان جميلاً؟

ـ لا، لم أخرج، أجابت كزافيير. كان البرد شديداً ولم أعد أرغب في الخروج. أمسكت فرنسواز ذراعها.

ـ ماذا فعلت طوال النهار؟ أخبريني.

ـ ليس هناك ما يستحق أن أخبرك إياه، قالت كزافيير متوسّلة.

ـ هذا ما تقولينه على الدوم. مع أنني أوضحت لك أنه يسرّني أن أتصور حياتك الصغيرة في تفاصيلها. تفحّصتها مبتسمة. غسلت شعرك.

ـ أجل، قالت كزافيير.

ـ تسريحتك رائعة. سأجعلك تسرحين شعري في أحد الأيام. وبعدها؟ قرأت كتاباً؟ نمت؟ ماذا تناولت عند الفطور؟

ـ لم أفعل شيئاً على الإطلاق، أجابت كزافيير.

لم تبد فرنسواز المزيد من الإصرار. ثمة نوع من الحميمية المستحيلة مع كزافيير. كان يبدو لها من غير اللائق التحدّث عن انشغالاتها اليومية الصغيرة، تماماً مثلما تأبى التحدث عن وظائف جسدها العضوية. وبما أنها نادراً ما كانت تغادر غرفتها، كان من النادر أن تجد ما تخبره. قلّة فضولها خيّبت ظنّ فرنسواز عبثاً.

كانوا يقترحون عليها برامج مغرية للذهاب إلى السينما أو حضور حفلات موسيقية أو التنزّه، كانت تصرّ على البقاء في غرفتها. كان اندفاع وهمي ضئيل هو الذي حرّك فرنسواز ذلك

الصباح في أحد مقاهي مونبارس حين ظنّت أنها عثرت على كنز نفيس. فوجود كزافيير لم يجلب لها أي جديد.

ـ أمّا أنا، فكان نهاري حافلاً، قالت فرنسواز فرحة. في الصباح تشاجرت مع صانع الشعر المستعار الذي لم يسلّم حتى نصف الطلبية، ثم جبت متاجر الأكسسوار. من الصعب العثور على ما تريدين، إنها عملية بحث عن كنز. لكن لو تعلمين كم أنه ممتع التنقيب بين أغراض المسرح الغريبة هذه. ينبغي أن أصطحبك يوماً.

ـ أودّ ذلك، قالت كزافيير.

ـ بعد الظهر أقيم تمرين طويل وأمضيت قسطاً من الوقت أصلح الملابس. أخذت تضحك: كان هناك ممثل سمين وضع ردفين زائفين عوضاً عن بطن زائف. لو أنك رأيت قامته!

ضغطت كزافيير بنعومة على يد فرانسواز.

ـ لا تجهدي نفسك كثيراً! قد تمرضين!

نظرت فرنسواز بحنان مفاجىء إلى الوجه القلق. ثمة لحظات يتوارى فيها تحفّظ كزافيير فلا تعود سوى طفلة محبّة وعزلاء تودّ فرنسواز لو تكسو بالقبلات وجنتيها المشعتين بياضاً.

ـ لن يطول الأمر الآن، قالت فرنسواز. تعلمين، لن تمضي حياتي على هذا النحو للأبد، لكن حين لا يتعدّى الأمر بضعة أيّام ويأمل الواحد في النجاح، يكون من دواعي سروره أن يبذل أقصى ما بوسعه.

ـ كم أنت نشيطة، قالت كزافيير.

ابتسمت لها فرنسواز.

ـ أظن أن العرض التجريبي سيكون مهمّاً الليلة. ففي اللحظة

الأخيرة على الدوم تخطر للابروس أفضل الأفكار.

لم تردّ كزافيير. كانت تبدو دائماً متضايقة حين تأتي فرنسواز على ذكر لا بروس، مع أنها تظهر حياله إعجاباً عظيماً.

ـ ألا يزعجك في الواقع الذهاب إلى هذا التمرين؟ سألت فرنسواز.

ـ بل أجد الأمر مسلياً للغاية، قالت كزافيير. تردّدت. بالطبع كنت أفضل التقاءك في ظروف أخرى.

ـ أنا أيضاً، قالت فرنسواز بفتور. كانت تكره ذلك اللوم المبطّن الذي تلمح إليه كزافيير أحياناً. لا شك أنها لم تكن تخصّص لها وقتاً وافياً، لكنه لم يكن يسعها في مطلق الأحوال أن تضحّي من أجلها بالساعات القليلة التي تكرّسها لعملها الشخصي.

وصلتا أمام المسرح. نظرت فرنسواز نظرة حنان إلى المبنى القديم الذي تزيّن واجهته زخارف من القرن الثامن عشر. كان يبعث إحساساً مؤثراً بالحميميّة والخفر. بعد أيّام قليلة يرتدي حلّته الاحتفالية، يشعّ بكلّ أضوائه. لكنه هذا المساء غارقٌ في العتمة. توجهت فرنسواز نحو مدخل الفنّانين.

ـ كم تبدو غريبة فكرة قدومك كل يوم إلى هنا كمن يذهب إلى مكتبه، قالت كزافيير. لطالما أثار فيّ جوف المسرح شعوراً بالغموض.

ـ أذكر وقت لم أكن أعرف لابروس بعد، روت فرنسواز، كيف أن اليزابيت كانت تتخذ بكثير من الرسميات مظهر المطلّعة على الأسرار وهي تقودني بين الكواليس. كنت أنا أيضاً أشعر بنفسي مهمة. ابتسمت. الآن تبدّد الغموض، غير أن هذا الفناء المكتظ بالديكورات القديمة، وإن أصبح مشهداً يومياً، لم يخسر من

شاعريته. كان سلّم خشبي صغير أخضر. كمقعد حديقة يصعد إلى جناح الفنانين. توقفت فرنسواز لبرهة منصتة للضوضاء المتصاعدة من خشبة المسرح. أخذ قلبها يدق جذلاً ككل مرة تذهب لالتقاء بيار.

ـ لا تحدثي صوتاً، سنعبر الخشبة، قالت. أمسكت كزافيير بيدها وانسلتا بخطى صامتة خلف الديكورات. في الحديقة المزروعة بالجنبات الخضراء والأرجوانية كان تيديسكو يزرع المساحة ذهاباً وإياباً وكأن أمراً ما يعذّبه. كان يتكلّم هذه الليلة بصوت مكتوم غريب.

ـ إجلسي، سأعود حالاً، قالت فرنسواز. كانت الصالة تعجّ بالناس. وكالعادة، كان الممثلون والممثلون الثانويون متجمهرين في المقاعد الخلفية في حين يجلس بيار وحده في مقدّم الصفوف الأمامية. ضغطت فرنسواز على يد اليزابيت الجالسة قرب ممثل فتيّ كانت تلازمه منذ بضعة أيام.

ـ سأعود إليك بعد لحظة، قالت. ابتسمت لبيار بدون أن تتفوّه بكلمة. كان منقبضاً على نفسه، رأسه مطمور في وشاح أحمر غليظ. بدا مستاءً للغاية.

ـ تلك الجنيبات فاشلة، فكّرت فرنسواز. ينبغي تبديلها. نظرت إلى بيار بقلق، فأومأ إليها عاجزاً مرهقاً. لم يكن تيديسكو يوماً رديئاً بهذا القدر. أيعقل أن يكونوا أخطأوا بشأنه إلى هذا الحد؟

إنهار صوت تيديسكو تماماً، مرّر يده على جبينه.

ـ أعذروني، لست أدري ما الذي حلّ بي، قال. أظن أنه من الأفضل أن أستريح لبرهة. سأكون بالتأكيد أفضل حالاً بعد ربع ساعة.

خيّم صمت تام.

ـ حسناً، قال بيار. في هذه الأثناء سنضبط الإضاءة. ثم ليحضر أحد ما فيلمان وجيربير. أريد ترميم هذا الديكور. خفض صوته. كيف حالك؟ تبدين متعبة.

ـ أنا بخير، قالت فرنسواز. لا تبدو أنت نفسك أفضل حالاً. توقف عند منتصف الليل هذا المساء. جميعنا منهك ولن نتمكن من الاستمرار حتى يوم الجمعة.

ـ أعرف هذا جيداً، أجاب بيار. أدار رأسه. هل اصطحبت كزافيير؟

ـ نعم، عليّ أن أهتمّ بها قليلاً. تردّدت فرنسواز. أتعرف ما خطر لي؟ يمكننا الذهاب لتناول كأس معاً لدى خروجنا من المسرح. هل يزعجك ذلك؟

أخذ بيار يضحك.

ـ لم أخبرك: في الصباح، حين كنت أصعد الأدراج، شاهدتها تنزل. فرّت بسرعة كالأرنب وهربت لتختبىء في الحمّامات.

ـ أعرف، قالت فرنسواز. إنك ترعبها. لذلك أطلب منك أن تقابلها ولو لمرة. إن كنت لطيفاً لبقاً معها، فسوف تصطلح الأمور.

ـ لا أمانع. أجدها طريفة. آه! ها أنت! أين جيربير؟

ـ بحثت عنه في كل مكان، قال فيلمان الذي وصل لاهثاً. لست أدري أين اختفى.

ـ غادرته في السابعة والنصف في مخزن الملابس، قال لي إنه سيحاول أن ينام، قال فرنسواز. رفعت صوتها: رجيس، هل يمكنك الذهاب إلى المشاغل، ربما عثرت على جيربير هناك؟

ـ ذلك الحاجز الذي ألصقته هنا فظيع، قال بيار. قلت لك ألف مرة أنني لا أرغب في ديكور مرسوم. أعد صنعه وهذه المرة أريدك أن تنتبه.

ثم إن اللون ليس مناسباً، أضافت فرنسواز. هذه الأدغال يمكن أن تكون جميلة، لكنها كما هي الآن تبدو حمراء قذرة.

ـ من السهل إصلاح هذا، قال فيلمان.

عبر جيربير الخشبة ركضاً وقفز إلى الصالة. كان يرتدي جيليه جلدياً مشرّعاً على قميص ذي مربعات وكان الغبار يكسوه.

ـ عذراً، قال جيربير، كنت مستغرقاً في النوم. سوّى بيده شعره المشعّث. كان ممتقع الوجه وامتدّت ظلال سوداء تحت عينيه. بينما كان بيار يكلّمه، تفحّصت فرنسواز متأثرة وجهه الذاوي. كان أشبه بقرد مسكين مريض.

ـ أنت تطلب منه الكثير، قالت فرنسواز بعد أن ابتعد فيلمان وجيربير.

ـ إنه الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه، أجاب بيار. سيقترف فيلمان المزيد من الحماقات إن لم نراقبه.

ـ أعلم هذا، لكنه لا يتمتع بصحة جيدة مثلنا، أوضحت فرنسواز. نهضت. أراك لاحقاً.

ـ سنواصل مع الإضاءة، قال بيار بصوت عالٍ. شغّلوا الإنارة الليليّة. أريدكم أن تضيئوا الأزرق الخلفي وحده.

ذهبت فرنسواز وجلست قرب كزافيير.

ـ مع أنني لم أبلغ سنّا متقدمة بعد، فكّرت. كانت تساورها بالتأكيد مشاعر أمومة حيال جيربير. أمومة يشوبها بعض من الحرام.

ودت لو يرقد على كتفها ذلك الرأس المتعب.

ـ هل تجدين ذلك مثيراً للاهتمام؟ قالت لكزافيير.

ـ لست أفهم جيداً ما يجري.

ـ الوقت ليل، نزل بروتوس إلى حديقته للتأمل. تلقّى رسائل تدعوه للوقوف في وجه قيصر. يكره الطغيان، غير أنه يحبّ قيصر. إنه محتار في أمره.

ـ إذاً هذا هو الشاب بالسترة البنية هو بروتوس؟ سألت كزافيير.

ـ عندما يرتدي ثوبه الأبيض الرائع ويضع على وجهه الماكياج، يشبه بروتوس أكثر.

ـ لم أكن أتصوّره هكذا، قالت كزافيير بحزن.

التمعت عيناها.

ـ آه! كم أن هذه الإثارة ساحرة!

ـ تعتقدين؟ هذا يسرّني، ردت فرنسواز. عملنا بكدّ كالكلاب من أجل أن نتوصل إلى إعطاء هذا الانطباع ببزوغ الفجر.

ـ الفجر؟ تعجّبت كزافيير. كم أنه جادّ. هذه الإضاءة تبدو لي وكأنها... تردّدت ثم أضافت دفعة واحدة: نور بداية العالم، حين لم تكن الشمس، القمر، والنجوم موجودة بعد.

ـ مرحبا، آنستي، قال صوت أجشّ. كانت كانزيتي تبتسم متأنقة بخجل. كان قرطان ضخمان أسودان يحيطان بوجهها الفاتن الأشبه بوجه غجرية، وقد طلت فمها وأعلى وجنتيها بألوان صارخة.

ـ كيف ترين تسريحتي الآن، جيدة؟

ـ أرى أنها تلائمك بشكل رائع، قالت فرنسواز.

ـ عملت بنصيحتك، قالت كاتزيني متودّدة.

سمعت صفارة وعلا صوت بيار.

نعيد المشهد منذ البداية، مع الإضاءة، ونتابع. الجميع هنا؟

ـ الجميع هنا، قال جيربير.

ـ إلى اللقاء، آنستي، وشكراً، قالت كاتزيني.

ـ إنها لذيذة أليس كذلك؟

ـ أجل، قالت كزافيير. وتابعت بحدّة: أكره هذا الصنف من الوجوه. ثم أجد أن مظهرها قذر.

أخذت فرنسواز تضحك.

ـ إذاً لا تجدينها لذيذة على الإطلاق.

عقدت كزافيير حاجبيها وقامت بتكشيرة مريعة.

ـ أفضّل أن يقتلعوا أظافري واحداً واحداً قبل أن أتكلم إلى شخص ما كما تكلمك. إنها مسطحة أكثر من سمكة الجربيدي.

ـ كانت معلمة في ضواحي بورج، أوضحت فرنسواز. تخلّت عن كل ما كان لديها لتجرّب حظّها في المسرح. إنها تموت جوعاً في باريس. نظرت فرنسواز إلى وجه كزافيير المنغلق، بدت لها طريقة. كانت كزافيير تصبّ حقدها على كل الذين يقتربون من فرنسواز. حتى خجلها أمام بيار كان ممزوجاً بالحقد.

كان تيديسكو عاد منذ وهلة يزرع الخشبة. أخذ يتكلّم وسط صمت ورع. بدا وكأنه استعاد قدراته.

ـ ليس هذا المطلوب بعد، فكّرت فرنسواز بقلق. لم يبق سوى ثلاثة أيام. ستكون الليلة ذاتها في الصالة، الإضاءة ذاتها على

المسرح، وستخترق الكلمات ذاتها المساحة. لكن بدل الصمت، ستصطدم بعالم كامل من الأصوات. المقاعد ستطقطق، أياد ساهمة ستعبث بالبرنامج، أشخاص مسنّون سيصابون بنوبة سعال. عبر طبقات وطبقات من اللامبالاة، سيتوجب على العبارات الرقيقة أن تشق طريقها إلى جمهور سئم متمرّد. كل هؤلاء الأشخاص المنصتين لجهازهم الهضمي، لحنجرتهم، لثيابهم الأنيقة، لقصصهم المنزلية، كل النقّاد الضجرين، الأصدقاء السيئي النيّة... إنه تحدٍّ حقيقي أن يدّعي الواحد حملهم على الاهتمام بحيرة بروتوس وتردّده. ينبغي مفاجأتهم، عنوة. ولن يكون تمثيل تيديسكو الباحث والفاتر كافياً.

كان بيار جالساً خافضاً رأسه. ندمت فرنسواز لأنها لم تعد وتجلس قربه. ما الذي كان يجول في خاطره؟ إنها أول مرة يطبّق مبادئه الجمالية على هذا الصعيد وبهذا الزخم. فهو أسس بنفسه جميع الممثلين. فرنسواز اقتبست المسرحية حسب توجيهاته، وحتى مصمم الديكور أطاع أوامره. وإن نجح، فسوف يفرض بصورة نهائية مفهومه للمسرح والفن. ظهرت على يدي فرنسواز المتشنجتين بضع قطرات عرق.

- لكننا لم نوفّر العمل ولا المال، فكرت وفي قلبها غصّة. إن فشلنا، فلن يكون في وسعنا المعاودة قبل وقت طويل.

- انتظر، قال بيار فجأة، صعد على الخشبة. تسمّر تيديسكو.

- ما تفعله جيد، قال بيار، لعبك صحيح تماماً. لكنك تمثل الكلمات، ولا تمثّل الموقف بشكل كافٍ، أريدك أن تحتفظ بالتفاصيل ذاتها، إنما فوق خلفية أخرى.

إتكأ بيار إلى الجدار وأحنى رأسه. استرخت فرنسواز. لم يكن

بيار يجيد التكلّم إلى الممثلين، كان يشعر بالضيق حين يضطر إلى النظر من زاويتهم، لكن كان هائلاً حين يجسّد دوراً ما.

ـ ينبغي أن يموت... لا مأخذ لي عليه بصفة شخصية، لكن المنفعة العامة...

كانت فرنسواز تنظر إلى المعجزة بذهول متجرّد. لم يكن مظهر بيار يلائم بشيء الدور. فهو مربوع وقسمات وجهه غير منتظمة، لكنه حين رفع رأسه، شاهدت بروتوس نفسه يرفع إلى السماء وجهاً منهكاً.

انحنى جيربير نحو فرنسواز. كان جلس خلفها من غير أن تلاحظ.

ـ كلما ازداد حنقه أصبح أروع، قال. في هذه اللحظة يسكره الغضب.

ـ غضبه مبرّر، قالت فرنسواز. أتظن أن تيديسكو سيخرج من دوره في نهاية الأمر؟

ـ لقد فعل، أجاب جيربير. ليست هذه سوى انطلاقة، يتبعها كل ما تبقى.

ـ أترى، كان بيار يقول، هذه هي اللهجة التي أريد أن أسمعها منك. يمكنك بعدها أن تتمالك مشاعرك قدرما تشاء، سوف أشعر رغم ذلك بتأثرك. إن لم يكن في أدائك انفعال، فستفسد المسرحية برمّتها.

إتّكأ تيديسكو إلى الجدار، مطرقاً رأسه.

ـ لا سبيل سوى موته. أما أنا، فلا مأخذ لي عليه بصفة شخصية، لكن عليّ أن أعمل من أجل المنفعة العامة.

ابتسمت فرنسواز لجيربير ابتسامة انتصار. بدا الأمر غاية في السهولة، لكنها كانت تعلم أنه من أصعب ما يمكن إحداث ذلك الإلهام المفاجىء لدى الممثل. نظرت إلى عنق بيار. لن تملّ أبداً من مشاهدته أثناء عمله. حتى أنها تضع التعاون معه في مقدّم الحظوظ التي تعتني بها في حياتها. فتعبهما المشترك ومجهودهما يوحّدان بينهما أكثر من معانقة. لم تكن تمضي لحظة من تلك التمرينات المرهقة إلاّ وهي بمثابة فعل حبّ بينهما.

انتهى مشهد المتآمرين بلا مشكل. نهضت فرنسواز.

ـ سأذهب لإلقاء التحيّة على اليزابيت، قالت لجيربير. إن احتاج أحد ما إليّ، فأنا في مكتبي. لا أجد الشجاعة الكافية للبقاء هنا. لم ينته بيار من بوريتا بعد. تردّدت، لم يكن لطيفاً أن تترك كزافيير، غير أنها لم تكن التقت اليزابيت منذ دهر، حتى أن الأمر بات فظاً.

ـ جيربير، أترك لك صديقتي كزافيير، قالت. يجدر بك أن تقودها في زيارة للكواليس أثناء تبديل الديكور. فهي لا تعرف شيئاً عن المسرح.

لم تتفوّه كزافيير بكلمة. كان ثمة في عينيها لوم منذ بداية التمرين.

وضعت فرنسواز يدها على كتف اليزابيت.

ـ تعالي ندخّن سيجارة، قالت.

ـ بكل سرور. من الظلم أن نمنع الناس عن التدخين. سوف أعلم بيار برأيي، في المسألة، قالت اليزابيت بنقمة ممازحة.

توقفت فرنسواز عند عتبة الباب. كانوا أعادوا طلاء الصالة مجدّداً قبل بضعة أيام بلون أصفر فاتح أضفى إليها مظهراً ريفياً

حفياً، وكانت رائحة تربنتين طفيفة لا تزال مخيمة.

ـ آمل ألاّ نرحل عنه أبداً، ذلك المسرح القديم، قالت فرنسواز فيما كانتا تصعدان الأدراج. هل ما زال هناك بعض المشروب؟ تساءلت وهي تدفع باب مكتبها. فتحت خزانة تحتلّ الكتب نصفها وتفحّصت الزجاجات المصفوفة على الرفّ الأخير. مجرد قعر زجاجة ويسكي، لا غير. هل يناسبك ذلك؟

ـ يناسبني تماماً، أجابت اليزابيت.

مدّت لها فرنسواز كأساً. كان دفء عظيم يغمر قلبها، حتى أنها شعرت بالتعاطف معها. استعادت الإحساس بالألفة والانشراح الذي كان يتملّكها في الماضي، حين كانتا تتنزّهان، كل منهما متأبطة ذراع الأخرى، في ملعب الثانوية بعد درس مثير للاهتمام وصعب.

أشعلت اليزابيت سيجارة وشبكت ساقيها.

ـ ماذا جرى لتيديسكو؟ يدّعي غيميو أنه يتعاطى المخدّرات بالتأكيد. تعتقدين أن هذا صحيح؟

ـ لا أعلم شيئاً، أجابت فرنسواز. ابتلعت بغبطة جرعة تهمة من الويسكي.

ـ ليست جميلة، كزافيير هذه الصغيرة. ماذا تفعلين بها؟ هل سوّت الأمور مع عائلتها؟

ـ لا أعلم شيئاً في هذا الشأن، أجابت فرنسواز. قد يظهر عمّها من يوم لآخر ويثير فضيحة.

ـ انتبهي، قالت اليزابيت متظاهرة بالأهمية. قد تقعين في متاعب.

ـ ممّ أنتبه؟

ـ هل وجدت لها وظيفة؟

ـ لا، يجب أن تتأقلم في بادىء الأمر.

ـ ما الذي تحسنه؟

لا أظنها ستتمكن يوماً من بذل مجهود كبير.

نفثت اليزابيت شاردة دخان سيجارتها.

ـ ما رأي بيار في المسألة؟

ـ لم يتقابلا كثيراً. إنه يستلطفها.

بدأت تستاء من هذا الاستجواب، وكأن اليزابيت تضعها في قفص الاتهام. قطعت الحديث.

ـ أخبريني، هل من جديد في حياتك؟ سألت. ضحكت اليزابيت قليلاً.

ـ غيميو؟ جاء يحادثني الثلاثاء الماضي خلال التمرين. ألا تجدينه وسيماً؟

ـ وسيماً جداً. وهذا بالتحديد ما حملنا على اختياره. لا أعرفه أبداً. هل إنه لذيذ؟

ـ يمارس الحبّ بشكل ممتاز، قالت اليزابيت بتجرّد.

ـ لم تضيعي وقتك، أجابت فرنسواز وقد فوجئت قليلاً. ما إن يعجبها رجل ما حتى تتحدّث اليزابيت عن مضاجعته. غير أنها في الواقع لا تزال منذ سنتين وفيّة لكلود.

ـ تعرفين جيداً مبادئي، قالت فرنسواز بمرح، لست امرأة يمكن إغراؤها بل امرأة تغري. عرضت عليه منذ المساء الأول أن يمضي الليل معي. وقف مشدوهاً.

ـ هل يعلم كلود بالأمر؟ سألت فرنسواز.

نفضت اليزابيت بعناد رماد سيجارتها. كلّما كانت اليزابيت مرتبكة أصبحت حركاتها وصوتها قاسية وحازمة.

ـ حتى الآن، لا، أجابت. أنتظر الوقت المناسب. تردّدت: المسألة معقدة.

ـ أيّ مسألة؟ علاقتك بكلود؟ مضى وقت طويل لم تحدثين عنها.

ـ لا تزال كما هي، قالت اليزابيت. هبط طرفا فمها. لكنني أنا أتغير.

ـ والنقاش العظيم الذي جرى بينكما الشهر الماضي، ألم يعط نتيجة؟

ـ يكرّر لي على الدوم الأمر نفسه: أنا التي حصلت على الجزء الأفضل. سئمت هذه الأزمة؟ كدت أجيبه: شكراً، هذا أكثر مما أستحق، لكنني لكنت رضيت بالجزء الآخر.

ـ لا بدّ أنك كنت متفهمة أكثر ممّا ينبغي مرة جديدة، قالت فرنسواز.

ـ أجل، هذا ما أعتقد. صدّقت اليزابيت بالبعيد. كانت فكرة بغيضة تراودها. يظن أن بإمكانه حملي على تصديق كل ما يقول، قالت. سوف يصاب بالذهول.

نظرت إليها فرنسواز ببعض الاهتمام. لم تكن في هذه اللحظة تختار الموقف الذي تظهره.

ـ أتريدين قطع علاقتك به؟ سألت فرنسواز.

رزح شيء ما في وجه اليزابيت. بدت منطقية.

ـ كلود شخص جذّاب جداً ولا يمكن أن أدعه يوماً يخرج من حياتي، قالت. ما أريده هو أن أكون أقلّ تمسّكاً به.

أسدلت جفنيها قليلاً وابتسمت لفرنسواز ابتسامة تواطؤ نادراً ما كان يعود ينبعث بينهما.

لكم سخرنا من النساء اللواتي يدعن الرجال يتخذونهنّ ضحايا. ألست من الصنف الذي يصنع منه الضحايا.

بادلتها فرنسواز الابتسامة. ودّت لو تعطيها نصيحة، لكن المسألة صعبة. الأمر الوحيد الواجب كان ألاّ تحب اليزابيت كلود.

ـ انفصال داخلي، قالت. هذا لا يفضي بعيداً. ربما يجدر بك أن ترغميه بكل بساطة على الاختيار.

ـ هذا ليس بالوقت المناسب، قالت اليزابيت بحدّة. لا، أعتبر أنني سأكون أحرزت خطوة كبيرة حين أستعيد استقلاليتي من الداخل والشرط الأول في سبيل ذلك هو أن أتوصّل إلى الفصل بين الرجل والعشيق في كلود.

ـ ألن تضاجعينه بعد الآن؟

ـ لست أدري، لكن الأمر هو أنني سأضاجع رجالاً غيره.

وأضافت بنبرة تحدٍّ:

ـ إنه حقاً مثير للسخرية، الإخلاص الجنسي يقود إلى عبودية حقيقية. لا أفهم كيف تقبلين به لنفسك.

ـ أقسم لك أنني لا أشعر بالاستعباد، أكّدت فرنسواز. لم تكن اليزابيت تتمالك عن البوح بأسرارها، لكنها بعد ذلك تصبح كلّ مرة عدوانية.

ـ غريب، قالت فرنسواز ببطء، وكأنها تتابع بصدق مندهش

مجرى تأملاتها، لم يكن من الممكن أن أفترض يوماً، كما عرفتك وأنت في العشرين أنك ستصبحين امرأة وفية لرجل واحد. وما يزيد الأمر غرابة أن بيار يقيم علاقات جانبية من جهته.

ـ سبق وقلت لي هذا. مهما يكن، لا يسعني أن أرغم نفسي، أجابت فرنسواز.

ـ هيا، إعترفي! لا تقولي لي إنه لم يحصل يوماً أن رغبت برجل ما، قالت اليزابيت. إنك تتصرفين كجميع الذين ينفون أن تكون لديهم أفكار مسبقة: يدّعون أنهم يعملون بها بدافع ميولهم الشخصية، لكن هذا هراء.

ـ اللّذة لمجرد اللذّة لا تهمّني، قالت فرنسواز. على كل حال، هل تعني شيئاً، اللذة لمجرّد اللذة؟

ـ ولِمَ لا؟ ثم إنها ممتعة، قالت اليزابيت مطلقة ضحكة ساخرة.

نهضت فرنسواز.

ـ أظن أن في وسعنا النزول، لا شكّ أنهم انتهوا من تبديل الديكور.

ـ تعرفين، أنه لذيذ حقاً، غيميو الصغير ذاك، قالت اليزابيت وهي تخرج من الغرفة. يستحق أكثر من حضور ثانوي صامت. قد يكون ممثلاً مهمّاً بالنسبة لكما، ينبغي أن أكلّم بيار بالأمر.

ـ أجل، إفعلي، قالت فرنسواز. ابتسمت لاليزابيت ابتسامة عابرة.

ـ أراك لاحقاً.

كان الستار مازال منسدلاً. على خشبة المسرح كان أحدما يطرق بمطرقة بينما تهتز الأرض الخشبية تحت وطأة خطى ثقيلة.

اقتربت فرنسواز من كزافيير التي كانت تتحدث مع إينيس. إحمَرّ وجه إينيس ووقفت.

ـ لا تهتمّي، قالت فرنسواز، أكملي حديثك.

ـ كنت ذاهبة، قالت إينيس. مدّت يدها لكزافيير. متى أراك من جديد؟

أومأت كزافيير بيدها في إشارة مبهمة.

ـ لست أدري، أتصل بك هاتفياً.

ـ يمكننا تناول العشاء معاً غداً، بين التمرينين.

ظلت إينيس واقفة أمام كزافيير بوجهها البائس. لطالما تساءلت فرنسواز من أين خطرت فكرة دخول عالم المسرح في رأس تلك النورمندية الضخم. مضت أربع سنوات وهي تعمل جاهدة من غير أن تحرز أدنى تقدّم. في النهاية، أعطاها بيار بدافع الشفقة جملة تقدمها.

ـ غداً... أجابت كزافيير. أفضّل أن أتصل بك هاتفياً.

ـ ستسير الأمور بشكل جيد، تعرفين... قالت فرنسواز بلهجة مشجّعة. حين لا تضطربين يكون إلقاؤك جيداً.

ابتسمت إينيس ابتسامة شاحبة وابتعدت.

ـ ألا تتصلين بها أبداً؟ سألت فرنسواز.

ـ أبداً، أجابت كزافيير بحنق. إن كنت نمت عندها ثلاث ليالٍ، فهذا لا يعني أنني مضطرّة لالتقائها طوال حياتي.

جالت فرنسواز النظر من حولها. كان جيربير توارى.

ـ ألم يصطحبك جيربير إلى الكواليس؟

ـ عرض عليّ ذلك، قالت كزافيير.

ـ ألم ترغبي في الأمر؟

ـ بدا منزعجاً للغاية، قالت كزافيير، كان الوضع شاقاً. نظرت إلى فرنسواز بعينين كشفتا نقمتها. أكره أن أفرض نفسي على الناس، قالت بعنف.

شعرت فرنسواز بالذنب. فهي أظهرت قلّة لباقة حين تركت كزافيير في عهدة جيربير، غير أن لهجة كزافيير أثارت دهشتها. هل يمكن أن يكون جيربير تصرّف بفظاظة حقيقية حيال كزافيير؟ لكن تصرفاً كهذا لم يكن من عاداته.

ـ إنها تأخذ كل شيء بطريقة مأسوية، فكرت باستياء.

قرّرت بشكل نهائي ألاّ تدع مزاج كزافيير النكد المتبدّل كمزاج طفل ينال منها.

ـ كيف كانت بورتيا؟ سألت فرنسواز.

ـ السمراء السمينة؟ جعلها السيد لابروس تكرّر الجملة ذاتها عشرين مرة، وظلّت تقولها بشكل سيىء. شعّ وجه كزافيير ازدراء. هل يمكن حقاً للواحدة أن تكون ممثلة حين تكون حمقاء إلى هذه الدرجة؟

ـ ثمة ممثلات من كل الأصناف، أجابت فرنسواز.

كان الغضب يفقد كزافيير صوابها، بات الأمر واضحاً. لا شك أنها كانت تعتبر أن فرنسواز لا تهتم بها بالقدر المطلوب. ستتجاوز هذا الإحساس في نهاية الأمر. نظرت فرنسواز إلى الستار وقد نفذ صبرها. . كان ينبغي أن يكسبوا بأي ثمن خمس دقائق على الأقل.

رفع الستار. كان بيار شبه ممدّد على سرير قيصر، وأخذ قلب فرنسواز يخفق بسرعة. كانت تعرف جيداً كل نبرة من صوت

بيار، كل حركة من حركاته. تنتظرها بدقّة لا متناهية، حتى يخيّل لها أنها تنبع من إرادتها هي، غير أنها تتحقق خارجاً عنها، على الخشبة. كان الأمر مقلقاً، فسوف تشعر بنفسها مسؤولة عن أي خلل قد يحصل، لكنها عاجزة عن تحريك ساكن لتفاديه.

ـ صحيح أننا واحد، فكّرت، وعمّ الحبّ قلبها. بيار هو الذي يتكلّم، يده هو كانت التي ترتفع، لكن وقفاته، لهجاته، جزء من حياة فرنسواز تماماً مثلما هي جزء من حياته. أو بالأحرى، لم يكن هناك سوى حياة واحدة، وفي وسطها كائن لا يمكن أن يعرّف بأنه هو أو أنا، بل ببساطة نحن.

كان بيار على خشبة المسرح، وهي في الصالة. غير أن المسرحية ذاتها كانت تجري بالنسبة للإثنين، وفي المسرح ذاته. والأمر كذلك في حياتهما أيضاً. فهما لا ينظران إليها على الدوم من الزاوية ذاتها، بل يكشف كل منهما وجهاً مختلفاً من وجوهها حسب رغباته، مزاجه، لذاته. غير أنها رغم ذلك الحياة نفسها. ولا يمكن للزمن أو للمسافة أن تفصلها. بالتأكيد، كانت هناك شوارع، أفكار، وجوه تتوحّد في بادىء الأمر بالنسبة لبيار، وأخرى تتوجد في بادىء الأمر بالنسبة لفرنسواز، غير أن هذه اللحظات المتفرّقة، كانا يربطانها بوفاء لمجموعة واحدة، حيث لا يعود من الممكن التمييز بين ما هو لك وما هو لي. ولم يكن أيّ منهما يستأثر مرة بأدنى جزء منها، وإلاّ لكانت هذه أسوأ الخيانات، الخيانة الوحيدة الممكنة.

ـ غداً بعد الظهر، الساعة الثانية، نعيد الفصل الثالث من دون الملابس، قال بيار، وغداً مساءً، نعيد المسرحية بكاملها، بالتسلسل وبالملابس.

ـ سأنسحب، قال جيربير. هل تحتاجين إليّ غداً صباحاً؟

تردّدت فرنسواز. مع جيربير تكاد أشقّ الأعمال أن تصبح مسلية. تلك الصبيحة سوف تكون مقفرة من دونه، لكن وجهه البائس المتعب كان مؤلماً.

ـ لا، لم يعد هناك أمور كثيرة ينبغي إنجازها، أجابت.

ـ متأكدة؟

ـ بالطبع، في وسعك أن تنام قرير العين.

اقتربت اليزابيت من بيار.

ـ أتعلم، يوليوس قيصر هذا خاصتك رائع حقاً، بادرته وعلى وجهها ملامح التركيز والمثابرة. فهو مندرج في إطار مختلف تماماً وفي الوقت ذاته شديد الواقعية. ذلك الصمت لحظة ترفع يدك. نوعية ذلك الصمت... إنه أمر هائل.

ـ أنت لطيفة جداً، قال بيار.

ـ أعدك أن المسرحية ستحقق نجاحاً كبيراً، قالت بحزم. تأملت كزافيير هازئة.

ـ يبدو أن هذه الفتاة لا يعجبها المسرح كثيراً. كيف لك أن تكوني سئمة إلى هذه الدرجة في سنّك؟

ـ لم أكن أظن أن المسرح هكذا، قالت كزافيير بازدراء.

ـ كيف كنت تظنينه؟ سأل بيار.

ـ جميعهم يشبهون عمال متجر صغار. يبدون دؤوبين جاهدين.

ـ هذا مؤثر، أجابت اليزابيت. كل هذا التعثر، كل هذه الجهود المرتبكة لينجم عنها في نهاية الأمر عمل رائع.

ـ أنا أجد كل هذا قذراً، قالت كزافيير. كان الحنق يتغلّب على الخجل لديها. نظرت إلى اليزابيت غاضبة. ليس المجهود أبداً بشيء جميل للنظر. وحين يكون المجهود فاشلاً، عندها... ضحكت ضحكة ساخرة، يصبح الأمر مهزلة.

ـ هذه هي حال جميع الفنون، قالت اليزابيت بنبرة جافة. الروائع لا تولد أبداً بسهولة. وكلما كانت رائعة تطلّبت المزيد من العمل. سوف ترين.

ـ الرائع في نظري أنا، قالت كزافيير، هو ما ينزل علينا من السماء كالمنّ. ظهرت على وجهها تكشيرة. إن كان ينبغي شراؤه، فهو بضاعة ككلّ ما تبقّى ولا يهمّني.

ـ يا لك من رومنطقية صغيرة! قالت اليزابيت ضاحكة بلؤم.

ـ أنا أفهمها، قال بيار. كل حيلنا الصغيرة لا تبدو فاتنة للغاية.

أدارت اليزابيت صوبه وجهاً يكاد يكون عدوانياً.

ـ هكذا إذاً! إنه حقاً نبأ جديد! صرْت تؤمن الآن بقيمة الإلهام؟

ـ لا، لكن صحيح أن عملنا ليس جميلاً. بل إنه أشبه بفوضى كريهة.

ـ لم أقل إن هذا العمل رائع، سارعت اليزابيت إلى القول، أعرف جيداً أن الجمال يكمن في العمل المنجز وحده. لكنني أجد الانتقال من اللاشكل إلى الشكل المستكمل الخالص مذهلاً حقاً.

نظرت فرنسواز إلى بيار متوسّلة. كان النقاش مع اليزابيت أمراً مرهقاً. فهي تظن أنها تفقد اعتبارها في نظر الآخرين إن لم تتمكن من فرض رأيها خلال المناقشة. كانت تصارعهم بسوء نية ونقمة من أجل استدرار اعتبارهم وحبّهم. وقد يطول الأمر ساعات.

صحيح، قال بيار بشكل مبهم، لكن ينبغي أن يكون الواحد اختصاصياً ليقدّر هذا.

ـ خيّم صمت.

ـ أظن أنه يجدر بنا العودة، قالت فرنسواز.

نظرت اليزابيت إلى ساعتها.

ـ ربّاه! سأفوّت المترو الأخير، قالت مذعورة، سأرحل على الفور. أراكم غداً.

ـ سنرافقك، قالت فرنسواز بفتور.

ـ لا، لا، ستؤخرونني. أمسكت حقيبتها، قفازيها، ابتسمت للفراغ ابتسامة غامضة وتوارت.

ـ يمكننا الذهاب لتناول كأس في مكان ما، عرضت فرنسواز.

ـ ألستما متعبتين؟ سأل بيار.

ـ أنا شخصياً لا أشعر بأي رغبة في النوم، قالت كزافيير.

أقفلت فرنسواز الباب بالمفتاح وخرجوا من المسرح. أشار بيار إلى سيارة أجرة.

ـ أين نذهب؟ سأل.

ـ إلى الـ «بول نور»، سنجد السكون هناك، أجابت فرنسواز.

أعطى بيار العنوان للسائق. أضاءت فرنسواز مصباح السقف وطلت وجهها بقليل من البودرة. كانت تتساءل إن كانت فكرتها هذه بالخروج معاً فكرة جيدة. كانت كزافيير مقطبة وبدأ الصمت يصبح مزعجاً.

ـ أدخلا، لا تنتظراني، قال بيار وهو يفتش عن النقود ليدفع للسائق.

دفعت فرنسواز الباب الجلديّ.

ـ تلك الطاولة في الزاوية، هل تعجبك؟ سألت.

ـ حسناً، هذا المكان جميل، أجابت كزافيير. خلعت معطفها. أعذريني لحظة، أشعر بوجهي ذاوياً ولا أحب أن ألمسه أمام الجميع.

ماذا أطلب لك؟ قالت فرنسواز.

ـ مشروباً قوياً.

تبعتها فرنسواز بنظرها.

ـ قالت هذا عن قصد لأنني وضعت بعض البودرة على وجهي في سيارة الأجرة، فكرّت. حين كانت كزافيير تظهر مثل هذا التفوّق الكتوم، فهذا يعني أنها تستشيط غضباً.

ـ أين اختفت صديقتك الصغيرة؟ قال بيار.

ـ ذهبت تستعيد جمالها. مزاجها غريب الليلة.

ـ ليست ظريفة على الإطلاق. ماذا تشربين؟

ـ كأس «اكوافيت». أطلب كأسين.

ـ كأسا «اكوافيت»، قال بيار. أعطنا «الأكوافيت» الحقيقية. وكأس ويسكي.

ـ كم أنك لطيف! قالت فرنسواز. كانوا قدّموا لها في المرة الأخيرة كأساً رديئاً من الكحول المرتجلة. مضى شهران على المسألة، غير أن بيار لم ينس. لم يكن ينسى مرة أي أمر يخصّها.

ـ لِمَ هي سيئة المزاج؟ سأل بيار.

ـ تعتبر أنني لا أبقى معها بقدر كافٍ. يغطيني كل الوقت الذي أهدره معها من غير أن تكون حتى راضية.

ـ عليك أن تكوني عادلة، قال بيار، فأنت لا ترينها كثيراً.

ـ إن أعطيتها المزيد، فسوف لن تبقى لي لحظة واحدة لنفسي، أوضحت فرنسواز محتدمة.

ـ أفهم هذا جيداً، لكن لا يمكن أن تطلبي منها الموافقة على كلامك من كل قلبها. ليس لديها سواك، وهي متمسّكة بك لا شك أن الأمر ليس ممتعاً.

ـ لا، إطلاقاً، أجابت فرنسواز. ربما هي تظهر بعض اللامبالاة حيال كزافيير. بدت لها الفكرة بغيضة. لم تكن تحب أن تقع عليها أي ملامة. ها هي، قالت.

التفتت إليها ببعض الدهشة. الفستان الأزرق يبرز جسداً أَهيف ناضجاً والشعر الأملس ينسدل محيطاً بوجه فتاة رقيق. كزافيير تلك الرهيفة المفعمة بالأنوثة، ما عادت رأتها منذ لقائهما الأول.

ـ طلبت لك كأس «اكوفيت»، قالت فرنسواز.

ـ ما هذا؟ سألت كزافيير.

ـ تذوّقي، أجاب بيار، دافعاً الكأس أمامها.

غطّت كزافيير بحذر شفتيها في المشروب الصافي.

ـ إنه رديء، قالت مبتسمة.

ـ تريدين مشروباً آخر.

ـ لا، الكحول دائماً رديئة، قالت متعقّلة، لكن علينا أن نشرب منها. ردّت رأسها إلى الخلف، أغلقت عينيها قليلاً وحملت الكأس إلى فمها.

ـ أحرق حلقي بكامله، قالت. لامست برؤوس أصابعها عنقها الجميل الرشيق. ثم انحدرت يدها منزلقة ببطء على جسدها. كما

أحرقني هنا، وهنا. كان الإحساس غريباً. خيل لي أن أحداً ما يضيئني من الداخل.

ـ أهذه أول مرة تحضرين تمريناً؟ سأل بيار.

ـ أجل، قالت كزافيير.

ـ وهل شعرت بالخيبة؟

ـ قليلاً.

ـ هل أنت مقتنع حقاً بما قلته لاليزابيت، قالت فرنسواز، أم أنك قلته لأنها كانت تغيظك؟

ـ كانت تغيظني، أجاب بيار. أخرج من جيبه لفّة تبغ وشرع يحشو غليونه. الواقع أن تلك الجدية التي نضعها في بحثنا عن التفاصيل الدقيقة لأشياء غير موجودة قد تبدو مثيرة للضحك بالنسبة لنفوس بريئة غير مطّلعة.

ـ هذا أمر طبيعي، إذ أن هدفنا هو تحديداً أن يعيرها وجوداً، قالت فرنسواز.

ـ لو أننا فقط نفلح دفعة واحدة، ونحن نلهو. لكن لا. نظل نتذمّر ونكدّ. كل هذا الإنكباب الحثيث لإنتاج حيل خادعة... ابتسم لكزافيير. أترين في الأمر تشبثاً مثيراً للسخرية؟

ـ أنا لا أرغب أبداً في إجهاد نفسي. قالت كزافيير بتواضع.

انتابت فرنسواز بعض الدهشة لرؤية بيار يتوقف بجدية عند نزوات فتاة صغيرة.

ـ إنك تشكّك في الفن من أساسه إن سرت في هذا المنحى، قالت.

ـ نعم، ولمَ لا؟ هل تدركين الأمر؟ في هذه الآونة يسود العالم

غليان، قد تنشب الحرب بعد ستة أشهر. التقط نصف يده اليسرى بين أسنانه. وها أنا أبحث عن وسيلة للحصول على نور الفجر.

ـ وما عساك تفعل؟ قالت فرنسواز. شعرت بالحيرة. بيار هو الذي أقنعها بأن أفضل ما يمكننا القيام به على وجه الأرض هو خلق أشياء جميلة. وكانت حياتهما تقوم برمّتها على هذا الإيمان الراسخ. لم يكن يحقّ له أن يبدّل رأيه بصورة مفاجئة.

ـ هاي! أريد أن تحرز مسرحية «يوليوس قيصر» نجاحاً، أكّد بيار، لكنني أخال نفسي حشرة.

منذ متى كانت تساوره مثل هذه الأفكار؟ أكان هذا قلقاً حقيقياً يعذّبه أم إحدى الأفكار المفاجئة العابرة التي يلهو بها للحظة ثم تتوارى من دون أثر؟ لم تجرؤ فرنسواز على مواصلة الحديث. لم تظهر علامات الملل على كزافيير، لكنها كانت خفضت من حدة نظرتها، وكأنها مترقّبة.

ـ لو تسمعك اليزابيت! قالت فرنسواز.

ـ أجل، الفن مثل كلود، ينبغي ألاّ نلامسه بطرف أصبعنا وإلاّ..

ـ وإلاّ انهار على الفور، تابعت فرنسواز. وكأنها تكاد تحدس ذلك. استدارت نحو كزافيير. تعرفين؟ كلود هو ذلك الرجل الذي كان معها في مقهى الفلور الليلة الماضية.

ـ ذلك الأسمر المقيت! قالت كزافيير.

ـ ليس قبيحاً إلى هذا الحد، احتجت فرنسواز.

ـ إنه رجل وسيم زائف، قال بيار.

ـ ورجل نابغة زائف، أضافت فرنسواز.

أشرقت عينا كزافيير.

ـ ماذا تفعل لو قلتما لها إنه أبله وقبيح؟ سألت متودّدة.

ـ لن تصدّق، أجابت فرنسواز. فكرّت. سوف تقطع علاقتها بنا وتكره باتييه.

ـ لا يمكن القول إنكما تكنّان وداً كبيراً لاليزابيت، قال بيار مرحاً.

ـ لا، ليس كثيراً، قالت كزافيير ببعض الارتباك. بدت مستعدة لإظهار قدر من اللطف تجاه بيار، ربما لتشير لفرنسواز أن مزاجها السيىء إنما يستهدفها هي بشكل خاص. ربما أيضاً اغترت بعدما وجد أنها على حق.

ـ ما هي مآخذك عليها بالضبط؟ سأل بيار.

ترددت كزافيير.

ـ إنها مفبركة للغاية. ربطة عنقها، صوتها، كيف تضرب سيجارتها على الطاولة، كل هذا تفعله عن قصد. رفعت كتفيها. وتفعله بشكل سيىء. أنا واثقة من أنها لا تحبّ التبغ الخشن. لا تعرف حتى كيف تدخّن.

ـ إنها تعمل على نفسها منذ أن كانت في الثامنة عشرة، قال بيار.

ابتسمت كزافيير خلسة ابتسامة تآمر مع ذاتها.

ـ لست ضد أن يتنكر الواحد من أجل الآخرين، أوضحت. غير أن ما يزعج في هذه المرأة أنها حتى عندما تكون لوحدها، لا شك أنها تمشي بعزم وتقوم بحركات حازمة بشفتيها.

كان في صوت كزافيير مقدار كبير من القسوة، جرح مشاعر فرنسواز.

ـ أتصوّر أنك تحبين التنكّر، قال بيار. أتساءل كيف يكون وجهك من دون الخصلة على جبينك وهذه اللفائف التي تخفي نصفه. وخطك. تنكرين خطّك أيضاً، أليس كذلك؟

ـ لطالما أنكرّت خطي، أجابت كزافيير متباهية: بقيت لفترة طويلة أكتب بحروف مستديرة تماماً، هكذا، رسمت بأطراف أصابعها إشارات في الجوّ. الآن أكتب بحروف مستدقّة، هكذا يكون خطي لائقاً أكثر.

ـ الأسوأ لدى اليزابيت، تابع بيار، أن حتى مشاعرها زائفة. الحقيقة أنها لا تأبه للرسم. كما أنها شيوعية، لكنها تقرّ بأن البروليتاريا آخر همومها.

ـ ليس الكذب ما يزعجني، قالت كزافيير. الأمر الفظيع هو أن يكون في وسع الواحد أن يحسم أموره بكل بساطة، بمجرّد قرار. فكّر أنها في كل يوم تبدأ بالرسم في موعد ثابت من دون أن تشعر بأي رغبة في الرسم. تذهب إلى مواعيدها مع رجلها سواء كانت ترغب في رؤيته أم لا... ارتفعت شفتها العليا ازدراءً. كيف يمكن أن يقبل الواحد بعيش مبرمج حسب جدول زمني محدّد وبفروض ينبغي إتمامها كما في المدرسة الداخلية! أفضل أن أكون فاشلة.

كانت حققت هدفها. فبيانها الإتهامي أصاب فرنسواز. لم تكن تلميحات كزافيير عادة تحرّكها، لكن الأمر كان مختلفاً هذه الليلة. فالإنتباه الذي يعيره بيار لأحكام كزافيير كان يعطيها وزناً.

ـ أنت من جهتك تضربين مواعيد ولا تذهبين إليها، قالت فرنسواز. هذا ممتع حين يتعلق الأمر بإينيس، لكنك قد تفسدين كذلك صداقات حقيقية بهذه التصرفات.

ـ إن كان الشخص يهمّني، فسوف أشعر على الدوام بالرغبة في الذهاب إلى الموعد، قالت كزافيير.

ـ ليس بالضرورة إطلاقاً، أجابت فرنسواز.

ـ فليكن إذاً! قالت كزافيير بتكشيرة متعجرفة. لطالما تشاجرت في نهاية الأمر مع الجميع.

ـ كيف يمكن للواحد أن يتشاجر مع إينيس! تعجّب بيار، تبدو أشبه بنعجة.

ـ آه! لا تدع مظهرها يخدعك، قالت كزافيير.

ـ حقاً، أجاب بيار. عشي بيار عينيه تلهّفاً. هل يمكن بوجهها ذاك الضخم البريء أن تعضّ؟ ماذا فعلت لك؟

ـ لم تفعل شيئاً، قالت كزافيير متكتّمة.

ـ هيا! أخبريني، قال بيار بصوت متملّق مداعب، يفتنني أن أعرف ما يختبىء تحت تلك المياه الراكدة.

ـ لا، إينيس مجرد شخص مسطّح متزلّف. المسألة أنني لا أحب أن يظن أحد أن لديه حقوقاً علي. ابتسمت وتوضّح استياء فرنسواز. حين تكون كزافيير وحيدة مع فرانسواز تدع أحاسيسها، الإشمئزاز، اللذة، الحنان، تجتاح رغماً عنها وجهها الصبياني الأعزل. أما الآن، فتشعر بنفسها امرأة أمام رجل وتعكس قسماتها الثقة أو التحفّظ بالمقدار الذي تقرر التعبير عنه بالضبط.

ـ لا بدّ أن عاطفتها مربكة، قال بيار بتواطؤ وسذاجة خدعا كزافيير.

ـ تماماً، أجابت ملهمة. ألغيت موعداً معها مرة في اللحظة

الأخيرة، في تلك الليلة حيث ذهبنا إلى الـ «تبريري»، فاستقبلتني عابسة.

ابتسمت فرنسواز.

ـ أجل، قالت كزافيير بحدة، تصرفت بفظاظة، لكنها سمحت لنفسها بملاحظات في غير محلها. إحمرّ وجهها وأضافت: حول موضوع لا يعنيها.

هذه هي المسألة إذاً. لا شك أن إينيس سألت كزافيير عن علاقتها مع فرنسواز، وربما هزأت بالأمر بيلادتها النورمندية الهادئة. لا بد إذاً أن كل نزوات كزافيير تخفي عالماً من الأفكار الخفية المتعنّتة. التفكير في الأمر كان يقلقها بعض الشيء.

أخذ بيار يضحك.

ـ أعرف فتاة، إيلوي الصغيرة، إن ألغى أحد رفاقها موعداً معها، أجابت دائماً: هذا يناسبني، لأنه طرأ عليّ أمر ما. لكن لا يتمتع الجميع بهذه اللّباقة.

عقدت كزافيير حاجبيها.

ـ لايمكن في جميع الأحوال قول هذا عن إينيس. لا شك أنها أحسّت بشكل مبهم بالسخرية، فانغلق وجهها.

ـ الأمر معقّد، تعرفين، تابع بيار بجدية. أفهم جيداً أنك تشمئزين من التزام التعليمات. لكن لا يمكننا كذلك العيش في اللحظة الحاضرة.

ـ ولمَ لا؟ سألت كزافيير. لمَ علينا على الدوم أن نجرّ خلفنا كومة من الخردة القديمة؟

ـ أترين، قال بيار، ليس الزمن نسيجاً من أجزاء صغيرة مفصلة

يمكننا عزل أنفسنا فيها على التوالي. حين تظنين أنك تعيشين بكل بساطة في الحاضر، فإنك تباشرين المستقبل شئت أم أبيت.

لا أفهم، قالت كزافيير. لم تكن لهجتها ودودة.

ـ سأحاول أن أوضح لك المسألة، أجاب بيار.. حين كان بيار يهتم لأحد ما، كان في وسعه مجادلته لساعات بحسن نيّة وجلد ملائكيين. كان هذا أحد أوجه كرمه. فرنسواز من جهتها تكاد لا تكلف نفسها مرة عناء توضيح ما يجول في خاطرها.

ـ لنفترض أنك قررت الذهاب لحضور حفلة موسيقية، قال بيار. لحظة خروجك، تبدو لك فكرة السير والصعود في المترو غير محتملة، فتعلنين أنك متفلّتة من مقرراتك الماضية وتلازمين منزلك. هذا جميل جداً، لكن حين تجدين نفسك بعد عشر دقائق جالسة في مقعدك سئمة، لا تعودين حرّة على الإطلاق، كل ما تفعلينه هو أنك تتحملين عواقب عملك.

ضحكت كزافيير ضحكة جافة.

ـ الحفلات الموسيقية، إختراع آخر من اختراعاتكم الجميلة! أن نشعر بالرغبة في سماع الموسيقى في ساعة محددة! لكن هذا مخالف للصواب! ثم أضافت بلهجة تكاد تكون حاقدة: هل أخبرتك فرنسواز أنه كان من المقرر أن أحضر حفلة موسيقية اليوم؟

ـ لا، لكنني أعلم أنك لا تتخذين مرة قراراً بالخروج من غرفتك. من المؤسف أن تقيمي في باريس مثل حبيسة.

ـ ليست هذه السهرة هي التي ستحملني على تبديل رأيي، قالت كزافيير باحتقار.

تجهّم وجه بيار.

ـ إنك بتصرفك هذا تهدرين الكثير من الفرص الثمينة.

هذا الخوف الدائم من أن يفوتنا شيء ما! ما من شعور ينفرني إلى هذا الحد. إن كان ضاع، فقد ضاع، وهذا كل ما في الأمر!

ـ هل أن حياتك هي حقاً سلسلة من التنازلات البطولية؟ سأل بيار بابتسامة ساخرة.

ـ هل تعني أنني جبانة؟ لو تعرف كم أن ذلك لا يهمني! قالت كزافيير بصوت عذب، قالبة شفتها العليا قليلاً.

خيّم صمت. كان كلٌّ من بيار وكزافيير مقطباً.

ـ يجدر بنا العودة والخلود إلى النوم، فكرت فرنسواز.

ما كان يغيظها لأكثر حد أنها هي نفسها لم تعد تتقبّل مزاج كزافيير السيىء باللامبالاة ذاتها التي أظهرتها خلال التمرين. اكتسبت كزافيير فجأة أهمية، من غير أن يعلم أحد السبب بالضبط.

ـ أرأيت تلك المرأة قبالتنا؟ سألت فرنسواز. أنصتي قليلاً لما تقول. مضى وقت وهي تعرض لشريكها خفايا روحها الفريدة.

كانت امرأة شابة متثاقلة الأهداب، تركز على رفيقها نظرة مغنطيسية.

ـ لم أتمكن يوماً من الامتثال لقواعد المغازلة، قالت. لا أحتمل أن يلمسني أحد، إنه إحساس مرضيّ.

في زاوية أخرى كانت امرأة شابة يعلو رأسها ريش أزرق وأخضر تنظر مرتابة إلى يد رجل ضخمة أطبقت للتو على يدها.

ـ تصادفين هنا على الدوام أزواجاً، قال بيار.

عاد الصمت. كانت كزافيير رفعت ذراعها إلى شفتيها

وأخذت تنفخ برقة على الوبر الناعم الذي يكسو جلدها. كان ينبغي أن يجد أحد كلمات ما يقولها، لكن كل الكلام كان يبدو غير مناسب مسبقاً.

ـ هل حدّثتك عن جيربير قبل الليلة؟ قالت فرنسواز لكزافيير.

ـ قليلاً، أجابت كزافيير. قلت لي إنه لذيذ.

ـ عاش شباباً غريباً عجيباً، تابعت فرنسواز، يتحدّر من عائلة عمّال بائسين تماماً. الأم أصبحت مجنونة حين كان لا يزال صغيراً، والوالد كان عاطلاً عن العمل. كان الصبي يكسب أربعة قروش من بيع الصحف. ذات يوم، اصطحبه أحد رفاقه للبحث عن دور صامت في استديو، وحدث أنه تمّ اختيار الإثنين. ربما كان في العاشرة في ذلك الوقت، كان ظريفاً جداً ورشيقاً، ولفت الانتباه. حصل على أدوار صغيرة، ثم أدوار أكبر. بدأ يكسب مبالغ جيدة عمل والده على تبذيرها بأبهة. تأملت فرنسواز باشمئزاز قالب حلوى أبيض ضخماً مزيناً بالفاكهة والسكاكر وموضوعاً فوق منضدة قريبة. يشعر الواحد بالغثيان لمجرّد رؤيته. لم يكن أحد يستمع إلى قصتها. بدأ بعض الأشخاص يهتمّون به. بيكلار تبنّاه تقريباً وهو ما زال يقيم عنده. وصل عدد آبائه بالتبنّي إلى الستة في فترة ما. كانوا يصطحبونه معهم إلى المقاهي والنوادي الليلية، والنساء يداعبن شعره. كان بيار من بينهم، ينصحه في عمله وقراءاته. ابتسمت وضاعت ابتسامتها في الفراغ. كان بيار يدخّن غليونه. متقوقعاً على نفسه. كزافيير بدت مهذّبة، لا غير. شعرت فرنسواز بنفسها مثيرة للسخرية، لكنها أكملت بانفعال عنيد. كان الصبي يتلقّى ثقافة غريبة عجيبة: متبحّر في السريالية من غير أن يقرأ بيت شعر واحد لراسين. كان مؤثراً، لأنه كان يحاول أن يسدّ

ثغراته، فيقصد المكتبات العامة ليتصفّح كتب الجغرافيا والحساب كعصامي صغير شجاع. غير أنه كان يخفي ذلك. ثم مرّ بمرحلة صعبة، فكان يكبر، ولم يعد من الممكن استعراضه مثل قرد عالم صغير. ومع خسارته أدواره في السينما، أخذ يخسر آباءه بالتبني الذين تخلوا عنه الواحد تلو الآخر. كان بيكلار يلبسه ويطعمه عندما يخطر في باله، لكن المسألة توقفت هنا. عندها تعهد به بيار وأقنعه بالعمل في مجال المسرح. الآن صارت أوضاعه جيدة. ما زالت تنقصه المهارة، لكنه موهوب ويتمتع بحسّ مسرحي كبير. سوف يتمكن من تحقيق شيء ما.

ـ كم يبلغ من العمر؟ سألت كزافيير.

ـ يبدو في السادسة عشرة، لكنه بلغ العشرين.

ابتسم بيار ابتسامة طفيفة.

ـ على الأقل، تحسنين إقامة حديث، قال.

ـ أنا مسرورة لأنك رويت لي هذه القصة، قالت كزافيير منفعلة. كم هو طريف أن أتصور ذلك الصبي وكل هؤلاء الأشخاص المهمين الذين يربّتون على كتفه بتعجرف متسامح ويشعرون بأنفسهم أقوياء وطيبين ويحمونه.

ـ ترينني بكل سرور متلبساً هذا الدور، أليس كذلك؟ سأل بيار بلهجة تتراوح بين الإستياء والمزاح.

ـ أنت؟ لمَ أنت بالتحديد؟ مثلك مثل الآخرين تماماً، أجابت كزافيير بوجه ساذج. نظرت إلى فرنسواز بإصرار نظرة عطوفة: يعجبني دائماً أسلوبك في سرد الأمور.

كانت في الواقع تقترح على فرنسواز إنقلاباً في التحالفات.

كانت المرأة ذات الريش الأزرق والأخضر تقول بصوت رتيب.

ـ كل ما فعلته أنني عبرت بسرعة من هناك، لكنها مثيرة للإعجاب بالنسبة لمدينة صغرى. كانت قررت أن تدع ذراعها العارية على الطاولة فظلّت راقدة هناك، منسية، متروكة، ويد الرجل تضغط على قطعة لحم لم تعد لأحد.

ـ غريب، قالت كزافيير، الإحساس الذي ينتابنا عندما يلامس الواحد رموشه. يلامس نفسه من غير أن يفعل حقاً، وكأنما عن بعد كانت تكلم نفسها ولم يردّ أحد.

ـ أرأيتِ كم أنها جميلة، تلك الزجاجيات الخضراء والذهبية؟ قالت فرنسواز.

ـ غرفة الطعام في لويبرساك، قالت كزافيير، كانت أيضاً مزيّنة بزجاجيات، لكنها باهتة كهذه. ألوانها بديعة قانية. حين ينظر الواحد إلى الحديقة عبر المربعات الصفراء يرى مشهد عاصفة عبر الأخضر والأزرق يخال نفسه أمام مشهد في الفردوس، أشجاره من الأحجار الكريمة وعشبه نسيج مقصّب. وحين تصطبغ الحديقة بالأحمر أخال نفسي في أحشاء الأرض.

قام بيار بجهد واضح لإبداء حسن نيّة.

ـ أي.لون كنت تفضلين؟ سأل.

ـ الأصفر بالطبع، قالت كزافيير. ظلّت تائهة في البعيد، وكأنما مترقبة. أمر فظيع، كيف نفقد الأشياء كلما تقدمنا في السن.

ـ ألا يمكنك استرجاع كل شيء؟ قال بيار.

ـ لا، ليست هذه المسألة. أنا لا أنسى أبداً أي تفاصيل، أجابت كزافيير بازدراء وتأكيداً على ذلك، أذكر جيداً كيف كانت الألوان

الرائعة تفتنني في ما مضى. أما الآن...، وابتسمت ابتسامة شخص فقد أوهامه، فإنني أستسيغها.

ـ أجل! عندما نشيخ تصبح الأمور دائماً هكذا، قال بيار مراعياً لكننا نكتسب أشياء أخرى. الآن صرت تفهمين كتباً ولوحات وعروضاً لم تكن لتعني لك شيئاً في طفولتك.

ـ لكنني لا آبه لفهم الأمور فقط في رأسي، أجابت كزافيير بعنف مفاجىء. تشنّج وجهها مكشّراً. لست بمثقفة، أنا.

ـ لمَ أنت بغيضة إلى هذا الحد؟ سأل بيار بفظاظة. حملقت كزافيير.

ـ لست بغيضة.

ـ بلى، وتعرفين هذا جيداً. تتذرّعين بكل الأعذار لتمقتيني. على كل حال، أظنني أعرف السبب.

ـ ماذا تظن؟ قالت كزافيير.

كانت وجنتاها تورّدتا بفعل الغضب. بدا وجهها فاتناً، متبدّلاً، مرآة حقيقية لأدنى المشاعر، وكأنه لم يكن من لحم، بل من نشوات، أحقاد، أحزان، تتبادر بسحر إلى العيون. لكن رغم هذه الشفافية الأثيرية، كان خط الأنف والفم شهوانياً متثاقلاً.

ـ ظننت أنني أريد انتقاد أسلوبك في العيش، قال بيار، وهذا ليس عادلاً. ناقشتك كما كنت أناقش فرنسواز، كما كنت أناقش نفسي، وهذا تحديداً لأن وجهة نظرك تهمّني.

ـ بالطبع، تلجأ مباشرة إلى التفسير الذي يحمل أكبر قدر من سوء النية، قالت كزافيير. لست فتاة صغيرة نزقة. إن كنت

تعتبرني صاحبة نزوات ولست أدري ماذا أيضاً، يمكنك تماماً أن تقوله لي.

ـ على العكس أحسدك كيف أن الأشياء تبعث فيك أحاسيس قوية، قال بيار. أفهم أن تكوني متمسكة بذلك أكثر من أي شيء آخر.

إن كان مصمما على التقرّب مجدداً من كزافيير، فإن المسألة لن تنتهي قريباً.

ـ أجل، قالت كزافيير متجهمة. عبرت التماعة عينيها. أكره أن تفكر هكذا عني. ليس صحيحاً، لم أغضب مثل طفلة.

ـ لكن فكّري قليلاً، قال بيار وكأنه يسترضيها، انقطعت عن الحديث، وبعد ذلك لم تظهري أيّ لباقة.

ـ لم أنتبه للأمر، أجابت كزافيير.

ـ حاولي أن تتذكري، سوف تلاحظين بالتأكيد.

تلعثمت كزافيير.

ـ لم يكن هذا السبب الذي تظن.

ـ وما كان السبب إذاً؟

قامت كزافيير بحركة نزقة.

ـ لا، إنها حماقة، الأمر بلا أهمية، ما نفع العودة إلى الماضي؟ انتهى الأمر الآن.

كان بيار وطّد جلسته قبالة كزافيير. يفضّل المكوث طوال الليل هنا بدل أن يستسلم. كان هذا الإصرار يبدو لفرنسواز أحياناً تطفّلاً، غير أن بيار لم يكن يخشى التطفّل. لم يكن يشعر بالاحترام للبشر إلاّ في التفاصيل الصغيرة. ما الذي كان يبتغيه

بالضبط من كزافيير؟ لقاءات مجاملة في السلالم؟ مغامرة، حب، صداقة؟

ـ كانت المسألة بلا أهمية لو أننا لن نلتقي أبداً بعد اليوم، تابع بيار. لكن الأمر سيكون مؤسفاً. ألا تظنين أنه يمكننا إقامة علاقات ودودة؟ وضع في صوته ما يشبه الملاطفة الخجلة. كان يتقن التحكم بشكل تام بوجهه وبأدنى تغيير في نبرة صوته، حتى أن ذلك بات مقلقاً بعض الشيء.

رمقته كزافيير بنظرة حذرة، لكنها تكاد تكون رقيقة.

ـ بلى، أظن ذلك، قالت.

ـ إذاً، دعينا نتفاهم، قال بيار. ما كان مأخذك علي؟ كانت ابتسامته تخفي تفاهماً سرياً.

أخذت كزافيير تشدّ على إحدى خصلات شعرها وهي تلاحق بنظرها حركة أصابعها البطيئة المتكررة.

ـ بدا لي فجأة أنك تفتعل ملاطفتي بسبب فرنسواز واستأت من الأمر. ردّت إلى الخلف الخصلة الذهبية. لم أطلب يوماً من أي كان ملاطفتي.

ـ ما الذي دفعك إلى هذا التفكير؟ قال بيار. كان يعضّ على طرف غليونه.

ـ لا أعرف، أجابت كزافيير.

ـ اعتبرت أنني رفعت الكلفة معك بسرعة كبيرة؟ وغضبت عليّ وعلى نفسك؟ أليس كذلك؟ فقررت من باب التجهّم أن توددي ليس سوى مفتعلٍ.

لم تتفوه كزافيير بكلمة.

ـ هل أن هذا ما حصل؟ سأل بيار بمرح.

ـ قليلاً، أجابت كزافيير وعلى وجهها ابتسامة رضى وارتباك. أمسكت من جديد بخصلة رقيقة بين أصابعها وراحت تملّسها وهي تحملق بها ببلاهة. هل أنها فكرت إلى هذا الحد؟ لا شك أن فرنسواز بسطت كزافيير بدافع الكسل. تساءلت حتى ببعض القلق كيف تمكنت خلال الأسابيع الماضية من معاملتها كفتاة صغيرة يمكن إهمالها. لكن ألا يسرف بيار في تعقيدها؟ على كل حال، لم يكونا ينظران إليها النظرة ذاتها. ومع أن هذا الخلاف في النظرة كان طفيفاً، إلا أنه أثر في نفس فرنسواز.

ـ لو لم أكن أرغب في التقائك، لكان من السهل عليّ أن أعود إلى الفندق على الفور، أكد بيار.

ـ كان يمكن أن ترغب في التقائي من باب الفضول، قالت كزافيير. وهذا طبيعي، لأنكم تتشاطرون كل شيء، أنت وفرنسواز.

تلك الجملة الصغيرة التي ألقتها فرنسواز بخفة كانت تكشف عالماً من الأحقاد الدفينة.

ـ ظننتِ أننا اتفقنا على تقديم الموعظة لك؟ قال بيار، غير أن هذا لم يكن له أي علاقة بالمسألة.

ـ بدوتما أشبه بناضجين يؤنبان طفلة، قالت كزافيير التي لم تعد مقطبة إلاّ من حيث المبدأ.

ـ لكنني لم أقل كلمة، احتجت فرنسواز.

بدا على وجه كزافيير أنها تدرك جيداً ما يجري. حدّق بها بيار وهو يبتسم بجدّية.

ـ سوف تلاحظين بعد أن ترينا أكثر معاً أنه في وسعك بالتأكيد النظر إلينا كفردين منفصلين. لا يمكنني أن أمنع فرنسواز من أن تكنّ لك الصداقة، كما أنه لا يمكنها أن ترغمني على إبداء الصداقة لك إن كنت لا أشعر بذلك. التفت نحو فرنسواز. أليس هذا صحيحاً؟

ـ بالطبع، أجابت فرنسواز بلهفة لم تبد زائفة. كان قلبها منقبضاً بعض الشيء. إننا شخص واحد، هذا جميل جداً. لكن بيار يعلن استقلاليته. صحيح أنهما إثنان بمعنى ما، وكانت تعرف هذا جيداً.

ـ لديكما الأفكار ذاتها إلى حدّ بعيد، قالت كزافيير، حتى أننا لا نعود ندري تماماً من منكما يتكلم ومن الذي نجيبه.

ـ هل يبدو لك أمراً فظيعاً أن أكنّ لك وداً شخصياً؟ قال بيار. نظرت إليه كزافيير متردّدة.

ـ لا مبرر لمثل هذا الشعور. ليس لديّ شيء مهم أقوله وأنت، أنت... لديك أفكار كثيرة حول الأمور.

ـ ما تريدين قوله أنني عجوز، أجاب بيار. أنت التي تصدرين أحكاماً سيئة النية. تظنيني شخصاً مهماً متعاظماً.

ـ كيف يمكن أن يخطر لك هذا!

اتّخذ بيار صوتاً رزيناً حمّله بعضاً من مهارته التمثيلية.

ـ لو اعتبرتك شخصاً لطيفاً قليل الشأن لكنت لزمت معك المزيد من التهذيب. أودّ إقامة علاقات بيننا تتخطّى التهذيب واللياقة، لأنني أكنّ لك تقديراً عميقاً.

ـ أنت مخطىء، قالت كزافيير من غير قناعة.

ـ وأتمنى الفوز بصداقتك بصفة شخصية بحتة. أتريدين أن تعاهديني صداقة شخصية.

ـ أودّ ذلك، أجابت كزافيير. شرّعت عينيها الصافيتين وأهدته ابتسامة مذعنة ومفتونة، أقرب إلى إبتسامة عاشقة. تأملت فرنسواز هذا الوجه المجهول المفعم بالتمنّع والوعود واستعادت وجهاً آخر صبيانياً أعزل متكئاً على كتفها ذات صباح غائم. لم تحسن استفتاءه فتوارى وربما ضاع إلى الأبد. شعرت فجأة بندم وحقد كم أنه كان يمكن أن تحبّه.

ـ صافحيني، قال بيار. وضع على الطاولة يده مبسوطة. كانت يداه جميلتين، ونحيفتين. لم تمدّ كزافيير يدها.

ـ لا أحبّ هذه الحركة، قالت بشيء من البرودة، أجدها حركة صبيانية.

سحب بيار يده. حين كان مستاءً كانت شفته العليا تمتدّ إلى الأمام فتعطيه مظهراً متعجرفاً ومتصنّعاً قليلاً. صمت الثلاثة.

ـ ستأتين إلى التمرين العام؟ سأل بيار.

ـ بالتأكيد. يسرّني أن أراك في دور الشّبح، أجابت كزافيير بحفاوة.

كانت الصالة فرغت ولم يعد هناك على البار سوى بعض الإسكندنافيين شبه الثملين. كانت وجوه الرجال محمرّة وتسريحة النساء محلولة والأزواج يتبادلون قبلات محمومة.

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نعود، قالت فرنسواز.

التفت إليها بيار قلقاً.

ـ صحيح، عليك أن تستيقظي باكراً غداً، كان ينبغي أن نرحل

قبل الآن. ألست متعبة؟

ـ ليس إلى حدّ لا يحتمل، أجابت فرنسواز.

ـ سنستقلّ سيارة أجرة.

ـ مجدّداً؟ قالت فرنسواز.

ـ ماذا عسانا نفعل؟ ينبغي أن تنامي.

خرجوا وأوقف بيار سيارة أجرة. جلس على المقعد الاحتياطي قبالة فرنسواز وكزافيير.

ـ تبدين نعسة أنت أيضاً، قال متودّداً.

ـ أجل، أشعر بالنعاس، قالت كزافيير. سأعدّ لنفسي كوباً من الشّاي.

ـ شاي؟ تعجّبت فرنسواز. من الأفضل أن تنامي. إنها الساعة الثالثة.

ـ أكره أن أنام حين يغلبني النعاس، قالت كزافيير وكأنها تعتذر.

ـ تفضلين الانتظار حتى تستيقظي تماماً؟ سأل بيار ممازحاً.

ـ أشمئزّ من الشعور بالحاجات الطبيعية، قالت كزافيير بعزّة نفس. خرجوا من سيارة الأجرة وصعدوا الأدراج.

ـ عمتما مساءً، قالت كزافيير. دفعت باب غرفتها من غير أن تمدّ يدها. صعد بيار وفرنسواز طابقاً بعد. كانت الفوضى تعمّ مقصورة بيار في هذه الآونة، وهو ينام كل مساء في غرفة فرنسواز.

ـ ظننتك ستغضب من جديد، قالت فرنسواز، عندما رفضت مصافحتك. كان بيار قد جلس على حافة السرير.

ـ خلتها تتظاهر بالتحفّظ مجدّداً واستأت من ذلك، قال. لكن

بعد التفكير، أظن أنها تصرفت بدوافع حسنة، لم تكن تريد أن تعتبر اتفاقاً تأخذه على محمل الجدّ مجرّد لعبة.

ـ الحقيقة أن هذا من تصرفاتها. كان في فمها طعمٌ كدرٌ غريبٌ يأبى أن يختفي.

ـ يا لها من شيطان كبرياء صغير! قال بيار. كانت لديها في بادىء الأمر استعدادات حسنة تجاهي، لكن ما إن سمحت لنفسي بظلّ من الانتقاد حتى نقمت عليّ.

ـ قدمت لها تفسيرات رائعة للغاية. أكان هذا بدافع اللياقة؟

ـ آه، كانت أمور كثيرة تجول في رأسها هذا المساء. لم يتابع. بدا مستغرقاً في أفكاره. ما الذي كان يجول بالضبط في رأسه هو؟ تفحّصت وجهه. كان وجهاً أليفاً للغاية لم يعد يتكلم. ليس عليها سوى أن تمدّ يدها لئلا تلامسه، لكن هذا القرب بالذات كان ما يجعله مستتراً عن نظرها. لم يكن من الممكن تكوين أي انطباع عنه. ولا حتى إيجاد أي اسم لتحديده. لم تكن فرنسواز تدعوه بيار أو لابروس إلاّ حين تتكلم عنه مع أحد. لم تكن تدعوه بأي اسم أمامه أو في العزلة. كانت تشعر به حميماً كنفسها ومتمنعاً عن الإدراك كنفسها أيضاً. لو كان غريباً لكان في وسعها على الأقل تشكيل فكرة عنه.

ـ ما الذي تبتغيه منها في نهاية الأمر؟ سألت.

ـ الواقع أنني أطرح على نفسي السؤال ذاته، أجاب بيار. ليست من طراز كاتزيني، لا يمكن أنْ نتوقع منها مغامرة. ينبغي التورّط بشكل عميق للتمكّن من إقامة علاقة ممتعة معها. ولست أملك الوقت الكافي ولا الرغبة الكافية لذلك.

ـ لمَ لا تملك الرغبة؟ قالت فرنسواز. القلق العابر الذي انتابها

كان غير منطقي. فهما يتصارحان في كل المواضيع ولا يخفي أيهما أمراً عن الآخر.

ـ المسألة معقّدة، أجاب بيار، تتعبني مسبقاً. على كل حال، ثمة فيها بقايا طفولية تثير اشمئزازي قليلاً، ما زالت تفوح منها رائحة الحليب. أريد منها فقط ألاّ تكرهني وأن نتمكن من التحدث من وقت لآخر.

ـ أعتقد أنك فزت بذلك، أكّدت فرنسواز.

نظر إليها بيار متردّداً.

ـ ألم يزعجك أن أعرض عليها علاقات شخصية معي؟

ـ لا أعلم، بالطبع، قالت فرنسواز لماذا؟

ـ لا أعلم. بدوت لي غريبة بعض الشيء. إنك متمسكة بها وقد ترغبين في أن تكون وحيدة في حياتها.

ـ تعرف جيداً أنها تربكني بالأحرى.

ـ أعرف جيداً أنك لا تغارين عليّ أبداً، قال بيار مبتسماً.

على كل حال، إن حصل هذا مرة، عليك أن تخبريني. على هذا الصعيد أيضاً أشعر بنفسي أشبه بحشرة. هوس المغامرات هذا. خصوصاً وأنها لا وزن لها في نظري.

ـ بالطبع سأخبرك، قالت فرنسواز. تردّدت. ربما كان ينبغي أن تعتبر استياءَ الليلة غيرة. لم يعجبها أن ينظر بيار إلى كزافيير بجدية.

أزعجتها الإبتسامات التي وجّهتها كزافيير لبيار. كان هذا اكتئاباً عابراً فيه الكثير من التعب. لو صارحت بيار لأصبح واقعاً مقلقاً ومتصلباً عوض أن يبقى مزاجاً زائلاً. ولتوجّب عليه أن يأخذه بعين الاعتبار بعد الآن في حين أنها هي نفسها لا تأخذه في

الحسبان. لم يكن ثمة أثر لمشاعر كهذه، لم تكن تشعر بالغيرة.

ـ يمكنك حتى أن تقع في غرامها إن كان هذا ما تريده قالت.

ـ هذا غير وارد، أجاب بيار. هزّ كتفيه. لست واثقاً حتى من أنها لا تكرهني أكثر من قبل.

اندس بين الأغطية. تمدّدت فرنسواز قربه وقبّلته.

ـ نوماً هنيئاً، قالت بحنان.

ـ نوماً هنيئاً. قبّلها هو أيضاً.

استدارت فرنسواز صوب الحائط. في غرفتها فوقهما، كانت كزافيير تشرب الشاي. أشعلت سيجارة. إنها حرّة في اختيار الساعة التي ستتمدّد فيها وحيدة في فراشها، بعيداً عن أي وجود غريب. كانت حرّة تماماً بمشاعرها، بأفكارها. ولا شك أنها في تلك اللحظة بالذات تنعم بهذه الحرية، تلجأ إليها لإدانة فرنسواز. تتراءى لها فرنسواز ممدّدة إلى جانب بيار وقد سحقها التعب وتتلذّذ بازدراء متعجرف. تشنّجت فرنسواز، لكنه لم يعد بوسعها أن تُغمض عينيها بكل بساطة وتمحو كزافيير. ظلّت كزافيير طوال السهرة تتعاظم وتحتل مساحة أكبر، حتى احتلت أفكارها متثاقلة مثل قالب الحلوى الضخم الذي شاهدته في الـ «بول نور». مطالبها، حسدها، ازدراءها... لم يعد من الممكن تجاهل كل هذا إذ قرر بيار إعطاءها وزناً. كانت فرنسواز تدفع بكل قوتها كزافيير تلك الثمينة والمربكة التي ظهرت للتو. ما تشعر به كان يشبه العداء. لكن لا حيلة، لا سبيل للعودة إلى الوراء. كزافيير واقع قائم.

الفصل (٤)

فتحت اليزابيت يائسة باب خزانتها. بالطبع، لا يمكنها الاحتفاظ بتايورها الرمادي. لم يكن يبدو شاذاً في أي ظرف، بل إنها اشترته لهذا السبب بالذات، لكنها حرّة تخرج ليلاً، وودّت تبديل ثوبها. فستان آخر، امرأة أخرى. شعرت اليزابيت بنفسها متراخية، مفاجئة ومثيرة. قميص يناسب كل الأوقات... كم تعجبني نصائحهم لأصحاب الملايين من أجل التوفير.

كان ثمة في قعر الخزانة فستان قديم من الساتان الأسود وجدته فرنسواز جميلاً قبل عامين. لم يكن قديم الطراز كثيراً. عدّلت اليزابيت ماكياجها وارتدت الفستان. نظرت إلى نفسها في المرآة محتارة. لم تكن واثقة من النتيجة، على كل حال، لم تعد تسريحتها ملائمة. شعثت شعرها بضربة فرشاة. شعرك الذهبي الداكن. كان يمكن أن تعيش حياة مختلفة. لم تكن نادمة البتّة، فهي مارست حرّيتها حين اختارت أن تضحّي بحياتها من أجل الفن. بدت أظافرها بغيضة، أظافر رسّامة. مهما قصّتها قصيرة، كانت بقايا أزرق أو بنفسجي لا تزال عالقة بها. لحسن الحظ أنهم

يضعون الآن طلاء للأظافر سميكاً. جلست اليزابيت أمام طاولتها وشرعت تبسط على أظافرها طلاءً حليبياً زهرياً.

ـ لكنت بدت مرهفة حقاً، خطر لها، أكثر إرهافاً من فرنسواز. فهي لا تبدو مرة في مظهر متقن.

رنّ الهاتف. أعادت اليزابيت بعناية الريشة الصغيرة الرطبة إلى القارورة ونهضت.

ـ اليزابيت؟

ـ هي بالذات.

ـ أنا كلود. كيف حالك؟ تعرفين، الظروف مؤاتية هذا المساء. ألتقيك عندك؟

ـ لا، ليس عندي، أجابت اليزابيت بحدّة. ضحكت ضحكة طفيفة. أرغب في الخروج. هذه المرّة سوف تذهب حتى النهاية في نقاشهما. ليس هنا، حتى لا يتكرر ما حصل الشهر الماضي.

ـ كما تشائين. إذاً أين؟ في «توبسي»، في الـ «ميزونيت»؟

ـ لا، لنذهب بكل بساطة إلى الـ «بول نور». الجو هناك أفضل لنتكلم.

ـ حسناً. إذاً الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل في الـ «بول نور». إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

كان يتوقع سهرة عاطفية مثالية، غير أن فرنسواز كانت على حق. فلا نفع من الانفصال الداخلي إن لم تبلّغه به. عادت اليزابيت إلى الجلوس وأكملت عملها الدقيق. الـ «بول نور» كان جيداً. فالتبطين الجلديّ يمتصّ الأصوات العالية والأضواء الخافتة

تلطّف تعب الوجه. كل تلك الوعود التي قطعها كلود لها! وظلّ كل شيء على ما هو تماماً. كانت لحظة ضعف كافية ليشعر بالطمأنينة. تدفّق الدم إلى وجه اليزابيت. يا للعار! تردّد لحظة، ويده على قبضة الباب. طردته بكلمة لا رجوع عنها، لم يكن يسعه سوى الرحيل. لكنه من دون أن يتفوّه بكلمة، عاد إليها. كانت الذكرى لاذعة، حتى أنها أغمضت عينيها. كانت تحسّ مجدّداً على فمها بذلك الفم الدافىء، حتى أن شفتيها فتحتا رغماً عنها. شعرت باليدين العذبتين تضغطان نهديها بإلحاح. انتفخ صدرها وتنهّدت كما فعلت في نشوة الهزيمة. لو أن الباب ينفتح الآن، لو أنه يدخل... رفعت اليزابيت بحدّة يدها إلى فمها وعضّت معصمها.

ـ لن ينال أحد مني بهذه الطريقة، قالت بصوت عالٍ. لست بأنثى. لم تكن شعرت بالألم، غير أنها لاحظت مسرورة أن أسنانها تركت على جلدها آثاراً بيضاء دقيقة. رأت كذلك أن الطلاء الرطب تشقق عن ثلاثة من أظافرها، وانحشر في حاشية الأظفر مثل دم متخثّر.

ـ كم أنني حمقاء! تمتمت. الساعة الآن الثامنة والنصف. بيار انتهى من ارتداء ملابسه. سوزان تلتفّ بدثار من الفيزون فوق فستانها الرائع، وأظافرها تلتمع. قامت اليزابيت بحركة نزقة لتمدّ يدها نحو قارورة مزيل الطلاء فسمع صوت تحطّم زجاج وامتدّت على الأرض بقعة صفراء تفوح منها رائحة سكاكر إنكليزية وينتشر فيها فتات زجاج.

أدمعت عينا اليزابيت. لم يكن وارداً إطلاقاً أن تذهب إلى التمرين العام بأصابع تشبه أصابع الجزّار. من الأفضل أن تخلد على

الفور إلى فراشها. من المنافي للمنطق أن ترغب في أن تكون أنيقة وهي لا تملك المال لتحقيق ذلك. ارتدت معطفها بسرعة وهبطت الأدراج راكضة.

ـ فندق «بايار»، شارع «سيليس»، قالت لسائق سيارة الأجرة عند فرنسواز ستتمكن من إصلاح الأمور. أخرجت علبة البودره. الحمرة كثيرة على وجنتيها وشفتاها ملطختان بأحمر الشفاه. لا، ينبغي ألا نلمس الوجه في سيارات الأجرة وإلا أفسدنا كل الماكياج. يجدر بالأحرى الإفادة من سيارات الأجرة للإسترخاء، سيارات الأجرة والمصاعد، استراحة قصيرة للنساء المنهكات. بعض النساء الأخريات ممدّدات الآن على كراسي مريحة وحول رؤوسهن أقمشة بيضاء رقيقة كما في إعلانات اليزابيت آردن، بينما أيدٍ ناعمة تمسّد وجوههنّ، أيدٍ بيضاء في غرف بيضاء، ستكون وجوههن ملساء ومشعّة وسيقول كلود بالسذاجة التي تميّز الرجال:

ـ جان هاربلي رائعة حقاً.

كنا نلقّبهنّ مع بيار بنساء الورق الحرير، لا يمكن منافستهنّ على هذا الصعيد. ترجلّت من سيارة الأجرة. وقفت لحظة بلا حراك أمام واجهة الفندق. كان الأمر مزعجاً، فهي لا يمكنها مرة الاقتراب من الأمكنة حيث تجري حياة فرنسواز من غير أن يخفق قلبها. الجدار رماديّ، تتخلّله بعض الشّقوق. كان فندقاً حقيراً كالعديد من الفنادق الأخرى، رغم أنها كانت تملك من المال ما يسمح لها باستئجار شقة صغيرة فخمة. دفعت الباب.

ـ هل يمكنني الصعود إلى غرفة الآنسة ميكال؟

ناولها الشاب خلف مكتب الاستقبال المفتاح. صعدت السلالم حيث تنتشر رائحة ملفوف مبهمة. كانت في قلب حياة فرنسواز،

غير أن رائحة الملفوف، طقطقة الدرجات لم تكن تكتنف أي سر بالنسبة لفرنسواز. فهي تعبر هذا الديكور من غير أن تراه حتى، في حين أن فضول اليزابيت المحموم يبدّل معالمه.

ـ علي أن أتصوّر أنني أعود إلى غرفتي ككل يوم، قالت اليزابيت لنفسها وهي تدير المفتاح. مكثت واقفة لبرهة عند عتبة الغرفة. كانت غرفة بشعة يكسوها ورق جدران مزيّن بزهور ضخمة. ثمة ثياب مرمية فوق كل الكراسي، كدسات من الكتب والأوراق فوق المكتب. أغمضت اليزابيت عينيها: إنها فرنسواز، عائدة من المسرح وهي تفكر في تمرين الغد. ثم فتحت عينيها من جديد. فوق المغسلة علّقت لافتة صغيرة كتب عليها.

«نرجو من السادة الزبائن»

«عدم إحداث ضجيج بعد الساعة العاشرة»

«وعدم غسل الثياب في المغسلة».

حالت اليزابيت بنظرها بين الكنبة، الخزانة ذات المرآة، تمثال نابليون النصفيّ الموضوع فوق الموقدة بين قارورة عطر، فراشي الشعر والجوارب النسائية. عادت وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما من جديد: من المستحيل تدجين هذه الغرفة. كانت تبدو بوضوح لا يقاوم غرفة غريبة.

اقتربت اليزابيت من المرآة حيث انعكس مراراً وجه فرنسواز، وشاهدت وجهها هي. كانت وجنتاها ملتهبتين. كان يجدر بها على الأقل الاحتفاظ بتايورها الرمادي، فهو بالتأكيد يناسبها بشكل جيد. لكنها الآن لم يعد يسعها شيء لتغيير هذه الصوة غير المألوفة. إنها الصورة النهائية التي ستبقى مطبوعة في الأذهان. أخذت قارورة مزيل للطلاء وقارورة طلاء أظافر وجلست أمام المكتب.

كتاب مسرح شيكسبير ظل مفتوحاً عند الصفحة التي كانت فرنسواز تقرأها حين نهضت بحدّة دافعة مقعدها. ألقت على السرير مبذلها، فظلّت حركتها المتهاونة مطبوعة في طياته المهملة، الكمّان بقيا منتفخين وكأنهما يحتجزان ذراعين شبحيّين. تلك الأغراض المتروكة تعكس صورة عن فرنسواز أشد طغياناً من حضورها الفعلي. حين كانت فرنسواز بقربها، كانت اليزابيت تشعر بسلام ما: فرنسواز لا تكشف وجهها الحقيقي، لكنها على الأقل حين تبتسم بحفاوة، لا يعود هذا الوجه الحقيقي موجوداً في أي مكان. أما هنا، فصورة فرنسواز الحقيقية هي التي طبعت أثرها، وهذا الأثر يتعذّر فكّ رموزه. ماذا يبقى من المرأة التي يحبها بيار حين تجلس فرنسواز أمام هذا المكتب، وحيدة متوحّدة؟ ماذا يحلّ بسعادتها، بزهوها الساكن، بقسوتها؟

جذبت اليزابيت نحوها أوراقاً مكسوة بالملاحظات، مسودّات مخططات ملطّخة بالحبر. إن أفكار فرنسواز حين تكون على هذا النحو، مليئة بالخربشة ومنصوصة بشكل رديء، تفقد مظهرها النهائي. غير أن الخط بحد ذاته والخربشة النابعة من يد فرنسواز، يؤكدان مرة جديدة وجودها الذي لا يمكن تدميره. دفعت اليزابيت بحدة الأوراق. إنها لحماقة، لا يمكن لاليزابيت أن تتحول إلى فرنسواز أن تدمّرها.

ـ بعض الوقت، أمهلوني بعض الوقت، فكرت بشغف. أنا أيضاً سوف أصبح شخصاً مهماً.

كانت سيارات كثيرة متوقفة في الساحة الصغيرة. ألقت اليزابيت نظرة فنانة إلى واجهة المسرح الصفراء الملتمعة عبر الأغصان العارية.

تلك الخطوط السوداء الداكنة المرتسمة فوق الخلفية المشعّة بدت جميلة. إنه مسرح حقيقي، مثل مسرحي «لوشاتلي» و«لا غيتي ليريك» اللذين كانا يفتناننا. أمر رائع أن تفكر أن الممثل العظيم، المخرج الكبير الذي تتحدث عنه باريس برمّتها، إنما هو بيار. وأن قدم الحشد المدمدم والمعطّر واكتظّ في الردهة، فلمشاهدته. لم نكن ولدين كسائر الأولاد، أقسمنا أن نصبح مشهورين، لطالما آمنت به. لكن الأمر الآن حقيقي، فكّرت مبهورة. الأمر الآن حقيقي، جدّي: هذا المساء يجري التمرين العام، بيار لابروس يلعب يوليوس قيصر.

حاولت اليزابيت أن تلفظ الجملة وكأنها مجرّد باريسية عادية، ثم أن تقول لنفسها فجأة: «إنه شقيقي»، لكن هذا كان صعباً. أمر مزعج كل تلك الملذات الكامنة من حولنا من دون أن نتمكن أبداً من التقاطها.

ـ ماذا تفعلين هذه الآونة؟ قال لوفنسكي. لم نعد نراك.

ـ إنني أعمل، قالت اليزابيت. عليك أن تأتي لترى لوحاتي.

كانت تحب سهرات التمرين العام تلك. قد يكون الأمر سخياً، لكنها كانت بحاجة إلى محيط ودود لتعي نفسها. إنها لا تشعر بأنها رسّامة وهي ترسم، وهذا شاق ومثبط للعزيمة. أما هنا، فهي فنانة شابة على وشك تحقيق النجاح، شقيقة لابروس. ابتسمت لمورو الذي كان ينظر إليها نظرة إعجاب. كان على الدوم مغرماً بها قليلاً. حين كانت تتردّد إلى «الدوم» مع فرنسواز في الماضي وتلتقي هناك مبتدئين بلا مستقبل وفاشلين مسنّين، لكانت تأملت بعينين مشرّعتين ملؤهما الحسد تلك المرأة الشابة المسترجلة الرشيقة

التي تتحدّث بارتياح إلى العديد من الأشخاص الناجحين والمشهورين.

ـ كيف حالك؟ سأل باتييه. بدا وسيماً للغاية في بدلته القاتمة. على الأقل وضعتم حراسة جيدة على البوابات، أضاف بنبرة استياء.

ـ كيف حالك؟ قالت اليزابيت وهي تمدّ يدها لمصافحة سوزان، هل واجهتك مصاعب؟

ـ ذلك المراقب، يتفحص جميع المدعوين وكأنهم لصوص، قالت سوزان. ظلّ يقلّب بطاقتنا بين يديه طوال خمس دقائق.

كانت أنيقة في ثيابها السوداء، كلاسيكية جداً. غير أن علامات السن ظهرت الآن بوضوح عليها. لا يعقل أن يفترض الواحد أن كلود ما زال يقيم علاقات جنسية معها.

ـ علينا أن نحترس، قالت اليزابيت. أنظري إلى هذا الرجل الذي يلصق أنفه بالنافذة، ثمة العديد مثله في الساحة، يحاول الحصول على بطاقات دعوة. ندعوهم السنونو.

ـ يا له من اسم جميل، قالت سوزان. ابتسمت بلباقة واستدارت صوب باتييه: أظن أنه علينا الدخول، ألا تعتقد؟

دخلت اليزابيت خلفهما. وقفت لوهلة بلا حراك في قعر الصالة. كان كلود يساعد سوزان على خلع دثارها الفيزون، ثم جلس إلى جانبها. إنحنت نحوه ووضعت يدها على ذراعه. شعرت اليزابيت بألم حاد يخترقها. تذكرت ذلك المساء من كانون الأول حيث تسكّعت في الشوارع ثملة من شدة الفرح، شاعرة بالانتصار، بعد أن قال لها كلود «أنت التي أحب». وقبل أن تعود لتنام، ابتاعت باقة كبيرة من الورود. إنه يحبّها، لكن شيئاً لم يتغير،

قلبه محجوب. تلك اليد على ذراعه تراها جميع العيون، وجميع العيون تقرّ من دون أية وحشة أنها وجدت هنا مكانها الطبيعي. الرابط الرسمي، الرابط الحقيقي، قد يكون حتى الواقع الوحيد الذي بوسعنا أن نكون واثقين منه حقاً. أما حبّنا نحن، فمن ذا يعتبره موجوداً؟ لم تكن في تلك اللحظة تؤمن حتى به. لا أثر له في أي مكان.

ـ سئمت هذا! فكّرت. سوف تتعذب طوال المساء أيضاً. تتوقع الارتعاشات، الحمّى، اليدين الرطبتين، الطنين في الرأس. إشمأزت من الأمر مسبقاً.

ـ مرحبا، قالت لفرنسواز. كم تبدين رائعة!

كانت جميلة حقاً هذا المساء. غرزت في شعرها مشطاً كبيراً. وارتدت فستاناً مزيناً بتطريز جريء. كانت أنظار كثيرة تتجه صوبها من غير أن يبدو عليها أنها تلاحظ. إنتابها فرح للشعور بأنها صديقة تلك المرأة الشابة الفاتنة والهادئة.

ـ أنت أيضاً جميلة، قالت فرنسواز. هذا الفستان يلائمك تماماً.

ـ جلست إلى يمين فرنسواز. إلى يسارها جلست كزافيير، غير ملحوظة في فستانها الأزرق التافه. دعكت اليزابيت بين أصابعها قماشة تنورتها. أن تمتلك ملابس قليلة إنما جيدة النوعية، هذا كان مبدأها على الدوام.

ـ لو كنت أملك مالاً، لكنت أحسنت اختيار ملابسي، فكرت. نظرت بقدر أقل من المعاناة إلى عنق سوزان الأنيق. سوزان تنتمي إلى فئة الضحايا، تقبل بأي شيء من كلود. أما نحن، فمن جنس آخر. يتمتعن بالقوة والحرية، يعشن حياتهنّ الخاصة. إن كانت اليزابيت تقبل أن تعيش عذاب الحب، فمن باب الكرم،

لكنها لا تحتاج إلى كلود، ليست امرأة عجوزاً. سأقول له بهدوء وحزم: فكرت ملياً يا كلود، أتعلم، أظن أن علينا أن نضع علاقتنا على صعيد آخر.

ـ أرأيت مارشان وسالتريك؟ قالت فرنسواز، في الصف الثالث إلى اليسار. سالتريك بدأ بالسعال، يتهيأ للانطلاق. كاسيتيه ينتظر أن يرفع الستار حتى يخرج مبصقته. تعلمين، أنه يأخذ معه مبصقته على الدوام أينما يذهب، علبة صغيرة أنيقة جداً.

ألقت فرنسواز نظرة خاطفة إلى النقّاد، كانت عاجزة عن الاستمتاع بالأمر. بالطبع، فرنسواز منشغلة بنجاح المسرحية، وهذا طبيعي. لا يمكن توقع أي مساعدة من جانبها.

إنطفأت أنوار الثريا وسمعت وسط الصمت المخيّم ثلاث ضربات معدنية. لو يمكنني فقط أن استغرق في العرض، فكرت. غير أنها كانت تعرفه عن ظهر قلب. الديكور جميل، الملابس أيضاً. إنني واثقة من أنه في وسعي القيام بعمل يضاهي هذا على الأقل، لكن بيار شأنه شأن الوالدين، لا يعتبر أبداً بجدية أفراد عائلته. ينبغي أن يرى لوحاتي من دون أن يعرف أنني أنا رسمتها. لا واجهة اجتماعية لي. المسألة مضحكة، يجب دائماً ذرّ الرماد في عيونهم. لو لم يكن بيار يعاملني كشقيقة صغرى بلا أهمية، لكنت بدوت لكلود شخصاً مهماً وخطيراً.

ـ ارتعشت اليزابيت لدى سماعها الصوت الذي تعرفه جيداً.

ـ كالفورنيا، تفضّل بالوقوف على طريق أنطوان...

كان بيار رائعاً حقاً في دور يوليوس قيصر. تمثيله يوحي بألف طريقة وطريقة.

ـ إنه أعظم ممثلي هذه الحقبة، قالت اليزابيت لنفسها.

وصل غيميو عدواً إلى الخشبة ونظرت إليه ببعض التخوّف. فهو أوقع مرتين التمثال النصفي لقيصر خلال التمرينات. عبر الساحة باندفاع ودار حول التمثال من غير أن يصطدم به، ممسكاً بيده سوطاً. كان شبه عارٍ، وقد لفّ حول خصره سروالاً قصيراً من الحرير.

ـ إنه جذّاب حقاً، قالت اليزابيت لنفسها من دون أن تتمكن من الانفعال. أمر لذيذ أن أمارس الحب معه. لكن حين ننتهي لا أعود أفكر بالأمر. إنه خفيف كصدر الدجاج. أما كلود،...

ـ إنني منهكة، فكّرت. لم يعد في وسعي التركيز.

أرغمت نفسها على متابعة المشهد. كانت كاتزيني جميلة بتلك الخصلة الكثيفة فوق جبينها، يدّعي غيميو أن بيار لم يعد يهتم بها كثيراً وأنها تتودد إلى تيديسكو. لست أدري، لا يقولون لي أي شيء أبداً حدّقت بفرنسواز. وجهها لم يتبدّل منذ أن رفع الستار، عيناها مسمّرتان على بيار. لم يبد وجهها قاسياً من الجنب! كان ينبغي أن تشاهدها في غمرة الحنان، في غمرة الحب، لكنها قادرة على الاحتفاظ بذلك الحبور. إنها حقاً محظوظة لتمكّنها من الاستغراق بهذه الطريقة في اللحظة الحاضرة. كل هؤلاء الأشخاص محظوظون. شعرت فرنسواز بنفسها ضائعة وسط هذا الجمهور المذعن الذي يدع الصور والكلمات تجتاحه. أما هي، فلا ينفذ إليها شيء، العرض المسرحي غير موجود، مجرد دقائق تنساب ببطء قطرة قطرة. مضى النهار في انتظار تلك الساعات، وها هي تلك الساعات تنساب فارغة، لم تعد بدورها سوى انتظار. حين سيمثل كلود قبالتها، تعرف اليزابيت أنها ستنتظر أيضاً، تنتظر الوعد، التهديد الذي سيصبغ بالأمل أو الوحشة انتظار الغد. إنه

سباق بلا هدف، نجد أنفسنا مدفوعين بلا هوادة إلى المستقبل، وما أن يصبح حاضراً حتى يتوجب الهرب من جديد. سيبقى الحاضر غير محتمل طالما أن سوزان زوجة كلود.

ـ ضجّت الصالة بالتصفيق. نهضت فرنسواز وقد احمرّت وجنتاها قليلاً.

ـ تيديسكو لم يخفق، كل شيء جرى على ما يرام، قالت منفعلة. سأذهب لرؤية بيار. تعالي بالأحرى في الاستراحة المقبلة، أرجوك. فالوقت يداهمنا بشكل فظيع في هذه الاستراحة.

نهضت اليزابيت بدورها.

ـ يمكننا البقاء في الممرات، قالت لكزافيير، سوف نسمع تعليقات المشاهدين. إنه أمر مسلّ.

تبعتها كزافيير مطيعة. ماذا يمكنني أن أقول لها؟ تساءلت اليزابيت. لم تكن تجدها محبّبة.

ـ سيجارة؟

ـ شكراً، قالت كزافيير.

أشعلت لها اليزابيت السيجارة.

ـ هل أعجبتك المسرحية؟

ـ أعجبتني، ردّت كزافيير.

كم دافع عنها بيار بحدّة منذ بضعة أيام! إنه على استعداد دائم لمنح ثقته لامرأة غريبة. لكنه هذه المرة أبدى ذوقاً رديئاً جداً.

ـ هل تودين التمثيل؟

كانت تبحث عن سؤال حاسم، السؤال الذي ينتزع من كزافيير جواباً يسمح بوضعها نهائياً في خانة ما.

ـ لم يخطر لي هذا مرة، أجابت كزافيير.

كانت بالتأكيد تكلم فرنسواز بلهجة أخرى وبوجه آخر. غير أن أصدقاء فرنسواز لا يكشفون أبداً عن وجههم الحقيقي أمام اليزابيت.

ـ ما الذي يهمّك في الحياة؟ سألت اليزابيت بخشونة.

ـ كل شيء، أجابت كزافيير بتهذيب.

تساءلت اليزابيت إن كانت فرنسواز كلمتها عنها. كيف تتكلمان عنها في غيابها؟

ـ أليست لديك أفضليات؟

ـ لا أظن، قالت كزافيير.

كانت تنفث دخان سيجارتها باجتهاد. لقد حافظت على سرّها بحرص. جميع أسرار فرنسواز مكتومة جيداً. في الطرف الآخر من الصالة كان كلود يبتسم لسوزان وعلى وجهه ملامح الحنان المتملّق.

ـ الابتسامة ذاتها التي يوجهها لي، فكّرت اليزبيت واجتاح قلبها حقد عنيف. من دون لطف، ستكلّمه من دون لطف. ستتكيء رأسها على الأرائك وتقهقه بضحكة لاذعة.

رنّ الجرس. ألقت اليزابيت نظرة في مرآة وشاهدت شعرها الأصهب، فمها المرير. ثمة في صورتها ما يوحي بالمرارة اللاذعة. إنها اتخذت قرارها، هذه الليلة ستكون حاسمة. كان تارة يضيق ذرعاً من سوزان وتنتابه طوراً شفقة حمقاء حيالها، فلا يتمكن من حسم أمره والانفصال عنها.

خيّم الظلام في الصالة. عبرت صورة رأس سوزان: مسدس،

خنجر، قارورة تعلوها جمجمة ميت. أن تقتل. كلود؟ سوزان؟ أنا نفسي؟ لا فرق. رغبة القتل القاتمة كانت تعصف بقوة في قلب اليزابيت. تنهدت. لم تعد في سن العنف المجنون، فهذا سيكون خياراً سهلاً للغاية. لا. ما كان ينبغي القيام به هو إبقاؤه على مسافة لفترة، بعيداً عن شفتيه، عن أنفاسه ويديه. كانت ترغب بها بجموح، تغصّ الرغبة هناك على الخشبة، هاهم يغتالون قيصر. بيار يعدو مترنّحاً عبر مجلس الشيوخ، وأنا يغتالونني حقاً، فكرت يائسة. شعرت بالإساءة. كل هذا الهيجان الباطل وسط ديكوراتهم الكرتون في حين أنها تحتضر في لحمها ودمها بلا قيامة ممكنة.

عبثاً تسكعت اليزابيت مطولاً على جادة مونبارناس، لم تكن الساعة تجاوزت الدقيقة الخامسة والعشرين بعد منتصف الليل حين دخلت الـ «بول نور». لن تتمكن يوماً من التأخر عن موعد عمداً، رغم أنها واثقة من أن كلود لن يحضر في الموعد. سوزان تتعمّد استبقاءه إلى جانبها وتعتبر كل دقيقة تأخير انتصاراً ضئيلاً. أشعلت اليزابيت سيجارة، لم تكن ترغب حقاً في أن يكون كلود هنا، لكن فكرة وجوده في مكان آخر بدت لها غير محتملة.

شعرت بغصّة في قلبها. كل مرة الأمر نفسه. حين تراه يصل ينتابها قلق. إنه هنا، ممسكاً بيديه سعادة اليزابيت، يتقدم غيرمبالٍ، ولا يخطر له أن في كل من حركاته تهديداً.

ـ أنا مسرور جداً لالتقائك، قال كلود. أخيراً، سهرة عظيمة لنا وحدنا. كان يبتسم باندفاع. ماذا تشربين؟ كأس أكوافيت؟ أعرف هذا المشروب، إنه رديء. أعطني كأساً مِن الجين فييز.

ـ إنك مسرور، لكنك تقتصد في ملذاتك، أجابت اليزابيت، إنها الساعة الواحدة الآن.

ـ الواحدة إلاّ سبع دقائق، حبيبتي.

ـ الواحدة إلاّ سبع دقائق إن أردت، قالت وهي تهزّ كتفيها قليلاً؟

ـ تعرفين جيداً أن الذنب ليس ذنبي، أكّد كلود.

ـ بالطبع، قالت اليزابيت.

تجهّم كلود.

ـ أرجوك، صغيرتي، لا تقطبي هكذا. غادرتني سوزان بوجه مريع، وإن أخذت أنت أيضاً بالعبوس، فإنها النهاية. كنت متلهفاً جداً لرؤية ابتسامتك الطيّبة من جديد.

ـ لا أبتسم طوال الوقت، قالت اليزابيت وقد جرحت مشاعرها. أحياناً يبدي كلود قلّة إدارك مذهلة.

ـ هذا مؤسف، لأنّ البسمة تناسب وجهك كثيراً، أجاب كلود. أشعل سيجارة ونظر من حوله برفق: ليس سيئاً، هذا المكان. كئيب قليلاً، ألا تظنين؟

ـ سبق وقلت لي هذا في اللقاء الماضي. أراك بعد عناء وانتظار، فلا أرغب في أن تكون من حولنا جمهرة.

ـ لا تكوني شريرة، قال كلود. وضع يده على يد اليزابيت لكنه بدا مستاءً. سحبت يدها بعد لحظة. إنها بداية خرقاء. لا ينبغي أن يبدأ أي نقاش عميق بمشاجرات خسيسة.

ـ كان العمل بمجمله ناجحاً، قال كلود، لكنني لم أؤخذ به لحظة. أرى أن لابروس لا يعرف ماذا يريد بالضبط. يتردّد بين أساليب مبسّطة تماماً وواقعية بحتة.

ـ ظل الانتقال هذا بالموضوع إلى مستوى آخر هو بالذات ما يريده، قالت اليزابيت.

ـ لا، ليس هذا مجرّد ظل خاص، قال كلود بنبرة قاطعة، إنما سلسلة من التناقضات. اغتيال قيصر كان أشبه بباليه جنائزي. وسهرة بروتوس تحت الخيمة، يخال الواحد أنه عاد إلى حقبة المسرح الحرّ.

كان كلود مخطئاً في حساباته. لن تسمح له اليزابيت بحسم الأمور بهذه السهولة. كانت مسرورة إذ أن الجواب اندفع تلقائياً من شفتيها.

ـ هذا يتوقف على الظروف، قالت بحدّة. الاغتيال يفرض الانتقال إلى مستوى آخر، وإلاّ وقعنا في أجواء المأساة الهزلية، وفي حين أن المشهد الخيالي ينبغي أن يلعب بأكبر قدر من الواقعية من باب التباين. هذا واضح للغاية.

ـ هذا هو مقصدي تماماً، ليس في العمل وحدة جمالية لابروس ليست سوى انتهازية ما.

ـ لا، إطلاقاً، قالت اليزابيت بالطبع، إنه يأخذ النص بعين الاعتبار. أنت مدهش. أحياناً أخرى تنتقده لاعتماده الإخراج كهدف بحدّ ذاته. عليك أن تحسم أمرك.

ـ هو الذي لا يحسم أمره. أجاب كلود. أود لو ينفّذ مشروعه الشهير، أن يقوم بنفسه بكتابة مسرحية. قد نتمكن عندها من تحديد المسألة.

ـ سيفعل بالتأكيد، قالت اليزابيت، وأظن حتى أنه سينفذّ مشروعه في السنة المقبلة.

ـ هذا ما سيثير فضولي. أقول لك بصدق، إنني معجب جداً بلابروس ، لكنني لا أفهم.

ـ بيد أن الأمر سهل، قالت اليزابيت.

ـ إشرحي لي، سوف أكون مسروراً، قال كلود.

ربّتت اليزابيت بالسيجارة مطوّلاً فوق الطاولة. لم تكن جمالية بيار تحوي أسراراً بالنسبة لها، حتى أنها كانت تستوحي منها في لوحاتها. لكنها لم تكن تجد الكلمات المناسبة. استرجعت لوحة تينتوريه تلك التي كان بيار يحبّها كثيراً. قدّم لها تفسيرات كثيرة لم تعد تذكرها جيداً حول وضعية الشخصيات. فكرت في نقوش دورير، في عرض دمى متحركة، في مشاهد الباليه الروسي، في أفلام صامتة قديمة. الفكرة كامنة هنا، النية، واضحة، المسألة مزعجة للغاية.

ـ بالطبع، ليس الأمر بسيطاً بحيث يمكن أن تلصق عليه عنواناً عاماً مثل الواقعية، الانطباعية، الحقائقية، إن كان هذا ما تريد، قالت.

ـ لماذا تتعمّدين الإساءة المجانية؟ سألها كلود، لست معتاداً لهذا المعجم.

ـ اعذرني، لكنك أنت من تلفظ بالأساليب والانتهازية. لكن، لا تدافع عن نفسك وتنكر الأمر. حرصك هذا على عدم التكلّم مثل الأساتذة مضحك حقاً.

كان أكثر ما يخشى بيار أن يعطي انطباعاً بأنه جامعي. عليها أن تقرّ أن مظهره لم يكن أكاديمياً البتة.

ـ أؤكد لك أنني لا أشعر بالخطر من هذه الناحية، أجاب بجفاف. أنت التي تضيفين إلى الأحاديث ما يشبه البلادة الألمانية.

بلادة... قالت اليزابيت أعرف جيداً، أنك نعتني بالتحذلق

كلما عارضتك. أنت مذهل. لا يمكنك تقبل أي معارضة. ما تعنيه بالتعاون الفكري هو تأييد ساذج لكل آرائك. يمكنك أن تطلب هذا من سوزان، لكن ليس مني أنا. من سوء حظي أن لدي دماغاً وأدّعي استخدامه.

ـ ها أنك تلجئين فوراً إلى الحدّة، قال كلود.

تمالكت اليزابيت. المسألة فظيعة، يجد دائماً وسيلة ليجعلها هي المذنبة.

ـ قد تكون لهجتي حادة، قالت بسكون ساحق، لكنك لا تسمع نفسك وأنت تتكلم. يخال الواحد أنك تتوجه إلى طبقتك.

ـ دعينا لا نتشاجر مرة جديدة، قال كلود مسترضياً اليزابيت.

نظرت إليه بحقد. كان مصمّماً هذا المساء على غمرها بالسعادة، يشعر بنفسه مترقرقة حناناً وعذوبة وكرماً. سوف يرى.

ـ بصراحة يا كلود، هل تعتقد أن تجربة هذا الشهر كانت موفقة؟ سألت.

ـ أي تجربة؟ قال.

التهبت وجنتا اليزابيت وارتجف صوتها قليلاً.

ـ إن كنّا واصلنا علاقتنا بعد تفاهم الشهر الماضي، فعلى سبيل التجربة هل نسيت؟

ـ آه! أجل... قال كلود.

لم يعتبر بجدية احتمال الانفصال. بالطبع، خسرت كل شيء عندما أقامت علاقة معه وفي الليلة ذاتها. ظلّت لوهلة مرتبكة.

ـ حسناً، أعتقد أنني أستخلص من كل هذا أن الوضع مستحيل، قالت.

ـ مستحيل؟ لماذا مستحيل فجأة؟ ما الجديد الذي طرأ؟

ـ بالضبط، لا شيء.

ـ إذاً أوضحي لي، لست أفهم.

تردّدت. بالطبع، لم يذكر يوماً احتمال الانفصال عن زوجته. لم يعدها بشيء إطلاقاً. فلا مأخذ عليه بمعنى ما.

ـ حقاً،؟ أنت سعيد هكذا؟ قالت اليزابيت. كنت أرى حبّنا أعظم من هذا. أي حميميّة لدينا؟ نرى بعضنا في المطاعم، في الحانات أو في السرير.

ـ إنك تهذين يا حبيبتي، قال كلود. لا حميمية بيننا؟ لا يجول في بالي خاطر واحد إلاّ وأتقاسمه معك. تفهمين بصورة رائعة.

ـ أجل، حصلت على أفضل ما لديك، قالت اليزابيت بخشونة. أتعلم، كان يجدر بنا في الحقيقة الاكتفاء بما كنت تسميه قبل سنتين صداقة أيديولوجية. خطأي أنني أحببتك.

ـ لكن، بما أنني أحبك أيضاً؟ قال كلود.

ـ أجل، أجابت. إنه أمر مزعج، لا يمكن إلقاء أي لوم محدّد عليه. مجرّد مآخذ خسيسة.

ـ إذاً؟ سأل كلود.

ـ إذاً لا شيء، قالت اليزابيت. وضعت في هاتين الكلمتين حزناً لا متناهياً، غير أن كلود أبى أن يلاحظ الأمر. ألقى من حوله نظرة باسمة. شعر بالارتياح وبات مستعداً لتبديل الموضوع حين سارعت إلى القول:

ـ الواقع أنك بسيط. لم تنتبه يوماً إلى أنني لست سعيدة.

ـ تتلذذين في تعذيب نفسك، قال كلود.

ـ ربما أحبك أكثر مما ينبغي، أضافت اليزابيت ساهمة. أردت أن أعطيك أكثر مما كان في وسعك أن تأخذ. وإن كان الواحد صادقاً، فالعطاء هو أسلوب المطالبة. الخطأ كله خطأي، على ما أظن.

ـ دعينا لا نعيد النظر في حبّنا كلّما اجتمعنا، قال كلود. هذه الأحاديث في نظري عقيمة تماماً.

رمقته اليزابيت بنظرة غاضبة. ذلك الوضوح المأسوي في الرؤيا الذي جعلها في تلك اللحظة مؤثرة، كان عاجزاً حتى عن الإحساس به. ما الجدوى؟ شعرت بنفسها تصبح فجأة لئيمة قاسية.

ـ لا تخف. لن نعيد النظر في حبنا، قالت. علاقتنا ستكون بعد اليوم على صعيد مختلف.

ـ أي صعيد؟ على أي صعيد هي الآن؟ بدا كلود شديد الاستياء.

ـ لا أريد أن تربطني بك بعد الآن سوى صداقة هادئة، قالت. أنا أيضاً سئمت كل هذه التعقيدات. لكنني لم أكن أتصور أنني سأتوقف يوماً عن حبك.

ـ توقفت عن حبيّ؟ قال كلود غير مصدّق كلامها.

ـ يبدو لك الأمر مستحيلاً؟ إفهمني. ستظلّ غالياً عليّ، لكنني لن أتوقع منك شيئاً. ومن جهتي، سأستعيد حريتي. أليس هذا أفضل؟

ـ أنت تهذين، قال كلود.

أحمرّ وجه اليزابيت.

ـ إنك مجنون! أقول لك إنني لم أعد أحبك! المشاعر عرضة للتغيير. لم تلاحظ حتى أنني تغيرت.

ـ تأملها كلود بحيرة.

ـ متى توقفت عن حبيّ؟ قلت للتوّ إنك تحبينني أكثر مما ينبغي.

ـ أحببتك أكثر مما ينبغي في ما مضى. تردّدت. لست أدري تماماً كيف وصلت بي الأمور إلى هذا الحد، لكن الأمر واقع: لم أعد كما كنت. مثلاً... تابعت بسرعة وبصوت مخنوق قليلاً: ما كنت أبداً لأمارس الحب مع رجل سواك من قبل.

ـ تمارسين الحب مع غيري؟

ـ هل يزعجك الأمر؟

ـ من هو؟ قال كلود بفضول.

ـ ما همّ، فأنت لا تصدقني.

ـ لو كان هذا صحيحاً، لكنت صارحتني بصدق، قال.

ـ هذا ما أفعل، أجابت اليزابيت. أعلمك. لم تكن تتوقع مني استشارتك، أليس كذلك.

ـ من هو؟ ردّد كلود.

كان وجهه تبدّل وشعرت اليزابيت بخوف مفاجىء. إن كان يتألم، فسوف تتألم بدورها.

ـ غيميو، قالت بصوت غير واثق. تعرفه، عدّاء الفصل الأول.

ها إنها قالت الكلمات الحاسمة. لم يعد من الممكن العودة إلى الخلف. مهما نفت الآن، لن يصدقها كلود. لم يعد لديها وقت للتفكير. عليها التقدم من دون أن تبصر شيئاً. كان خطر فظيع متربصاً في الظلمة.

ـ ذوقك جيد، قال كلود. متى التقيته؟

ـ قبل عشرة أيام. أغرم بي بجنون.

ظلّ وجه كلود مغلقاً، لا يظهر أي تأثر. أظهر مراراً التشكيك والغيرة لكن من غير أن يقرّ بذلك. لا شك أنه يفضّل أن يقطّع إرباً بدل أن يتفوّه بكلمة لوم. لم يكن هذا مطمئناً البتّة.

ـ إنه حلّ ممكن في نهاية الأمر، قال. خطر لي غالباً أنه من المؤسف بالنسبة لفنّان أن يكتفي بامرأة واحدة.

ـ ستعوّض بسرعة عن الوقت الضائع، قالت اليزابيت. شانو الصغيرة مثلاً، مستعدة للاستسلام بين ذراعيك.

ـ شانو... كشّر كلود. أفضّل جان هاربلي.

ـ آه... يمكن تفهّم هذا، أجابت اليزابيت.

ضغطت بيديها الرطبتين على محرمتها. إنها تدرك الخطر الآن، وقد فات الأوان. لا سبيل للعودة إلى الخلف. لم تفكر إلاّ بسوزان، لكن ثمة كل النساء الأخريات، نساء شابات وجميلات سيحببن كلود ويعرفن كيف يجعلنه يحبّهن.

ـ ألا تظنين أنني سأحظى بفرصة؟ سأل كلود.

ـ لا يمكن القول إنك لا تعجبها، أجابت اليزابيت.

المسألة برمّتها جنون. ها هي تتفاخر وكل كلمة تقولها تجعلها تتورّط أكثر. لو أنهما فقط يتوقفان عن الهزل. تسلّحت بالشجاعة وقالت بجهد:

ـ لا أريدك أن تفكر أنني لم أكن صريحة يا كلود.

حدّق بها. احمرّ وجهها، لم تعد تعلم كيف تكمل كلامها.

ـ كان الأمر مفاجأة حقيقية. كنت أنوي على الدوام إطلاعك على المسألة.

إن واصل التحديق بها فسوف تجهش بالبكاء. عليها تجنّب هذا بأي ثمن، سيكون هذا دليل جبن. عليها ألاّ تواجهه بسلاح امرأة، رغم أنّ هذا سيسهّل الأمور. سوف يضع ذراعه حول كتفيها، فتنهار على صدره وينتهي الكابوس.

ـ كذبت عليّ طوال عشرة أعوام، قال كلود. ما كنت احتملت أن أكذب عليك ساعة واحدة. كنت أضع علاقتنا فوق أي اعتبار.

كان يتكلّم بعزّة متحسرة تليق بمُصلْح وشعرت اليزابيت بانتفاضة ثائرة.

ـ لكنك لم تكن صادقاً معي، قالت. وعدتني بالقسط الأفضل من حياتك ولم تكن يوماً لي. بقيت على الدوم لسوزان.

ـ لا يمكن أن تلوميني لإنصافي سوزان. الشفقة وعرفان الجميل وحدهما أمليا عليّ تصرفي حيالها، تعرفين هذا جيداً.

ـ لا أعرف شيئاً. أعلم فقط أنك لن تتركها من أجلي.

ـ هذا الاحتمال لم يطرح يوماً.

ـ وإن طلبت منك هذا؟

ـ يكون توقيتك فظيعاً، قال بقسوة.

صمتت اليزابيت. ما كان ينبغي أبداً أن تتحدث عن سوزان، لكنها لمن تتمالك. وهو يغتنم الفرصة. تراه عارياً، ضعيفاً، أنانياً، يلاحق مصلحته بعزة نفس خبيثة، يعرف أخطاءه، لكنه وبسوء نية

متصلّب يسعى ليفرض عن نفسه صورة خالية من أية عيوب. إنه عاجز عن أي مبادرة كرم أو صدق. تكرهه.

ـ سوزان مفيدة لمسارك الفني، قالت عملك المسرحي، فكرك، حياتك الفنية. لم تفكر بي يوماً.

ـ كم أن هذا الكلام دنيء! هكذا إذاً، تعتبرنني وصولياً؟ إن كان هذا ما تظنين، فكيف استطعت أن تتمسكي بي؟

سمعت ضحكة ووقع خطى على البلاط الأسود. كان بيار وفرنسواز متأبطين ذراعي كزافيير وبدوا جذلين.

ـ ها إننا نلتقي! قالت فرنسواز.

ـ إنه مكان مؤنس، أجابت اليزابيت. ودّت لو تخفي وجهها. بدا لها أنّ بشرتها متشنّجة إلى أقصى ما يمكن، شعرت بها تشدّ تحت عينيها، وحول فمها، في حين ينتفخ لحمها من تحتها. هكذا إذاً تخلصتم من الرسميين؟

ـ نعم، أنحسم الأمر تقريباً، قالت فرنسواز.

لِمَ لمْ يكن جيربير معهم؟ هل أن بيار يحذر فتنته؟ أم أن فرنسواز تخشى فتنة كزافيير؟ كانت كزافيير تبتسم من غير أن تتفوه بكلمة، ملائكية ومتعنتة.

ـ ليس النجاح موضع شك، قال بيار. ابتسم بحفاوة. ينبغي أن نجتمع يوماً. سيكون لدينا الوقت من الآن فصاعداً.

ـ أجل، ثمة مواضيع كثيرة أريد مناقشتها معك، أجاب كلود.

إخترق اليزابيت فجأة ألم لاذع. تراءى لها مشغلها المقفر. حيث لا ترتقب أي اتصال هاتفي، خانتها الفارغة في مقصورة البواب، المطعم الخالي، الشوارع المهجورة. هذا مستحيل، لم تكن

تريد أن تخسره. ما هم إن كان ضعيف الشخصية، أنانياً بغيضاً، فهي تحتاج إليه لتحيا. سوف تقبل بأي شيء من أجل أن تحتفظ به.

لا، لا تقم بأي مسعى مع بيرجيه قبل الحصول على ردّ من ناتوبيه، قال بيار. سيكون هذا سوء تصرّف. لكنني واثق من أن المشروع سيهمّه كثيراً.

ـ اتصل بنا بعد ظهر أحد الأيام وسوف نحدّد موعداً.

تواروا في قعر الصالة.

ـ لنجلس هنا، الجلسة تشبه كنيسة صغيرة، قالت كزافيير. ذلك الصوت الشديد العذوبة كان يثير الأعصاب مثل صرير أظفر على قماشة من الحرير.

ـ إنها لطيفة، هذه الفتاة، قال كلود. هل أنها غرام لابروس الجديد؟

ـ أعتقد. هو الذي يكره إلى أقصى الحدود لفت الأنظار، كان دخولهم صاخباً.

خيّم صمت بينهما.

ـ لا أريد أن نبقى هنا، قالت اليزابيت بعصبية، أمقت أن أحسّ بهم في ظهرنا.

ـ لا يهتمّون بنا، أجاب كلود.

ـ كلّ هؤلاء الأشخاص، كم أن الأمر بغيض، ردّدت اليزابيت بصوت متهدّج. إغرورقت عيناها، لم يعد في وسعها أن تتمالك طويلاً عن البكاء. لنذهب إلى غرفتي، قالت.

ـ كما تشائين. نادى كلود النادل وارتدت فرنسواز معطفها أمام المرآة. كان وجهها منهاراً. شاهدتهم في خلفية المرآة. كانت

كزافيير تتكلم، تقوم بإشارات بيديها في حين ينظر إليها فرنسواز وبيار مفتونين. عيونهما وآذانهما أمام اليزابيت. لو قبلا إشراكها مع كلود في حياتهما الخاصة، لو وافقا على مسرحية «بارتاج»... كل هذا غلطتهما. كانت اليزابيت تنتفض غضباً من رأسها إلى أخمص قدميها، تختنق. كانا سعيدين، يضحكان. هل سيظلاّن سعيدين هكذا إلى الأبد، بكمالهما الساحق؟ إلى أن يهبطا بدورهما يوماً إلى قعر هذا الجحيم المريع؟ أن ينتظرا مرتعدين، يستغيثا عبثاً، يتوسلا، يظلا وحيدين وسط الحسرة، القلق والإشمئزاز اللامتناهي من الذات. هكذا، واثقين من نفسيهما، متعجرفين، حصينين، أما من سبيل لإيذائهما إن ترقّبت بتنبّه؟

جلست اليزابيت بصمت في سيارة كلود. لم يتفوه أي منهما بكلمة حتى وصلا إلى بابها.

ـ لا أظن أن ثمة ما يمكن قوله بيننا، قال كلود حين أوقف السيارة.

ـ لا يمكن أن نفترق هكذا. أصعد للحظة.

ـ ما الفائدة؟

ـ أصعد، لم نتفاهم.

ـ ما عدت تحبينني، تفكرين عني أشياء مهينة. لم يعد هناك ما يمكن أن نتفاهم عليه، قال كلود.

كان هذا مجرّد تخويف، غير أنه لم يكن يسعها أن تدعه يرحل. متى تراه يعود؟

ـ إنني متعلقة بك يا كلود، قالت. هذه الكلمات جعلت الدموع تطفو إلى عينيها. تبعها. صعدت الأدراج وهي تبكي بتقطّع

من دون أن تتمالك. كانت تترنّح قليلاً لكنه لم يمسك ذراعها. حين دخلا المشغل، أخذ كلود يزرع الغرفة متجهماً.

ـ إن لم تعودي تحبينني، فأنت حرة، قال. لكن ما كان يربطنا كان يتخطّى الحب، وهذا ما كان عليك أن تحاولي إنقاذه. ألقى نظرة إلى الكنبة. هل مارست الحب هنا مع هذا الرجل؟

كانت اليزابيت انهارت فوق مقعد.

ـ لم يخطر لي أنك ستستاء مني يا كلود. لا أريد أن أفقدك من أجل قصة كهذه.

ـ لست أغار من ممثل صغير رديء، بل ألومك لأنك لم تخبريني شيئاً. كان عليك أن تفاتحيني بالأمر من قبل. ثم قلت لي هذا المساء أشياء تجعل الصداقة حتى مستحيلة بيننا.

كان يغار، يغار بكل بساطة. خدشت كبرياءه الذكوري ويريد أن يعذبها. كانت تعي ذلك، لكن هذا لا يساعدها، فذلك الصوت القاطع يمزّقها.

ـ لا أريد أن أخسرك، ردّدت. واستسلمت للبكاء.

أن تحترم القواعد، أن تلعب اللعبة بشرف، إنها لحماقة. فلا أحد سيقدرها من أجل ذلك. كانت تظن أن كل معاناتها الخفية ستنكشف يوماً، وكذلك كل الرهافة والصراعات الداخلية، وأنه سيبقى مذهولاً تحت وطأة الإعجاب والندم. لكن لا، لم تكن هذه سوى فضائل بلا جدوى. كنت السند الوحيد لي، واخترت هذا الوقت بالذات.

ـ ليس هذا عدلاً، كلود، قالت واهنة. ازداد نحيبها مثل طاقة تجرفها بعنف تضحي معه الكرامة والعار مجرّد كلمتين فارغتين.

كان يمكن قول أي شيء. أحببتك إلى حدّ غير معقول، كلود. لذلك أردت أن أنجو منك. أخبأت وجهها بيديها. هذا الإعتراف الشغف يستدعي كلود إلى جانبها، يفترض أن يأخذها بين ذراعيه، أن يزول الخلاف. سوف لن تتذمّر أبداً بعد الآن.

رفعت رأسها. كان متكئاً إلى الجدار وطرفا شفتيه يرتجفان بعصبية.

ـ قل لي أي شيء، قالت. كان يحدّق في الكنبة وعلى وجهه ارتسم تعبير شرير. من السهل التكهّن بما يبصر. لم يكن يجدر أن تأتي به إلى هنا. فالصور حاضرة طاغية.

ـ كفّي عن الانتحاب، قال. إن كنت ضاجعت هذا اللوطيّ الحقير، فلأنك رغبت في ذلك. لا شك أنك وجدت في ذلك ما يرضيك.

توقفت اليزابيت، وكأنها تختنق. بدا لها وكأنها تلقت لكمة وسط صدرها. لم يكن في مقدورها احتمال البذاءة. الأمر جسديّ.

ـ أمنعك من التحدث إليّ بهذه اللهجة، قالت بعنف.

ـ أتحدث باللهجة التي تعجبني، أجاب كلود رافعاً صوته. أجد الأمر مذهلاً، أن تأتيني الآن وتطرحي نفسك في موضع الضحيّة.

ـ لا تصرخ، قالت اليزابيت. كانت ترتجف. خيّل لها سماع جدّها حين كانت العروق على جبينه تنتفخ وتميل إلى اللون البنفسجي. لن أحتمل صراخك.

سدّد كلود ركلة إلى الموقدة.

ـ تريدينني أن أمسك بيديك؟ سألها.

ـ لا تصرخ، قالت اليزابيت بصوت يزيد اختناقاً. أخذت أسنانها تصطكّ. باتت النوبة العصبية وشيكة.

ـ لست أصرخ، إنني ذاهب. وقبل أن تتمكن من التفوّه بكلمة، كان كلود خرج. هرعت إلى الممشى.

ـ كلود، نادت. كلود.

لم يلتفت. رأته يتوارى وصفق بوابة المدخل. عادت إلى المشغل وشرعت تخلع ثيابها. لم تعد ترتجف. رأسها ممتلىء ماءً وليلاً. بات ضخماً وثقيلاً جداً، يجذبها إلى الهوّة. هوّة النوم، الموت أو الجنون، هوّة بلا قعر حيث ستقع إلى ما لا نهاية. انطرحت على الفراش.

حين عادت اليزابيت وفتحت عينيها، كان النور يعمّ أرجاء الغرفة. في فمها طعم ملح. لم تقم بحركة. كان ألم يلامسها في لهيب جفنيها، في طنين صدغيها الضئيل. ألم ما زال يلطّفه النعاس والحمّى. لو تستطيع فقط أن تغفو من جديد وتنام حتى الغد. ألاّ تضطر إلى اتخاذ قرار، ألاّ تفكر. كم من الوقت يمكنها المكوث هكذا، غارقة في هذا الخدر اللطيف. أن تتظاهر بالموت، تتراخى مثل حطبة بلا حراك. لكن مجرد شدّ جفنيها لإسدالهما والإمتناع عن رؤية مطلق شيء يستلزم منها بذل مجهود. التفتت مطبقة الأغطية الدافئة أكثر عليها. أخذت تنزلق من جديد في النسيان حين رنّ جرس الباب.

وثبت من السرير وقلبها يطرق بقوة. هل أنه كلود عاد؟ ماذا ستقول له؟ ألقت نظرة إلى المرآة، لم تكن تبدو منهارة جداً، لكن لا وقت لديها لاختيار موقف. رغبت للحظة ألاّ تفتح الباب. سوف يظنّ أنها ماتت أو اختفت. سوف يشعر بالخوف. أرهفت

السمع. لم يردها مطلق صوت من الجانب الآخر للباب. ربما استدار ببطء. قد يكون يهبط الأدراج وستبقى هي وحيدة، مستيقظة ووحيدة. ارتمت على الباب وفتحته. كان هذا غيميو.

ـ هل أزعجك؟ سأل مبتسماً.

ـ لا، أدخل، أجابت اليزابيت. نظرت إليه وانتابها شعور يشبه التقزّز.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ إنه الظهر على ما أظن. كنت نائمة؟

ـ أجل، قالت اليزابيت. ردّت الملاءات وربّتت على السرير. كان من الأفضل رغم كل شيء أن تكون بصحبة أحد ما. أعطني سيجارة واجلس.

كان يثير عصبيتها بتنقّله مثل هرّ بين قطع الأثاث. كان يحبّ التلاعب بجسده. يمشي بخطى متزلّقة ومرنة، يتحرك برشاقة ويسرف في إظهار ذلك.

ـ إنني عابر من هنا فقط، لا أودّ إزعاجك.

كان يسرف أيضاً في استخدام ابتسامته. ابتسامة رقيقة تغضّن عينيه. من المؤسف أنك لم تتمكني من القدوم الليلة الماضية. شربنا الشمبانية حتى الخامسة صباحاً. قال لي أصدقائي إنني أحدثت انطباعاً قوياً. ما كان رأي السيد لا بروس؟

ـ يبدو أن روزلاند يريد التعرّف إليّ. وجد وجهي مثيراً للإهتمام. سوف يقدم قريباً مسرحية جديدة.

ـ أتعتقد أن وجهك هو الذي يهمّه؟ لم يكن روزلاند يخفي سلوكه. بزرقة الماء، كل ما في وجهه يوحي بربيع نديّ.

ـ أليس وجهي مثيراً للإهتمام؟ سأل متأنقاً. لوطيّ صغير وجيغولو في آن. هذا هو غيميو.

ـ أليس لديك بعض من الطعام هنا؟

ـ اذهب وألق نظرة في المطبخ. العشاء، المأوى وما تبقّى، فكرت بقسوة. ثمة على الدوام ما يجنيه من زياراته: وجبة طعام، ربطة عنق، قليل من المال يقترضه ولا يسدّده. لم يكن الأمر يجعلها تبتسم اليوم.

ـ أتريدين بعض البيض المسلوق؟ سأل غيميو.

ـ لا، لا أريد شيئاً، أجابت. وردها من المطبخ خرير ماء وقرقعة أطباق وأوانٍ. لم تكن تجد حتى الشجاعة لطرده. بعد أن يرحل، سيتوجّب عليها التفكير.

ـ عثرت على بعض النبيذ، قال غيميو. وضع فوق زاوية من الطاولة صحناً، كوباً، شوكة وسكيناً. ليس لديك خبز، لكنني سأطهي البيض جيداً. يمكن أكلها هكذا بلا خبز أليس كذلك؟

جلس إلى المائدة وراح يؤرجح رجليه.

ـ قال أصدقائي إنه من المؤسف أن ألعب دوراً قصيراً كهذا. ألا تعتقدين أنه في وسع السيد لابروس أن يعطيني على الأقل دوراً بديلاً؟

ـ فاتحت فرنسواز ميكيل بالمسألة، قالت اليزابيت. كانت سيجارتها تبعث طعماً حاداً ورأسها يؤلمها. المسألة أشبه بالاستيقاظ غداة ليلة سكر.

ـ وماذا أجابت الآنسة ميكيل؟

ـ قالت إنه ينبغي التفكير في الأمر.

ـ يقول الناس دائماً إنه ينبغي التفكير في الأمر، أجاب غيميو مفتعلاً الوقار. الحياة صعبة. وثب نحو باب المطبخ. أظن أنني أسمع الماء يغلي.

يلاحقني لأنني شقيقة لابروس، فكرت اليزابيت. ليس الأمر جديداً. كانت على يقين بذلك طوال هذه الأيام العشرة الأخيرة، لكنها الآن تعبّر عنه بكلام. أضافت لنفسها: الأمر سيّان عندي. نظرت إليه نظرة غير ودودة وهو يضع الإناء على الطاولة وينزع القشرة عن بيضة بحركات صغيرة.

ـ ثمة امرأة بدينة، مسنّة بعض الشيء وأنيقة للغاية، أرادت أن تقلّني إلى منزلي في سيارتها مساء أمس.

ـ شقراء شعرها مجعّد؟

ـ أجل. لم أقبل بسبب أصدقائي. بدت وكأنها تعرف السيد لابروس.

ـ إنها عمّتنا. إني ذهبت مع أصدقائك لتناول العشاء؟

ـ إلى «توبسي»، ثم تسكعنا في مونبارناس. التقينا على كونتوار «الدوم» ذلك المدير الصغير. كان ثملاً تماماً.

ـ جيربير؟ كان بصحبة من؟

ـ كان هناك تيديسكو، كانتزيني الصغيرة وسازاليه، وكذلك شخص آخر. أعتقد أن كاتزيني عادت مع تيديسكو. كسر البيضة الثانية. هل إن المدير الصغير يهتم بالرجال؟

ـ ليس على علمي. إن قام بالتودّد إليك، فهذا يعني أنه سكران.

ـ لم يتودّد إليّ، قال غيميو وكأنما مصدوم. بل إن أصدقائي وجدوه رائعاً. ابتسم لاليزابيت بحميمية مفاجئة. لمَ لا تأكلين؟

ـ لست جائعة، قالت اليزابيت. لم يعد من الممكن أن يدوم الأمر أكثر. سوف تشعر بالعذاب قريباً، تحسّ بذلك.

ـ رداؤك هذا جميل، قال غيميو وهو يلامس بيد أنثوية حرير البيجاما. أخذت يده تزداد إلحاحاً ونعومة.

ـ لا، أتركني، قالت اليزابيت متعبة.

ـ لماذا، لم يعد هذا يعجبك؟ كانت لهجة غيميو توحي بتواطؤ فاسق، غير أن مقاومة اليزابيت سقطت. كان يقبّلها على عنقها، خلف أذنها. قبلات ضئيلة غريبة وكأنه يرعى. على الأقل، هذا يؤخر الساعة التي سيتوجب فيها التفكير.

ـ كم أنك باردة، قال وكأنه مرتاب. كانت اليد اندسّت تحت القماشة وهو يترقّبها بعينين نصف مغمضتين. لم تقدر على احتمال هذه النظرة، نظرة محترف. تلك الأصابع الخبيرة التي تمطر جسدها بوابل من الملامسات المخملية. شعرت فجأة أنها أصابع اختصاصيّ، توازي مهارة أصابع مدلّك، مصفّف شعر أو طبيب أسنان. كان غيميو ينجز باتقان عمله كذكر. كيف يمكنها تقبّل تلك المجاملة الساخرة؟

قامت بحركة للتفلّت منه، لكن كل ما فيها كان متثاقلاً واهناً، حتى أنها شعرت قبل أن تنهض بجسد غيميو العاري ملتصقاً بجسدها. هذا أيضاً كان جزءاً من المهنة، تلك السهولة في خلع ثيابه. كان جسداً مائعاً لدناً يتخذ شكل جسدها بسهولة فائقة. قبلات كلود الثقيلة، معانقاته العنيفة... فتحت عينيها قليلاً. كانت الرغبة تغضّن فم غيميو، تجعل نظراته مواربة. لم يكن يفكر في هذه اللحظة سوى بنفسه. أغمضت عينيها من جديد. شعرت بخزي لاذع يلتهمها. كانت تتوق لأن ينتهي كل هذا.

رقدت وجنة غيميو على كتف الزابيت في حركة دعوبة. إتكأت رأسها إلى الوسادة. لكنها كانت على يقين بأنها لن تغفو. انتهى الأمر الآن، لم يعد لديها أي حيلة. بات من المستحيل تجنّب العذاب.

الفصل (٥)

ـ ثلاثة فناجين قهوة، قال بيار. وأضاف: في فناجين.

ـ يا لك من عنيد، قال جيربير. قمنا أنا وفيلمان اليوم الماضي بكيل القهوة: فالأكواب تتسع للكمية ذاتها من القهوة تماماً.

ـ بعد الغداء، ينبغي تناول القهوة في فنجان، ردّ بيار بلهجة لا تقبل الجدل.

ـ يدّعي أنّ الطعم يختلف، أوضحت فرنسواز.

ـ إنه حالم خطير! قال جيربير. استغرق في التأمل للحظة بعد. يمكن أن أتفق معك في أقصر الأحوال على أن القهوة تبرد بسرعة أقل في الفنجان.

ـ ولماذا تبرد بسرعة أقل؟ سألت فرنسواز.

ـ لأن مساحة التبخّر أقلّ، أكّد بيار، واثقاً من نفسه.

ـ بدأت تقول أي شيء، قال جيربير. كل ما في الأمر أن البورسلين تحتفظ بالحرارة بشكل أفضل.

كانا طريفين حين يناقشان ظاهرة تتعلّق بالفيزياء. تكون عادة مسألة يختلقانها اختلاقاً.

ـ الإثنان يردان بالسرعة ذاتها، قالت فرنسواز.

ـ أتظنين؟ سأل بيار.

وضع جيربير أصبعه أمام شفتيه متظاهراً بالخفر. هزّ بيار رأسه في حركة مبطّنة مليئة بالمعاني. كان هذا سلوكهما العادي لإبداء تواطؤ وقح. غير أنهما اليوم يقومان بهذه الحركات بلا قناعة. كان الغداء طال كثيراً وبلا بهجة. بدا جيربير منهكاً. ناقشوا مطوّلاً المطالب الإيطالية. من النادر أن يتعثّر الحديث في عموميات كهذه.

ـ هل قرأتما تعليق سوديه هذا الصباح؟ سألت فرنسواز. يؤكد بلا تردّد ولا خوف أن الترجمة الحرفية هي خيانة للنصّ.

ـ يا لهم من عجائز خرفين، قال جيربير. لا يجرؤون على الاعتراف بأن شكسبير هو الذي يقلقهم.

ـ لا بأس، طالما أن النقد إلى جانبنا، أكّدت فرنسواز. هذا هو المهمّ.

ـ صفق الجمهور مساء أمس خمس مرات لاستدعاء الممثلين من جديد، قال جيربير. كنت أعدّ.

ـ هذا يسرّني، قالت فرنسواز. كنت واثقة من أنه يمكن الوصول إلى مشاعر الناس من دون تقديم أي تنازل. التفتت ببهجة إلى بيار. بات جلياً الآن أنك لست مجرد منظر يقتصر على التجريب في غرف مغلقة والجمالية الكنائسية. قال لي خادم الفندق إنه بكى حين قتلوك.

ـ لطالما قلت لنفسي إنه شاعر، أجاب بيار. ابتسم بشيء من

الضيق. تبدّد حماس فرنسواز. كان بيار مسترسلاً في بهجة محمومة لدى انتهاء الإحساس بالانتصار هذا فارقه مع حلول اليوم التالي. هكذا هو بيار. لكان الفشل هزّه كلياً، غير أنه لا يرى في النجاح سوى مرحلة غير مهمّة على طريق إنجاز مهام أكثر صعوبة يحدّدها لنفسه على الفور. لا ينقاد مرة للغرور، لكنه يجهل كذلك حبور العمل المتقن. نظر إلى جيربير مستفسراً: ما الذي يتردّد في أوساط بيكلار؟

ـ آه! يقولون إنك خارج تماماً عن الخط العام، قال جيربير. تعرف جيداً، إنهم متمسكون بعودة العنصر البشري وكل هذا الهراء. لكنهم يودّون رغم ذلك معرفة ما في أحشائك بالضبط.

كانت فرنسواز واثقة من أنها لا تخطىء في تقديرها: ثمة قدر من الإكراه في مودّة جيربير.

ـ سيكونون مترقّبين السنة المقبلة حين ستعدّ مسرحيتك، قالت فرنسواز. أضافت فرحة: الآن، بعد نجاح «يوليوس قيصر»، صرنا واثقين من أن الجمهور سيتبعك. إنه أمر رائع حين تفكر به.

ـ سيكون جيداً أن يصدر كتابك في الوقت نفسه، قال جيربير.

ـ ستحرز أكثر من الشهرة، ستصيب مجداً حقيقياً، أكّدت فرنسواز. ارتسمت على وجه بيار ابتسامة ضئيلة.

ـ هذا إن لم تلتهمنا الخنازير الصغيرة، قال:

ـ تظن حقاً أننا سنقاتل من أجل دجيبوتي؟ سألت.

هزّ بيار كتفيه.

ـ أظن أننا استعجلنا الابتهاج باتفاقات ميونيخ. أمور كثيرة يمكن أن تحصل قبل حلول السنة المقبلة.

خيّم بينهم صمت قصير.

ـ قدّم مسرحيتك في آذار، اقترح جيربير.

ـ إنه وقت غير مناسب، قالت فرنسواز. ثم إنها لن تكون جاهزة.

ـ ليست المسألة أن أقدّم مسرحيتي بأي ثمن، أوضح بيار، بل أن أعرف إلى أي مدى يبقى تقديم مسرحية أمراً ذا أهمية.

نظرت إليه فرنسواز مضطربة حين شبّه نفسه قبل ثمانية أيام في الـ «بول نور» بحشرة عنيدة، لم تشأ أن ترى في هذا الخاطر أكثر من دعابة. لكن يبدو أن قلقاً حقيقياً نشأ في داخله.

ـ قلت لي في أيلول إنه يتوجب علينا الاستمرار في الحياة حتى وإن نشبت حرب.

ـ بالتأكيد، لكن بأي طريقة؟ تأمل بيار أصابعه تائهاً. أن يكتب الواحد، أن يخرج مسرحيات، ليس هذا رغم كل شيء هدفاً بحد ذاته.

كان حقاً حائراً، وكادت فرنسواز تنقم عليه. كانت بحاجة لأن تؤمن به مطمئنة البال.

ـ إن فكّرت بهذه الطريقة، فما الذي يشكّل هدفاً بحد ذاته؟

ـ هذا بالذات ما يجعل كل شيء معقداً، قال بيار. بدا تائهاً حتى البلاهة تقريباً. كان هذا التعبير يرتسم على ملامحه في الصباح وهو يبحث يائساً عن جاربيه في أرجاء الغرفة، وعيناه لا تزالان متورّدتين من النعاس.

ـ الساعة الآن الثانية والنصف، قال جيربير.

لم يكن عادة يبادر بالكلام. تلك اللحظات التي يمضيها برفقة بيار كانت الأعز إلى نفسه.

ـ ستتأخر كزافيير مرة جديدة، قالت فرنسواز. الأمر مزعج. العمة مصرة على أن نصل في الوقت المحدّد لتناول كأس البورتو الذي تقدّمه عند الافتتاح في الثالثة تماماً.

ـ سوف تضجر هناك، قال بيار. كان يجدر أن نلتقيها فيما بعد.

ـ تريد أن ترى كيف يجري افتتاح معرض، أوضحت فرنسواز. لست أدري ماذا تتصور.

ـ سوف تضحكان! قال جيربير.

ـ إنه من محميّي العمة، أوضحت فرنسواز. لا يمكن تجنّب الذهاب. لم أذهب إلى حفل الكوكتيل الأخير، ويبدو أن الأمر لم يكن لائقاً.

نهض جيربير وقام بإشارة طفيفة مستودعاً بيار.

ـ إلى المساء.

ـ إلى اللقاء، قالت فرنسواز بحفاوة. نظرت إليه وهو يبتعد في معطفه الفضفاض الذي يلامس عقبيه. كان معطفاً قديماً لبيكلار. كانت الجلسة أليمة، قالت.

ـ إنه لطيف، لكن ليس لدينا أشياء كثيرة نقولها لبعضنا.

ـ لم يكن الوضع يوماً هكذا. بدا لي كئيباً جداً. ربما لأننا أهملنا مساء الجمعة. لكنه كان من المحتمل أن نرغب في العودة والنوم على الفور. كنا منهكين.

ـ إلاّ إذا التقانا أحد ما، قال بيار.

ـ هرعنا إلى «البول نور» ومن هناك قفزنا في سيارة أجرة. اليزابيت وحدها رأتنا، لكنني نبّهتها. مررت فرنسواز يدها على عنقها وملّست شعرها. إن صحّ ظنّي، فالأمر محزن. سوف يجرح مشاعره بشكل فظيع.

احتفظ جيربير من سنّ المراهقة بحساسية مفرطة سرعان ما تنخدش. أكثر ما يخشاه أن يكون حضوره مزعجاً. كان بيار الشخص الوحيد الذي يعلّق عليه أهمية حقيقية في حياته. يقبل بسرور أن تكون عليه واجبات تجاهه، إنما شرط أن يشعر بأن بيار لا يهتم به بدافع واجب ما.

ـ لا، لا يمكن، قال بيار. على كل حال، كان مساء أمس فرحاً وودوداً. جيربير كئيباً من غير أن يكون في وسعها القيام بأي شيء من أجله. تحب أن تعلم أنه سعيد. تلك الحياة السويّة واللطيفة التي يعيشها تسحرها. يعمل باندفاع ونجاح. لديه بعض الأصدقاء ذوي مواهب تثير سروره: مولييه الذي يجيد العزف على البانجو، باريسون الذي يتكلم لغة العامة باتقان، كاستييه الذي يحتمل بلا عناء ستة كؤوس بيرنو. غالباً ما كان يتدرّب معهم في المساء في مقاهي مونبارناس على مقاومة مفعول البيرنو. كان البانجو يناسبه أكثر. أما باقي الوقت، فكان يفضّل البقاء وحيداً. يذهب إلى السينما، يقرأ، يتنزّه في باريس وهو يداعب أحلاماً صغيرة متواصلة ومتشبتة.

ـ لماذا لا تصل هذه الفتاة؟ تساءل بيار.

ـ ربما لا تزال نائمة، قالت فرنسواز.

ـ لا، حين مرت بمقصورتي مساء أمس، قالت بوضوح إنها

ستطلب من أحد ما أن يوقظها. ربما كانت مريضة، لكنها في هذه الحال لكانت اتصلت.

ـ لا، هذا لا يمكن، لأن الهاتف يبعث فيها خوفاً فظيعاً. يتهيأ لها أنه آلة شريرة. لكن أظن أنها نسيت الوقت على الأرجح.

ـ لا تنسى الوقت إلا عن سوء نيّة. ولا أرى من سبب ليبدّل مزاجها فجأة.

ـ يحصل لها أن تتغيّر بلا سبب.

ـ ثمة دائماً أسباب، قال بيار ببعض العصبية. كل ما هناك أنك أحياناً لا تحاولين التعمّق فيها. وجدت فرنسواز لهجته بغيضة. فهي ليست مسؤولة.

ـ لنذهب ونأتي بها، قال بيار.

ـ ستجد في الأمر تطفّلاً، احتجّت فرنسواز. ربما تعامل كزافيير وكأنها آلة، غير أنها على الأقل تحرص على مراعاة دواليبها الدقيقة. أمر مزعج حقاً أن يغيظوا العمة كريستين، غير أن كزافيير من جهتها ستستاء لو دخلا الغرفة عليها لملاحقتها بإصرار.

ـ لكنها هي التي تقوم بتصرف غير لائق، قال بيار. نهضت فرنسواز. من المحتمل في نهاية الأمر أن تكون كزافيير مريضة. فهي منذ نقاشها مع بيار قبل ثمانية أيام لم تظهر أي تقلّب في مزاجها. الليلة التي أمضوها معاً يوم الجمعة الماضي بعد العرض الخاص ملأتها بهجة عارمة.

كان الفندق قريباً ووصلا إليه بلحظة. الساعة الآن الثالثة. لم يعد من الممكن إهدار دقيقة واحدة. حين اندفعت فرنسواز صاعدة الأدراج، نادتها صاحبة الفندق.

ـ آنسة ميكيل، هل أنت ذاهبة إلى الآنسة باجيس؟

ـ أجل، لماذا؟ سألت فرنسواز متعالية قليلاً. تلك العجوز الدائمة الشكوى لم تكن مزعجة كثيراً، غير أنها تبدي غالباً فضولاً في غير مكانه.

ـ أودّ أن أقول لك كلمة بشأنها. تردّدت العجوز عند باب الصالون الضيّق، لكن فرنسواز لم تتبعها إلى الداخل. تذمّرت الآنسة باجيس منذ قليل من أن مغسلتها مسدودة، فلفت انتباهها إلى أنها ترمي فيها الشاي وقطعاً من القطن ومياهاً وسخة. وأضافت: الفوضى تعمّ غرفتها. ثمة أعقاب سجائر وعجمات فاكهة في كل مكان وغطاء السرير يحمل حروقاً من كل أطرافه.

ـ إن كنت تشكين من الآنسة باجيس، عليك أن تتوجّهي إليها هي، أجابت فرنسواز.

ـ هذا ما فعلت، قالت صاحبة الفندق، وأكّدت لي أنها لن تبقى هنا يوماً واحداً. أظن أنها تحزم حقائبها. تفهمينني، ليس لديّ أي مشكلة في تأجير غرفي، أتلقى طلبات كل يوم، وسوف يسرّني رحيل مستأجرة مثلها. تدع الأضواء مشتعلة طوال الليل، لا تعرفين كم يكلّفني هذا. ثم أضافت بلهجة طيّبة: غير أنني لا أريد أن أضعها في موضع حرج لأنها صديقة لك. أردت أن أقول لك إنها لو بدّلت رأيها، فلن أثير مصاعب.

كانت فرنسواز تعامل بقدر خاص من الاهتمام منذ أن دخلت هذا النزل. فهي تغدق على المرأة بالبخشيش، ما يسرّها كثيراً. لكن الأهم إنها كانت تدفع الإيجار بانتظام.

ـ سأقول لها هذا، ردّت فرنسواز. شكراً. صعدت الأدراج بعزم.

ـ ينبغي ألاّ تزعجنا هذه العجوز النكدة، قال بيار. ثمة فنادق أخرى في مونبارناس.

ـ إنني مرتاحة هنا، أجابت فرنسواز. فالفندق دافىء وتوجيهه جيد. فرنسواز تحب مزيج نزلائه وورق جدرانه البغيض المكسو بالزهور.

ـ هل تطرق الباب؟ قالت فرنسواز متردّدة. دقّ بيار على الباب فانفتح بسرعة مفاجئة وظهرت كزافيير مشعّثة الشعر، حمراء الوجه تقريباً. كانت شمّرت كمّي قميصها وبدت تنورتها ملطّخة بالغبار.

ـ آه! أنتما! قالت وكأنما فوجئت.

غير مجدٍ أن يحاول الواحد توقع استقبال كزافيير، فهو يخطىء دائماً. وقف بيار وفرنسواز مسمّرين مشدوهين.

ـ ماذا تفعلين؟ سأل بيار.

تورّم عنق كزافيير.

ـ أنتقل من هنا، قالت بنبرة مأسوية. كان المشهد مذهلاً. فكرت فرنسواز قليلاً بالعمّة كريستين التي أخذت شفتاها بلا شك تتشنّجان، لكن أي فكرة بدت تافهة إزاء الإعصار الذي اجتاح غرفة كزافيير. وانطبع على وجهها. كانت ثلاث حقائب مشرّعة وسط الغرفة. الخزائن صبّت على الأرض تلالاً من الثياب المكدّسة، الأوراق وأغراض التبرّج.

ـ وتنوين الإنتهاء قريباً؟ سأل بيار وهو ينظر واجماً إلى هذا التدنيس.

ـ لن أتمكن أبداً من إتمام عملي! قالت كزافيير. ارتمت فوق كنبة ضاغطة صدغيها بين أصابعها. تلك الساحرة...

ـ كلّمتني للتوّ، أجابت فرنسواز. قالت لي إنه بإمكانك المكوث هنا هذه الليلة إن كان هذا يناسبك.

ـ آه! فوجئت كزافيير. التمعت في عينيها ومضة أمل سرعان ما انطفأت. لا، عليّ أن أرحل فوراً.

ـ لكنك لن تعثري على غرفة أخرى الليلة بالذات.

ـ آه! طبعاً لا، قالت كزافيير. أخفضت رأسها وظلت مطرقة لوقت طويل من غير أن تهزّ رأسها الذهبيّ.

ـ إذاً دعي كل هذا، قالت فرنسواز وقد استعادت رشدها فجأة. غداً نبحث معاً.

ـ أدع كل هذا؟ سألت كزافيير. لكنني لا أستطيع العيش ساعة واحدة، وسط هذه الفوضى.

ـ سأرتّب الأغراض معك هذا المساء، أجابت فرنسواز. نظرت كزافيير بامتنان متباكٍ. اسمعي، إرتدي ثيابك وانتظرينا في الدوم. أما نحن، فسنسرع إلى افتتاح المعرض ونعود بعد ساعة ونصف.

وثبت كزافيير ممسكة شعرها بيدها.

ـ آه! كنت أودّ الذهاب هناك! سأكون جاهزة بعد عشر دقائق. عليّ فقط أن أمشّط شعري.

ـ العمة بدأت تتذمّر، احتجّت فرنسواز.

هزّ بيار كتفيه.

ـ على كل حال، فاتنا كأس البورتو، قال غاضباً. لم يعد يهمّ أن نصل هناك قبل الخامسة.

ـ كما تشاء، أجابت فرنسواز. لكنني سأتحمّل العواقب مرة جديدة.

ـ أنت لا تكترثين في نهاية الأمر، قال بيار.

ـ ستبتسمين لها ابتسامات ساحرة، قالت كزافيير.

ـ حسناً، قالت فرنسواز. ستختلق لنا عذراً.

ـ سأحاول، تمتم بيار.

ـ إذاً، انتظرك في غرفتي، قالت فرانسواز.

صعدا الأدراج.

ـ إنها ما بعد ظهيرة ضائعة، قال بيار. لن يبقى لنا متسعٌ من الوقت للذهاب إلى أي مكان بعد المعرض.

ـ قلت لك إنه لا يمكن التعايش معها، ردّدت فرنسواز. اقتربت من المرآة: تلك التسريحة التي ترفع الشعر تجعل من الصعب كشف العنق بشكل واضح. المهمّ ألاّ تصرّ على الانتقال.

ـ لست بحاجة إلى اللحاق بها، قال بيار. بدا مستاءً بشدة. فرنسواز تراه على الدوام باسم الوجه، حتى أنها نسيت تقريباً أنه سيىء الأطباع. غير أن نوبات الغضب التي تصيبه في المسرح باتت معروفة. إن اعتبر المسألة إهانة شخصية، فستكون ما بعد الظهيرة عاصفة.

ـ سوف أفعل، تعلم هذا جيداً. لن تصرّ، لكنها ستغرق في يأس تام. جالت فرنسواز بنظرها في أرجاء غرفتها.

ـ فندقي الصغير الطيّب! من حسن الحظ أنه ينبغي أن نأخذ في الحسبان خمولها.

اقترب بيار من المخطوطات المكدّسة على الطاولة.

ـ أتعلمين، قال، أظنّ أنني سأحتفظ بـ «السيد الريح». هذا

الشخص يثير اهتمامي، ينبغي تشجيعه. سوف أدعوه للعشاء ذات مساء لتحكمي عليه.

ـ يجب أن أعطيك «هياسينث» أيضاً، يبدو لي أنه واعد.

ـ دعيني أرى، قال بيار. أخذ يتصفّح المخطوطة وانحنت فرنسواز فوق كتفه لتقرأ معه. كان مزاجها متعكراً. لو كانت وحدها مع بيار لكانت انتهت بسرعة من هذا المعرض. لكن الأمور تتعقد بسرعة مع كزافيير حتى يخيّل للواحد أنه يسير في الحياة وهو يجرّ خلفه كيلوغرامات من الصلصال وكأنه استيقظ متعكّر المزاج. مضت حوالي نصف ساعة قبل أن تدقّ كزافيير على الباب. هبطوا الأدراج مسرعين.

ـ أين تريدين الذهاب؟ سألت فرنسواز.

ـ لا يهمني الأمر، أجابت كزافيير.

ـ ليس لدينا أكثر من ساعة، قال بيار. لنذهب إلى الدوم.

ـ كم الطقس بارد، تذمّرت كزافيير وهي تلفّ وجهها بمنديلها.

ـ المكان قريب جداً، قالت فرنسواز.

ـ ليس لدينا المفهوم ذاته للمسافات، أجابت كزافيير ووجهها متشنّج.

ـ للوقت كذلك، أجاب بيار بصوت لاذع.

كانت فرنسواز بدأت تقرأ في قلب كزافيير. هي تعلم أنها مخطئة. وتظن أنهما ناقمان عليها فتستبق ردة فعلهما. ثم إن محاولة الانتقال هذه من الغرفة أنهكتها، أرادت فرنسواز أن تمسك ذراعها. فهم مشوا طوال ليل الجمعة مشية واحدة، متأبطين أذرع بعضهم.

ـ لا، قالت كزافيير، سنسير بخطى أسرع كلاً على انفراد.

إزداد وجه بيار تجهّماً. خشيت فرنسواز أن يغضب حقاً. حلسوا في قعر المقهى.

ـ أتعلمان، لن يكون هذا الافتتاح مهماً البتّة، بادرت فرنسواز. أولئك الرسّامون الذين تتولى العمّة أمرهم لا يتمتعون مرة بذرّة من الموهبة. ذوقها أكبر من هذه الناحية.

ـ لا آبه، أجابت كزافيير، الحفل هو ما يهمّني. أمّا الرّسم، فيثير فيّ دائماً الملل.

ـ لأنك لم تشاهدي أبداً لوحات، أوضحت فرنسواز. لو أنك ترافقينني إلى معارض أو حتى إلى اللوفر...

ـ هذا لن يبدّل شيئاً، قالت كزافيير. اللوحة صارمة، مسطّحة تماماً.

ـ لو كنت مطّلعة قليلاً، لكنت استمتعت بالرسم، أنا واثقة ممّا أقول.

ـ هذا يعني أنني سوف أفهم لماذا عليّ أن أستمتع. لكنني أنا لن أكتفي أبداً بهذا. لن أبحث لنفسي عن أعذار تبعث فيّ الإحساس حين لن أعود أحسّ بأي شيء.

ـ ما تصفينه بالإحساس ليس في الحقيقة سوى طريقة للفهم. تحبّين الموسيقى، إذاً...

قاطعتها كزافيير.

ـ أتعرفين، حين يتحدثون عن موسيقى جيّدة وموسيقى رديئة، فهذا يثير حفيظتي، قالت بتواضع عدائي. لست أفهم أي شيء في

الموسيقى. تعجبني العلامات الموسيقية من أجلها فقط. مجرّد الصوت، هذا يكفيني. حدّقت في عيني فرنسواز. أما بهجة الذهن، فأمقتها.

حين تعاند كزافيير، فالنقاش لا يجدي. رمقت فرنسواز بيار بنظرة لوم. هو الذي أراد انتظار كزافيير. في وسعه على الأقل المشاركة في الحديث بدل أن يختبىء خلف ابتسامة ساخرة.

ـ أحذّرك من أن الحفل، كما تسمّينه، ليس طريفاً البتّة، قالت فرنسواز. مجرّد أشخاص يتبادلون اللياقة.

ـ آه! على الأقل هناك أناس، حركة، ردّت كزافيير بنبرة مطالبة شغفة.

ـ أترغبين في التسلية في هذه الآونة؟

ـ يا له من سؤال! قالت كزافيير.

عبرت عينيها التماعة وحشيّة.

ـ أبقى أسيرة هذه الغرفة من الصباح إلى المساء. سوف أجنّ. لم يعد في مقدوري احتمال نفسي فيها. لا يمكن أن تعرفي كم ستسرّني مغادرتها.

ـ من يمنعك من الخروج؟ سأل بيار.

ـ تقولين إن الذهاب إلى المرقص مع النساء ليس مسلياً. لكن بيغراميان أو جيربير يصطحبانك بسرور، كلاهما يجيد الرقص، قالت فرنسواز.

ـ حين يقرر الواحد أن يلهو حسب الطلب، فالأمر يدعو دائماً للرثاء.

تريدين أن يهبط لك من السماء كالمنّ، قالت فرنسواز، ولا

تتنازلين وترفعين أصبعاً واحداً. وبعد ذلك، تهاجمين العالم. بالطبع...

ـ لا بدّ أن هناك بلاداً، قالت كزافيير حالمة، بلاد حارة: اليونان، صقليّة. هناك لا نحتاج بالتأكيد إلى رفع أصبع واحد.

عقدت حاجبيها.

ـ أما هنا، فعلينا أن نتمسّك بيدينا، ومن أجل التماس أي شيء؟

ـ حتى هناك، قالت فرنسواز.

أومضت عينا كزافيير.

ـ أين هي، تلك الجزيرة الحمراء المحاطة بالمياه الغالية؟ سألت بنهم.

ـ سانتوران، في اليونان، أجابت فرنسواز. لكن ليس هذا ما قلته لك تماماً. الكتل الصخرية وحدها حمراء. والمياه غالية فقط بين جزيرتين صغيرتين سوداوين مكوّنتين من ترسّبات بركانية. آه، تابعت بحرارة، أذكر بحيرة من الميّاه الكبريتية بين هذه الترسّبات. كانت صفراء تماماً ومسوّرة بلسان من الأرض أسود كالفحم. ومن الجانب الآخر لهذا الشريط الأسود مباشرة يمتدّ البحر مشعاً بزرقته.

كانت كزافيير تحدّق بها بنظرة متقدة.

ـ حين أفكر في كل ما شاهدته، قالت بصوت ملؤه اللوم.

ـ أتظنين أنها لا تستحقه؟ سأل بيار.

نظرت إليه كزافيير. أشارت إلى المقاعد الجلدية المتّسخة، الطاولات القذرة.

ـ يصعب علي أن أتصوّر كيف تستطيعان بعد كل هذا القدوم إلى هنا والجلوس على هذه المقاعد.

ـ ما نفع الاسترسال في النوم؟ سألت فرنسواز.

ـ بالطبع، لا تريدين أن تأسفي على أي شيء. فأنت مصرّة على أن تكوني سعيدة.

تاهت نظرتها في البعيد.

ـ أنا لم أولد مطأطأة الرأس.

أصيبت فرنسواز في الصميم. ذلك التصميم المسبق على السعادة الذي يتهيأ لها أنه يفرض نفسه بشكل لا يقبل الشك، أيمكن إذاً رفضه بازدراء؟ لم تعد، سواء عن حق أو عن غير حق، ترى في كلام كزافيير مجرّد مزاح، بل نظاماً كاملاً من القيم يتعارض مع نظامها هي. مهما تجاهلته، يبقى وجوده مزعجاً.

ـ ليس هذا استسلاماً، أجابت بحدّة. تحب باريس، هذه الشوارع، هذه المقاهي.

ـ كيف يمكن أن تحبّوا أمكنة كئيبة، أشياء بشعة وكلّ هؤلاء الأشخاص البغيضين؟ كان صوت كزافيير يشدّد باشمئزاز على كل هذه الصفات.

ـ هذا لأن العالم بأسره يهمّنا. أما أنت، فتنادين بالجمال، تبحثين عن الجمال الصرف، غير أنها وجهة نظر ضيّقة جداً.

ـ هل عليّ أن اهتم بهذا الصحن الصغير بحجّة أنه يدّعي الوجود؟

نظرت كزافيير باستياء إلى الصحن الموضوع تحت فنجانها.

ـ يكفي أنها هنا، قالت.

وأضافت بسذاجة مفتعلة:

ـ كنت أظن أنه حتى يكون الواحد فناناً، يحبّ الأشياء الجميلة.

هذا يتوقف على ما نعتبره شيئاً جميلاً، قال بيار.

نظرت كزافيير إليه

ـ يا لها من مفاجأة! إنك تستمع، قالت بعذوبة متوحشة، ظننتك سارحاً في أفكار عميقة.

ـ بل أستمع بانتباه.

مزاجك عكر، قالت كزافيير وهي تحتفظ بابتسامتها.

ـ مزاجي ممتاز. أرانا نمضي ما بعد ظهيرة ممتعة. سوف نذهب إلى افتتاح المعرض، ولدى خروجنا من هناك، بالكاد سيتسنّى لنا تناول سندويش. إنه حقاً تصرّف حذق.

ـ وتعتبر أن هذا ذنبي؟ سألت كزافيير وهي تكشف عن أسنانها.

ـ لا أظن أنه ذنبي أنا، أجاب بيار.

إن كان أصرّ على التقاء كزافيير في أسرع وقت ممكن، فليبدي لها استياءه. كان في وسعه التفكير بي قليلاً، خطر لفرنسواز بنقمة. لم يكن الموقف مريحاً بالنسبة لها.

ـ صحيح، لمرّة تجد بعض الوقت، قالت كزافيير وقد ازدادت تكشيرتها. يا للمصيبة إن ضاعت بضع لحظات سدى.

فوجئت فرنسواز لسماعها كلمات اللوم هذه. أتراها أساءت تفسير كلام كزافيير مرة جديدة؟ أربعة أيام فقط مضت منذ يوم الجمعة، وبالأمس سلّم بيار بكثير من الودّ على كزافيير في المسرح. إن اعتبرت أنه يهملها، فلا بدّ أنها باتت شديدة التعلّق به.

التفتت كزافيير نحو فرانسواز.

ـ كنت أتخيّل حياة الأدباء والفنانين بشكل مختلف تماماً، قالت بلهجة اجتماعية. لم أكن أظن أنها منظمة على هذا النحو، بدقة بالغة.

ـ كنت تودين أن يكونوا هائمين في العاصفة وشعرهم يتطاير في الريح، أجابت فرنسواز. شعرت بنفسها حمقاء تماماً تحت وطأة نظرة بيار الساخرة.

ـ لا، بودلير لا يتطاير شعره في الريح، قالت كزافيير.

أكملت بصوت رزين:

ـ في نهاية الأمر، إن استثنيناه مع رمبو، فالفنانون مجرد موظفين.

ـ لأننا نعمل بانتظام وبشكل يومي؟ سألت فرنسواز.

ارتسمت على وجه كزافيير تكشيرة لطيفة.

ثم إنكم تعدّون ساعات النوم التي حظيتم بها، تتناولون وجبتين في اليوم، تقومون بزيارات، لا يذهب أيكما في نزهة من دون الآخر. لا شك أنه لا يمكن أن يكون الوضع غير ذلك...

ـ لكن هل تجدين الأمر يائساً؟ قالت فرنسواز متصنّعة ابتسامة. لم يكن كلام كزافيير يعكس صورة حسنة عنهم.

ـ أمر غريب أن يجلس الواحد كل يوم أمام طاولته ليرصف جملاً، تابعت كزافيير. أتقبّل جيداً فكرة أن يكتب الواحد، أضافت بحدّة. الكلام أمر مثير، لكن فقط حين تمتلك الرغبة في ذلك.

ـ قد نرغب بإتمام عمل بمجمله، قالت فرنسواز. كانت تشعر إلى حدّ ما بالرغبة في تبرير نفسها في نظر كزافيير.

ـ يدهشني مستوى حديثكم الرفيع قال بيار. ابتسامته المسيئة شملت كلاً فرنسواز وكزافيير، وشعرت فرنسواز بالارتباك. أيمكن أن يحكم عليها من الخارج وكأنها غريبة، وهي التي تعجز عن وضع أي مسافة بينهما؟ هذا تصرّف خسيس.

لم تحرّك كزافيير ساكناً.

ـ يصبح الأمر أشبه بالمهمّة.

ضحكت ضحكة متسامحة.

على كل حال، هذه هي فعلاً نظرتكما للأمور. تُحوّلا كل شيء إلى واجب.

ـ كيف يمكن قول هذا؟ أضافت فرنسواز أؤكد لك أنني لا أشعر بنفسي مكبّلة إلى هذا الحدّ.

أجل، ستتفاهم مع كزافيير بشكل نهائي هذه المرة وستقول لها بدورها ما تفكر هي عنها. أمر لطيف أن تدعها تتعالى عليهما في بعض الأمور، غير أنها تستغل المسألة وتسرف.

ـ لنأخذ مثل علاقاتكما بالناس. وراحت كزافيير تعدّ على أصابعها: اليزابيت، عمّتكما، جيربير والعديدون الآخرون. أفضّل العيش وحيدة والاحتفاظ بحريتي.

ـ أنت لا تفهمين أن اعتماد سلوك سويّ نوعاً ما لا يعني الاستعباد، قالت فرنسواز باستياء. نحاول بملء حريتنا مثلاً ألاّ تحزن اليزابيت.

ـ إنّكما تمنحانها حقوقاً عليكما، أجابت كزافيير بازدراء.

ـ لا، أبداً، قالت فرنسواز. العلاقة مع العمّة أشبه بصفقة خبيثة لأنها تعطينا مالاً. اليزابيت تأخذ ما نعطيها. أما جيربير، فنلتقيه لأن هذا يروق لنا.

ـ آه! لكنه يظن أن لديه حقوقاً عليكما، قالت كزافيير بلهجة حازمة.

ـ ما من أحد يظن أن لديه حقوقاً أقل من جيربير، قال بيار بهدوء.

ـ هذا ما تعتقد؟ سألت كزافيير. أنا أعرف العكس تماماً.

ـ ماذا يمكن أن تعرفي؟ قالت فرنسواز، وقد أثار كلام كزافيير فضولها. بالكاد تبادلت معه ثلاث كلمات.

تردّدت كزافيير.

ـ إنه من قبيل الحدس الملازم للقلوب النبيلة، قال بيار.

ـ حسناً، بما أنكما مصرّان على معرفة الأمر، قالت كزافيير بحنق، بدا مثل أمير صغير أهين شرفه حين قلت مساء أمس أنني خرجت معكما يوم الجمعة.

ـ قلت له هذا! قال بيار.

ـ أوصيناك بلزوم الصمت حول هذا الموضوع، قالت فرنسواز

ـ آه! زلّ لساني، أجابت كزافيير غير مبالية. لست معتادة لكلّ هذه الخطط.

تبادلت فرنسواز مع بيار نظرة مذعورة. لا شكّ أن كزافيير فعلت هذا عن قصد، بدافع غيرة حقيرة. لم تكن متهوّرة البتة، ولم تكن في جناح الفنانين لأكثر من برهة.

ـ أترى النتيجة؟ قالت فرنسواز، ما كان يجدر بنا أن نكذب عليه.

ـ هاي! كيف كان لنا أن نعرف؟ أجاب بيار.

كان يعضعض أظافره، بدا مغتمّاً للغاية. كانت هذه ضربة قاسية لجيربير قد تقضي نهائياً على ثقته العمياء في بيار. شعرت فرنسواز بغصّة وهي تفكر بتلك الروح الضئيلة البائسة الهائمة في هذه اللحظة في باريس.

ـ علينا أن نفعل شيئاً، قالت بعصبية.

ـ سوف أتفاهم معه هذا المساء، أجاب بيار. لكن ماذا عساي أفسّر له؟ قد يتقبّل أن نكون تخلينا عنه، لكن تلك الكذبة المجانية!

ـ يبدو الأمر دائماً مجانياً حين يكشف، قالت فرنسواز.

نظر بيار بقسوة إلى كزافيير.

ـ ماذا قلت له بالضبط؟

ـ كان يخبرني كيف أنه ثمل يوم الجمعة مع تيديسكو وكانتزيني وكم كان الأمر مسلياً. فأجبته أنني آسفة جداً لعدم التقائهم، غير أننا لزمنا «البول نور» ولم نرَ شيئاً، قالت كزافيير بنبرة استياء.

بدت بغيضة للغاية، خاصة وأنها هي التي أصرّت على البقاء في البول نور طوال الليل.

ـ هذا كل ما قلت له؟ سأل بيار.

ـ نعم؟ هذا كل شيء، أجابت كزافيير رغماً عنها.

ـ إذاً قد نتمكن من إصلاح الأمر، قال بيار وهو ينظر إلى فرنسواز. سأقول إننا وافقنا على الخروج.

شدّت كزافيير شفتيها.

ـ قد يصدّق، وقد لا يفعل، قالت فرنسواز.

ـ سأتصرّف بحيث يصدّق. نفيد من كوننا لم نكذب عليه من قبل.

ـ إنك حقاً صاحب فم ذهبي، قالت فرنسواز. يجدر بك أن تحاول التقاءه على الفور.

ـ والعمة؟ دعينا منها الآن!

ـ سنذهب إلى المعرض في السادسة، أجابت فرنسواز بعصبية. لا، علينا أن نمرّ بها وإلاّ، لن تغفر لنا.

نهض بيار.

ـ سأتصل به في منزله.

إبتعد. أشعلت فرنسواز سيجارة لتتمالك نفسها. كانت ترتجف غضباً في داخلها. أمر شنيع أن تتصوّر جيربير تعساً، وخصوصاً بسببهما.

كانت كزافيير تشدّ خصلات شعرها بصمت.

في نهاية الأمر، لن يموت ذلك الصغير من جراء الأمر، قالت بوقاحة مفتعلة قليلاً.

ـ أودّ رؤيتك في وضعه، أجابت فرنسواز بشراسة.

فقدت كزافيير من ثقتها.

ـ لم أكن أظن أن الأمر خطير إلى هذا الحد.

ـ لقد حذّرناك.

عبرت برهة صمت طويلة. فكرت فرنسواز ببعض الذعر بتلك

الكارثة الحية التي تجتاح حياتها بمكر. بيار هو الذي حطّم بتقديره واحترامه الحواجز التي أقامتها فرنسواز لحصرها. أما الآن، وقد ثارت تماماً، فإلى أيّ حدّ يمكن أن تصل؟ كانت حصيلة النهار مشرّفة حتى الآن: إستياء صاحبة الفندق، افتتاح المعرض الذي فاتهم أكثر من نصفه، عصبية بيار وتوتره، الخصام مع جيربير. فرنسواز نفسها ينتابها ذلك الضيق الذي بدأت تشعر به قبل ثمانية أيام. ربما كان هذا أكثر ما يخيفها.

ـ هل أنت غاضبة؟ همست كزافيير. وجهها المذعور لم يليّن فرنسواز حيالها.

ـ لماذا فعلت هذا؟

ـ لست أدري، أجابت كزافيير بصوت منخفض. أحنت رأسها. أستحقّ هذا، قالت خافضة صوتها أكثر، هكذا، ستعرفين على الأقلّ ما أساوي. سوف تشمئزين مني. وسأنال ما أستحق.

ـ أن أشمئز منك؟

ـ أجل، لا أستحق أن يهتم أحد لأمري، قالت كزافيير بعنف يائس. سوف تعرفونني حق المعرفة الآن. سبق وقلت لك إنني لا أساوي شيئاً. كان يجدر أن تتركيني في روان.

كل اللوم الذي كان يتبادر إلى شفتي فرنسواز أضحى بلا جدوى إزاء تلك الإتهامات المتّقدة. صمتت فرنسواز. كان المقهى امتلأ بالزبائن والدخان. ثمة لاجئون ألمان جالسون إلى طاولة يتتبعون باهتمام لعبة شطرنج. وإلى طاولة مجاورة جلست امرأة أشبه بمجنونة تخال نفسها غانية، جالسة أمام فنجان قهوة، تلاطف جليساً خفياً.

ـ ليس هناك، قال بيار.

ـ تأخرت كثيراً، أجابت فرنسواز.

ـ اغتنمت الفرصة لأقوم بجولة صغيرة. أردت أن أتنشّق بعض الهواء.

جلس وأشعل غليونه. بدا هادئاً.

ـ سأرحل، بادرت كزافيير.

ـ أجل، آن لنا أن نرحل، أجابت فرنسواز.

بقي الثلاثة مسمّرين بلا حراك.

ـ ما أودّ معرفته، قال بيار، هو السبب الذي دفعك لقول هذا له.

كان ينظر إلى كزافيير باهتمام حادّ حتى أنه بدّد غضبه.

ـ لست أدري، ردّدت كزافيير. غير أن بيار لا يتراجع بهذه السهولة.

ـ بلى، تعرفين، قال بعذوبة.

هزّت كزافيير كتفيها، مرهقة.

ـ لم أتمالك.

ـ كان أمرها يدور في رأسك. ما كان هذا الأمر؟

ابتسم.

ـ أردت مضايقتنا؟

ـ آه! كيف يمكن أن يخطر لك هذا؟

ـ بدا لك أن هذا السر الصغير يجعل جيربير يتفوق عليك؟

انبعث في عيني كزافيير بصيص لوم.

ـ أرى دائماً من المزعج أن نضطر إلى الاختباء، قالت.

ـ أهذا هو السبب؟ سأل بيار.

ـ لا. قلت لك إنني فعلت هذا بشكل عفوي.

ـ لكنك قلت بنفسك إن هذا السرّ كان يزعجك.

ـ لكن هذ لا علاقة له بالمسألة.

رمقت فرنسواز ساعة الحائط، فاقدة صبرها. مهما كانت دوافع كزافيير، فإن تصرفها لا يمكن تبريره.

ـ كانت تقلقك فكرة أن نكون مدينين للآخرين. أفهم هذا. أمر مزعج أن يشعر الواحد بأن الناس غير أحرار أمامه.

ـ أجل، قليلاً، ثم أن...

ـ ثم أن ماذا؟ قال بيار بصوت ودود. بدا على أتمّ الاستعداد لتأييد كزافيير.

ـ لا، فهذا دنيء، قالت كزافيير. خبأت وجهها بيديها. إنني حقيرة، أتركني.

ـ لكن لا حقارة على الإطلاق في الأمر. أريد أن أفهمك. تردّد: أكان هذا نتقاماً صغيراً لأن جيربير لم يكن لطيفاً الليلة الماضية؟

أبعدت كزافيير يديها عن وجهها. بدت شديدة الدهشة.

ـ بل كان لطيفاً، على الأقلّ بالقدر الذي كنت أنا لطيفة معه.

ـ إذاً لم تقصدي الإساءة إليه؟

ـ لا، بالطبع. ارتبكت وقالت وكأنها تجازف: أردت أن أرى ما سيحصل.

نظرت إليها فرنسواز بقلق متزايد. كان وجه بيار يعكس فضولاً شغفاً يشبه الحنان. هل أنه يتقبّل الحسد، الشذوذ، الأنانية التي تقرّ

بها كزافيير بكلام بالكاد مبطّن؟ لو لمست فرنسواز في نفسها نشأة مشاعر مماثلة، كم كانت قاومتها بتصميم. وها هو بيار يبتسم.

انفجرت كزافيير فجأة.

ـ لماذا تجعلني أبوح بكل هذا؟ أمن أجل أن تحتقرني أكثر؟ لكنك لن تحتقرني بالقدر الذي أحتقر نفسي أنا!

ـ كيف يسعك أن تتصوّري أنني أحتقرك؟ أجاب بيار.

ـ إن كنت تحتقرني، فأنت على حق. لا أحسن التصرّف! ألحق الضرر أينما ذهبت. آه! ثمة لعنة تخيّم عليّ، تحسّرت بلهجة ممسوسة.

أسندت رأسها إلى المقعد وأدارت وجهها نحو السقف لتمنع الدموع من الانسياب من عينيها. أخذ عنقها ينتفخ مختلجاً.

ـ أنا واثق من أن هذه المسألة سوف تسوّى، قال بيار بصوت ملحاح، لا تأسفي.

ـ ليس هذا كل ما في الأمر، أجابت كزافيير. ثمة... كل شيء. حدّقت في الفراغ بنظرة شرسة. وقالت بصوت منخفض:

ـ إنني مشمئزّة من نفسي أمقت نفسي.

لهجتها أثّرت في نفس فرنسواز رغماً عنها. أحسّت بأن هذه الكلمات لم تتبادر إلى شفتيها، بل إنها تقتلعها من عمق أحشائها. لا بدّ أنها أمضت ساعات مديدة طوال لياليها الأرقة وهي تستعيد بحرارة هذه الأفكار.

ـ عليك ألاّ تفعلي، قال بيار. نحن الذين نكنّ لك إعتباراً كبيراً...

ـ بلى، أحس جيداً بهذا الدّوار الذي تملّكك.

انتفضت فرنسواز ثائرة. لم تكن تقدّر كزافيير إلى هذا الحدّ. لم تكن تجد أعذاراً لهذا الدّوار. لا يحقّ لبيار أن يتكلم باسمها. إنه يكمل في طريقه من غير حتى أن يلتفت إليها، وبعد ذلك يؤكد إنها تبعته. تصرّفه هذا ينمّ عن قدر كبير من الصلافة. شعرت بنفسها تتحول من رأسها إلى أخمص قدميها إلى كتلة من الرصاص. أن تنفصل عنه يؤلمها كثيراً، غير أن شيئاً لن يتمكن من حملها على الانزلاق في هذا المنحدر الوهمي الذي سيودي بها إلى هاوية تجهلها.

ـ الدوار والخمود، تابعت كزافيير، هذا كل ما يسعني.

كانت الألوان فارقت وجهها وارتسمت تحت عينيها دائرتان ليلكيتان شاحبتان. بدت قبيحة إلى حدّ غير معقول بانفها الأحمر وشعرها المنسدل الذي بهت فجأة. لا يمكن للواحد أن يشكل للحظة في صدق اضطرابها. غير أنه من السهولة بمكان أن يمحو النوم كل شيء هذا ما خطر لفرنسواز.

تابعت كزافيير بلهجة متباكية كئيبة.

ـ حين كنت في روان، كان من الممكن إيجاد أعذار لسلوكي، لكن ماذا فعلت منذ أن انتقلت إلى باريس؟

عاودت البكاء.

ـ لم أعد أشعر بشيء. لم أعد شيئاً.

ـ سوف يتبدّل الأمر، طمأنها بيار. ثقي بنا، سوف نساعدك.

ـ لا يمكن مساعدتي، قالت كزافيير في تفجّر يأس صبياني. هذا قدري المحتوم! كانت الغصّات تخنقها. مستقيمة الجلسة، كان وجهها يعبّر عن ألم فظيع، وهي تدع الدموع تنساب على وجنتيها

من غير أن تقاومها. وإزاء سذاجتها المؤثرة، شعرت فرنسواز بقلبها يلين. ودّت لو تجد حركة تفعلها أو كلمة تقولها، لكن الأمر لم يكن سهلاً. فهي تعود من مسافة بعيدة جداً. عبر صمت طويل خانق. كان نهار متعباً يتردّد في التواري بين المرايا المصفرّة. لاعبو الشطرنج لم يبدّلوا جلستهم. قدم رجل وجلس قرب المجنونة. بدت أقل جنوناً بكثير بعد أن تجسّد محاورها.

ـ إنني جبانة للغاية، قالت كزافيير. يجدر بي أن أقتل نفسي. هذا ما كان يجدر بي أن أفعل منذ وقت طويل. تشنّج وجهها. سوف أفعل، تابعت بنبرة تحدٍّ.

نظر إليها بيار بحيرة وأسف، ثم التفت فجأة إلى فرنسواز.

ـ ما بالك؟ ألا ترين حالها؟ حاولي أن تهدئي من روعها، قال ثائراً.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ أجابت فرنسواز وقد تجمّدت شفتها على الفور.

ـ كان يجدر بك أن تضمّيها بين ذراعيك منذ وقت طويل وتقولي لها... تقولي لها أشياء.

كانت ذراعا بيار تضمّان كزافيير في ذهنه وتهدهدانها، غير أن الاحترام، اللياقة وكثيراً من المحرّمات الصارمة كانت تشلّه. فقط في جسد فرنسواز كان يسعه تجسيد تعاطفه الحار. ظلّت فرنسواز بلا حراك، باردة، ولم تقم بإشارة. صوت بيار الآمر أفرغها من إرادتها الخاصة، غير أنها كانت تقاوم بكل عضلاتها المتصلّبة أي تطفّل خارجي. بيار أيضاً ظلّ مسمّراً في مكانه، مرتبكاً بهذا الفيض من الحنان غير المجدي. استمرّ ألم كزافيير المبرح لوقت وسط الصمت.

ـ إهدأي، قال بيار بعذوبة. ثقي بنا. عشت حتى الآن رهن الصدفة، غير أن الحياة مشروع معقّد. سوف نفكّر بها معاً ونرسم خططاً.

ـ ليس هناك خطط يمكن رسمها، قالت كزافيير كئيبة. لا، ليس عليّ سوى العودة إلى روان، هذا أفضل ما يمكنني.

ـ أن تعودي إلى روان! سيكون هذا حلاً حاذقاً حقاً. ترين جيداً أننا لسنا غاضبين منك.

رمق فرنسواز بنظرة فاقدة الصبر.

ـ قولي لها على الأقل إنك لست ناقمة عليها.

ـ بالطبع لست ناقمة عليك، قالت فرنسواز بصوت مرتفع.

ممّن كانت غاضبة؟ انتابها شعور أليم بأنها منقسمة على نفسها. كانت الساعة بلغت السادسة، لكنه لم يكن وارداً الحديث عن الرحيل.

ـ لا تكوني مأساوية، قال بيار، دعينا نتحدّث بترو.

كان يبعث شعوراً بالطمأنينة والصلابة، حتى أن كزافيير سكنت قليلاً. نظرت إليه ببعض الخنوع.

ـ ما يلزمك أكثر من أي شيء آخر، تابع بيار، هو أن يكون لديك ما تفعلينه.

قامت كزافيير بإشارة هازئة.

ـ لا أتحدّث عن انشغالات يمكن أن تملأ الوقت. أفهم جيداً أنك متطلّبة أكثر من أن تكتفي بتقنيع الفراغ. لا يسعك القبول بمجرّد التسلية. يلزمك ما يعطي معنى حقيقياً لنهاراتك.

تلقّت فرنسواز مباشرة انتقاد بيار واستاءت منه. لم تقترح يوماً

على كزافيير سوى الترفيه. لاحظت مرة جديدة أنها لم تأخذها على محمل الجدّ بقدر كافٍ. وها أن بيار يتجاوزها الآن ساعياً إلى تفاهم ما مع كزافيير.

ـ لكنني أقول لك إنني لا أجدي نفعاً، قالت كزافيير.

ـ لم تحاولِ كذلك القيام بشيء ذي نفع، أجاب بيار. ابتسم: لديّ فكرة في رأسي.

ـ ماذا؟ سألت وقد أثار فضولها.

ـ لمَ لا تدخلين مجال المسرح؟

حملقت كزافيير.

ـ المسرح؟

ـ ولمَ لا؟ لديك وجه ممتاز، حسّ عميق بمواقفك وقدرة كبيرة على التحكّم بتعابير وجهك. هذا لم يسمح لنا بالتأكيد على أنك ستظهرين موهبة أكيدة، لكن كل شيء يتيح لنا أن نأمل بذلك.

ـ لن أستطيع أبداً.

ـ ألا يستهويك الأمر؟

ـ بالطبع، لكن هذا لا يساعد البتّة.

ـ تتمتعين بحساسية وبفطنة لا يمتلكهما الجميع. إنها مؤهلات أساسية.

نظر إليها بجدّية.

ـ أجل، طبعاً! سيتوجّب عليك العمل. ستحضرين دروس الكلّية. أنا أعطي درسين منها، كما أن باهين ورامبير غاية في اللطافة.

أومض بصيص أمل في عيني كزافيير.

ـ لن أتمكن أبداً، قالت.

ـ سأعطيك دروساً شخصية حتى تتدبّري أمرك. أقسم لك أنك إن كنت تمتلكين ذرّة من الموهبة، فسوف أبرزها.

هزّت كزافيير رأسها.

ـ إنه حلم جميل، قالت.

قامت فرنسواز بمجهود لإبداء حسن نيتها. قد تكون كزافيير موهوبة. وعلى كل حال، سيكون الأمر معجزة إن تمكنا من حملها على الاهتمام بأمر ما.

ـ هذا ما قلته عن قدومك إلى باريس، قالت. وترين، ها أنك هنا وتسير الأمور بشكل جيّد.

ـ صحيح، أجابت كزافيير.

ابتسمت فرنسواز.

ـ تعيشين في اللحظة الحاضرة، حتى أن أي مستقبل يبدو لك حلماً. تشكّكين في الوقت نفسه.

ابتسمت كزافيير ابتسامة ضئيلة.

ـ كل هذا غامض جداً.

ـ هل أنك في بارس أم لا؟ سألتها فرنسواز.

ـ أجل، لكن الأمر مختلف.

ـ كانت مرّة واحدة كافية للقدوم إلى باريس، قال بيار مرحاً. أما الآن، فسيتوجّب عليك معاودة المجهود كل مرة. لكن يمكنك الاعتماد علينا. لدينا من الإرادة ما يكفي لثلاثة.

ـ للأسف! أجابت كزافيير وهي تبتسم، قوة إرادتكم مخيفة

واصل بيار تقدّمه.

ـ ستأتين منذ الإثنين إلى درس الإرتجال. سترين، إنه أشبه بتلك الألعاب التي كنت تلعبينها وأنت صغيرة. سيطلبون منك أن تتخيّلي أنك تتناولين الغداء برفقة صديقة لك، أن أحداً ما عثر عليك وأنت تسلبين غرضاً ما منْ على رفّ.

سيتوجّب عليك ابتكار المشهد وتمثيله في الوقت نفسه.

ـ لا بدّ أن هذا مسلٍّ جداً.

ـ ثم ستختارين دوراً على الفور وتبدئين بالعمل عليه، أو على أجزاء منه على الأقل.

نظر بيار إلى فرنسواز مستشيراً إياها.

ـ بماذا يمكننا أن ننصحها؟

فكّرت فرنسواز قليلاً.

ـ دور لا يتطلب الكثير من المهارة، غير أنه لا يقوم فقط على فطرتها وفتنتها الطبيعية. مثل «الفرصة» لميريميه.

وجدت الفكرة طريفة، ربما أصبحت كزافيير ممثلة. على كل حال، ستكون المحاولة مثيرة للإهتمام.

ـ لن يكون الأمر سيئاً البتّة، قال بيار.

نظرت كزافيير إلى كل منهما بفرح.

ـ كم أودّ أن أصبح ممثلة! هل سيمكنني أن أصعد على خشبة حقيقية مثلكما؟

ـ بالطبع، قال بيار. وربما أعطيك دوراً صغيراً منذ السنة المقبلة.

ـ آه! قالت كزافيير مفتونة! آه سأعمل حقاً، سوف تريان.

كل ما فيها كان مفاجئاً، غير متوقع. قد تعمل في نهاية الأمر. عاد المستقبل الذي تتخيله فرنسواز لكزافيير يسحرها.

ـ غداً يوم الأحد، لن أستطيع إعطاءك درساً، لكننا سنعمل يوم الخميس على الإلقاء. أتريدين أن نلتقي في مقصورتي أيام الإثنين والخميس من الثالثة إلى الرابعة؟

ـ لكن هذا سيزعجك.

ـ على العكس، الأمر يهمّني.

كانت كزافيير اطمأنت وأشرق وجه بيار. ينبغي الاعتراف أنه حقق إنجازاً هائلاً إذ حمل كزافيير من عمق يأسها إلى هذه الحالة من الثقة والفرح، حتى إنه نسي جيربير وافتتاح المعرض.

ـ عليك أن تحاول الاتصال بجيربير مجدداً، قالت فرنسواز. من الأفضل أن تراه قبل العرض.

ـ أتظنين؟

ـ ألا تظن؟ قالت ببعض الجفاف.

ـ أجل، أجاب بيار رغماً عنه، سأفعل.

ـ نظرت كزافيير إلى ساعة الحائط.

ـ آه! ها إنني فوت عليكم افتتاح المعرض، قالت نادمة.

ـ لا يهم، أجابت فرنسواز.

بل كان الأمر يهم، على العكس، سيتوجّب عليها تقديم الاعتذار للعمّة في الغد وسيكون الاعتذار مرفوضاً.

ـ أشعر بالخجل، قالت كزافيير بنعومة.

ـ لا ينبغي هذا.

كان ندم كزافيير وقراراتها الجديدة أثّرت حقاً في نفس فرنسواز. لا يمكن أن تحكم عليها كما على أي شخص. وضعت يدها على يد كزافيير.

سترين، ستسير الأمور على ما يرام.

تأملتها كزافيير لوهلة بولع.

ـ حين أرى نفسي وأنظر إليك! قالت بنبرة شغفة، ينتابني شعور بالخجل!

ـ هذا عبثي!

ـ إنك خالية من العيوب، قالت كزافيير بصوت ورع.

ـ آه! طبعاً لا.

هذه الكلمات لكانت جعلتها تبتسم فقط في الماضي، غير أنها اليوم تبعث فيها إنزعاجاً.

ـ أحياناً، في الليل، حين أفكر بك، أشعر بالانبهار حتى أعجز عن التصديق أنك موجودة حقاً.

ابتسمت فرنسواز.

ـ غير أنك موجودة، تابعت كزافيير بحنان فاتن.

كانت فرنسواز تعرف الأمر جيداً. فالحب الذي تكنّه لها كزافيير، لا تستسلم له إلاّ في سرّ غرفتها وفي كفن الليل، حين لا يمكن لأحد أن ينافسها على الصورة التي تخبئها في قلبها، فتأملتها بانبهار، غارقة في مقعدها، ونظرها تائه بعيداً. أما المرأة الحقيقية من لحم ودم التي تنتمي إلى بيار، إلى الجميع وإلى نفسه، فلا تحصد سوى أصداء باهتة لهذه العبادة الغيورة.

ـ لا أستحقّ تفكيرك هذا، قالت فرنسواز بنوع من الندم.

اقترب بيار مغتبطاً.

ـ كان هناك. قلت له أن يحضر إلى المسرح منذ الساعة الثامنة وأنني أودّ التحدّث إليه.

ـ ماذا أجاب؟

ـ قال حسناً.

ـ لا تتراجع أمام أي سفسطة.

ـ ثقي بي، قال بيار.

ابتسم لكزافيير.

ـ ما رأيك لو نذهب لتناول كأس في «البور نور» قبل أن نفترق!

ـ آه أجل، لنذهب إلى «البول نور»، أجابت بحنان.

هناك رسّخوا صداقاتهم وبات المكان أسطورياً، رمزياً. حين خرجوا من المقهى أمسكت كزافيير تلقائياً بذراع كل من بيار وفرنسواز ودخلوا البول نور بخطى متجانسة، متوجهين إلى البار وكأنما في زيارة حجّ.

أبت كزافيير بدافع الخفر أن تساعد فرنسواز على ترتيب غرفتها، كما أنه لم يكن يعجبها بالتأكيد أن تمسّ يد غريبة، وإنْ يداً إلهية، أغراضها الصغيرة. صعدت فرنسواز إذاً إلى غرفتها، ارتدت روباً داخلياً وفلشت أوراقها على الطاولة. تلك كانت الساعة التي تولي الاهتمام فيها غالباً لروايتها، حين يكون بيار على الخشبة يمثّل. شرعت بإعادة قراءة الصفحات التي كانت كتبتها في اليوم السابق، لكنها بالكاد استطاعت التركيز. في الغرفة المجاورة كان الزنجي يعطي الغانية الشقراء درساً في الرقص وكانت معهم إسبانية صغيرة تعمل ساقية في حانة توبسي. عرفتهم فرنسواز من أصواتهم. أخرجت مبرداً من جزدانها وراحت تبرد أظافرها حتى ولو تمكن بيار من إقناع جيربير، أن يمكث بينهم ظل؟ كيف

سيكون مزاج العمّة كريستين غداً؟ لم تتمكن من إقتلاع هذه الأفكار المقلقة من رأسها. غير أن ما كانت تعجز عن إقتلاعه أكثر من أي شيء آخر كان ما بعد الظهيرة تلك التي أمضتها مع بيار في الاختلاف. لا شك أنها حين تعود وتتحدث معه في هذا الشأن. سوف يتبدّد هذا الانطباع الأليم. غير أنه في هذه الأثناء يغمر قلبها بالحزن. نظرت إلى أظافرها. هذا تصرف غبيّ. ما كان يجدر بها أن تعلّق كل هذه الأهمية على خلاف طفيف. ما كان يجدر بها أن تشعر بالاضطراب ما أن تفتقر إلى موافقة بيار.

لم تكن أظافرها مقلّمة بشكل جيد، ظلّت غير متناسقة. تناولت المبرد من جديد. الخطأُ الذي ترتكبه هو أنها تركن بكل ثقلها على بيار. في تصرفها هذا خطأً حقيقي. ليس عليها أن تلقي بمسؤوليتها هي على شخص آخر. نفضت باستياء غبار أظافرها الأبيض المتشبّث بروبها الداخلي. يكفي أن ترغب حقاً بالأمر. حتى ذلك اللوم الذي توجهه لنفسها، سوف تطلب كذلك من بيار الموافقة عليه. كل ما يجول ببالها من أفكار إنما من أجله ومعه. لم يكن يسعها حتى تصوّر عمل يؤكد على استقلالية حقيقية قد ينبع في ذاتها وحدها وتقوم به من دون أي ارتباط ببيار إطلاقاً. على كل حال، لم يكن الأمر مزعجاً. لن تحتاج يوماً إلى اللجوء إلى نفسها احتماءً منه.

ألقت فرنسواز بمبردها. من غير المجدي أن تبدد ثلاث ساعات ثمينة من العمل في المماحكة. حصل لبيار من قبل أن يهتم كثيراً بنساء أخريات، فلِمَ تشعر بالغبن؟ ما يقلقها هو ذلك العداء المتصلّب الذي اكتشفته في نفسها ولم يتبدّد تماماً بعد. تردّدت ورغبت للحظة أن تستوضح اضطرابها بشكل جليّ، غير أن الكسل تملّكها بعد ذلك. انكبت على أوراقها.

كانت الساعة بالكاد تجاوزت منتصف الليل حين عاد بيار من المسرح. كان وجهه محمراً من شدة البرد.

- هل رأيت جيربير؟ سألت فرنسواز قلقة.

- أجل، وسوّيت كل الأمور، قال بيار مبتهجاً. نزع منديله ومعطفه. بادرني قائلاً إن هذا ليس مهماً، لم يرغب في أي تبرير، لكنني أصرّيت. إدعيت أننا لا نتصرّف معه أبداً بتكلّف وأننا لو أردنا التخلي عنه، لكنا قلنا هذا له ببرودة. ظل على قدر من الحذر، لكن الأمر كان شكلياً.

- إنك حقاً ماهر في الكلام، قالت فرنسواز. كان ارتياحها مشوباً ببعض النقمة. استاءت من شعورها بالتواطؤ مع كزافيير ضد جيربير، وكانت تود أن يشعر بيار بالأسف هو أيضاً بدل أن يفرك يديه بحبور. لا خير في تحريف الوقائع قليلاً لكن تلفيق الأكاذيب من روح لأخرى، فهذا يفسد كل ما بين الأشخاص.

- على كل حال، ما فعلته كزافيير قبيح للغاية، قالت.

- وجدتك صارمة جداً. ابتسم. كم ستكونين قاسية حين تصبحين عجوزة!

- في البدء كنت أنت الأشد صرامة بيننا، حتى أنك لم تكن تحتمل.

أدركت ببعض القلق أنه لن يكون من السهل محو سوء التفاهم الذي تخلّل النهار بمجرّد حديث ودّي. فما إن تتطرّق إلى سوء التفاهم هذا حتى تستيقظ في نفسها مرارة عدائية.

شرع بيار يحل ربطة العنق التي وضعها بمناسبة افتتاح المعرض.

ـ وجدت أن نسيانها موعداً معنا ينمّ عن استخفاف لا يوصف، قال بنبرة استياء، إنما بابتسامة تهزأ بعدها من أهمية ما قاله. ثم حين قمت بنزهة قصيرة للترويح عن نفسي، تراءت لي الوقائع من زاوية أخرى.

مزاجه الجيد المتهاون زاد من عصبية فرنسواز.

ـ فهمت. سلوكها مع جيربير جعلك فجأة تميل إلى التساهل، حتى كدت تهنئها.

ـ بات الأمر أكثر جدية من أن يكون مجرّد استخفاف. فكّرت أن كل هذا، عصبيتها، حاجتها إلى اللهو، الموعد المنسي وخيانتها مساء أمس، إنما يمثل كلاً لا بدّ أن له سبباً.

ـ أفصحت لك عن السبب.

ـ ينبغي ألاّ نصدّق ما تقول بحجة أنها تثير مصاعب قبل أن تقوله.

ـ لا حاجة إذاً إلى الإصرار إلى هذا الحد، قالت فرنسواز وهي تستعيد ناقمة تلك الاستجوابات المطوّلة.

ـ كما أنها من جهة أخرى لا تكذب تماماً. يجب تفسير كلامها.

بدا الأمر وكأنهما يتحدّثان عن «بيتي».

ـ ماذا تريد أن تقول في نهاية الأمر؟ سألت فرنسواز وقد نفد صبرها.

ابتسم بيار ابتسامة مبطّنة.

ـ ألم يلفتك أن سبب نقمتها عليّ في نهاية الأمر هو أنني لم ألتقها مجدداً منذ الجمعة؟

ـ أن تبدأ وأن تذهب حتى النهاية أمر واحد بالنسبة لهذه الفتاة، على ما أظن.

ـ كيف هذا؟

ـ أعتقد أنها تكنّ لي مشاعر طيبة جداً، قال بيار بغرور مفتعل إلى حد ما، غير أنه ينمّ عن شعور حميم بالسرور. أثار هذا صدمة في نفس فرنسواز. فهي تجد عادة فظاظة بيار طريفة، غير أن بيار يكن لكزافيير التقدير. الحنان الذي عكسته كل من ابتساماته في البول نور لم يكن مفتعلاً، حتى أن هذه اللهجة الوقحة باتت مقلقة.

ـ أتساءل كيف يمكن لمشاعر كزافيير الطيّبة حيالك أن تعذر تصرّفها.

ـ عليك أن تضعي نفسك مكانها. هذه مخلوقة شغفة. متغطرسة. أعرض عليها بكثير من الرسميات صداقتي وما إن نتحدث عن الإلتقاء مجدداً، أبدو وكأن عليّ أن أعارك تنيناً قبل أن أتمكن من تخصيص بضع ساعات لها. جرح هذا مشاعرها.

ـ ليس على الفور، في مطلق الأحوال.

ـ بالطبع، لكنها عادت وفكّرت في المسألة. وبما أنها لم ترن في الأيام التالية قدر ما تشاء، بات الأمر بمثابة مأخذ فظيع عليّ. أضيفي إلى ذلك أنك أنت التي أبديت أكبر قدر من المقاومة يوم الجمعة في ما يتعلّق بجيريير. فمهما كان حبّها عظيماً لك، صرت رغم ذلك بالنسبة لروحها الصغيرة المتملكة أكبر حاجز قائم بينها وبيني. في السر الذي فرضناه عليها تراءى لها مصير برمّته. تصرّفت كطفل يصيح بضربة من يده بلعبة الورق حين يوشك على الخسارة.

ـ تعيرها أكثر مما ينبغي من المشاعر.

ـ وأنت تعيرينها دائماً أقل مما ينبغي، أجاب بيار وقد ضاق ذرعاً، لم تكن هذه أول مرة هذا اليوم يتكلم بشأن كزافيير بتلك النبرة اللاذعة.

ـ لست أقول إنها قالت كل هذا لنفسها بشكل واضح، لكن هذا كان مغزى ما فعلته.

ـ ربما، أجابت فرنسواز.

إذاً، إن صدق كلام بيار، فإن كزافيير ترى فيها شخصاً غير مرغوب فيه وتغار منها. استعادت فرنسواز بانزعاج الثائر الذي شعرت به أمام وجه كزافيير الورع وبدا لها أنها خدعت.

ـ كان هذا تفسيراً حاذقاً، تابعت، لكنني لا أظن أنه يمكن أبداً إيجاد أي تفسير نهائي لدى كزافيير. فهي كثيراً ما تعيش على هوى مزاجها المتقلّب.

ـ بالضبط، غير أن مزاجها المتقلب مبطّن، قال بيار. أتظنين أنها كانت ثارت بهذه الطريقة بشأن مغسلة لو لم تكن غاضبة أساساً؟ ذلك الانتقال من غرفتها، إنما كان هروباً وأنا واثق من أنها تهرب مني، لأنها ناقمة على نفسها لتمسّكها بي.

ـ إذاً تظن أن ثمة مفتاحاً لمجمل تصرفاتها، وهذا المفتاح ليس إلا شغفاً مفاجئاً بك؟

استدقت شفة بيار وارتفعت قليلاً.

ـ لست أقول إنه شغف.

كان قد استاء من كلام فرنسواز هذا. إنه في الواقع إيضاح فظ غالباً ما يأخذانه على اليزابيت.

ـ الحب الحقيقي، تابعت فرنسواز، لا أظنّ أنه في مقدور كزافيير. فكرت قليلاً. الإفتنان، الرغبات، الخيبة، المطالب، أجل. لكن ذلك الرضى الضروري من أجل أن تشكل كل هذه التجارب شعوراً مستقراً، أظن أنه لا يمكن توقع هذا منها أبداً.

ـ هذا ما سيقوله لنا المستقبل، قال بيار الذي بدأ وجهه أكثر قسوة بعد.

خلع سترته وتوارى خلف «البارافان». شرعت فرنسواز في خلع ثيابها. لقد تكلمت بصدق. لم تكن تحترس أبداً مع بيار. ليس فيه ما هو كئيب أو خفي يفرض الاقتراب منه بحذر، وهي أخطأت. هذا المساء يتوجّب عليها التفكير ملياً قبل التفوّه بأيّ كلمة.

ـ لاحظت هذا أنت أيضاً؟

شعرت فرنسواز بغصّة في عنقها. تلك الجملة كانت جملة تواطؤ، جملة تقال لشخص غريب وأصابت هدفها. خلف الدرينة كان رجل غريب يغسل أسنانه. عبرت ذهنها فكرة. إن كانت كزافيير رفضت مساعدتها، ألم تفعل من أجل أن تبقى في أسرع وقت ممكن وحيدة مع صورة بيار؟ من الممكن أن تكون حزرت الحقيقة. كان حوار حقيقي تواصل بينهما طوال النهار. تبدي كزافيير استعداداً أكبر للبوح بما لديها لبيار. ثمة بينهما ما يشبه التواطؤ. حسناً! الأمر ممتاز هكذا. فهذا يريحها من هذه القصة التي بدأت تخشى وطأتها. فقد تبنّى بيار كزافيير بشكل أفضل بكثير مما قبلت فرنسواز أن تفعل حتى الآن. فهي تتخلّى له عنها. باتت كزافيير من الآن فصاعداً ملكاً له.

الفصل (٦)

ـ لا يمكن أن نشرب قهوة طيبة كما هنا، قالت فرنسواز وهي تضع فنجانها فوق الصحن.

ابتسمت السيدة ميكال.

ـ بالطبع، ليس هذا ما يقدّمون لك في مطاعمك الثابتة الأسعار.

كانت تتصفّح مجلة أزياء. اقتربت فرنسواز وجلست على مسند مقعدها. كان السيد ميكال يقرأ صحيفة «لو تان» في زاوية الموقدة حيث يشتعل الحطب. قلّما تبدّلت الأشياء خلال عشرين سنة، حتى أن الأمر بدا خانقاً. حين تحضر فرانسواز إلى هذه الشقة يخيّل لها أن كل تلك السنوات لم تود بها إلى مكان. ينبسط الزمن من حولها بحيرة راكدة باهتة بعذوبتها. أن يعيش الواحد يعني أن يشيخ فقط ولا شيء غير ذلك.

ـ أحسن الكلام، دالاديه، قال السيد ميكال. كان شديد الحزم والوقار. لن يتراجع شبراً واحداً.

ـ يقولون إن بونيه مستعد شخصياً لتقديم تنازلات، قالت

فرنسواز. يزعمون حتى أنه باشر سراً مفاوضات بشأن دجيبوتي.

ـ لاحظي أن المطالب الإيطالية بحدّ ذاتها ليست باهظة البتّة، تابع السيد ميكال، غير أن اللهجة غير مقبولة. لا يمكن الموافقة على المساومة مهما كان الثمن بعد تحذير كهذا.

ـ لا تقل لي إنه في وسعك أن تبدأ حرباً من أجل مسألة اعتبار، تابعت فرنسواز.

ـ لا يمكننا كذلك أن نقبل بأن نصبح دولة من الفئة الثانية، رابضة خلف خط ماجينو.

ـ لا، هذا صعب.

تتفادى فرنسواز على الدوام التطرّق إلى المسائل المبدئية، فتتوصل بسهولة إلى نوع من التفاهم مع والديها.

ـ أتظنين أن فستاناً من هذا الطراز سيناسبني؟ سألت والدة فرنسواز.

ـ بالطبع أمي، فأنت رشيقة جداً.

نظرت إلى ساعة الحائط. إنها الساعة الثانية. يجلس بيار الآن أمام قهوة رديئة. كانت كزافيير وصلت متأخرة جداً عن درسها في المرتين الأولين، حتى أنهما قررا اليوم الإلتقاء في الدوم قبل ساعة من الموعد المحدّد، بحيث يبدإن العمل بالتأكيد في الوقت المطلوب. ربما قد وصلت، فلا يمكن توقع تصرّفاتها.

ـ سوف يلزمني فستان سهرة للعرض المئة ليوليوس قيصر، قالت فرنسواز. لست أدري ماذا سأختار.

ـ لدينا متّسع من الوقت للتفكير في الأمر، أجابت السيدة ميكال.

أخفض السيد ميكال صحيفته.

ـ تتوقعين مئة عرض؟

ـ على الأقل، الصالة تمتلىء كل مساء.

انتفضت وتوجهت نحو المرآة. هذا الجو يبعث على الاكتئاب. عليّ أن أذهب، قالت. لديّ موعد.

ـ لا تعجبني موضة الخروج بلا قبّعة هذه، قالت السيدة ميكال. تحسّست معطف فرنسواز. لماذا لم تشتر معطفاً من الفرو كما قلت لك؟ ليس ثمة شيء على كتفيك.

ـ ألا يعجبك هذا المعطف القصير؟ أجده جميلاً جداً.

ـ إنه معطف خريفي. رمقت كتفيها. أتساءل ماذا تفعلين بمالك.

ـ متى تعودين؟ سأل السيد ميكال. سيزورنا موريس وزوجته مساء الأربعاء.

ـ آتي إذاً مساء الخميس. أفضّل أن أراكما وحيدين.

هبطت الأدراج ببطء وسلكت شارع ميديسيس. كان الهواء لزجاً وبليلاً. لكنها شعرت أنها أفضل حالاً في الخارج بعد دفء المكتبة. استعاد الزمن مجراه البطيء. ستذهب لملاقاة جيربير وهذا يضفي على العرض بعض المعنى إلى هذه اللحظات.

ـ لا بدّ أن كزافيير وصلت الآن، فكّرت فرنسواز بغصّة طفيفة. تصوّرت كزافيير ترتدي فستانها الأزرق أو قميصها الأحمر الجميل المضلّع بالأبيض، وقد سرّحت شعرها بعناية فانسدل لفافات من حول وجهها وهي تبتسم. ما هذه الابتسامة المجهولة؟ كيف ينظر بيار إليها؟ توقفت فرنسواز عند حافة الرصيف. إنتابها إحساس أليم

بأنها في المنفى. عادة يكون المكان حيث هي محور باريس. أما اليوم، فكلّ شيء تبدّل. محور باريس بات ذلك المقهى حيث يجلس بيار مع كزافيير في حين تتسكّع فرنسواز في ضواحٍ غامضة.

جلست فرنسواز قرب موقد على مصطبة مقهى «دو ماغو». هذا المساء سيخبرها بيار كل ما حصل معه، لكنها لم تعد منذ بعض الوقت تثق تماماً بالكلمات.

ـ قهوة، طلبت من النادل.

اعتراها قلق. لم يكن واضح المعالم. ينبغي أن تعود بعيداً في الزمن لتجد ضيقاً كهذا. عاودتها ذكرى. كان البيت مقفراً والستائر الخشبية أعلقت بسبب الشمس فعمّت العتمة. كانت فتاة تقف في فسحة الدرج في الطابق الأول ملتصقة بالحائط حابسة أنفاسها. كان غريباً أن تجد نفسها هنا وحيدة في حين أن الجميع في الحديقة، غريباً ومخيفاً في آن. بدا الأثاث ككلّ يوم، غير أنه في الوقت نفسه مختلف تماماً. كثيف، متثاقل، غامض. تحت المكتبة وتحت المنضدة الرّخامية قبع ظلّ دامس. لم يكن هذا يبعث الرغبة في الهرب، غير أنه يثير انقباضاً في القلب.

كانت السترة القديمة معلّقة فوق ظهر كرسي. لا شكّ أن آنا نظفتها بالبنزين أو أنها أخرجتها للتوّ من النفتالين وعلّقتها هنا لتتهوّى. كانت قديمة جداً وبدت متعبة للغاية. قديمة ومتعبة، غير أنه لا يسعها التذمّر مثلما كانت فرنسواز تفعل حين تؤلم نفسها. لا يسعها أن تقول لنفسها «إنني قديمة متعبة». هذا غريب. حاولت فرنسواز أن تتصوّر إحساسها لو لم يكن في وسعها أن تقول لنفسها «أنا فرنسواز، عمري ستّ سنوات وأنا الآن في منزل

جدّتي»، لو كانت عاجزة عن قول مطلق أمر لنفسها. أغمضت عينيها. شعرت وكأنها غير موجودة. غير أن أشخاصاً آخرين سوف يدخلون إلى هنا، سوف يرونني ويتحدّثون عني. فتحت عينيها كانت ترى السترة، فهي موجودة من غير أن تفطن للأمر.

وهذا يثير الإستياء، يبعث بعض الهلع. ما نفع أن يكون موجوداً إن كان لا يدرك ذلك؟ فكرت. ربما هناك وسيلة أخرى. إن كان في وسعي أن أقول «أنا» بذاتي، لِمَ لا أقولها عنه؟ كان الأمر مخيّباً. فمهما حدّقت ملياً بالسترة حتى لم تعد ترى غيرها وقالت بسرعة «إنني قديمة ومتعبة»، لم يكن يحدث أيّ جديد. ظلت السترة هناك، غير آبهة، غريبة، في حين ظلّت هي فرنسواز عندها تعلم بشيء. أخذت الخواطر تدور في رأسها فهبطت مسرعة إلى الحديقة.

اجترعت فرنسواز قهوتها دفعة واحدة. كانت شبه باردة. لم يكن لأيّ من ذلك علاقة بوضعها الحالي. لماذا عاودتها تلك الذكرى؟ نظرت إلى السماء الغائمة. كل ما في الأمر في هذه اللحظة أن العالم الحاضر كان بعيداً عن متناولها. لم تكن مقصية عن باريس فحسب بل عن الكون برمّته. لم يكن أولئك الجالسون على رصيف المقهى أو العابرون في الشارع يلقون بثقلهم على الأرض، بل كانوا مجرّد ظلال. لم تكن البيوت سوى ديكور مسطّح بلا نتوءات ولا عمق. وجيربير بدوره، وهو يتقدّم مبتسماً، كان مجرّد طيف رقيق فاتن.

ـ مرحباً، قال.

كان يرتدي معطفه البيج، قميصاً بمربّعات بنّية وصفراء وربطة عنق صفراء تبرز وجهه النّاصع. يختار ثيابه على الدوام بأناقة.

شعرت فرنسواز بالسرور لرؤيته، لكنها أدركت على الفور أنه لا يمكنها الاعتماد عليه لمساعدتها على استعادة مكانتها في العالم. لن يكون أكثر من رفيق لطيف يشاطرها المنفى.

ـ هل ما زلنا ذاهبين إلى سوق البالة رغم هذا الطقس الرديء؟ سألت فرنسواز.

ـ ليس هذا سوى رذاذ، لا تمطر حقاً.

عبرا الساحة ونزلا أدراج المترو.

ـ ماذا عساي أخبره طوال النهار؟ فكّرت فرنسواز.

كانت هذه أول مرّة منذ زمن طويل تخرج وحدها معه، وأرادت ان تكون ودودة جداً لتمحو آخر ظلال قد تكون تركتها توضيحات بيار في نفسه. لكن ماذا في وسعها أن تفعل؟ فهي تعمل، وكذلك بيار. حياة موظفين، كما تقول كزافيير.

ـ خلت أنني لن أتمكن أبداً من الإفلات منهم، قال جيربير.

كان ثمة حشد مدعو للغداء: ميشال وليرميار وآل أدرسون، النخبة، كما تراني، وكانوا يتحادثون. حديث متألق متحذلق. كان الأمر شاقاً. بيكلار ألّف أغنية جديدة ضدّ الحرب لدومينيك أورول. ليست رديئة، عليّ أن أقرّ. غير أن أغنياتهم قلّما تنفع.

ـ أغنيات، خطب، قالت فرنسواز، لم نعرف يوماً مثل هذا الاستهلاك للكلام.

ـ آه! الصحف في هذا الوقت أمر رائع، قال جيربير وعلت وجهه ابتسامة مشرقة. السّخط يتخذ دائماً لديه شكل المرح.

ـ يشبعوننا كلاماً حول استعادة فرنسا موقعها! كل هذا لأن إيطاليا تخيفهم أقل من المانيا بقليل.

ـ الواقع أننا لن نخوض حرباً من أجل دجيبوتي، قالت فرنسواز.

ـ أودّ هذا، لكن حين أفكر أن الحرب ستقع حتماً، سواء بعد سنتين أو بعد ستة أشهر، فهذا غير مشجّع.

ـ هذا أقل ما يمكن قوله.

تشعر فرنسواز أن اللامبالاة أسهل عليها حين تكون مع بيار، سوف نرى ما يحصل. لكن جيربير يشعرها بالانزعاج. ليس أمراً ساراً أن يكون الواحد شاباً في هذ الآونة. نظرت إليه يبعض القلق. ماذا يجول في عمق أفكاره عن نفسه، عن حياته وعن العالم؟ لم يكن يبوح يوماً بخواطره الحميمية. ستحاول بعد قليل أن تتكلّم معه بجديّة. غير أن ضجيج المترو يجعل الحديث في الوقت الحاضر صعباً. نظرت إلى بقية إعلان مصفرّة مازالت معلّقة على جدار النفق الأسود. حتى فضولها لم يكن مقنعاً اليوم. إنه يوم ضائع، يوم بلا جدوى.

ـ أتعلمين أنني أحظى بفرصة ضئيلة للتمثيل في فيلم «الطوفانات»؟ قال جيربير. مجرّد ظلّ عابر، لكنني سأجني مالاً. عقد حاجبيه.

سأشتري سيارة مستعملة ما إن أجمع بعض النقود. ثمة سيارات بخسة الثمن.

ـ سيكون هذا جيداً. ستقتلني بالتأكيد، لكنني سأركب السيارة معك.

خرجا من المترو.

ـ أو أقيم مع موليبه مسرحاً للدمى، تابع جيربير. من المفترض أن يضعنا بيغراميان على اتصال بـ «إيماج»، غير أنه متقلّب الرأي.

ـ مسرح الدمى ممتع.

ـ ينبغي دفع ثمن باهظ لمجرّد الحصول على صالة وجهاز خاص بنا.

ـ قد يتحقّق هذا يوماً.

لم تكن مشاريع جيربير تهمّها اليوم. تساءلت حتى لماذا كانت تجد لحياته عادة فتنة خفية. ها هو هنا، خارجاً من غداء مملّ عند بيكلار. سيلعب هذا المساء للمرة العشرين دور كاتون الشاب. ليس في ذلك ما يؤثر في النفس بصورة خاصة. نظرت فرنسواز من حولها. ودّت لو تجد ما يحاكي القلب قليلاً، غير أن هذه الحاجة الطويلة المستقيمة لم تكن توحي لها بشيء. العربات الصغيرة المتوقفة على طول الرصيف لم تكن تبيع سوى بضاعة متقشّفة: قطنيات، جوارب، صابون.

ـ لنسلك بالأحرى أحد هذه الأزقة، اقترحت.

هنا كانت الأحذية القديمة، الأسطوانات، أقمشة الحرير المهترئة، الآنية الخزفية المتشققة، كلها معروضة على الأرض الموحلة. وكانت نساء سمراوات يرتدين خرقاً مزركشة يجلسن لصق السّياج يفترشن صحفاً أو بسطاً قديمة. لم يكن هذا بدوره مؤثراً.

ـ انظري، قال جيربير، سنعثر بالتأكيد على بعض الإكسسوارات بين هذه.

نظرت فرنسواز بلا حماس إلى كومة السلع البالية المنفرشة عند قدميها. كل هذه الأغراض المتّسخة عاشت بالطبع قصصاً ومغامرات غريبة، غير أن ما يراه الواحد هو أساور، دمى محطّمة، أقمشة بهتت ألوانها لا تحمل أي كتابة. ذاعب جيربير كرة بلورية يعوم فيها نثار ملون.

ـ تبدو أشبه بكرة لقراءة المستقبل، قال.

ـ إنها ثقّالة ورق.

كانت البائعة تراقبها بطرف عينها. إنها امرأة بدينة متبرّجة متماوجة الشعر. جسدها ملتف بشالات صوفية وساقاها مغلّفتان بأوراق صحف قديمة. هي أيضاً لم تكن لها قصة ولا مستقبل. مجرّد كتلة لحم ترتعد من شدة البرد. وتلك السياجات، أكواخ الرقائق المعدنية، البساتين البائسة حيث تتراكم قطع الخردة الصدئة... لم تكن تشكّل كالعادة عالماً بغيضاً وجذّاباً بل قبعت هنا، بلا حراك، معدمة الشكل.

ـ ما قصّة الجولة هذه؟ سأل جيربير. يتحدث بيرنهايم عنها وكأنها مقررة للعام المقبل.

ـ من الواضح أن بيرنهايم اقتنع بالفكرة! كل ما يهمّه هو المال. لكن بيار يرفض هذا تماماً. لدينا مشاريع أخرى للسنة المقبلة. عبرت فوق بركة موحلة. كان الأمر مثلما في بيت جدّتها تماماً في ما مضى، حين كانت تغلق الباب في وجه المساء العذب والدّغل العطر، فتشعر أنها أقصيت للأبد عن لحظة عظيمة من لحظات العالم. في مكان آخر كان أمر ما يجري من دونها ووحده هذا الأمر يهمّ. هذه المرأة لم يكن من الممكن أن تقول لنفسها إن هذا الشيء لا يعلم أنه موجود، إنه غير موجود. فهو يعلم. بيار لا يدع أياً من ابتسامات كزافيير تضيع منه وكزافيير تتلقف بانتباه مفتون كل الكلمات التي يتفوّه بها بيار. عيونهما تعكس معاً مقصورة بيار وصورة شيكسبير المعلّقة على الحائط. هل أنهما يعملان؟ أم أنهما يستريحان ويتحدّثان عن والد كزافيير، عن المطيرة المليئة بالعصافير، عن رائحة الإصطبل؟

ـ هل قامت كزافيير بأي شيء خلال درس الإلقاء أمس؟ سألت فرنسواز.

ـ طلب منها رامبير أن تردّد: أيها الجمل الجميل لا تجمع جمعاً من جماعتك جنب الجبل. إحمرّ وجهها وحدّقت برجليها من غير أن تتفوّه بصوت.

ـ أتظن أنها موهوبة؟

ـ إنها جميلة.

أمسك فرنسواز بمرفقها.

ـ تعالي وانظري، قال فجأة. شقّ طريقه عبر الحشد إلى مجموعة متحلّقة حول مظلّة مفتوحة وضعت فوق وحل الأرض. كان رجل يبسط ورق لعب على القماشة السوداء.

ـ مئتا فرنك، قالت امرأة عجوز شائبة الشعر وهي تلقي من حولها نظرات مضطربة، مئتا فرنك؟ كانت شفتاها ترتجفان. دفعها أحدهم بقسوة.

ـ إنهم لصوص! قالت فرنسواز.

ـ هذا واضح.

نظرت فرنسواز بفضول إلى لاعب الورق الخفيف اليدين وهو يخلط بسرعة ثلاث قطع قذرة من الكرتون فوق حرير المظلّة.

ـ مئتا فرنك على هذه الورقة، قال رجل وهو يضع ورقتين ماليتين فوق إحدى الورقات. غمز بدهاء: كانت إحدى زوايا الورقة مثنية قليلاً ويمكن رؤية ملك الكبّي.

ـ ربحت، قال لاعب الورق وهو يقلّب الملك. انسابت الورقات من جديد مسرعة بين أصابعه.

ـ ها هو، تابعوا الورقة، أنظروا جيداً، ها هو، هنا، هنا. مئتا فرنك لملك الكبّى.

ـ إنه هنا. من يشاركني بمئة فرنك؟ قال رجل.

ـ مئة فرنك، ها هي، مئة فرنك، صاح رجل.

ـ ربحت، قال لاعب الورق وهو يرمي أمامه أربع أوراق نقدية مدعوكة. كان بالطبع يتعمّد أن يدعهم يربحون حتى يشجّع الجمهور. الوقت الآن مناسب للعب. لم يكن الأمر صعباً، حزرت فرنسواز فجأة ورقة الملك. إن متابعة حركة الورقات المتسارعة ذهاباً وإياباً تبعث الدوار. فهي تنزلق، تثب إلى اليمين، إلى اليسار، إلى الوسط، إلى اليسار.

ـ إنها حماقة، قالت فرنسواز. فنحن نراه كل مرة.

ـ إنه هنا، قال رجل.

ـ بأربعمئة فرنك، قال لاعب الأراق.

التفت الرجل إلى فرنسواز.

ـ لديّ مئتا فرنك فقط. الملك هنا. راحتي معي بمئتي فرنك، قال الرجل بعجلة.

إلى اليسار، إلى الوسط، إلى اليسار. هذا هو الملك فعلاً. وضعت فرنسواز ورقتين نقديتين على الورقة.

ـ سبعة السباتي، أعلن لاعب الورق، أخذ الأوراق النقدية.

ـ يا للبلاهة! قالت فرنسواز.

وقفت مذهولة مثل المرأة قبل قليل. حركة بسيطة سريعة. لا يمكن أن تكون النقود ضاعت حقاً. من الممكن بالتأكيد العودة إلى الخلف. في اللعبة المقبلة، إن انتبه الواحد جيدا...

ـ تعالي، قال جيربير. كلهم متواطئون. تعالي ستخسرين كل مالك حتى آخر قرش.

تبعته فرنسواز.

ـ لكنني أعرف جيداً أنه لا يمكن لأحد أن يربح أبداً، قالت غاضبة.

هذا هو حقاً يوم من تلك التي يرتكب فيها الواحد حماقات كهذه. كل ما فيه عبثي: الأمكنة، الناس، الكلمات التي تتفوّه بها. كما أن الجوّ بارد! كانت السيدة ميكال على حق، هذا المعطف رقيق جداً.

ـ لو نذهب لتناول كأس، اقترحت.

ـ حسناً، لنذهب إلى المقهى الكبير حيث يعزفون الموسيقى.

كان الليل بدأ يخيّم. انتهى الدرس، لكن لا شكّ أنهما لم يفترقا بعد. أين عساهما يكونان؟ ربما عادا إلى البول نور. فحين تعجب كزافيير بمكان ما، تجعل فيه على الفور وكراً لها. تذكرت فرنسواز المقاعد الجلدية ذات المسامير الضخمة النحاسية، الزجاجات والأباجورات ذات المربعات الحمراء والبيضاء، إنما بلا جدوى. فالوجوه والأصوات وطعم الكوكتيلات بنبيذ العسل، كلها اتخذت معنى غامضاً لكان تبدّد لو دفعت فرنسواز الباب. لكان الإثنان ابتسما برقّة. لكان بيار أوجز لها حديثهما وشربت هي كأساً بالماصّة. غير أن سرّ خلوتهما لم ينكشف يوماً، ولا حتى من جانبهما.

ـ هذا هو المقهى، قال جيربير.

كان يشبه مستودعاً. تنتشر فيه مواقد تدفئة ويغصّ بالناس.

كانت فرقة موسيقية صاخبة ترافق مغنياً يرتدي بدلة عسكرية.

ـ سأتناول مشروباً بالفاكهة، قالت فرنسواز. سوف يدفئني.

ذلك المطر الخفيف الدّبق تسرّب إلى عمق روحها. إنتابتها ارتعاشة. لم تكن تدري ماذا عساها تفعل بجسدها أو بأفكارها. نظرت إلى النساء اللواتي ينتعلن أحذية غليظة وقد التففن بشالات واسعة وجلسن إلى الكونتوار يحتسين فناجين قهوة ممزوجة بالكحول. لماذا تكون الشالات على الدوام بنفسجية؟ تساءلت. كان الجندي صبغ وجهه بالأحمر وهو يصفق بيديه متهكماً مع أنه لم يصل بعد إلى المقطع البذيء.

ـ لو تتفضّلان بالدفع على الفور، قال النادل. غطّت فرنسواز شفتها في كأسها فملأ فمها طعماً عنيفاً، طعم بنزين وتعفّن. انفجر جيربير ضاحكاً بشكل مفاجيء.

ماذا هناك؟ سألت فرنسواز. بدا في هذه اللحظة وكأنه في الثانية عشرة من عمره.

ـ البذاءة تحملني على الضحك، قال مرتبكاً.

ـ ما هي الكلمة التي أثارت ضحكك فجأة؟

ـ «نضح»، أجاب جيربير.

ـ نضح!

ـ آه! لكن عليّ أن أراها مكتوبة!

شرعت الفرقة الموسيقية في معزوفة باسو دوبلي. كان هناك على المنصّة قرب عازف الأكوردیون دمية كبيرة تعتمر قبعة سومبريرو. بدت حيّة تقريباً. عبرت دقائق من الصمت.

سيظن من جديد أننا نسأم منه، فكرت فرنسواز بأسف. لم

يبذل بيار مجهوداً يذكر لاستعادة ثقة جيربير. فهو حتى في الصداقات الأشد حميمية لا يورّط سوى جزء ضئيل من نفسه! حاولت فرنسواز الخروج من خدرها. عليها أن توضح لجيربير قليلاً لماذا شغلت كزافيير كل هذه المساحة من حياتهما.

يعتقد بيار أنه من الممكن أن تصبح كزافيير ممثلة، قالت.

ـ أجل، أعلم هذا. يبدو عليه أنه يكن لها التقدير، قال جيربير على مضض قليلاً.

ـ شخصها غريب حقاً. العلاقات معها ليست أمراً سهلاً.

ـ بل إنها مربكة، لا يعرف الواحد كيف يكلمها.

ـ إنها ترفض أي بادرة تهذيب. هذا سلوك عظيم، لكنه مزعج.

ـ في المدرسة لا توجّه مرة كلمة لأحد. تبقى في زاويتها وشعرها منسدل فوق وجهها.

ـ من الأمور التي تغيظها إلى أقصى حدّ، قالت فرنسواز، أن نلزم على الدوام اللباقة مع بعضنا، أنا وبيار.

بدا جيربير مندهشاً.

ـ لكنها تعرف جيداً كيف هي الأمور بينكما!

ـ نعم، غير أنها تودّ أن يبقى كل منا حراً حيال مشاعره يبدو لها أن الاستقرار والدوام لا يمكن التوصل إليهما إلا من طريق المساومة والكذب.

ـ إنه أمر مضحك! يجدر بها أن تدرك أنكما لا تحتاجان ذلك!

ـ بالطبع!

نظرت إلى جيربير ببعض الاستياء. فالحب في نهاية الأمر ليس بهذه البساطة كما يظن. إنه أقوى من الزمن، لكنه رغم ذلك يعاش

في الزمن وتظهر لحظة بعد لحظة مخاوف، تنازلات، أحزان ضئيلة. صحيح أن كل هذا لا يهم كثيراً، لكن فقط لأن الواحد يرفض أخذه في الحسبان. تتطلب المسألة أحياناً مجهوداً ضئيلاً.

ـ أعطني سيجارة، قالت، فالتدخين يوهم بالدفء.

ناولها جيربير العلبة مبتسماً. كانت ابتسامته هذه لطيفة فحسب، لكن من الممكن أن تجد فيها فرنسواز فتنة مؤثرة. حدست كل العذوبة التي كانت قرأتها في هاتين العينين الخضراوين لو أحبتهما. تخلّت عن كل هذه الكنوز النفيسة من غير أن تعرفها حتى. لن تعرفها يوماً. ولا تشعر بأي أسف حيالها، رغم أنها كانت تستحق الأسف.

ـ أمر مضحك حقاً حين نرى لابروس مع الصغيرة باجيس، قال جيربير، يبدو وكأنه يرقص على بيض.

ـ أجل، هو الذي يثير اهتمامه عادة ما يجده في الناس من طموح، من تعطّش وشجاعة، هذا ما يحدث بعض التغيير في حياته. ما من أحد يكترث لحياته أقل منها.

ـ هل إنه متمسّك بها حقاً؟ سأل جيربير.

ـ ليس من السهل أن نحدّد معنى التمسّك بشخص ما بالنسبة لبيار. حدّقت فرنسواز محتارة بجمرة سيجارتها. في الماضي، حين كانت تتكلم عن بيار، كانت تنظر إلى داخلها. أما الآن، فعليها أن تبتعد مسافة عنه حتى تقرأ ملامحه. كان من المستحيل تقريباً أن تجيب عن سؤال جيربير. بيار يرفض على الدوام أي تضامن مع نفسه. يتطلّب من كل لحظة إحراز تطور، مقدّماً بضراوة مرتد ماضيه ضحية على مذبح الحاضر. يخال الواحد أن أطبق عليه في

علاقة شغف ثابتة كلها حنان، صدق وألم، وها أنه يبحر مثل جنّي إلى الطرف الآخر للزمن، تاركاً بين يديك شبحاً يدينه بصرامة من أعلى فضائله الحديثة العهد. والأسوأ من كل هذا أنه يأخذ على الذين خدعهم اكتفاءهم بصورة وهمية، لا بل صورة وهمية بالية. أطفأت السيجارة في المنفضة. كانت في ما مضى تجد طرافة في عدم توقف بيار عند اللحظة الحاضرة. لكن إلى أي درجة كانت هي نفسها مسلّحة لمواجهة هذا التفلّت المخادع؟ لا يمكن بالطبع أن يقبل بيار بالتواطؤ مع أي كان ضدّها. لكن مع نفسه؟ الأمر الأكيد أن لا حياة داخلية له. لكن تصديق هذا بشكل تام يكون من باب السذاجة والوهم. أحسّت بجيربير يسرق النظر إليها وتمالكت.

ـ كل ما في الأمر أنها تقلقه، قالت.

ـ كيف هذا؟

بدا مذهولاً. كان هو أيضاً يرى بيار ممتلئاً، قاسياً، منغلقاً كلياً على نفسه. لا يمكن تصوّر أي شق يمكن أن ينسلّ القلق من خلاله. غير أن كزافيير فتحت ثغرة في هذه السكينة. أم أنها اكتفت باكتشاف ثغرة رقيقة بالكاد ترى.

ـ قلت لك مراراً أن بيار، إن كان راهن إلى هذا الحد على المسرح، وعلى الفن بصورة عامة، فبدافع نوع من القرار. والقرار، حين تساورنا تساؤلات بشأنه، فهذا يبعث دائماً الاضطراب. ابتسمت. وكزافيير نقطة استفهام حيّة.

ـ غير أنه متشبّث إلى حدّ غير معقول بهذا الشأن.

ـ بالضبط. ويثيره الأمر حين يؤكد له أحد ما أنه من الأفضل تناول قهوة بالحليب عوضاً عن كتابة «يوليوس قيصر».

انقبض قلب فرنسواز. هل يمكنها حقاً التأكيد أن بيار لم تنتابه

أي شكوك طوال كل هذه السنوات؟ أم أنها ببساطة أبت الاكتراث للأمر؟

ـ وما رأيك أنت؟ سأل جيريير.

ـ في أي مسألة؟

ـ في أهمية القهوة بالحليب.

ـ آه، أنا! قالت فرنسواز. تذكرت ابتسامة معينة تظهر على وجه كزافيير. أود كثيراً أن أكون سعيدة، قالت بازدراء.

ـ لا أرى الرابط.

ـ التساؤلات متعبة. إنها خطيرة.

الواقع أنها تشبه اليزابيت. اتخذت قراراً مبدئياً بشكل نهائي وركنت مطمئنة إلى حقائق بديهية إنما بالية. كان يتحتّم عليها إعادة النظر في كل شيء منذ البداية، غير أن هذا يستوجب طاقة تتخطّى الطاقة البشرية.

ـ وأنت، سألته، ما رأيك؟

ـ آه! كما يشاء المرء. ابتسم. قد يرغب الواحد في تناول كأس أو في الكتابة.

نظرت فرنسواز إليه.

ـ تساءلت مراراً عمّا تنتظره من حياتك.

ـ أريد قبل أي شيء التأكد من أنني سأعيش لوقت قليل بعد.

ابتسمت فرنسواز.

ـ هذا مطلب مشروع. لكن لنفترض أن هذه الفرصة أعطيت لك؟

ـ عندها، لست أدري. فكر قليلاً. ربما كنت عرفت في ظروف أخرى.

تظاهرت فرنسواز بعدم الاكتراث. إن لم يلحظ جيربير أهمية السؤال، قد يجيبها.

ـ لكن هل أنك راضٍ عن حياتك أم لا؟

ـ ثمة أوقات جيدة، وأخرى أقلّ متعة.

ـ أجل، أجابت فرنسواز ببعض الخيبة. تردّدت. إن اكتفينا بهذا، بدا الأمر كئيباً.

ـ يختلف الوضع حسب الأيام، أجاب جيربير. قام بمجهود. كل ما يمكننا القول عن حياتنا يبدو لي دائماً مجرد كلام.

ـ أن يكون الواحد سعيداً أو تعساً، أهذا مجرّد كلام في نظرك؟

ـ أجل، ولا أدرك تماماً معناها.

ـ لكن أطباعك تميل بالفطرة إلى الفرح.

ـ غالباً ما أشعر بالسأم.

قال هذا بهدوء. كان يعتبر من الطبيعي أن يعيش سأماً طويلاً تتخلّله ومضات متعة قصيرة. أوقات جيدة، وأخرى أقلّ متعة. ألم يكن على حق في نهاية الأمر؟ ألم يكن كل ما تبقى مجرّد وهم وأدب؟ ها هما على مقعد خشبي. الطقس بارد ومن حولهما يجلس عسكريون وعائلات إلى الطاولات. إلى طاولة أخرى يجلس بيار مع كزافيير. دخّنا سجائر، شربا كؤوس وقالا كلمات. وتلك الأصوات، ذلك الدخان، لم تتكثّف ساعات غامضة يمكن أن تحسد فرنسواز حميميتها المحرّمة. سوف يفترقان ولن يبقى في أي مكان من رابط يصلهما الواحد بالآخر.

لم يكن ثمة في أي مكان ما يمكن أن تحسده، تأسف عليه أو تخشاه. فالماضي، المستقبل، الحب، السعادة، كلها مجرّد أصوات نحدثها بأفواهنا. لم يكن هناك سوى الموسيقيين بثوبهم القرمزي والدمية بفستانها الأسود والشال الأحمر المعقود حول عنقها. من تحت الفستان الذي يكشف عن تنورة داخلية بيضاء مطرّزة كانت تظهر ساقان هزيلتان. إنها هنا، تكفي لإشباع الأعين التي قد تستقرّ عليها خلال حاضر أبوي.

ـ أعطني يدك يا جميلتي، وسأقرأ لك المستقبل. ارتعدت فرنسواز ومدّت يدها في حركة تلقائية لغجرية ترتدي ثياباً صفراء وليلكية.

ـ لا تجري الأمور بشكل جيد كما تودّين، لكن عليك أن تتحلي بالصبر، دفعة واحدة. تملكين مالاً يا جميلتي، لكن ليس بالقدر الذي يظنه الناس. لديك كبرياء وهذا ما يجعل لك أعداء، لكنك ستتغلبين على كل المتاعب، تعالي معي يا جميلتي وسوف أطلعك على سرّ.

ـ هيا، اذهبي معها، قال جيربير بإلحاح.

تبعت فرنسواز الغجرية التي أخرجت من جيبها قطعة صغيرة من الخشب الفاتح اللون.

ـ سأبوح لك بسرّ: هناك شاب أسمر، تحبّينه كثيراً لكنك لست سعيدة معه بسبب فتاة شقراء. هذا حجاب، ضعيه في محرمة صغيرة واحمليه ثلاثة أيام وستكونين بعدها سعيدة مع الشاب، لا أعطي هذا الحجاب لأحد، إنه الأهمّ بين الحجابات. لكنني أعطيه إليك مقابل مئة فرنك.

ـ شكراً، لا أريد الحجاب. خذي هذا من أجل قراءة الطالع.

أخذت المرأة القطعة النقدية.

ـ مئة فرنك مقابل سعادتك، ليس هذا بالثمن الغالي. كم تريدين أن تدفعي ثمناً لسعادتك؟ عشرون فرنكاً؟

ـ لا شيء على الإطلاق، أجابت فرنسواز.

عادت وجلست قرب جيربير.

ـ ماذا أخبرتك؟ سأل جيربير.

ـ مجرّد ترّهات. ابتسمت. عرضت علي السعادة بعشرين فرنكاً، لكنني وجدت الثمن مرتفعاً إن كانت السعادة كما تقول كلمة فحسب.

ـ لم أقل هذا! أجاب جيربير مذعوراً لتورّطه إلى هذا الحد.

ـ ربما هذا صحيح. مع بيار نستخدم قدراً كبيراً من الكلام. لكن ماذا هناك بالضبط خلف الكلمات؟

إعتراها فجأة قلق عنيف حتى كادت تشعر بالرغبة في الصراخ. شعرت وكأن العالم فرغ بغتة. لم يعد هناك ما يمكن أن تخشاه، أو تحبّه أيضاً. لم يعد هناك شيء على الإطلاق.

سوف تذهب لملاقاة بيار، سيقولان معاً جملاً ثم يفترقان.

إن كانت الصداقة بين بيار وكزافيير مجرد وهم، فإن حب فرنسواز وبيار غير حقيقي أيضاً. كل ما هنالك مجموعة لا متناهية من اللحظات المتماثلة. عجاج فوضوي من الجسد والفكر يفضي في النهاية إلى الموت.

ـ لنرحل، قالت فجأة.

لم يكن من عادات بيار أبداً أن يصل متأخراً عن موعد. حين دخلت فرنسواز المطعم كان جالساً إلى طاولتهما الإعتيادية.

أبدت ردّة فعل فرحة لدى رؤيته، لكنها فكّرت على الفور: ليس لدينا سوى، ساعتين، فتبدّدت بهجتها.

ـ هل أمضيت ما بعد ظهيرة جيدة؟ سأل بيار بحنان. تكوّر وجهه في ابتسامة عارمة أضفت على ملامحه بعضاً من البراءة.

ذهبنا إلى سوق البالة، روت فرنسواز. كان جيربير لطيفاً جداً، لكن الطقس كان دبقاً. خسرت مئتي فرنك في لعبة الورقات.

ـ كيف فعلت هذا؟ إنها حماقة! ناولها قائمة الطعام، ماذا ستطلبين؟

ـ طبق ويلش.

تفحص بيار قائمة الطعام وكأنما مهموماً.

ـ ليس لديهم بيض بالمايونيز، قال. وجهه المحتار والخائب لم يؤثر في فرنسواز. لاحظت فقط بفتور أنه وجه مؤثر.

ـ إذاً طبقا ويلش، قال بيار.

ـ هل يهمّك أن أخبرك عمّا تحدثنا؟

ـ بالطبع يهمّني، قال بيار بلهفة.

رمقته بنظرة مرتابة. في الماضي لكانت فكّرت ببساطة «هذا يهمّه» ولكانت سارعت إلى إخباره كل شيء. كلمات بيار وابتساماته كانت بيار نفسه حين تتوجه إليها. أما الآن، فبدت لها فجأة أشبه بإشارات ملتبسة تعمّد بيار القيام بها. إنه يختبىء خلفها، ولا يسع الواحد سوى أن يؤكد: «يقول إن هذا يهمّه»، وهذا كل ما في الأمر.

وضعت يدها على ذراع بيار.

ـ إبدأ أنت. ماذا فعلت بكزافيير؟ بدأتما العمل أخيراً؟

نظر إليها بيار ببعض الخجل.

ـ قليلاً.

ـ لا يعقل هذا! قالت فرنسواز من غير أن تخفي استياءها. من الضروري أن تعمل كزافيير، لمصلحتها ومصلحتهما أيضاً. لا يمكن أن تعيش سنوات مثل طفيلية.

ـ أمضينا معظم ما بعد الظهيرة ونحن نتشاجر، قال بيار.

أحسّت فرنسواز أنها تركّب تعبير وجهها، لكن من غير أن تعرف حقاً ما تخشى أن يظهر على ملامحها.

ـ حول أي موضوع؟ سألت.

ـ حول عملها بالضبط. ابتسم بيار في سرّه. طلب منها باهين في الصباح خلال درس الارتجال أن تتنزّه في غابة وتقطف أزهاراً. أجابته مشمئزة إنها تكره الأزهار ولم تبدّل رأيها بعد ذلك. ثم جاءت تخبرني ذلك متفاخرة ففقدت صوابي.

سكب بيار بهدوء الصلصة الإنكليزية فوق طبق الويلش الساخن.

ـ وبعدها؟ سألت فرنسواز فاقدة صبرها. كان يتباطأ كثيراً ولم يخطر له كم أن الأمر مهم في نظرها.

ـ آه! حصل ما حصل. استشاط غيظاً. ها هي تصل برقّة مبتسمة واثقة من أنني سأعجب بموقفها وأثني عليها، فتجدني أنقضّ عليها غاضباً! أوضحت لي ضاغطة قبضتيها، إنما بذلك التهذيب الخبيث الذي تعرفينه جيداً. إننا أسوأ من بورجوازيين لأن ما نتوق إليه نحن هو الراحة المعنوية. لم يكن هذا مخطئاً تماماً،

لكنني أصبت بنوبة غضب فظيعة. مكثنا ساعة في الدوم جالسين قبالة بعضنا من غير أن يتفوّه أي منّا بكلمة.

كل هذه النظريات حول الحياة بلا أمل، حول لا جدوى المجهود، باتت مزعجة في نهاية الأمر. تمالكت فرنسواز. لم تكن تريد أن تمضي وقتها تنتقد كزافيير.

ـ لا بدّ أن الأمر كان مرحاً! قالت. ذلك الضيق الذي تشعر به يغلي في حلقها كان سخيفاً. لا يمكن أن يصل بها الأمر إلى تصنّع سلوكها أمام بيار.

ـ ليس من المزعج حقاً أن يسترسل الواحد في الغضب، قال بيار. أعتقد أن هذا لا يزعجها هي أيضاً. لكنه لا يمكنها المقاومة مثلي وانهارت في النهاية. حاولت عندها التقرّب منها. كان الأمر صعباً لأنها متشبثة بصرامة بحقدها، لكنني تغلبت عليها في نهاية الأمر. وأضاف والرضى بادٍ عليه: وقّعنا سلماً رسمياً ولتثبيت المصالحة، دعتني لتناول الشاي في غرفتها.

ـ في غرفتها؟ تعجّبت فرنسواز. مضى وقت طويل ولم تستقبلها كزافيير في غرفتها. شعرت بلسعة مرارة واستياء. هل تمكنت في النهاية من حملها على اتخاذ قرارات جيدة؟

ـ تحدثنا عن أشياء أخرى. رويت لها قصصاً عن رحلاتنا وتخيّلنا أننا نقوم برحلة معاً.

ابتسم.

ـ ارتجلنا الكثير من المشاهد الصغيرة. لقاء في قلب الصحراء بين متنزّهة إنكليزية ومغامر كبير. ترين نوع التمرين. لديها مخيّلة، إن تمكنت فقط من استخدامها.

ـ يجب أن تمسكها بحزم، قالت فرنسواز بنبرة يشوبها اللوم.

ـ سأفعل، لا تنهريني.

ابتسم ابتسامة غريبة، متواضعة ومتملّقة.

ـ قالت لي فجأة: أمضي معكِ وقتاً رائعاً.

ـ حسناً! هذا نجاح. أمضي معك وقتاً رائعاً... أكانت واقفة ونظرها تائه في الفراغ، أم جالسة على طرف الكنبة محدّقة ببيار وجهاً لوجه؟ لا داع للسؤال. كيف يمكن تحديد نبرة صوتها بدقة، العطر الذي كان يفوح من غرفتها في تلك اللحظة؟ الكلمات لا يسعها سوى تقريبنا من السرّ لكنها لا تجعلها أقلّ غموضاً، فما يلبث أن يلقي فوق القلب ظلاً أشد برودة.

ـ لا أرى بوضوح أين وصلت مشاعرها حيالي، قال بيار مشغول البال. يبدو لي أنني أحرز تقدماً، لكن على أرض متحركة جداً.

تتقدّم يوماً بعد يوم.

ـ حين غادرتها، كانت كئيبة من جديد. لامت نفسها لأنها لم تتلقّ درسها وأصابتها نوبة اشمئزاز من نفسها.

نظر إلى فرنسواز بجدية.

ـ ستكونين لطيفة معها بعد قليل.

ـ أنا لطيفة معها دائماً، قالت فرنسواز بفتور. كلما أدّعى بيار إملاء سلوكي عليها انقبضت. لم تعد تشعر الآن بأي رغبة في التقاء كزافيير وملاطفتها، وقد بدا الأمر بمثابة واجب.

ـ عزّة النفس هذه التي لديها فظيعة! قالت فرنسواز عليها أن تكون واثقة من إحراز نجاح فوري ولامع حتى توافق على المجازفة.

ـ ليست هذه عزة نفس فحسب.

ـ ماذا إذاً؟

ـ قالت ألف مرة إنها تجد من المقزز التدني والقيام بكل هذه الحسابات والترّيث إلى هذا الحد.

ـ هل تجد أنت أن في الأمر تدنّياً؟

ـ أنا ليس لديّ نظام أخلاقي.

ـ قل لي بصدق، أتظن إن ماتفعله هو بدافع أخلاقي؟

ـ بالطبع، بمعنى ما، أجاب بيار ببعض الاستياء. لديها موقف محدّد وواضح من الحياة، لا تساوم عليه. هذا ما أعتبره نظاماً أخلاقياً. تبحث عن الاكتمال وهذا من المطالب التي لطالما قدّرناها.

ـ الواقع أن ثمة خمولاً في حالتها.

ـ ما هو الخمول؟ إنه طريقة للإنزواء في الحاضر. هنا فقط تجد الاكتمال. وإن لم يهبها الحاضر شيئاً قبعت في زاويتها مثل حيوان مريض. لكن تعرفين، حين يبلغ الكسل هذا الحدّ، لا تعود كلمة خمول مناسبة ويكتسب طاقة ما. لن يجد أيّ منا القوة الكافية للبقاء ثماني وأربعين ساعة في غرفة من غير أن يرى أحداً أو يفعل شيئاً.

ـ ليس هذا ما أقوله. شعرت فرنسواز فجأة بحاجة مؤلمة لرؤية كزافيير. كان صوت بيار يحمل لهفة غريبة، مع أنه يدّعي أن الإعجاب شعور لا يعرفه.

ـ في المقابل، تابع بيار، حين يؤثر شيء ما في نفسها، من المذهل أن تري كيف يمكن أن تبتهج به. أشعر أن كل ما لديّ من

طاقة لا يوازي الكثير إلى جانبها، حتى أنني أكاد أشعر بنفسي ذليلاً.

ـ ستكون هذه أول مرة في حياتك تعرف التواضع، قالت فرنسواز وهي تحاول أن تضحك.

ـ قلت لها وأنا أغادرها إنها لؤلؤة صغيرة سوداء، قال بيار رصيناً. رفعت كتفيها، لكن هذا رأيي حقاً. كل ما فيها نقيّ جداً وعنيف جداً.

ـ لماذا سوداء؟

ـ بسبب ذلك الانحراف الذي فيها. وكأنها تشعر أحياناً بالحاجة إلى فعل الشرّ، إلى إلحاق الأذى بنفسها وجعل الآخرين يبغضونها.

بقي برهة ساهماً.

ـ أمر غريب، تعرفين، عندما يقول لها أحد إنه يكنّ لها التقدير، غالباً ما تتمرّد، وكأنها تخاف. تشعر أن هذا التقدير يكبّلها.

ـ وسرعان ما تنفض القيود عنها، تابعت فرنسواز.

تردّدت. كادت ترغب في تصديق هذه الصورة الفاتنة. إن باتت تجد نفسها غالباً منفصلة عن بيار، فلأنها تركته يتقدّم وحيداً على دروب الإعجاب والحنان هذه. لم تعد أعينهم تتأمل الصور ذاتها. فهي لا ترى سوى طفلة نزقة حيث يبصر بيار روحاً متطلّبة شرسة. إن وافقت على الإنضمام إليه، إن تخلّت عن تلك المقاومة المتصلّبة...

ـ ثمة بعض الصحة في كل هذا، قالت. أحسّ مراراً أن فيها شيئاً مؤثراً.

تشنّجت بكاملها من جديد. ذلك القناع الجذّاب، إنما هو خدعة. لن تستسلم لهذا السحر. لم تكن لديها أي فكرة عما يمكن أن يحصل إن استسلمت. تعرف فقط أن خطراً يهدّدها.

ـ لكن من المستحيل إقامة صداقة معها، قالت بنبرة لاذعة. أنانيتها فظيعة. لا يمكن حتى القول إنها تفضّل نفسها على الآخرين، فليس لديها أدنى حسّ بوجودهم.

ـ لكنها تحبك كثيراً قال بيار بلوْم، وأنت تواجهينها بالقسوة، تعلمين!

ـ إنه حبّ غير مستحبّ. تعاملني وكأنني معبودة وشخص حقير في آن. قد تكون في أعماق روحها تتأمل في جوهر روحي بولع، لكنها تتصرّف حيال شخصي المسكين من لحم ودم بلا مبالاة مزعجة. يمكن تفهم هذا، إذ أن المعبودة لا تشعر أبداً بالجوع أو النعاس أو ألم الرأس. نبجّلها من دون أن نسألها عن رأيها في عبادتنا لها.

ـ أخذ بيار يضحك.

ـ في كلامك قدر من الصحة، لكنك ستجدينني منحازاً. فعجزها عن إقامة علاقات بشرية مع الناس يؤثر فيّ.

ابتسمت فرنسواز بدورها.

ـ أراك منحازاً قليلاً، قالت.

خرجا من المطعم. لم يتحدّثا حتى الآن سوى عن كزافيير. كل الأوقات التي لا يمضيانها معها، يمضيانها في التحدث عنها. أصبح الأمر هوساً. نظرت فرنسواز في وجه بيار بحزن: لم يطرح عليها بعد أي سؤال، لا يكترث تماماً لكل ما دار في رأس فرنسواز من

خواطر طوال النهار. حين ينصت لها مبدياً اهتمامه، ألم يكن يفعل بدافع اللباقة؟ أمسكت بذراعه وضغطت عليها للاحتفاظ على الأقل باتصال معه. ضغط بيار برقّة على يدها.

ـ تعرفين، أتحسّر قليلاً على الوقت حين كنت أنام في غرفتك، قال.

ـ لكن مقصورتك باتت جميلة الآن بعد أن طليت من جديد.

كان الأمر مخيفاً. تلك الجملة المتودّدة، الحركة الصغيرة الرقيقة، لم تكن ترى فيها سوى نية ملاطفة. لم تكونا ممتلئتين، كثيفتين ولا تؤثران. ارتعشت. بدا الشكّ يشق طريقه إلى ذهنها، هل يمكن إزالته أبداً؟

ـ أتمنى لك ليلة طيّبة، قال بيار برقّة.

ـ شكراً، أراك صباح غد.

تأملته وهو يتوارى من باب المسرح الصغير وشعرت بألم حاد يخترقها. ماذا هناك خلف الجمل، والحركات؟ «إننا واحد». لطالما أفادت من هذا الإلتباس المريح لتعفي نفسها من القلق على بيار. لكنها مجرّد كلمات، وهما إثنان. كانت شعرت بذلك ذات مساء في «البول نور» وهذا ما جعلها بعد بضعة أيام تغضب من بيار. لم تشأ الغوص عميقاً في انزعاجها فلجأت إلى الغضب حتى لا ترى الحقيقة. لكن بيار لم يكن مذنباً، هو لم يتغير. الذنب كان ذنبها هي التي أخطأت طوال سنوات ولم تنظر إليه إلاّ كتبرير لنفسها. وها أنها تدرك اليوم أنه يحيا لحسابه. وتدفع ثمن ثقتها الطائشة، فتجد نفسها فجأة في حضور مجهول. حثّت خطاها. الوسيلة الوحيدة للتقرّب من بيار هي التقاء كزافيير ومحاولة رؤيتها مثلما رآها هو. أضحى بعيداً ذلك الوقت حين لم تكن فرنسواز ترى من

كزافيير سوى جزء من حياتها هي. أما الآن فتسير مسرعة، واهنة العزم وقلقة إلى حدّ الفهم نحو عالم غريب عنها، بالكاد سينفتح أمامها.

وقفت فرنسواز لبرهة بلا حراك أمام الباب. تلك الغرفة تهيبها. إنها حقاً مكان مقدّس. فيها يقام أكثر من طقس، لكن الآلهة الكبرى التي يتصاعد نحوها دخان السجائر الشقراء، رائحة الشاي وعطر الخزامى، إنما هي كزافيير نفسها، مثلما كانت عيناها تتأملانها.

ـ دقّت فرنسواز الباب بخفّة.

ـ أدخل، صاح صوت فرح.

دفعت فرنسواز الباب وقد أصابتها بعض الدهشة. كانت كزافيير واقفة في روبها الداخلي الأخضر والأبيض. كانت تبتسم، وقد وجدت الدهشة التي تتوقع إثارتها طريفة. في الغرفة انتشر نور دامٍ انبعث من مصباح مكسو بقماشة حمراء.

ـ أتريدين أن نسهر عندي؟ سألت كزافيير. أعددت عشاءً صغيراً.

كانت الغلاّية تخرّ فوق سخّانة قرب المغسلة. ميّزت فرنسواز في العتمة صحنين يطفحان بالسندويشات الملوّنة. غير وارد أن ترفض الدعوة. فدعوات كزافيير رغم مظهرها الخجول، هي دائماً بمثابة أوامر إلزامية.

ـ كم أنت لطيفة، قالت. لو علمت أنها أمسية احتفالية، لكنت تأنيت في اختيار ملابسي.

ـ إنك رائعة كما أنت، أجابت كزافيير برقّة. اجلسي. انظري،

إبتعت شاياً أخضر. لا تزال الأوراق الصغيرة تبدو حيّة، وسترين؟ إنه عَطِر.

نفخت وجنتيها ونفثت بكل ما لديها من قوة على نار السخّانة. خجلت فرنسواز من سوء نيتها.

ـ صحيح أنني قاسية، فكرت. أصبح شرسة.

كم كانت لهجتها لاذعة قبل قليل وهي تتكلم مع بيار! وجه كزافيير الحذر المنحني فوق غلاّية الشاي تركها عزلاء حقاً.

ـ هل تحبين الكافيار الأحمر؟ سألت كزافيير.

ـ أجل، كثيراً.

ـ آه! هذا جيد، كنت أخشى ألاّ تحبيه.

تأملت فرنسواز السندويشات بتخوف. فوق شرائح الخبز الأسمر المقطّعة دوائر ومربعات انبسطت أنواع من المربّى المتعددة الألوان. هنا وهناك ظهرت أنشوفة، زيتونة، دائرة شمندر...

ـ ليس هناك إثنان متشابهان، قالت كزافيير مفاخرة. سكبت الشاي الساخن في فنجان والبخار يتصاعد منه. اضطررت لإضافة القليل من صلصة البندورة بشكل متباعد، قالت بسرعة، فهي تعطي السندويشات مظهراً أجمل بكثير. لكنك لن تشعري بها حتى.

ـ تبدو شهية للغاية، قالت فرنسواز مستسلمة. فهي تمقت البندورة. اختارت السندويشة الأقل احمراراً. ذوق كزافيير غريب، لكن النتيجة لم تكن سيئة.

ـ هل لاحظت أن لديّ صوراً جديدة؟ سألت كزافيير.

على ورق الجدران ذي التشجيرات الخضراء والحمراء كانت

كزافيير علّقت مجموعة من صور العري الفنية. تفحّصت فرنسواز بعناية الظهور الطويلة المتقدّسة، الصدور المتاحة للأعين.

ـ لا أظن أن السيد لابروس وجدها جميلة، قالت كزافيير بتكشيرة خائبة.

ـ ربما الشقراء مكتنزة بعض الشيء، لكن المرأة الصغيرة السمراء، فاتنة.

ـ عنقها طويل رائع، يشبه عنقك، قالت كزافيير بصوت عذب. ابتسمت لها فرنسواز. شعرت فجأة بالارتياح، وكأن كل الشاعرية الرديئة لهذا النهار تبدّدت. نظرت إلى الكنبة، المقاعد المكسوة بنجمة ذات مرتفعات صفراء، خضراء وحمراء مثل ثوب مهرّج. كانت تحبّ تألّق الألوان القانية والباهتة هذه، وذلك النور المأتمي ورائحة الأزهار الزاوية ونضارة الجسد المنتشرة على الدوام من حول كزافيير. لم يعرف بيار عن هذه الغرفة أكثر من ذلك ولم تلتفت إليه كزافيير بوجه مؤثر أكثر من ذاك الذي ترفعه نحو فرنسواز. تلك الملامح الفاتنة تؤلف وجه طفلة بريئة وليس قناع ساحرة مخيفة.

ـ تناولي المزيد من السندويشات، قالت كزافيير.

ـ لم أعد جائعة.

ـ آه! قالت كزافيير متأسفة. لم تعجبك إذاً.

ـ بل أعجبتني، أجابت فرنسواز وهي تمدّ يدها نحو الصحن. كانت تعرف حق المعرفة ذلك الطغيان الرقيق. لم تكن كزافيير تسعى لإرضاء الغير، بل تسعى بأنانية إلى لذة الإرضاء. لكن هل إن هذا يستوجب اللوم؟ ألم تكن ودودة هكذا؟ التمعت عيناها من شدّة السرور وهي تتأمل فرنسواز تلتهم هريسة بندورة كثيفة. كان ينبغي أن يكون الواحد من صخر حتى لا يتأثر بفرحها.

ـ حلّت عليّ سعادة عظيمة للتو، روت كزافيير وكأنما تبوح بسرّ.

ـ وما هي؟

ـ الراقص الزنجي الرائع! كلّمني.

ـ إلزمي الحذر، فالشقراء قد تقتلع عينيك.

ـ صادفته في الأدراج وأنا صاعدة حاملة الشاي ورزمي الصغيرة. أشرقت عينا كزافيير. كم كان لطيفاً! كان يرتدي معطفاً فاتح اللون ويعتمر قبّعة رمادية شاحبة. بدت ثيابه جميلة، متناسبة مع تلك البشرة القاتمة. سقطت رزمي من يدي تحت وطأة المفاجأة. التقطها من أجلي مبتسماً وقال لي «مساء الخير آنستي. هنيئاً لك!»

ـ وماذا أجبته؟

ـ لا شيء، قالت فرنسواز مستهجنة. هربت.

ابتسمت.

ـ إنه رشيق كالهرّ. ويبدو طائشاً وغادراً أيضاً مثله.

لم تكن فرنسواز نظرت جيداً إلى الزنجي حتى الآن. شعرت بنفسها جافة جداً إلى جانب كزافيير. كم من الذكريات كانت كزافيير استبقت من سوق البالة. وهي لم تر سوى خرق متّسخة وتخشيبيات مثقوبة.

ملأت كزافيير من جديد فنجان فرنسواز.

ـ هل كان عملك جيداً هذا الصباح؟ سألتها بحنوّ. ابتسمت فرنسواز: كانت هذه بادرة جيدة تقوم بها كزافيير عن تصميم. فهي عادة تمقت هذا العمل الذي تخصص له فرنسواز أغلب أوقاتها.

ـ حسناً، لكني اضطررت إلى المغادرة ظهراً لتناول الغداء عند أمي.

ـ هل تدعينني يوماً أقرأ كتابك؟ سألت كزافيير بغنج.

ـ طبعاً. سأطلعك على الفصول الأولى حين تودّين.

ـ ماذا يروي الكتاب؟

جلست كزافيير فوق أريكة وردّت ساقيها تحتها وهي تنفخ بخفّة على شايها الساخن. نظرت إليها فرنسواز نادمة. فهذا الاهتمام الذي تبديه لها كزافيير أثّر في نفسها. كان ينبغي أن تحاول أكثر مما فعلت إقامة حوارات حقيقية معها.

ـ إنه عن شبابي، قالت فرنسواز. أريد أن أوضح في كتابي لماذا نشعر غالباً في شبابنا بأن لدينا عيوباً.

ـ تعتقدين أن لدينا عيوباً؟

ـ أنت، لا. فروحك نقيّة.

فكّرت قليلاً.

ـ أترين، حين يكون الواحد طفلاً، يتقبّل بسهولة ألاّ يكون له أي وزن. لكن الوضع يتغير في السابعة عشرة. في هذا السن يبدأ الواحد يرغب في تأكيد وجوده بشكل جدّي. وبما أنه لا يزال يشعر في قرارة نفسه أنه لم يتغير، يبحث بغباء عن ضمانات خارجية.

ـ كيف هذا؟

ـ يسعى إلى تأكيد الآخرين، يدوّن أفكاره، يتشبّه بنماذج أثبتت نفسها. إليك مثل اليزابيت. فهي بمعنى ما لم تتخطَّ أبداً هذه المرحلة. إنها مراهقة أبدية.

أخذت كزافيير تضحك.

ـ أنا واثقة من أنك لم تكوني مثل اليزابيت.

ـ هذا صحيح جزئياً. تزعجنا اليزابيت لأنها تنصت إلينا أنا وبيار ذليلة، لأنها تفبرك نفسها باستمرار. لكن إن حاولنا أن نتفهمها ونتعاطف معها قليلاً، لاحظنا في كل هذا محاولة خرقاء لإضفاء قيمة أكيدة إلى حياتها وشخصها. حتى احترامها للشكليات الاجتماعية، الزواج، الشهرة، هو أيضاً شكل من أشكال هذا الحرص.

تجهّمت كزافيير قليلاً.

ـ اليزابيت ليستِ سوى تافهة مسكينة ومدّعية. وهذا كل ما في الأمر!

ـ لا، تماماً! هذا ليس كل ما في الأمر. ينبغي أيضاً أن نفهم مصدر ذلك.

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ ما نفع تفهم الناس غير الجديرين بذلك؟

تمالكت فرنسواز عن إبداء استيائها. تشعر كزافيير بالغبن كلما تحدث الواحد عن شخص غيرها بتسامح أو حتى بتجرّد فحسب.

ـ لكن الجميع جدير بالتفهّم، بمعنى ما، قالت لكزافيير التي كانت تستمع إليها بانتباه مقطّبة. اليزابيت تصاب بالذعر حين تنظر إلى داخلها لأنها لا تجد سوى الخواء والفراغ. لا تعي أن هذا مصيرنا جميعاً. أما الآخرون، فتراهم من الخارج، عبر كلمات، إشارات، أوجه تبدو كلها ممتلئة. وهذا يؤكد نوعاً من السّراب.

ـ يا للعجب! أنت لا تجدين لها عادة كل هذه الأعذار.

ـ لكن المسألة لا تتعلّق بإيجاد أعذار أو الإدانة.

ـ سبق ولاحظت أنكما، أنت والسيد لابروس، تنسبان إلى الناس الكثير من الأسرار والألغاز. لكنهم أكثر بساطة من ذلك.

ابتسمت فرنسواز. ذلك كان اللوم الذي وجّهته مرة إلى بيار حين اعتبرت أنه يعقّد كزافيير كثيراً.

ـ يبدون بسيطين إذا ما نظرنا إليهم بشكل سطحي، قالت.

ـ ربما، أجابت كزافيير بنبرة مهذّبة ومتهاونة أنهت النقاش. وضعت فنجانها وابتسمت لفرنسواز متودّدة.

ـ أتعرفين ماذا أخبرتني عاملة الغرف؟ قالت. هناك في الغرفة رقم ٩ شخص هو رجل وامرأة في الوقت نفسه.

ـ الرقم ٩. لذلك إذاً لديها وجه قاس وصوت عريض! فهو يرتدي ثياب امرأة، ذلك الرجل. أهذا هو؟

ـ نعم، لكن اسمه اسم رجل. إنه نمساوي. ويبدو أن والديه تردّدا حين ولد، واعتبر في نهاية الأمر صبياً. ثم في الخامسة عشرة، حصل له حادث نسائي محض، لكن والديه لم يبدّلا أحواله الشخصية. أضافت كزافيير خافضة صوتها: على كل حال، لديه شعر على صدره، وخصائص أخرى. اشتهر في بلده وصورت عنه أفلام. كان يجني الكثير من المال.

يمكنني تصور ذلك. كانت بالتأكيد نعمة حقيقية للخنثى أن يعيش هناك في أوج التحليل النفسي وعلم الجنس.

ـ أجل، لكن حين حصلت تلك المسائل السياسية، تعرفين، قالت كزافيير بغموض، طرد. فلجأت إلى هنا. لا تملك قرشاً واحداً

ويبدو أنها كئيبة جداً لأن قلبها يميل إلى الرجال، لكن الرجال لا يرغبون بها أبداً.

ـ يا للمسكينة! صحيح. لا شك أنها لا تناسب حتى اللواطيين.

ـ إنها تبكي طوال الوقت، قالت كزافيير حزينة. نظرت إلى فرنسواز. مع أن لا دخل لها في الأمر. كيف يمكن أن يطردوا أحداً من بلد ما لأنه ولد على هذا الشكل أو ذاك؟ لا يحقّ لهم.

ـ للحكومات الحقوق التي تقرّر أن تكون لها.

لا أفهم هذا، قالت كزافيير بنبرة لوم. ألا يوجد أي بلد حيث يمكننا القيام بما نريد؟

ـ لا.

ـ إذاً يجدر الذهاب إلى جزيرة مهجورة.

ـ حتى الجزر المهجورة باتت ملكاً لأشخاص الآن. إننا محاصرون.

ـ آه، سوف أجد وسيلة.

ـ لا أظن، سوف ترغمين مثل الجميع على تقبّل العديد من الأمور التي لا تعجبك.

ابتسمت.

ـ هل أن هذه الفكرة تجعلك تثورين؟

ـ أجل، قالت كزافيير.

رمقت فرنسواز من طرف عينها.

ـ هل قال لك السيد لابروس إنه غير راضٍ عن عملي؟

ـ قال لي إنكما ناقشتما المسألة مطولاً. أضافت فرنسواز مبتهجة: كان معتزاً بدعوتك له إلى غرفتك.

ـ آه! هكذا إذا، قالت كزافيير بجفاف.

أدارت ظهرها لفرنسواز وذهبت تملأ الغلاية بالماء.

خيّم الصمت لبرهة. إن بيار مخطىء إن كان يظنّ أنه حظي بالسماح. فالانطباع الأخير الذي تتركه كزافيير لا يكون مرة الغالب. لا شك أنها أعادت النظر غاضبة في ما بعد الظهيرة هذه وأكثر ما استاءت منه مصالحتهما في النهاية.

تأمّلتها فرنسواز. ألم يكن هذا الاستقبال اللطيف مجرّد وسيلة لطرد الذكرى؟ ألم تكن خدعت مرة جديدة؟ الشاي، السندويشات، الفستان الأخضر الجميل، لم يكن القصد من كل ذلك تكريمها هي، بل تجريد بيار من حظوة منحته إياها في لحظة طيش. شعرت بغصّة في حلقها. لا، لم يكن من الممكن أن تستسلم لهذه الصداقة. فهي تترك على الفور في الفم طعماً زائفاً، طعم نثار معدني.

الفصل (٧)

ـ سأحضر لك كأساً من الفاكهة، قالت فرنسواز. شقّت بمرفقيها طريقاً لجان هاربلي إلى المائدة. لم تكن العمّة كريستين فارقت الطاولة للحظة. كانت تبتسم مفتونة لغيميو وهو يتناول قهوة مثلّجة وملامحه تظهر تسامحاً ورضى عن نفسه. تحققت فرنسواز بطرفة عين أن أطباق السندويشات والحلوى لا تزال لائقة. بلغ عدد الحاضرين ضعفي ما كان عليه في سهرة السنة الماضية.

ـ هذه الزينة جميلة جداً، قالت جان هاربلي.

أجابت فرنسواز للمرة العاشرة.

ـ بيرغاميان هو الذي رتّب كل شيء. إنه حسن الذوق.

كان له فضل ما في تحويل ميدان معركة روماني بسرعة إلى قاعة رقص، غير أن ذلك الإسراف في أغصان البهشية والدبق والصنوبر لم يكن يعجبها كثيراً. جالت النظر من حولها بحثاً عن وجوه جديدة.

ـ حضورك عزيز جداً علينا. سوف يكون لابروس مسروراً لرؤيتك.

ـ أين هو المعلّم العزيز؟

ـ هناك، مع بيرجيه، وهو بحاجة ماسة لأن تذهبي، وترفّهي عنه.

لم تكن بلانش بوغي أكثر متعة من بيرجيه، لكنها ستحدث بعض التغيير. لم يكن يبدو على بيار أنه يستمتع بالحفل. ينظر أحياناً إلى الأعلى معتّماً. كان قلقاً بشأن كزافيير، يخشى أن تسكر أو تهرب. كانت في تلك اللحظة جالسة على حافة خشبة المسرح قرب جيربير. كانا يؤرجحان أرجلهما ويبدو عليهما السأم الشديد. كان الفونوغراف يبعث موسيقى رومبا، غير أن المكان يغصّ بالحشد ولا يمكن الرقص.

ـ لتتدبّر كزافيير أمرها! فكّرت فرنسواز. فالسهرة شاقة بما فيه الكفاية كما هي وسوف تصبح غير محتملة إطلاقاً إن توجّب عليها مراعاة آرائها ومزاجها المتقلّب.

ـ لتتدبّر أمرها، كرّرت فرنسواز ببعض الحيرة.

ـ ترحل في هذا الوقت المبكر؟ يا للأسف.

اقتفت بعين راضية أبيلسون وهو يغادر. لن يتوجب عليها التكلّف كثيراً بعد أن يرحل جميع المدعوين الرصينين. توجهت فرنسواز نحو اليزابيت. مضى عليها نصف ساعة وهي تدخن، متكئة إلى دعامة، محدّقة في الفراغ، من غير أن تتكلّم إلى أحد. إلا أن عبور خشبة المسرح بدا أشبه برحلة معقّدة.

ـ كم أننا مسرورون لحضورك! سيفرح بك لابروس كثيراً! إنه عالق بين مخالب بلانش بوغيه، حاولي أن تخلصيه.

تقدمت فرنسواز بضعة سنتميترات.

ـ ماري انج، إنك متألقة، هذا الأزرق رائع مع البنفسجي.

ـ إنه تايور صغير من تصميم لانفان. إنه جميل، أليس كذلك؟
وصلت فرنسواز بعد بضع مصافحات وبضع ابتسامات إلى جانب اليزابيت.

ـ إنها سهرة شاقة، قالت بحماس. شعرت بتعب كبير. تشعر غالباً أنها متعبة هذه الآونة.

ـ الأناقة منتشرة هذا المساء! علّقت اليزابيت. كل هؤلاء الممثلات... هل لاحظت كم أن بشرتهنّ رديئة؟

اليزابيت أيضاً لم تكن بشرتها نضرة. فهي متورّمة يشوبها الإصفرار. «إنها تهمل نفسها»، فكرت فرنسواز. من الصعب التصديق أنها كانت باهرة قبل ستة أسابيع، خلال العرض الأول.

ـ إنه الماكياج، قالت فرنسواز.

ـ أجسامهنّ رائعة، تابعت اليزابيت بتجرّد. حين أفكر أن بلانش بوغي تجاوز عمرها الأربعين!

الأجسام شابة والشعور تتماوج بألوان أكثر دقّة من أن تكون طبيعيّة، حتى الوجوه مشدودة بصلابة. لكن هذا الشاب لم يكن يعكس نضارة الأشياء الحيّة. إنه شباب محنّط. لا تجعيدة ولا تغضّن عند طرف العين على البشرات المدلّكة بعناية. الشيخوخة تأتي من تحت البشرة. قد يتقدّمن في السنّ لوقت طويل بعد من دون أن تتفسّخ القشرة اللمّاعة، ثم ذات يوم تنهار هذه القوقعة المتألّقة دفعة واحدة وقد رقّت مثل ورقة سيجارة، فتظهر عندها عجوز حقيقية بتجاعيدها، بشرتها المبرقشة، عروقها المنتفخة وأصابعها الكثيرة العقود.

ـ نساء يحافظن على شبابهنّ، قالت فرنسواز. كم أن هذه العبارة فظيعة. تذكرني دائماً بعلب السلطعون المحفوظ والرجل الذي يقول لك «إنه طيب كالطازج».

ـ ليست لديّ كذلك أفكار مسبقة إيجابية حيال الشباب تلك الفتيات الصغيرات بلباسهن المعدم الذوق لا يبهرن بطلّتهنّ.

ـ ألا ترين أن كاتزيني جميلة بتنورتها الغجرية الفضفاضة؟ انظري أيضاً إلى إيلوي، وشانو. بالطبع، ليست قصة ثيابهنّ ماهرة...

تلك الفساتين الخرقاء قليلاً لها رقّة حياتهنّ الحائرة تماماً، تعكس طموحاتها، أحلامها، مصاعبها، مواردها. حزام كاتزيني الأصفر العريض، التطريز المنثور فوق أعلى فستان أيلوي، كلها تخصّهنّ، تتصل بهنّ بشكل حميم مثل ابتساماتهنّ. هكذا كانت اليزابيت تختار ثيابها في الماضي.

ـ أؤكدّ لك أن أولئك النساء مستعدات لإعطاء كل ما لديهن من أجل أن يشبهن هاربلي أو بوغي، قالت اليزابيت بصوت لاذع.

ـ هذا صحيح. إن حققن النجاح، فسوف يصبحن مثل الأخريات تماماً.

غمرت المشهد بنظرة: الممثلات الجميلات اللواتي أصبن الشهرة، المبتدئات، الفاشلون اللائقون، إنه حشد من المصائر المنفردة التي تؤلف تلك الجمهرة المبلبلة، تبعث الدوار بعض الشيء بدا لفرنسواز في لحظات ما أن تلك الحياة جاءت تتشابك من أجلها هي في هذه النقطة من الفضاء والزمن حيث تقف هي. وفي لحظات أخرى بدا الأمر مختلفاً تماماً. كان الحاضرون مبعثرين، كل من أجل نفسه.

ـ على كل حال، تبدو كزافيير قبيحة جداً هذا المساء، قالت اليزابيت. تلك الأزهار التي حشرتها في شعرها تنمّ عن ذوق رديء.

كانت فرنسواز أمضت وقتاً طويلاً مع كزافيير لترتيب تلك الباقة الخجولة، لكنها لم تشأ أن تناقض اليزابيت. ثمة في عينيها قدر كافٍ من العدائية حين يكون الواحد مؤيداً لرأيها، فكم بالأحرى إن كان مخالفاً له؟

ـ إنهما مضحكان، قالت فرنسواز.

كان جيربير يشعل سيجارة كزافيير، وهو يحرص على تفادي نظرتها. بدا متصنعاً في بدلة قاتمة أنيقة لا شك أنه استعارها من بيكلار. كانت كزافيير تحدّق بتصلّب في رأس حذاءيها الصغيرين.

ـ لم يتبادلا كلمة منذ أن بدأت أراقبهما، قالت اليزابيت. إنهما خفران مثل عاشقين.

ـ كل منهما يبعث الذعر في نفس الآخر، أوضحت فرنسواز. هذا أمر مؤسف، كان يمكن أن يتصادقا.

لم يكن خبث اليزابيت يمسّها، فمحبّتها لجيربير خالية من أي غيرة، غير أن الإحساس بذلك الحقد الشرس حيالها لم يكن مستحبّاً. مشاعر اليزابيت تجاهها أقرب إلى الكراهية المعلنة. لم تعد اليزابيت تبوح لها مرة بأسرارها. كل كلمة تتفوّه بها، كل صمت تلزمه، إنما فيه ملامة حادة.

ـ أكّد لي بيرنهايم أنكم ستقومون بجولة السنة المقبلة. هل أن هذا صحيح؟

ـ لا، ليس صحيحاً، قالت فرنسواز. هو مقتنع بأن بيار سيوافق

في نهاية الأمر، لكنه مخطىء. سوف يعدّ بيار مسرحيته في الشتاء المقبل.

ـ ستفتتحان الموسم في هذا الوقت؟

ـ لا أعلم حتى الآن.

ـ سيكون من المؤسف أن تذهبا في جولة، قالت اليزابيت مهمومة.

ـ هذا هو رأيي أيضاً.

تساءلت ببعض الدهشة إن كانت اليزابيت لا تزال تأمل الحصول على شيء ما من بيار. ربما تنوي القيام بمحاولة جديدة من أجل باتييه في تشرين الأول.

ـ بدأ المكان يخلو قليلاً، قالت.

ـ عليّ أن أقابل ليزمالان، يبدو أن لديها أمراً مهماً تقوله لي.

ـ أما أنا، فسأذهب لإغاثة بيار.

كان بيار يصافح الأيدي بحفاوة، لكنه مهما فعل، لا يحسن إضفاء الحرارة إلى ابتساماته. فهذا فن حقيقي حرصت السيدة ميكال على تلقينه لابنتها.

ـ ترى ما وضع علاقتها مع باتييه؟ فكرت فرنسواز وهي توزّع كلمات الوداع والأسف. كانت اليزابيت طردت غيميو بحجّة أنه سلب منها سجائر وعادت إلى كلود. لكن لا شك أن الأمور بينهما ليست على ما يرام، فهي لم تكن يوماً بهذه الكآبة.

ـ عجباً! أين اختفى جيربير؟ قال بيار.

كانت كزافيير وحيدة في وسط الخشبة، تؤرجح ذراعيها.

ـ لمَ لا نرقص؟ قال بيار. لدينا مساحة كافية.

كان صوته ينمّ عن قدر من العصبية. تأملت فرنسواز وقلبها منقبض ذاك الوجه الذي أحبّته طويلاً بسكون أعمى. تعلّمت أن تقرأ في ملامحه. لم يكن مطمئناً هذا المساء، بدا هشاً بقدر ما كان متوتراً ومتصلّباً.

ـ الساعة الآن الثانية وعشر دقائق، قالت لن يأتي أحد بعد الآن.

هكذا هو بيار. لا يفرح كثيراً بالأوقات التي تتودّد فيها كزافيير إليه، غير أن أياً من عبساتها يمزّقه غضباً أو ندماً. إنه بحاجة لأن يشعر بها في قبضته حتى يكون في سلام مع نفسه وحين يقف أحد بينهما، يبقى قلقاً عكر المزاج.

ـ آمل ألاّ تكوني مللت كثيراً؟ سألت فرنسواز.

ـ لا، أجابت كزافيير. أجد صعوبة فقط في سماع موسيقى جاز جيدة من دون أن أتمكّن من الرقص.

ـ لكن في وسعك أن ترقصي الآن، قال بيار.

عبرت لحظة صمت. كان الثلاثة يبتسمون، غير أنهم لم يجدوا ما يقولونه.

ـ سأعلمك رقصة الرومبا بعد قليل، قالت كزافيير لفرنسواز بحماس مبالغ فيه.

ـ أفضّل الإكتفاء بالسلو. فأنا عجوز ولم أعد في العمر المناسب للرومبا.

ـ كيف يمكن أن تقولي هذا؟ إحتجّت كزافيير. نظرت إلى بيار شاكية يمكنها أن ترقص بشكل ممتاز إن أرادت.

ـ لست عجوزاً على الإطلاق! قال بيار.

كان وجهه أشرق فجأة وصوته انجلى حين بادر كزافيير. له القدرة على السيطرة بدقة مخيفة على أدنى تماوجات صوته وتعابير ملامحه. لا شك أنه متيقظ، إذ أنه لا يمتلك إطلاقاً تلك البهجة المفعمة بالرقة والحنو التي تلتمع في عينيه.

ـ إنني بعمر اليزابيت تماماً، تابعت فرنسواز. قابلتها للتو ولم أجد في ذلك ما يطمئن.

ـ لا تحشري اليزابيت في الحديث، قال بيار. أنت لم تنظري إلى نفسك.

ـ هي لا تنظر إلى نفسها أبداً، قالت كزافيير بأسف، علينا أن نصوّرها فيلماً صغيراً ذات يوم من غير أن تلاحظ، ثم نفاجئها ونعرضه لها. هكذا ترغم على النظر إلى نفسها وسوف تصاب بالدهشة.

ـ تحبّ أن تتصوّر نفسها سيّدة بدينة ناضجة، تابع بيار. لو تعرفين كم تبدين شابة!

ـ لكنني لا أرغب كثيراً في الرقص، قالت. ذلك الإئتلاف الحنون بعث فيها شعوراً بالضيق.

ـ إذاً، هل تودين أن نرقص معاً؟ قال بيار.

تابعتهما فرنسواز بنظرها. كان مشهدهما لطيفاً. كزافيير ترقص بخفّة الضباب، تكاد لا تلامس الأرض. أما بيار، فكان جسداً متثاقلاً، إلا أنه يبدو متفلتاً من قوانين الجاذبية وكأن خيوطاً خفية ترفعه. كانت له رشاقة خارقة، رشاقة دمية.

ـ كنت أود لو أحسن الرقص، فكرت فرنسواز.

كانت أقلعت عن الرقص قبل عشر سنوات، وبات الوقت

متأخراً لتعاود الرقص. رفعت ستارة وأشعلت سيجارة في ظلمة الكواليس. هنا ستحظى على الأقل ببعض الراحة. فات الأوان. لم تصبح يوماً امرأة تسيطر بشكل تام على جسدها. ما قد تكتسبه اليوم لم يكن يهمّ: زخارف، بهرج... كلها ستبقى خارجية. هذا ما يعنيه سنّ الثلاثين: امرأة مكتملة. ستظلّ للأبد امرأة لا تحسن الرقص، امرأة لم تعرف سوى حبّ واحد في حياتها، امرأة لم تهبط في زورق كانوي وديان الكولورادو ولم تعبر سيراً على الأقدام هضاب التيبت. تلك السنوات الثلاثون لم تكن مجرّد ماضٍ تجرّه خلفها، بل ترسّبت من حولها، في داخلها، باتت حاضرها ومستقبلها، المادة التي هي منها. وما من بطولة أو عبث يمكن أن يبدّل هذا. بالطبع لديها متّسع من الوقت قبل موتها لتتعلم الروسية، تقرأ دانتي، تزور بروج والقسطنطينية، مازال بإمكانها أن توزّع هنا وهناك في حياتها أحداثاً ما غير متوقعة، مواهب جديدة، لكنها ستظلّ رغم كل شيء وحتى النهاية هذه الحياة بالتحديد وليس حياة أخرى، ولن تتميّز حياتها عنها. شعرت فرنسواز بانبهار أليم، أحسّت بنور قاحل أبيض يخترقها ولا يترك فيها زاوية من الأمل. وقفت لبرهة بلا حراك تتأمل طرف سيجارتها الأحمر المضاء في الليل. وردتها ضحكة صغيرة، همسات مكبوتة أيقظتها من خمولها: تلك الممرات المظلمة تبقى على الدوام مرغوبة جداً. ابتعدت بدون إحداث صوت ونظرت إلى خشبة المسرح. بدا الحاضرون وكأنهم يمضون الآن وقتاً ممتعاً.

ـ من أين تخرجين؟ سأل بيار. تحدثنا للتو مع بول بيرجي لبرهة. وجدتها كزافيير جميلة جداً.

ـ رأيتها، أجابت فرنسواز، ودعوتها حتى للمكوث حتى

الصباح، كانت تكنّ الصداقة لبول، لكن من الصعب تقابلها من دون أن يحضر أيضاً زوجها وباقي مجموعتهما.

ـ إنها حقاً رائعة، قالت كزافيير، لا تشبه كل عارضات الأزياء تلك الممشوقات.

ـ بل تبدو أكثر مما ينبغي أشبه براهبة أو بمبشرة، قال بيار.

كانت بول تتحدث إلى إينيس. ترتدي فستاناً طويلاً من المخمل الأسود وتنسدل خصلات شقراء أقرب إلى الإحمرار تحيط بوجهها، بجبينها العالي الأملس وعينيها الغائرتين.

ـ الوجنتان نحيلتان قليلاً، قالت كزافيير، لكن فمها متفتح وعيناها تتقدان حيوية.

ـ عيناها شفافتان، قال بيار. نظر إلى كزافيير وابتسم. أنا أفضّل العينين المتثاقلتين.

من الغدر أن يتكلم بيار بهذه الطريقة عن بول، وهو الذي يكنّ لها تقديراً كبيراً عادة. يجد الآن لذة ماكرة في التضحية بها مجاناً من أجل كزافيير.

ـ إنها رائعة حين ترقص، قالت فرنسواز. ما تقوم به أقرب إلى الإيماء منه إلى الرقص. لم تطوّر كثيراً الناحية التقنية، لكن في وسعها أداء أي شيء تقريباً.

ـ كم أودّ أن أراها ترقص! قالت كزافيير.

نظر بيار إلى فرنسواز.

ـ ما رأيك لو تذهبين إليها وتطلبين إليها أن ترقص، قال .

ـ أخشى أن أبدو متطفّلة.

ـ هي لا تتمنّع عادة، قال بيار.

ـ إنها تبعث فيّ شعوراً بالخجل.

كانت بول بيرجي تعامل الجميع بحفاوة تامة، لكن أحداً لا يعرف أبداً ما يجول في ذهنها.

ـ هل سبق أن رأيت فرنسواز خجلة؟ سأل بيار وهو يضحك. هذه أول مرة في حياتي!

ـ سوف يكون الأمر ممتعاً للغاية! قالت كزافيير.

ـ حسناً، سأذهب، قالت فرنسواز.

اقتربت مبتسمة من بول بيرجي. كان الإعياء ظاهراً على إيناس. إنها ترتدي فستاناً مدهشاً أحمر متماوج اللون وقد لفّت شعرها الأشقر في شبكة ذهبية. كانت بول تحدّق في عينيها وهي تخاطبها بلهجة مشجّعة فيها قليل من الأمومة. التفتت إلى فرنسواز بحيوية.

ـ أليس صحيحاً أن جميع المواهب لا تفيد في المسرح إن لم يمتلك الواحد الشجاعة والإيمان؟

ـ بالتأكيد، أجابت فرنسواز.

لم تكن المسألة تكمن هنا وإيناس تعرف هذا جيداً، لكنها بدت رغم ذلك مسرورة قليلاً.

ـ جئت أطلبَ منك شيئاً، قالت فرنسواز. شعرت بوجهها يحمرّ واندفع في عروقها غضب حيال بيار وكزافيير. ليس عليك إلاّ أن تقولي إن كان الأمر يزعجك، لكن سوف تكون فرحتنا كبيرة لو تقبلين أن تقدمي لنا رقصة.

ـ بكل سرور، قالت بول، لكن ليس لدي موسيقى، ولا إكسسوارات.

ابتسمت وكأنما لتعتذر.

ـ ارقصي الآن مرتدية قناعاً وفستاناً طويلاً.

ـ لا شك أن النتيجة رائعة، قالت فرنسواز.

نظرت بول إلى إينيس متردّدة.

ـ هل يمكنك مرافقة رقصة الآلات على البيانو، سألتها، ومن ثم أقدم رقصة الخادمة، أرقصها بلا موسيقى. لكنكم تعرفونها؟

ـ لا بأس، أودّ مشاهدتها مرة جديدة، قالت فرنسواز أنت لطيفة جداً. سأوقف الفونوغراف.

كان بيار وكزافيير يترصّدانها والتواطؤ بادٍ عليهما. كانت المسألة طريفة في نظرهما.

ـ وافقت، أعلنت فرنسواز.

ـ أنت خير سفيرة، قال لها بيار.

بدت على وجهه سعادة ساذجة أدهشت فرنسواز. أما كزافيير، فكانت تنتظر مفتونة، وهي تحدّق في بول بيرجي: تلك الفرحة الصبيانية هي التي يعكسها وجه بيار.

تقدّمت بول إلى وسط الخشبة. لم تكن أحرزت حتى الآن شهرة واسعة بين الجمهور، لكن الكل هنا معجب بفنّها. جلست كاتزيني على عقبيها، فانفلتت من حولها تنورتها البنفسجية الفضفاضة، تمدّدت أيلوي أرضاً على مسافة بضع خطوات من تيديسكو، رشيقة كهرّة. العمة كريستينا كانت اختفت ووقف غيميو قرب مارك أنطوان وهو يبتسم له بغنج. بدا الجميع مهتماً. عزفت إينيس على البيانو النغمات الأولى فتحرّكت ذراعا بول ببطء. استيقظت الآلة النائمة وأخذ وقع الموسيقى يتسارع شيئاً

فشيئاً. لم تكن فرنسواز تبصر السواعد الحديدية والأسطوانات، ولا كل الحركات الفولاذية تلك، بل كانت ترى بول. امرأة بعمرها، امرأة لها هي أيضاً قصتها، عملها حياتها. امرأة ترقص غير آبهة لفرنسواز، وحين تبتسم لها بعد قليل، ستفعل مثلما لأي مشاهدة. لم تكن فرنسواز في نظرها سوى قطعة من الديكور.

ـ لو أن الواحد يستطيع فقط أن يفصل نفسه بطمأنينة، فكرت فرنسواز مضطربة.

في هذه اللحظة كانت آلاف النساء على وجه الأرض يستمعن بانفعال إلى دقات قلوبهنّ، كل منهن منصتة إلى قلبها، من أجلها هي نفسها. كيف يمكن أن تظن أنها تقف في محور مميّز للعالم؟ كان ثمة بول وكزافيير. لا يمكنها حتى التشبّه بهما.

انزلقت يد فرنسواز متبالدة فوق تنّورتها.

ـ وأنا، من أكون؟ تساءلت. نظرت إلى بول، نظرت إلى كزافيير التي شعّ وجهها إعجاباً وقحاً. هاتان المرأتان تعرفان من هما. لكل منهما ذكريات مختارة، أذواق وأفكار تحدّدها، أطباع واضحة تتبادر إلى ملامح وجهها. أما فرنسواز، فلا تميز في داخلها أي شكل واضح. النور الذي اخترقها للتوّ لم يكشف لها سوى الخواء: «لا تنظر مرة إلى نفسها»، قالت كزافيير. هذا صحيح، لا تلتفت فرنسواز إلى وجهها إلا لتعتني به مثل شيء غريب. تبحث في ماضيها عن مشاهد، عن أشخاص، وليس عن نفسها. حتى خواطرها وميولها لا تشكّل لها وجهاً. ليس وجهها سوى انعكاس الحقائق التي تنكشف أمامها مثل الشجيرات المتدلّية من سقف المسرح، هي أيضاً لم تكن تخصّها.

ـ لست أحداً، فكرت فرنسواز. غالباً ما تفاخرت في الماضي

بعدم تقوقعها مثل الآخرين داخل حدود فردية ضيقة. هذا ما شعرت به ذات ليلة في «لابريري» مع اليزابيت وكزافيير، منذ وقت قصير. ضمير عار في مواجهة العالم، هكذا كانت تتصوّر نفسها. لمست وجهها: لم يكن في نظرها سوى قناع أبيض. إلاّ أن جميع هؤلاء الأشخاص يرونه. وهي، شاءت أم أبت، من هذا العالم، جزء منه. امرأة بين غيرها من النساء. وقد تركت هذه المرأة تنمو على هواها من غير أن تفرض عليها حدوداً. تعجز عن الحكم على تلك المجهولة. ورغم ذلك، تحكم كزافيير عليها، تضعها في مواجهة بول. من منهما تفضّل؟ وبيار؟ ماذا يرى حين ينظر إليها؟ التفتت إلى بيار، لكن بيار لم يكن ينظر إليها.

كان ينظر إلى كزافيير. كانت كزافيير تتنفس بصعوبة، شفتاها مشقوقتان قليلاً وعيناها دامعتان. لم تعد تدري أين هي، بدت غاضبة. حوّلت فرنسواز نظرها شاعرة بالضيق. كان إصرار بيار متطفلاً وشبه بذيء. فوجه الممسوسة هذا لم يكن الهدف منه أن يراه أحد. هذا على الأقل، يمكن لفرنسواز أن تعرفه. فهي عاجزة عن الشعور بهذا الانخطاف الشغف. في وسعها أن تعرف بيقين ما ليست عليه. من المؤلم أن ترى نفسها مجرد سلسلة من الغيابات.

- هل رأيت وجه كزافيير؟ قال بيار.

- نعم، أجابت.

قال هذه الكلمات من دون أن يحوّل نظره عن كزافيير.

- هذه هي الحال، فكرت فرنسواز. لا يمكنها أن تضع على وجهه، كما على وجهها، ملامح واضحة. إنها غير مرئية، معدمة الشكل، تمثل بصورة غامضة جزءاً منه. يكلّمها وكأنه يكلّم نفسه، غير أنه يبقى محدّقاً في كزافيير. كانت كزافيير في هذه اللحظة

رائعة بشفتيها المتورّمتين والدمعتين المنسكبتين على وجنتيها الشاحبتين.

صفق الجميع.

ـ ينبغي أن نذهب ونشكر بول، قالت فرنسواز. فكرت «أنا لم أعد أشعر بشيء». بالكاد نظرت إلى الرقصة، ظلّت تكرّر الأفكار المهووسة نفسها في رأسها مثلما تفعل العجائز.

تلقّت بول التهاني بكثير من الرقّة. كانت فرنسواز معجبة بقدرتها على التصرف على الدوام بهذه اللباقة التامة.

ـ أرغب في أن يحضر لي أحد من منزلي فستاني، أسطواناتي وأقنعتي، قالت. نظرت إلى بيار بعينيها الشاسعتين البريئتين. هلا قلت لي ما رأيك برقصتي.

ـ أودّ أن أعرف بأي منحى كنت تعملين، قال بيار، ثمة احتمالات عدّة في ما عرضت لنا.

كان الفونوغراف يعزف مقطوعة باسو دوبلي. تشكلت أزواج من الراقصين من جديد.

ـ ارقصي هذه المعزوفة معي، قالت بول لفرنسواز بسطوة. تبعتها فرنسواز مطيعة. سمعت كزافيير تقول لبيار باستياء:

ـ لا، أنا لا أريد أن أرقص.

شعرت بانتفاضة. من جديد! ها أنها مخطئة من جديد. كزافيير حانقة وبيار سيلومها على حنق كزافيير. لكن بول تقودها بشكل ممتاز، من الممتع أن تستسلم لحركتها. كزافيير لا تعرف هذا.

كان ثمة خمسة عشر زوجاً على الخشبة وآخرون مبعثرين في

الكواليس والمقصورات، في حين احتلّت مجموعة المقاعد الأمامية. ظهر جيربير فجأة من مقصورة واثباً مثل جنّ، وكان مارك أنطوان يلاحقه وهو يومىء من حوله رقصة إغواء. كان رجلاً بديناً بعض الشيء، إلاّ إنه رشيق ومفعم بالحيوية. بدا جيربير ثملاً قليلاً وكانت خصلته السوداء الطويلة منسدلة فوق عينيه. كان يتوقف بدلال مرتبك ثم يتهرّب مخبئاً رأسه بحياء في كتفه. يتهرّب ويعود خجلاً منجذباً.

ـ إنهما ظريفان، قالت بول.

ـ الطريف في المسألة، أوضحت فرنسواز، أن رامبلان له حقاً ميول كهذه. وهو على كل حال لا يخفيها.

ـ تساءلت إن كان ذلك الطابع المخنث الذي أضفاه إلى مارك أنطوان من تأثير الفن أو الفطرة.

ألقت فرنسواز نظرة إلى بيار. كان يتكلّم بحدّة إلى كزافيير التي بدت وكأنها لا تستمع إليه كثيراً. كانت ترمق جيربير بنظرة نهمة معجبة. تلك النظرة مسّت مشاعر فرنسواز، كانت أشبه باستملاك صلف وخفيّ.

توقفت الموسيقى وانفصلت فرنسواز عن بول.

ـ أنا أيضاً يمكنني أن أراقصك، قالت كزافيير وهي تمسك فرنسواز. عانقتها وكانت عضلاتها مشدودة. انتابت فرنسواز رغبة بالابتسام حين أحسّت بتلك اليد الصغيرة المتشنجة على خصرها. تنفّست بحنوّ رائحة الشاي، العسل والبشرة، رائحة كزافيير.

ـ لو تكون لي، كم كنت أحببتها، فكرت.

تلك الفتاة الصغيرة المتسلّطة لم تكن هي أيضاً سوى قطعة صغيرة من عالم دافىء أعزل.

غير أن كزافيير لم تثابر في مجهودها. عادت كالعادة ترقص لنفسها، غير آبهة بفرنسواز. لم تتمكن فرنسواز من اللحاق بها.

ـ ليس الوضع جيداً، قالت كزافيير مثبطة العزم. أموت من العطش. وأنت؟

ـ هناك اليزابيت قرب الطاولة.

ـ لا يهمّ، أريد أن أشرب.

كانت اليزابيت تتكلم مع بيار. رقصت كثيراً وبدت أقلّ اكتئاباً. اعترتها ضحكة توحي بالنميمة.

كنت أخبر بيار أن إيلوي ظلّت طوال السهرة تحوم حول تيديسكو، قالت، وكاتزيني تستشيط غضباً.

ـ تبدو إيلوي جميلة هذا المساء، علّق بيار. هذه التسريحة بدّلت مظهرها. لديها احتمالات جَسدية أكثر مما كنت أظنّ.

ـ قال لي غيميو إنها ترتمي بين أذرع جميع الرجال.

ـ الأذرع، هذه مجرّد صورة، قالت فرنسواز.

كانت تكلمت بلا تفكير. لم يرف لكزافيير جفن، ربما لم تفهم قولها حين لا يكون الحديث مع اليزابيت متوتراً. يتخذ بسهولة منحى بذيئاً. من المزعج أن يشعر الواحد بتلك الفضيلة الصغيرة الصارمة إلى جانبه.

ـ يعاملونها وكأنها حقيرة حقاً، قالت فرنسواز. والمضحك في الأمر أنها عذراء ومصرّة على البقاء على هذه الحال.

ـ أهي عقدة؟ سألت اليزابيت.

ـ هذا سبب لون بشرتها، أجابت فرنسواز وهي تضحك.

توقفت. بدا بيار يتخبط في ألمه.

ـ ألن ترقصي بعد؟ سارعت إلى القول متوجهة إلى كزافيير.

ـ إنني متعبة.

ـ هل أن المسرح يهمّك؟ سألت كزافيير مبدية قدراً كبيراً من الاهتمام. هل تمتلكين موهبة حقيقية؟

ـ تعرفين، البدايات تكون دائماً شاقة وقاحلة.

عبرت لحظة صمت. لم تكن كزافيير من رأسها حتى أخمص قدميها سوى ملامة متجسّدة. كل شيء يزن ثقيلاً حين تكون هنا، حتى يغدو مرهقاً.

ـ وأنت، تعملين في هذه الآونة؟ سأل بيار.

ـ أجل، وضعي جيد، أجابت اليزابيت. وتابعت بتجرّد: ليز مالان كلّمتني للتو من قبل دومينيك لتولّي ديكون الكاباريه الذي تمتلكه. قد أقبل بالعمل.

خيّل لفرنسواز أنها كانت تودّ الاحتفاظ بهذا السرّ، لكنها لم تقوَ على مقاومة الرغبة في إبهارها.

ـ اقبلي، نصحها بيار، هذا المشروع له مستقبل، هذا النادي الليلي سوف يدرّ على دومينيك الذهب.

ـ دومينيك الصغيرة، كم أن هذا غريب، قالت اليزابيت ضاحكة. الناس يتحدّدون في نظرها بشكل نهائي وكل تغيير غير وارد في هذا العالم المتصلّب حيث تسعى بعناد وإصرار إلى رسم معالم لها.

ـ تتمتع بموهبة كبيرة، قال بيار.

ـ كانت لطيفة جداً معي، لطالما أعجبت بي، قالت اليزابيت بلهجة موضوعية.

شعرت فرنسواز بقدم بيار يسحق قدمها ويؤلمها.

ـ عليك أن تفي بوعدك، قال. إنك كسولة للغاية. ستجعلك كزافيير ترقصين هذه الرومبا.

ـ هيا! قالت فرنسواز مستسلمة. وجذبت كزافيير معها.

ـ هذا من أجل التخلّص من اليزابيت، قالت. دعينا نرقص ثلاث دقائق.

ـ عبر بيار خشبة المسرح منهكاً.

ـ سأنتظركما في مكتبي، قال. سنتناول كأساً هناك بهدوء.

توارى. لحقت به فرنسواز وكزافيير على مسافة ضئيلة. شاهدتا على الأدراج بيغراميان يقبّل بحرارة شانو. عبر موكب من الراقصين ركضاً ردهة الطابق الأول.

ـ سوف نحظى أخيراً ببعض السلام، قال بيار.

أخرجت فرنسواز من خزانتها زجاجة شمبانيا. كانت شمبانيا جيدة مخصصة للمدعوين من الدرجة الأولى. كان هناك أيضاً سندويشات وحلوى ستقدّم عند الفجر، قبل أن يفترقوا.

ـ خذ، افتحها لنا، قالت لبيار. أمر فظيع، كل هذا الغبار الذي نتنفّسه في هذا المسرح، حتى يجفّ الحلق.

نزع بيار السدادة بخفّة وملأ الكؤوس.

ـ هل أنك تمضين سهرة ممتعة؟ سأل كزافيير.

ـ سهرة رائعة، أجابت. أفرغت كأسها دفعة واحدة وشرعت تضحك.

ـ ربّاه! كم بدوت في بدء السهرة رجلاً مهمّاً، حين كنت تتحدث إلى ذلك الرجل البدين. خلت أنني أرى عمّى!

ـ والآن؟ قال بيار.

كان لا يزال يتمالك الحنو الذي يطفو إلى وجهه، وكأنما يحجبه. لكن يكفي أن تظهر ثنية في فم كزافيير حتى تعود صفحة ملساء من اللامبالاة وتنسدل على وجهه بلا ارتعاشة.

ـ الآن، عدت أنت نفسك، قالت كزافيير وهي تمطّ شفيتها قليلاً.

استرخى وجه بيار. تأملته فرنسواز باهتمام قلق. حين كانت تنظر إلى بيار في الماضي، كانت ترى فيه العالم برمّته. لكنها الآن تراه هو فحسب. بيار هو حيث جسده تماماً، وذلك الجسد الذي يمكن احتواؤه بطرفة عين.

ـ ذلك الرجل البدين؟ ردّد بيار، أتعرفين من كان؟ بيرجي، زوج بول.

ـ زوجها؟ بدت كزافيير للحظة مضطربة، ثم أعلنت بنبرة حاسمة: هي لا تحبه.

ـ إنها متمسّكة به إلى حدّ فظيع، أكّد بيار. كانت متزوّجة ولها طفل، طلّقت من أجل أن تتزوّجه، مما أثار الكثير من المشكلات لأنها من عائلة كاثوليكية متزمّتة. ألم تقرأي يوماً روايات للكاتب ماسون؟ إنه والدها. يبدو عليها أنها ابنة رجل شهير.

ـ لا تحبّه حباً، قالت كزافيير. قامت بتكشيرة سئمة كثيراً ما تختلط الأمور على الناس!

ـ أحب كنوز الخبرة التي لديك، قال بيار بمرح. ابتسم

لفرنسواز. لو أنك سمعتها قبل قليل: جيربير الصغير هذا، إنه من الصنف المغرم بنفسه إلى حدّ أنه لا يكترث حتى إن أعجب الآخرين أم لا...

كان قلّد صوت كزافيير بشكل ممتاز، فرمقته بنظرة مستاءة وماجنة في آن.

ـ والعجيب في الأمر هو أنها تكون غالباً محقّة، قالت فرنسواز.

ـ إنها ساحرة، قال بيار بحنان.

ضحكت كزافيير ببلاهة كما تفعل حين تكون مسرورة.

ـ المسألة على ما أظن بالنسبة لبول بيرجي، قالت فرنسواز، هي أنها امرأة شغفة بفتور.

ـ مستحيل أن تكون فاترة، علّقت كزافيير. أحببت كثيراً الرقصة الثانية. في النهاية، عندما تترنّح متعبة، توحي بغنى عميق إلى حدّ الشهوة.

شفتاها النضرتان داعبتا ببطء كلمة الشهوة.

ـ تحسن الإيحاء بالشهوة، تابع بيار، لكن لا أظنها تميل إليها.

ـ إنها امرأة تحسّ بوجود جسدها، قالت كزافيير وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة تواطؤ خفيّ.

ـ أنا لا أحسّ بوجود جسدي، فكرت فرنسواز. هذه أيضاً باتت نقطة أكيدة، لكن لا فائدة في الاسترسال إلى ما لا نهاية في الجانب السلبي.

ـ حين تقف بلا حراك في فستانها الأسود الطويل ذاك، قالت

كزافيير، تذكّر بعذارى القرون الوسطى المتصلبات. وما إن تتحرك قليلاً حتى تصبح مطواعة كالخيزران.

ملأت فرنسواز كأسها من جديد. لم تكن تفكر في الحديث الجاري بينهم. كان بإمكانها هي أيضاً إقامة تشبيهات حول شعر بول، خصرها المتمايل، ذراعيها، لكنها رغم ذلك ستظل على حدة، لأن بيار وكزافيير مستغرقان عميقاً في ما يقولانه. عبرت برهة بياض تام، لم تعد فرنسواز تتابع فيها العربسات الحاذقة التي تخطها أصواتهم في الهواء. ثم سمعت من جديد بيار يقول:

ـ بول بيرجي مؤثرة، والمؤثر كله انحناء. المفجع الصرف في نظري كان وجهك وأنت تتأملينها.

احمرّ وجه كزافيير.

ـ جعلت من نفسي محطاً للأنظار، قالت.

ـ لم يلاحظ أحد، طمأنها بيار. أحسد قدرتك على الإحساس بالأشياء بهذه القوة.

حملقت كزافيير في قعر كأسها.

ـ أجد الناس غريبين للغاية، قالت بسذاجة. كلهم صفّقوا، لكن أحداً لم يظهر عليه تأثر حقيقي. ربما لأنكم تعرفون الكثير من الأشياء. لكن يبدو وكأنك أنت أيضاً لا تقيم أي تمييز.

هزّت رأسها وتابعت بصرامة.

ـ أمر غريب للغاية. كنت حدّثتني عن بول بيرجي هكذا. بشكل عابر، مثلما تتحدّث عن امرأة كهاربلي. حتى هذه السهرة، جئت إليها مرغماً وكأنك ذاهب إلى عملك. لم يسبق لي أن استمتعت بوقتي إلى هذا الحدّ.

ـ صحيح، قال بيار. لا أفرّق كثيراً.

توقف. كان أحدهم يدقّ على الباب.

ـ عذراً، قالت إينيس، جئت ألفت انتباهاكم إلى أن ليزمالان ستغنّي آخر ابتكاراتها. ثم سترقص بول. أحضرت لها أسطواناتها وأقنعتها.

ـ سننزل للتو، قالت فرنسواز. أغلقت أينيس الباب.

ـ كنا بحال جيدة هنا، قالت كزافيير بصوت مستاء.

ـ لا تهمّني أغاني ليز، بيار، سننزل بعد ربع ساعة.

لم يكن مرة يقرر بشكل تلقائي من غير أن يستشير فرنسواز. شعرت بالدم يحتقن في وجنتيها.

ـ ليس هذا تصرّفاً لطيفاً، قالت.

بدا لها صوتها أكثر خشونة مما كانت تريد، لكنها أسرفت في الشرب ولم تعد تسيطر على نفسها تماماً. سيكون تصرّفهم فظاً إن لم ينزلوا. لا يعقل أن يتبعا كزافيير على دروبها النزقة.

ـ لن يلاحظ غيابنا حتى، قال بيار بسذاجة.

ابتسمت له كزافيير. كلما ضحّى أحد ما بشيء، أو على الأخصّ بأحد من أجلها، انتشرت على وجهها عذوبة ملائكية.

ـ ينبغي ألا ننزل من هنا أبداً أبداً، قالت.

ضحكت.

ـ سوف نقفل الباب بالمفتاح ويبعثون لنا وجباتنا بواسطة حبل وبكرة.

ـ وستعلّمينني أن أميّز، قال بيار.

ابتسم لفرنسواز بحنان.

ـ تلك الساحرة الصغيرة، قال. تنظر إلى الأشياء بعينيها فتكتسب الأشياء وجوداً أمامنا، مثلما تراها تماماً. في المرات الأخرى، كنا نصافح أيدي، لم يكن هناك سوى سلسلة من الهموم الصغيرة. بفضلها هي نعيش هذه السنة ليلة ميلاد حقيقية.

ـ أجل، قالت فرنسواز.

لم يكن كلام بيار موجّهاً إليها، ولا إلى كزافيير. كان يحدّث نفسه. ذلك هو أكبر تغيير حدث. فكان في الماضي يحيا من أجل المسرح، من أجل فرنسواز، من أجل أفكار. كان من الممكن التعاون معه. غير أنه لم يكن هناك سبيل للمشاركة في علاقاته مع نفسه. أفرغت فرنسواز كأسها. عليها أن تحسم أمرها بشكل نهائي وتنظر إلى كل التغييرات التي حصلت. مضت أيام كثيرة وأفكارها تبعث فيها طعماً لاذعاً. لا شك أن اليزابيت ينتابها من الداخل إحساس مماثل. عليها ألا تتصرّف مثل اليزابيت.

ـ أريد أن أرى الأمور بوضوح، قالت لنفسها.

ـ علينا أن ننزل، قالت فجأة.

ـ أجل، علينا أن نفعل هذه المرة، أجاب بيار.

تشنّج وجه كزافيير.

ـ لكنني أريد أن أنهي كأس الشمبانيا، ردّت كزافيير.

ـ إشربيه بسرعة، قالت فرنسواز.

ـ لكنني لا أريد أن أشربه بسرعة. أريد أن أشربه وأنا أنهي سيجارتي.

إتكأت إلى الخلف.

ـ لا أريد أن أتركك.

ـ كنت ترغبين كثيراً في رؤية بول ترقص، قال بيار. هيا، من الضروري أن ننزل.

ـ اذهبا من دوني. وطّدت جلستها وردّدت بعناد: أريد أن أنهي كأسي.

ـ إذاً نراك لاحقاً، قالت فرنسواز وهي تدفع الباب.

ـ سوف تفرغ الزجاجات بكاملها، قال بيار قلقاً.

ـ نزواتها لا تحتمل.

ـ لم تكن هذه نزوة، قال بيار بحدّة. كانت مسرورة بالاحتفاظ بنا قليلاً لنفسها فقط.

يكفي أن تبدو كزافيير متمسّكة به حتى يجد كل ما من حوله ممتازاً بالطبع. كادت فرنسواز تقول له هذا، لكنها لزمت الصمت. فهي الآن تحتفظ بالعديد من خواطرها لنفسها.

ـ هل إنني أنا من تغيّر؟ فكّرت.

أصابها ذعر مفاجىء حين شعرت بكل العدائية التي تحملها أفكارها.

كانت بول ترتدي ثوباً من الصوف الأبيض يشبه الغندورة، وتمسك بيدها قناعاً من الشبك دقيق الثقوب.

ـ أشعر بالرهبة، أتعلمين؟ قالت وهي تبتسم.

لم يبق عدد كبير من الحاضرين على الخشبة. أخفت بول وجهها خلف القناع. تدلعت موسيقى عنيفة في الكواليس ووثبت بول. كانت تقوم بإيماء عاصفة. بدت بحدّ ذاتها أعصاراً جامحاً. كان إيقاع جاف ولاذع مستوحى من الفرق الموسيقية الهندية

يساند حركاتها. تبدّد الضباب في رأس فرنسواز فأبصرت بانقشاع تام ما كان بينها وبين بيار. فهما شيّدا عمارات جميلة لا عيب فيها وها إنهما يحتميان في ظلّها، غير مكترثين لما يمكن أن تحويه. ما زال بيار يكرّر «إننا واحد»، لكنها اكتشفت أنه يحيا من أجل نفسه. كانت علاقتهما، حياتهما تفقد مادتها وجوهرها ببطء من غير أن تخسر شكلها المتكامل. مثل تلك اليسروعات الكبيرة ذات القوقعة الصلبة، التي تحمل في أجسادها الرخوة ديداناً صغيرة تجليها باستمرار.

ـ سأكلمه، فكرت فرنسواز. شعرت بالارتياح. قرارها هذا يتضمّن مخاطرة، غير أنهما سيتسلّحان معاً لمواجهتها. عليها فقط أن تكترث بانتباه أكبر إلى كل لحظة. التفتت نحو بول وركّزت انتباهها على حركاتها البديعة من دون أن تدع شيئاً يحوّل اهتمامها.

ـ عليك أن تعطي عرضاً في أسرع وقت ممكن، قال بيار بحرارة.

آه! لست أدري، أجابت بول قلقة. يقول بيرجيه إن هذا ليس فناً قائماً بحدّ ذاته.

ـ لا شك أنك متعبة، قالت فرنسواز. لديّ شمبانيا ممتازة في الأعلى، سوف نذهب لتناولها في الردهة. الردهة مريحة أكثر من هنا.

كان المسرح شاسعاً للقلة المتبقية وأرضه مكسوة بأعقاب السجائر، العجوات وقصاصات الورق.

ـ خذا معكما أسطوانات وكؤوساً، قالت فرنسواز لكاتزيني وإينيس.

جذبت بيار إلى اللوح الكهربائي وأنزلت القبضات.

ـ أريد أن ننهي السهرة بسرعة ونذهب أنا وأنت في جولة لوحدنا.

ـ بكل سرور، قال بيار. نظر إليها ببعض الفضول. هل تشعرين بانزعاج؟

ـ لا، أنا بحال جيدة، أجابت بصوت فيه نبرة استياء. لا يخطر لبيار على ما يبدو أنها قد تعاني من أي اضطراب سوى في جسدها.

لكنني أريد أن أراك. هذا النوع من السهرات يبعث الكآبة في النفس شرعا يصعدان الأدراج وأمسك بيار بذراعها.

ـ بدوت لي حزينة، قال.

رفعت كتفيها. ارتجف صوتها قليلاً.

ـ حين ننظر إلى حياة الآخرين، بول، اليزابيت، أينيس، ينتابنا انطباع غريب. نتساءل كيف يمكن أن نرى حياتنا من الخارج.

ـ ألست راضية عن حياتك؟ قال بيار مضطرباً.

ابتسمت فرنسواز. لم يكن الأمر خطيراً. وفي نهاية الأمر، بعد أن تشرح الأمور لبيار، سوف يزول كل هذا على الفور.

ـ كل ما هنالك أنه لا يمكننا الحصول على أي إثبات. ينبغي أن يكون هناك فعل إيمان.

توقفت. كان وجه بيار متشنّجاً إلى حدّ مؤلم وهو يحدّق في أعلى الأدراج بالباب الذي تركا كزافيير خلفه.

ـ لا شك أنها ثملة تماماً، قال.

ترك ذراع فرنسواز وتسلّق على عجلة الدرجات الأخيرة.

ـ لا أسمع أي صوت.

بقي لبرهة مسمّراً بلا حراك. لم يكن القلق المرتسم على وجهه شعوراً يتقبله بسكينة كذلك الذي ساوره حيال فرنسواز، بل كان يمزّقه رغماً عنه.

أحسّت فرنسواز بدمها يغادر وجنتيها. لو ضربها ضربة مفاجئة لما كانت الصدمة أكثر عنفاً. لن تنسى طوال حياتها كم أن هذا الذراع الودود انفصل بلا تردّد عن ذراعها.

دفع بيار الباب. كانت كزافيير متكوّرة على الأرض أمام النافذة، غارقة في نوم عميق. إنحنى بيار فوقها. تناولت فرنسواز من الخزانة علبة مليئة بالطعام وسلّة فيها زجاجات وخرجت من غير أن تقول كلمة. رغبت في الهرب إلى أي مكان لتحاول أن تفكر أو لتبكي. هذا ما آلت إليه الأمور بينهما: كانت تكشيرة من كزافيير أهم من اضطرابها هي برمّته. ورغم ذلك لا يزال بيار يؤكد أنه يحبها.

كان الفونوغراف يعزف أغنية قديمة حزينة. أخذت كاتزيتي السلة من يد فرنسواز ووقفت خلف البار. ناولت الزجاجات إلى رامبلان وجيربير اللذين جلسا مع تيديسكو على الكراسي العالية، في حين جلست بول بيرجيه، إينيس، إيلوي وشانو قرب الواجهات الزجاجية الواسعة.

ـ أود تناول القليل من الشمبانيا.

كان رأسها يطنّ. بدا لها أن شيئاً ما في داخلها، شرياناً، ضلوعها أو قلبها، سوف ينفجر. لم تكن معتادة على المعاناة، وكان الأمر غير محتمل إطلاقاً. اقتربت كاتزيني حاملة بحذر كأساً

طافحة. تنورتها الطويلة أضفت إليها جلالة راهبة شابة. ظهرت إيلوي فجأة بينهما، وفي يدها كأس، تردّدت فرنسواز للحظة ثم أخذت الكأس.

ـ شكراً، قالت. وابتسمت لكاتزيني وكأنما لتعتذر.

ألقت كاتزيني نظرة ساخرة إلى إيلوي.

ـ ننتقم كلما تسنح لنا الفرصة، همهمت بين أسنانها. ردّت عليها إيلوي مهمهمة بين أسنانها هي أيضاً ولم تسمع فرنسواز ردّها.

ـ أتجرؤين؟ وأمام الآنسة ميكال! صاحت كاتزيني.

صفعت إيلوي على وجنتها المتورّدة. نظرت إليها إيلوي لوهلة مندهشة، ثم انقضّت عليها. تشبثت كل منهما بشعر الأخرى وأخذتا تدوران في أرضهما، وهما تكزّان على أسنانهما. هرعت بول بيرجيه.

ـ ما الذي يدور في رأسيكما؟ قالت وهي تضغط بيديها البديعتين على كتفي إيلوي.

سمعت ضحكة حادّة. كانت كزافيير تتقدّم، محملقة وشاحبة كالطبشور. كان بيار يمشي خلفها. التفتت جميع الوجوه إليهما. انقطعت ضحكة كزافيير فجأة.

ـ هذه الموسيقى فظيعة، قالت. اقتربت من الفونوغراف بعزم، مقطبة الوجه.

ـ إنتظري قليلاً، سأضع أسطوانة أخرى، قال بيار.

نظرت إليه فرنسواز بألم ودهشة. حتى ذلك الحين كانت تفكر: «إننا منفصلان». هذا الانفصال كان لا يزال مصيبة مشتركة تحل

عليهما معاً، وسوف يعالجانها معاً. أما الآن، فبدأت تدرك أن انفصالهما يعني أن تعيش الانفصال وحدها.

كانت إيلوي تبكي بشكل متقطّع، وجبينها متكىء إلى الزجاج. وضعت فرنسواز ذراعها حول كتفيها. شعرت ببعض النفور من هذا الجسر الصغير البدين الذي لامسته أيد كثيرة مع أنه ما زال بكراً، إلاّ أن هذه كانت حجّة مناسبة.

ـ عليك ألاّ تبكي، قالت فرنسواز وذهنها خال تماماً. وجدت بعض الطمأنينة في هذه الدموع، في هذا الجسد الدافىء. كانت كزافيير ترقص مع بول وجيربير مع كاتزيتي. وجوههم باهتة وحركاتهم محمومة. هذه الليلة تحمل بالنسبة لهم قصة تحولت أعباء، خيبة، حسرة وأخذت تضني قلوبهم. يشعر الواحد أنهم يخشون لحظة الرحيل، لكنهم لا يجدون متعة في المكوث هنا لوقت أطول. كلهم يرغبون في التكوّر أرضاً والإستسلام للنوم مثلما فعلت كزافيير. كان هذا كل ما ترغب به فرنسواز نفسها. في الخارج صار في مقدور الواحد تمييز ظلال الأشجار القاتمة تحت السماء الشاحبة.

ارتعدت فرنسواز، كان بيار قربها.

ـ ينبغي القيام بنزهة قصيرة قبل الرحيل. أتأتين معي؟

ـ إنني قادمة.

ـ سوف نرافق كزافيير إلى غرفتها ونذهب معاً بعدها إلى الدوم. الجو هناك ممتع في الصباح الباكر.

ـ أجل، أجابت فرنسواز.

لم يكن، بحاجة إلى إبداء كل هذا الرفق حيالها. كل ما تريده

منه كان أن يلتفت إليها مرة بذلك الوجه الخارج عن سيطرته الذي أدناه من كزافيير وهي نائمة.

ـ ما بك؟ سألها.

كانت العتمة تخيّم على الصالة ولم يرَ أن شفتيّ فرنسواز ترتجفان. تمالكت.

ـ لا شيء. ماذا تريد أن يكون هناك؟ لست مريضة، السهرة جرت على ما يرام، كل شيء جيد.

أمسك بيار بمعصمها. أفلتت منه بشراسة.

ـ ربما أسرفت في الشرب، قالت ضاحكة ضحكة غريبة.

ـ اجلسي هنا، قال بيار. جلس إلى جانبها في الصف الأول من المقاعد الأمامية. وقولي لي ما بك. يهيأ لي أنك ناقمة عليّ أنا. ماذا فعلت؟

ـ لم تفعل شيئاً، قالت بحنان. أمسكت يد بيار. ليس من العدل أن تغضب منه، فتصرفه معها لائق تماماً. بالطبع، لم تفعل شيئاً، ردّدت بصوت خافت. أفلتت يده.

ـ ألا تتعلّق المسألة بكزافيير؟ لا يمكن أن يبدّل هذا شيئاً بيننا، تعرفين هذا جيداً. وتعرفين أيضاً أنه إن كانت هذه القصة تزعجك ، ولو قليلاً، لا عليك سوى أن تقولي كلمة واحدة.

ـ ليس هذا ما في الأمر، قالت بحدّة.

لا يمكن أن يعد إليها الفرح بواسطة تضحيات. بالطبع، في ما يقوم به من أعمال مقررة مسبقاً، يضع فرنسواز فوق أي شيء. لكنها لم تكن تتوجه اليوم إلى ذلك الرجل المسلّح بالأخلاقيات الصارمة والعاطفة الرزينة. ودّت لو تدركه في عريه، بعيداً عن

التقدير، عن سلّم الأولويات والإستحسان الذاتي. تمالكت دموعها.

ـ المسألة أنه يخيّل لي أن حبنا يعتق. ما إن قالت هذه الكلمات حتى انهمرت دموعها.

ـ يعتق؟ تساءل بيار مذهولاً. لكن حبيّ لك لم يكن يوماً أقوى مما هو عليه. لماذا تفكرين هكذا؟

بالطبع، كان يسعى على الفور إلى طمأنتها وطمأنة نفسه.

ـ لا تلاحظ الأمر حتى، ليس هذا مدهشاً. فأنت متمسك بهذا الحب إلى حدّ أنك وضعته في مأمن خارج الزمن، خارج الحياة، بعيداً عن المتناول. تتذكّره من وقت لآخر بسرور، لكن ماذا أصبح عن حق، أنت لا تنظر إليه أبداً.

أجهشت بالبكاء.

ـ أنا أريد أن انظر إليه، قالت كابتة دموعها.

ـ إهدأي، قال بيار وهو يضمّها إليه. أعتقد أنك تهذين قليلاً. دفعته عنها. كان مخطئاً، هي لا تتكلم من أجل أن تهدأ، سيكون الأمر بسيطاً جداً لو كان بوسعه أن يسكن أفكارها بهذه الطريقة.

ـ لست أهذي، ربما أكلمك الليلة لأنني ثملة، لكن هذه الأفكار تراودني منذ أيام.

ـ كان يمكن أن تبوحي بها من قبل، قال بيار مستاءً. لا أفهم، ما هي مآخذك عليّ؟

كان في موقع الدفاع عن نفسه. يكره أن يكون مخطئاً.

ـ لا ألومك على شيء، يمكنك أن تبقى مرتاح الضمير تماماً. لكن أهذا كل ما يهم؟ صرخت بعنف.

ـ هذه المشاعر لا معنى لها. إنني أحبك، يفترض بك أن تعرفي

هذا، لكن إن كان يسرّك أن تصدقي العكس، فليس لدي أي وسيلة لأثبته لك.

ـ التصديق، التصديق دائماً. هذا ما يجعل اليزابيت تصدّق أن باتيه يحبها، وتصدّق ربما أنها لا تزال تحبّه. هذا يمنح بالتأكيد شعوراً بالأمان. أنت بحاجة إلى أن تحتفظ مشاعرك بصورتها دوماً، يجب أن تكون من حولك، مرتبة بعناية، ثابتة للأبد، وإن كانت فرغت تماماً من الداخل، فهذا لا يهمّك. إنها مثل قبور الإنجيل البيضاء. متوهّجة من الخارج، متينة، وفيّة، يمكن حتى إعادة طلائها بانتظام بكلمات جميلة.

عاودتها نوبة بكاء.

ـ لكن لا ينبغي أن نفتحها أبداً، فلن نجد فيها سوى الرماد والغبار.

ردّدت:

ـ الرماد والغبار، إنها حقيقة جلية. هوا بكت مخبئة رأسها بذراعها.

أخفض بيار ذراعها.

ـ كفي عن البكاء، أريد أن نتكلّم بمنطق.

سوف يجد حججاً جميلة وسيكون أمراً مريحاً أن تنصاع لها. لم تكن فرنسواز تريد أن تكذب على نفسها كما تفعل اليزابيت، إنها ترى الأمور بوضوح. واصلت البكاء بعناد.

ـ لكن ليس الأمر بهذه الخطورة، قال بيار بعذوبة. لامس شعرها، داعبه برقة. انتفضت.

ـ بل إنه خطير، أنا واثقة مما أقول: مشاعرك ثابتة لا تتبدّل،

يمكنها الاستمرار لقرون، لأنها مومياء. إنها كأولئك النساء التافهات، قالت متذكرة باشمئزاز وجه بلانش بوكيه، لا تتحرك، محنطة.

ـ كم أنك مزعجة. إما أن تبكي أو أن نتناقش، لا يمكن القيام بالإثنين معاً.

تمالك.

ـ اسمعي، صحيح أنني نادراً ما أعرف الرعشات ودقّات القلب، لكن ما الذي يصنع حقيقة الحب؟ لماذا يغيظك هذا فجأة اليوم؟

لطالما عرفتني هكذا.

ـ خذ مثل صداقتك لجيربير، الأمر مشابه، لا تلتقيه أبداً، لكنك تغضب إن قلت إن عاطفتك له خفّت.

ـ لا أشعر بالحاجة إلى إلتقاء الناس، هذا صحيح.

ـ لا تشعر بالحاجة إلى أي شيء، الأمر عندك سيّان.

كانت تبكي يائسة. تكره التفكير في تلك اللحظة حيث ستتخلّى عن الدموع لتدخل عالم الخداع الحليم. كان ينبغي إيجاد تعويذة تثبت اللحظة الحاضرة للأبد.

ـ أنتما هنا، قال صوت.

سوّت فرنسواز جلستها. أمر مذهل كم أن الشهقات التي لا يمكن كبتها يمكن أن تتوقف في لحظة. ظهر راملان في فتحة الباب واقترب ضاحكاً.

ـ إنني في ورطة. جذبتني إيلوي إلى زاوية مظلمة وهي تفسر

لي كم أن العالم ماكر، وهناك، أرادت ممارسة أعمال العنف القصوى على شخصي.

وضع يده على عضوه في حركة خجلة تشبه حركة تمثال فينوس.

ـ واجهت صعوبة قصوى في الدفاع عن عفّتي.

ـ ليست محظوظة الليلة، قال بيار، حاولت عبثاً إغواء تيديسكو.

ـ لو لم تكن كاتزيتي هنا، لست أدري ما الذي كان حصل، قالت فرنسواز.

ـ لاحظوا أنه ليس لديّ أفكار مسبقة، قال لامبلان، لكنني أجد هذه التصرفات منحرفة.

أرهف السمع.

ـ أتسمعان؟

ـ لا، أجابت فرنسواز، ماذا هناك؟

ـ أحدهم يتنفّس.

كان صوت طفيف يأتي من الخشبة، يشبه فعلاً التنفس.

ـ من تراه يكون؟ قال رامبلان.

صعدوا على الخشبة. كانت الظلمة حالكة.

ـ إلى اليمين، قال بيار.

كان جسد جاثماً خلف الستارة المخملية. إنحنوا فوقه.

ـ غيميو! وجدت من الغريب أن يرحل قبل أن تفرغ آخر زجاجة.

كان غيميو يبتسم بعذوبة، ورأسه متكىء إلى ذراعه. بدا فاتناً حقاً.

ـ سوف أهزّه، قال رامبلان، وأصعده لكما إلى فوق.

ـ سننهي جولتنا، قال بيار.

كانت قاعة الفنانين فارغة. أغلق بيار الباب.

ـ أريد أن نتفاهم، قال، يحزنني كثيراً أن تشككي في حبّنا.

كان وجهها يعبّر عن قلق حقيقي. نظرت فرنسواز إليه، راغبة في تصديقه.

ـ لا أظن أنك توقفت عن حبي، تمتمت.

ـ لكنك تقولين إنه جثّة قديمة نجرّها خلفنا. هذا ظلم حقيقي! أولاً، ليس صحيحاً أنني لست بحاجة إلى رؤيتك أنت. أسأم ما أن تغيبي، ومعك أنت لا أسأم أبداً. كل ما يحدث لي، أفكر على الفور في إخبارك إياه، أو يحدث لي وأنا معك. أنت حياتي. تعلمين هذا جيداً. لا ينتابني غالباً تأثر مضطرب حيالك، هذا صحيح، وهذا لأننا سعيدان. لو مرضتِ، لو تصرفت معي بقسوة، لكنت غضبت بشدة.

قال تلك الكلمات بقناعة تامّة وهدوء جعلا فرنسواز تبتسم بحنان. أمسكت ذراعه وصعدا معاً نحو المقصورات.

ـ أنا حياتك، قالت، لكن أتعلم ما أشعر به بقوة هذا المساء؟ إن حياتنا هنا من حولنا، رغماً عنّا تقريباً، من غير أن نكون اخترناهما. أنا أيضاً لم تعد تختارني أبداً. لم تعد لك الحرية بألاّ تحبّني.

ـ لكن الواقع أنني أحبك، أجاب بيار. أتظنين حقاً أن الحرية

تعني أن نعيد النظر في الأمور في كل لحظة؟ لطالما قلنا عن كزافيير إننا نصبح عندها رهينة مزاجيتنا ونزقنا.

ـ أجل، قالت فرنسواز.

كانت متعبة جداً وعاجزة عن تدبّر أمرها مع أفكارها، لكنها تذكرت وجه بيار حين ترك ذراعها. كانت هذه حقيقة جلية لا يمكن إنكارها.

ـ لكنني أمضي لحظات كثيرة مليئة معك. ألا ترين هذا؟ تتكلمين وكأنني رجل فظّ عديم الإحساس.

لامست فرنسواز ذراعه.

ـ أنت لطيف للغاية، قالت. لكن أترى، لا يمكن التمييز بين اللحظات المليئة والأخرى الفارغة، إذ إنك تتصرف على الدوام بشكل ثابت وخالٍ من العيوب.

ـ وهذا ما يجعلك تستنتجين أنها كلها فارغة. يا للمنطق العجيب! حسناً، من الآن فصاعداً، ستكون لي نزوات.

نظر إلى فرنسواز نظرة لوم.

ـ لم أراك كئيبة هكذا، وأنا أحبك كثيراً؟

أدارت فرنسواز رأسها.

ـ لست أدري. الأمر يشبه الدوار قليلاً. تردّدت. أنت مثلاً تستمع لي على الدوام بتهذيب ولباقة حين أحدّثك عنّي، سواء كان الأمر يهمّك أم لا، فأتساءل لو كنت أقل لباقة، متى كنت استمعت لي؟

ـ كلامك يهمّني دائماً، أجاب بيار بدهشة.

ـ لكنك لا تطرح مرة أسئلة من تلقاء نفسك.

ـ أتصوّر أنك ما إن يكون لديك ما تقولينه لي، تفعلين.

ـ نظر إليها ببعض القلق.

ـ متى حصل هذا؟

ـ ماذا؟

ـ إن لم أطرح أسئلة؟

ـ أحياناً في الآونة الأخيرة، قالت فرنسواز بضحكة طفيفة. بدوت مستغرقاً في أفكار بعيدة.

كانت متردّدة، حائرة. أمام ثقة بيار، انتابها شعور بالخجل. كل صمت لزمته حياله، إنما كان فخاً وقع فيه بطمأنينة. لم يخطر له أنها كانت تنصب له المكائد. ألم تكن هي من تغير؟ ألم تكن هي من يكذب حين تتكلم عن حب بلا غيوم، ملؤه السعادة، يقهر الغيرة؟ لم يعد كلامها وسلوكها يتجاوبان تماماً مع ميول قلبها. وهو ما زال يصدّقها. أكان هذا إيماناً راسخاً أم لا مبالاة.

كانت المقصورات والممرات خالية. كل ما هنالك بدا منتظماً. عادا بصمت إلى ردهة الفنانين وخشبة المسرح. جلس بيار على حافة الخشبة.

ـ أظن أنني أبديت حيالك بعض الإهمال في الأيام الأخيرة، قال. أعتقد أنني لو تصرّفت معك بشكل ممتاز حقاً، لما كنت شعرت بالقلق بسبب هذا الإخفاق.

ـ ربما، لا يمكن حتى التحدث عن إهمال بكل بساطة.

صمتت لحظة لاسترجاع صوتها.

ـ بدا لي أنه في اللحظات التي كنت تستسلم بلا قيود أو ضغوطات، لم أكن ذات أهمية كبيرة بالنسبة لك.

ـ أي بكلام آخر، لست صادقاً إلا حين أكون مخطئاً؟ وحين أكون لائقاً معك، إنما أكون هكذا بفضل مجهود إرادي؟ أتعني هذا المنطق؟

ـ من الممكن أن يكون متماسكاً، أجابت فرنسواز.

ـ بالطبع، إذ أن اهتمامي لك يدينني بقدر ما تفعل أخطائي. إن أنطلق من هذه الفكرة، فكل تصرفاتي سوف تثبت صحة منطقك.

أمسك بيار بكتف فرنسواز.

ـ هذا خطأ خطأ إلى حدّ مثير للسخرية. ليس لدي خلفية من اللامبالاة حيالك تظهر من وقت لآخر. إنني متمسك بك، وحين يخفت هذا الشعور صدفة لخمس دقائق بسبب مشكلة ما تواجهينني، تقولين بنفسك أن ذلك يظهر عليّ.

نظر إليها.

ـ ألا تصدقينني.

ـ أصدقك.

كانت تصدقه، لكن لم تكن هذه المسألة تماماً. لم تعد تعرف ما المسألة بالضبط.

ـ إنك عاقلة، قال بيار، لكن لا تعيدي الكرّة.

ضغط على يدها.

ـ أظن أنني أفهم جيداً كيف يمكن أن تشعري. حاولنا أن نبني حباً يتخطى اللحظات، لكن وحدها اللحظات أكيدة، ونحتاج إلى الإيمان لمواجهة ما تبقى. هل أن الإيمان شجاعة أم تقاعس؟

ـ هذا ما كنت أتساءله قبل قليل.

ـ يراودني هذا السؤال أحياناً بالنسبة لعملي. أغضب حين تقول

لي كزافيير إنني أتشبث بعملي سعياً إلى الأمان الأخلاقي. لكن، رغم ذلك؟

شعرت فرنسواز بغصّة. هذا ما كنت تعجز عن احتماله أكثر من أي شيء آخر، أن يعيد بيار النظر في أعماله.

ـ ثمة في حالتي عناد أعمى. ابتسم. تعرفين، النحل، حين نحفر فجوة كبيرة في قعر خلاياها، تواصل بصق العسل فيها بالحماس ذاته. هذا هو الانطباع الذي يتركه لي عملي قليلاً.

ـ لست مقتنعاً بهذا حقاً؟

ـ مرّات أخرى أرى نفسي مثل بطل صغير يواصل طريقه في الظلمة، قال بيار مقطباً جبينه. بدا عازماً وأحمق.

ـ أجل، إنك بطل صغير، قالت فرنسواز ضاحكة.

ـ أودّ تصديق هذا...

كان نهض، لكنه وقف بلا حراك، متكئاً إلى دعامة. في الأعلى كان الفونوغراف يعزف مقطوعة تانغو. مازالوا يرقصون. ينبغي أن يذهبا وينضمّا إليهم.

ـ الأمر مضحك، قال بيار. تلك المخلوقة تزعجني حقاً بأخلاقياتها التي تجعلنا نبدو في غاية الانحطاط. يبدو لي أنها أحبّتني، سوف أجد نفسي واثقاً أكثر مما مضى. سيتهيأ لي أنني انتزعت استحسانها.

ـ إنك غريب الأطوار. يمكنها أن تحبّك وهي تلومك.

ـ لن يكون هذا سوى لوم مجرد. أن أجعلها تحبّني يعني أن أفرض نفسي عليها، أن أقحم نفسي في عالمها وأن أنتصر حسب قيمها هي.

ابتسم.

ـ تعرفين أن هذا هو نوع الانتصار الذي أحتاج إليه بهوس.

ـ أعرف.

نظر بيار إليها برزانة.

ـ لكنني لا أريد أن يقودني هذا الهوس الآثم إلى إفساد شيء ما بيننا.

ـ قلت بنفسك إنه لا يمكن أن يفسد شيئاً.

ـ لا يمكن أن يفسد شيئاً أساسياً، قال بيار. لكنني في الواقع حين اضطرب بسببها، أبدي إهمالاً تجاهك. حين أنظر إليها، لا أنظر إليك. ازداد صوته إلحاحاً.

ـ أتساءل إن لم يكن من الأفضل أن أوقف هذه القصة. ما أشعر به حيالها ليس حباً، بل هو أقرب إلى التطيّر. إن قاومت أصريّت، لكن ما إن يتهيأ لي أنني واثق منها حتى لا تعود تبالي بي. وإن قررت التوقف عن التقائها، أعرف جيداً سأتوقف بلحظة عن التفكير بالأمر.

ـ لكن لا داعي لهذا، قالت فرنسواز بحدّة.

من الأكيد أنه إن بادر بيار بالانقطاع عن كزافيير، فلن يشعر بأي أسف. ستعود الحياة كما كانت من قبلها. شعرت فرنسواز بقليل من الدهشة أن هذا اليقين لا يحرّك في داخلها سوى ما يشبه الخيبة.

ـ تعرفين جيداً، قال بيار مبتسماً، لا يمكنني تلقي أي شيء من أحد. كزافيير لا تقدّم لي شيئاً على الإطلاق. ليس عليك أن تشعري بأي إحراج.

عاد وقوراً.

ـ فكّري ملياً، المسألة جدّية. إن كنت تعتقدين أن ذلك يشكّل أدنى خطر على حبّنا، عليك أن تقولي لي. لا أرغب على الإطلاق بهذه المخاطرة.

عبرت برهة صمت. شعرت فرنسواز برأسها متثاقلاً. لم تعد تحسّ سوى به. لم يعد لها جسد. قلبها أيضاً صمت. وكأن طبقات وطبقات من التعب واللامبالاة أبعدتها عن نفسها. بلا غيرة، بلا حب، بلا عمر، بلا اسم، لم تعد أمام حياتها سوى شاهدة هادئة غير معنية.

ـ فكرت في الأمر، قالت، هذا غير وارد.

وضع بيار بحنان ذراعه حول كتفي فرنسواز وصعدا من جديد إلى الطابق الأول. كان النهار طلع الآن وبدت كل الوجوه متعبة. فتحت فرنسواز الواجهة الزجاجية وتقدّمت خطوة على المصطبة. انتابها البرد. كان يوم جديد يبدأ.

ـ والآن، ماذا سيحصل؟ فكّرت.

لكن مهما حصل، لما كان بوسعها اتخاذ قرار مغاير للذي اتخذته، لطالما رفضت العيش وسط أحلام، لكنها لم تكن تقبل كذلك الإنغلاق في عالم مبتور. كزافيير موجودة وينبغي عدم إنكارها. عليها أن تتحمّل جميع المخاطر التي تتضمّنها حياتها.

ـ ادخلي، قال بيار، البرد قارس.

أغلقت الواجهة. قد يحمل الغد معاناة ودموعاً، لكنّها لم تكن تشعر بأي تعاطف حيال تلك المرأة المعذّبة التي ستتحول إليها من

جديد عما قليل. نظرت إلى بول، جيربير، بيار، كزافيير. كل ما شعرت به كان فضولاً موضوعياً وعنيفاً حتى أنه بدا حاراً كالفرح.

الفصل (٨)

ـ بالطبع، قالت فرنسواز، لم تعبّر عن الدور بشكل كافٍ، أداؤك داخلي جداً، لكنك تحسين بالشخصية وكل التفاصيل صحيحة.

جلست عند طرف الكنبة قرب كزافيير وأمسكت بكتفيها.

ـ أقسم لك أنه في وسعك إلقاء المشهد أمام لابروس. أداؤك جيد، تعلمين، جيد حقاً.

كانت حققت نجاحاً بمجرّد أنها تمكنت من حمل كزافيير على إلقاء هذا المونولوج عليها. وتوجّب عليها من أجل ذلك أن تتوسّلها طوال ساعة كاملة. شعرت فرنسواز بنفسها منهكة تماماً. لكن كل هذا سيكون بلا جدوى إن لم تقنعها الآن بالعمل مع بيار.

ـ لا أجرؤ! قالت كزافيير يائسة.

ـ ليس لابروس مهيباً إلى هذا الحدّ، أجابت فرنسواز مبتسمة.

ـ آه، بلى! إنه يخيفني كأستاذ.

ـ وإن كان... مضى شهر وأنت تعملين على هذا المشهد. بات

الأمر أشبه بهاجس مرضي. عليك الخروج من هذا الوضع.

ـ أودّ ذلك كثيراً.

ـ اسمعي، ثقي بي، قالت فرنسواز بحرارة. لن أطلب منك مواجهة حكم لابروس لو لم أعتبرك جاهزة. وأنا مستعدة لأكفلك.

ـ نظرت في عيني كزافيير.

ـ ألا تصدّقينني؟

ـ أصدّقك، لكنه أمر فظيع للغاية أن نشعر أن أحداً ما يحكم علينا.

ـ عليك التخلّص من عزّة النفس إن كنت تريدين العمل. كوني شجاعة وقدّمي له المونولوج هذا منذ بداية درسك.

أطرقت كزافيير.

ـ سأفعل، قالت بثقة. رفّ جفناها. كم أودّ أن تكوني مسروررة مني قليلاً.

ـ أنا واثقة من أنك ستكونين ممثلة حقيقية، أجابت فرنسواز بحنوّ

ـ فكرتك هذه كانت جيدة، قالت كزافيير مشرقة. نهاية المشهد تكون أفضل بكثير إن وفقت.

نهضت وقالت متّقدة:

ـ إن كان هذا الغصن يحمل أوراقاً زوجية العدد، أعطيه الرسالة... ١١، ١٢، ١٣، ١٤...، عدد زوجيّ.

ـ أصبت تماماً، قالت فرنسواز فرحة.

لم تكن تماوجات صوت كزافيير وتعابير وجهها بعد سوى إشارات لطاقات مستقبلية، غير أنها حاذقة وفاتنة. لو أستطيع فقط

أن أنفخ فيها بعض الإرادة، فكرت فرنسواز. سيكون الأمر متعباً جداً إن توجب حملها هكذا على ذراعي إلى النجاح.

ـ ها هو لابروس، قالت فرنسواز، إنه بالغ الدقّة.

فتحت الباب بعد أن عرفت وقع خطاه. ابتسم بيار بمرح.

ـ مرحبا! قال.

كان رازحاً تحت معطف ثقيل من وبر الجمل بدا فيه أشبه بدب فتيّ.

ـ آه! كم سئمت. أمضيت طوال ما قبل الظهر أقوم بحسابات مع بيرنهايم.

ـ حسناً! نحن لم نضع وقتنا، قالت فرنسواز. كزافيير أدّت لي مشهدها من مسرحية «الفرصة». سترى كم عملت جيداً.

التفت بيار إلى كزافيير وكأنما يشجّعها.

ـ إنني في تصرّفك، قال.

كانت كزافيير تخشى كثيراً الخروج، حتى أنها وافقت في نهاية الأمر على تلقّي دروسها في غرفتها. غير أنها ظلت مسمّرة في مكانها.

ـ ليس على الفور، قالت متوسّلة. يمكننا المكوث لوقت قصير.

ـ نظر بيار إلى فرنسواز يستشيرها.

ـ هل تريدين الاحتفاظ بنا قليلاً؟

ـ يمكنكم البقاء حتى السادسة والنصف.

ـ أجل، لنصف ساعة صغيرة فحسب، قالت كزافيير وهي تنقّل النظر بين فرنسواز وبيار.

ـ تبدين متعبة قليلاً، قال بيار.

ـ أظن أنني مصابة بالزكام. إنه الطقس.

ـ أجل، الطقس، لكن كذلك قلّة النوم. بيار يتمتع بصحة من حديد وكزافيير تعوّض عن ساعاتً النوم التي تنقصها خلال النهار. وكلاهما يسخر بلطف من فرنسواز حين تزعم النوم قبل السادسة.

ـ ماذا أخبرك بيرنهايم؟ سألت.

ـ حدّثني من جديد عن مشروع الجولة هذا. تردّد: بالطبع، الأرقام مغرية.

ـ لكننا لسنا بحاجة ماسة إلى المال، قالت فرنسواز بحدّة.

ـ جولة؟ أين؟ سألت كزافيير.

ـ في اليونان، مصر، المغرب، أجاب بيار. ابتسم. يوم يتمّ هذا، سنصحبك معنا.

ارتعدت فرنسواز. كان هذا مجرّد كلام فارغ، لكن من المثير للأشياء أن يكون خطر لبيار قوله. مبادراته السخية سريعة جداً. لو تمّت هذه الرحلة، فهي مصمّمة بشراسة على أن يقوما بها وحيدين. صحيح أنه سيتوجب عليهما اصطحاب الفرقة، غير أن هذا لا يهمّ.

ـ لن تتمّ الجولة قبل وقت طويل، قالت.

ـ أتظنين أن الأمر سيكون مضرّاً إن سمحنا لنفسنا بعطلة قصيرة؟ قال بيار محاولاً إقناعها.

هذه المرة اجتاح إعصار فرنسواز فهزّها من رأسها إلى أخمص قدميها. لم تكن هذه الفكرة عبرت رأس بيار ولو مرة من قبل. فهو في ذروة نشاطه واندفاعه. في الشتاء المقبل سوف يخرجون

مسرحياته، من المقرر أن يصدر كتابه ولديه مشاريع كثيرة لتطوير المدرسة. فرنسواز تنتظر بفارغ الصبر وصوله إلى ذروة عمله الفني ليعطي عمله أخيراً شكله النهائي. وجدت صعوبة في السيطرة على صوتها المرتعش.

ـ ليس هذا بالوقت المناسب، قالت. تعلم جيداً أن المسرح مسألة فرص. بعد «يوليوس قيصر»، سينتظرون بفارغ الصبر عودتك في الموسم الجديد. إن تركت سنة تمرّ سيتحول انتباه الجميع إلى شيء آخر.

ـ كلامك من ذهب مثلما دائماً، قال بيار بظلّ من الأسف.

ـ كم أنتما متعقلان! قالت كزافيير ووجهها يعبّر عن إعجاب صادق وثائر.

ـ آه! لكن هذا سيتمّ بالتأكيد في أحد الأيام، قال بيار بفرح. كم سنشعر بالسرور حين نصل إلى أثينا، إلى الجزائر، وننزل في مسارحهم الصغيرة البائسة. وعند انتهاء العرض، بدل أن نجلس في الدوم، نذهب ونستلقي على حصر في مقهى مغربي وندخّن الكيف.

ـ الكيف؟ سألت كزافيير مفتونة.

ـ إنها نبتة تحتوي على الأفيون يزرعونها هناك. يبدو أنها تجعل الواحد يبصر رؤى ساحرة. أضاف خائباً. مع أنني لم أبصر أيّاً منها مرة.

ـ هذا لا يدهشني من جهتك، علقت كزافيير بتساهل حنون.

ـ ندخّن الكيف في غلايين صغيرة فاتنة يصنعها الباعة للواحد خصيصاً، ستفخرين بأن يكون لك غليونك الصغير الخاص!

ـ أنا سأبصر رؤى بالتأكيد.

ـ هل تذكرين مولاي أدريس؟ سأل بيار وهو يبتسم لفرنسواز، حين دخنّا ذلك الغليون الذي كان عرب مصابون بلا شكّ بالسفلس يتناقلونه من فم لفم؟

ـ أذكر جيداً، قالت فرنسواز.

ـ لم يكن وضعك مريحاً.

ـ لم يكن وضعك أفضل.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من بين شفتيها. كانت متشنّجة تماماً، رغم أن هذه المشاريع بعيدة كل البعد وهي تعرف جيداً أن بيار لن يتخذ أي قرار من دون موافقتها. سترفض، الأمر بسيط، لا داع للقلق. لا، لن نذهب في الشتاء المقبل. لا، لن نصطحب كزافيير. لا. انتابتها ارتعاشة. لا بدّ أنها محمومة، يداها رطبتان وجسدها ملتهب برمّته.

ـ سنذهب للعمل، أعلن بيار.

ـ سأعمل أنا أيضاً، قالت فرنسواز. أرغمت نفسها على الابتسام. لا شك أنهما أحسا بخطب ما إذ خيّم انزعاج بينهم. إنها تسيطر على نفسها بشكل أفضل عادة.

ـ مازال أمامنا خمس دقائق، قالت كزافيير بابتسامة مقطّبة. تنهدت: خمس دقائق فقط.

ارتفعت نظرتها إلى وجه فرنسواز لتحدّق بعدها بيديها الطويلة الأظافر. تلك النظرة المنسلّة خلسة والمتّقدة إعجاباً لكانت في ما مضى أثرت في نفس كزافيير، غير أن بيار قال لها إن كزافيير تستخدم مراراً الحيلة ذاتها معه حين يجتاحها حنان عارم حياله.

ـ ثلاث دقائق، قالت كزافيير. كانت تحدّق في المنبّه. بالكاد تخفي اللوم خلف الشعور بالأسف. «مع أنني لا أبخل بنفسي إلى هذا الحدّ»، فكرت فرنسواز. بالطبع، بالمقارنة مع بيار، تبدو هي جشعة. لم يعد يكتب سطراً في الآونة الأخيرة، يبدّد نفسه خليّ البال. لا يمكنها منافسته في هذا الموضوع، لا تريد هذا حتى. إعترتها من جديد ارتعاشة ملتهبة.

نهض بيار.

ـ ألتقيك هنا في منتصف الليل؟

ـ أجل، سأبقى هنا. أنتظرك للعشاء.

ابتسمت لكزافيير.

ـ كوني شجاعة، لحظة وتمضي.

تنهّدت كزافيير.

ـ إلى الغد، قالت.

ـ إلى الغد، أجابت فرنسواز.

جلست إلى طاولتها ونظرت مغتمّة إلى الأوراق البيضاء. شعرت برأسها ثقيلاً وبتيبّس على طول عنقها وظهرها. تعلم بيقين أنها لن تعمل بشكل جيد. كانت كزافيير هدرت نصف ساعة مرة جديدة. فظيع، كل هذا الوقت الذي تلتهمه. لم يعد من الممكن أن تنعم فرنسواز ببعض وقت الفراغ أو ببعض الوحدة، أو حتى بلحظات من الراحة. يصل الواحد إلى وضع من التوتر لا يحتمل. لا، سوف تقول لا. بكل قواها المتوترة سوف تقول لا. وسيستمع بيار إليها.

شعرت فرنسواز بشيء ما ينهار فيها، يغرق. سوف يتخلّى بيار

بسهولة عن هذه الرحلة، لا يرغب فيها بشكل قويّ. وبعدها؟ ماذا سينفع هذا؟ المقلق في الأمر أنه لما كان عارض هذا المشروع من تلقاء نفسه. هل أن تمسّكه بنتاجه ضئيل إلى هذا الحد؟ هل أنه انتقل من الحيرة إلى لامبالاة تامة؟ ما نفع أن تفرض عليه من الخارج مظهر إيمان لم يعد يمتلكه؟ ما فائدة أن ترغب له في شيء ما إن كان رغماً عنه أو حتى ضده؟ القرارات التي تنتظرها فرنسواز منه، إنما تريدها أن تنبع من إرادته. سعادتها برمّتها تقوم على إرادة بيار الحرّة، وهو تحديداً ما لا تملك أي سلطة عليه.

ارتعدت. سمعت خطى سريعة تصعد الدرج وضربات قوية هزّت بابها.

ـ أدخل، قالت.

ظهر الوجهان معاً في فتحة الباب، مبتسمين. كانت كزافيير أخفت شعرها داخل قلنسوة غليظة ذات مربّعات وبيار يحمل غليونه في يده.

ـ هل تؤنبيننا كثيراً إن استبدلنا الدرس بنزهة في الثلج؟ سألها.

شعرت فرنسواز بالغضب يجتاحها. كانت فرحت كثيراً وهي تتصوّر مفاجأة بيار وسرور كزافيير أمام المديح الذي سيوجهه لها بيار.

جنّدت روحها كاملة لتحملها على العمل. كم كانت ساذجة. لم تكن الدروس تجري مرة بجدّية، وما زالا يدّعيان تحميلها مسؤولية تقاعسهما.

ـ هذا يعنيكما، قالت، لا دخل لي فيه.

تبخّرت الابتسامتان. ذلك الصوت الرصين لم يكن في الحسبان.

ـ أتلومييننا حقاً؟ سأل بيار مندهشاً.

نظر إلى كزافيير التي نظرت إليه بدورها حائرة. كانا يشبهها مذنبين. للمرة الأولى وبسبب ذلك التواطؤ الذي أقحمتهما فرنسواز فيه كانا ينتصبان أمامها كزوج. شعرا بذلك وأحسّا بالضيق.

لا، أجابت فرنسواز. أتمنى لكما نزهة جيدة.

أغلقت الباب ببعض العجلة ومكثت متكئة إلى الحائط. كانا ينزلان الأدراج بصمت، يمكنها تصوّر وجهيهما المرتبكين. لن يحملهما ذلك على العمل، كل ما فعلته أنها أفسدت نزهتهما. إعترتها زفرة جعلتها تغص. ما نفع ذلك؟ لا يسعها سوى أن تفسد فرحاتهما مما يجعلها تمقت نفسها. لا يمكنها أن تريد الأشياء عنهما، هذه معضلة. إرتمت فجأة على السرير وانهمرت دموعها. تلك الإرادة المتصلّبة التي تصرّ على الاحتفاظ بها في داخلها مؤلمة جداً. ليس عليها إلاّ أن تدع الأمور تأخذ مجراها، وسوف نرى ما سيحصل.

ـ سوف نرى ما سيحصل، ردّدت فرنسواز. شعرت بقواها خائرة. كل ما تطلبه ذلك السلام المفعم بالغبطة المنسدل ندفاً بيضاء على ذلك السائر منهكاً. ليس عليها سوى التخلّي عن كل شيء، عن مستقبل كزافيير، عن نتاج بيار، عن سعادتها الخاصة، وعندها ستعرف الراحة. ستحتمي هكذا في تشنّجات القلب، غصّات الحلق، ذلك الحريق الجاف في العينين، في قعر المحجرين مجرّد إثارة صغيرة تقوم بها، تفتح يديها وتفلت قبضتها. رفعت يداً وهزّت أصابعها. كانت أصابعها تطيعها، مذهولة ووديعة. أمر خارق بحدّ ذاته. إذعان ألف عضلة صغيرة مجهولة، لم تطلب المزيد؟ تردّدت.

أن تفلت قبضتها. لم تعد تخشى الغد. ليس هناك غد، بل حاضر تراه من حولها، حاضر عار، قارس، حتى أن شجاعتها غادرتها. كان الأمر كما في المقهى الفسيح حيث الفرقة الموسيقية، مع جيربير. لحظات مبعثرة، حشد من الإشارات والصور بلا تسلسل.

نهضت فرنسواز واثبة، الأمر لا يحتمل. أي عذاب سيكون أفضل من هذا الإستسلام المعدم الأمل وسط الفراغ والفوضى.

إرتدت معطفها ووضعت قبعتها الفراء غارزة إياها حتى أذنيها. عليها أن تتمالك، إنها بحاجة إلى التحاور مع نفسها. كان ينبغي أن تفعل منذ وقت طويل بدل أن ترتمي في العمل ما إن تتسنّى لها لحظة. الدموع جعلت جفنيها يلتمعان منتفختين وألقت ظلالاً زرقاء تحت عينيها. من السهل أن تصلح الأمر، لكن ما الفائدة. لن ترى أحداً قبل منتصف الليل. أرادت أن تتشبّع بالعزلة طوال هذه الساعات. وقفت لحظة أمام المرآة تتأمل وجهها. إنه وجه لا يعبّر عن شيء. ملتصق بمقدّم الرأس مثل بطاقة: فرنسواز ميكال. وجه كزافيير على العكس همس لا ينضب. لا شك أن هذا ما يجعلها تبتسم ابتسامات غامضة لنفسها في المرايا. خرجت فرنسواز من غرفتها وهبطت الأدراج. كانت الأرصفة مكسوة بالثلج والبرد لاذع. صعدت في باص. عليها الهروب من الحيّ هذا لتجد نفسها في عزلتها، في حريتها.

مسحت فرنسواز براحة يدها البخار عن زجاج النافذة. إنبجست في قلب الليل واجهات متوهّجة، مصابيح، مارّة. لكنه تهيأ لها أنها ما برحت في مكانها. إنها رحلة في الزمن، خارج المساحة. أغمضت عينيها. أن تتمالك. انتصب بيار وكزافيير أمامها، وأرادت بدورها الوقوف في وجههما. أن تتمالك، أن

تتمالك ماذا؟ أفكارها تهرب متوارية. لم تكن تجد ما تفكر به على الإطلاق.

توقف الباص عند زاوية شارع داميمون ونزلت فرنسواز. كانت شوارع مونمارتر مسمّرة في البياض والصمت. لا ترغب في الذهاب إلى أي مكان. بدأت بشكل تلقائي تتسلّق التلّة. الثلج يقاوم قليلاً تحت الأقدام ثم يتراخى منقصفاً بنعومة كالحرير. ينتاب الواحد استياء خائب وهو يشعر بالعقبة تذوب قبل أن ينجز مجهوده. الثلج، المقاهي، الأدراج، البيوت... ما دخلي بكلّ هذا؟ فكرت فرنسواز بذهول. أحسّت بسأم قاتل يجتاحها، يقصف رجليها هناك، على مسافة منها، لا تلامس حتى ذلك الفراغ الجنوني الذي كان يجذبها. دوّامة. تهبط في حركة حلزونية أعمق وأعمق، يبدو لها أنها ستدرك في النهاية شيئاً ما: السكينة أو اليأس، أي شعور حاسم، غير أنها تبقى على الدوام عالقة على المستوى ذاته، على شفير الفراغ. نظرت فرنسواز من حولها يائسة. لكن لا، لا يمكن أن تحظى بأي مساعدة. كان عليها أن تنتزع من نفسها شعوراً بالكبرياء، بالشفقة على نفسها أو بالحنان. شعرت بألم في ظهرها، في صدغيها، وحتى هذا الألم ظلّ غريباً عنها. كان ينبغي أن يكون هناك أحد ما ليقول «إنني متعبة، إنني تعسة». عندها لكانت تلك اللحظة المبهمة والسقيمة احتلّت بوقار مكانتها في حياة ما. لكن لم يكن هناك أحد.

ـ الذنب ذنبي، فكرت فرنسواز وهي تصعد أحد الأدراج ببطء. إنه ذنبها، اليزابيت على حق، مضت سنوات وهي لم تعد أحداً. لم يعد لها حتى وجه. أكثر النساء حرماناً كان في وسعها على الأقل ملامسة يدها برقة. في حين تنظر هي إلى يديها بدهشة.

ماضينا، مستقبلنا، أفكارنا، حبّنا... لم تكن مرة تقول «أنا». أما بيار، فيخطط لمستقبله الخاص، يتصرف بقلبه الخاص. يبتعد، يتراجع إلى أطراف حياته الخاصة، وتبقى هي هنا، منفصلة عنه، منفصلة عن الجميع، بلا روابط مع نفسها مهجورة ولا تجد في هذا الهجر وحدة حقيقية.

إتكأت إلى الدرابزون وتأملت من تحتها دخاناً مترامياً أزرق جليدياً، إنها باريس. تمتد بلا مبالاة مهينة. ارتدّت فرنسواز إلى الخلف ماذا تفعل هنا، في البرد القارس، وهذه القبب البيضاء فوق رأسها وعند قدميها تلك الهوة السحيقة الممتدّة حتى النجوم؟ هبطت الأدراج راكضة. عليها أن تذهب إلى السينما أو تتصل بأحد ما.

ـ كم أنني بائسة، تمتمت.

ليست العزلة سلعة قابلة للتفتّت يمكن استهلاك أجزاء صغيرة منها. كم كانت ساذجة حين ظنّت أن في وسعها اللجوء إليها الليلة. عليها أن تتخلّى عنها تماماً طالما أنها لم تفز بها كلياً من جديد.

أحسّت بألم لاذع قطع أنفاسها. توقفت وضغطت بيدها على ضلوعها.

ـ ماذا أصابني؟

إجتاحتها ارتعاشة قوية هزّتها كلياً. كانت تتصبّب عرقاً ورأسها يطنّ.

ـ إنني مريضة، فكّرت بارتياح ما. أشارت إلى سيارة أجرة. لم يعد عليها سوى أن تعود إلى غرفتها، تتمدّد في سريرها وتحاول أن تنام.

صفق باب في الطابق نفسه وعبر أحد ما الممر جاراً رجليه. لا شك أنها العاهرة الشقراء التي تنهض من نومها. في الغرفة في الأعلى كان فونوغراف الزنجي يعزف بعذوبة مقطوعة «حدة». مضت ٤٨ ساعة وهي راقدة في دفء الملاءات. تلك الأنفاس الرقيقة إلى جانبها، إنها كزافيير التي لم تغادر الكنبة الكبيرة منذ خروج بيار. أخذت فرنسواز نفساً عميقاً: النقطة المؤلمة لم تخنق، مما جعلها تشعر بالسرور، هكذا تكون واثقة تماماً من أنها مريضة، هذا مريح جداً. ليس عليها أن تكترث لشيء على الإطلاق، يمكنها ألاّ تتكلّم حتى. فقط لو لم تكن بيجامتها مبلّلة بالعرق، لكانت شعرت أنها بحال جيدة تماماً. كانت ملتصقة بجسدها. ثمة كذلك على جنبها الأيمن بقعة واسعة لاهبة. غضب الطبيب حين رأى كم أن اللزقات وضعت بشكل سيىء، لكنه كان هو المخطىء، كان عليه أن يعطي تعليماته بشكل أوضح.

سمعت دقّة خفيفة على الباب.

ـ أدخل، قالت كزافيير.

مدّ الموظف الشاب رأسه من الباب.

ـ هل أنّ الآنسة بحاجة إلى شيء ما؟

إقترب بخفر من السرير. كان يحضر كل ساعة بوجه الفاجعة هذا ليعرض خدماته.

ـ شكراً، قالت فرنسواز. لم يعد في وسعها التكلّم بتاتاً، وقد ضاقت أنفاسها.

ـ يقول الطبيب إن على الآنسة الانتقال إلى عيادة خاصة صباح غد من دون إبطاء. ألا تود الآنسة أن أتصل بأحد ما؟

هزّت فرنسواز رأسها.

ـ لا أنوي الرحيل.

اندفعت الدماء إلى وجهها فألهبته، وأخذ قلبها يدق بجنون. لماذا أخبر ذلك الطبيب الجميع في الفندق؟ سوف يخبرون بيار. كزافيير أيضاً ستخبره. هي نفسها تعلم أنها لن تقدر أن تكذب عليه. سيرغمها بيار على الرحيل. لم تكن تريد هذا. لا يمكن أن يذهبوا بها رغماً عنها. نظرت إلى الباب وهو ينغلق على الخادم وجالت النظر في أرجاء الغرفة. كانت تعبق برائحة المرض. مضى يومان من غير أن تنظف الغرفة ويوضّب السرير حتى النافذة لم تفتح فوق الموقد كدّس بيار، كزافيير واليزابيت كميات من الأطعمة المثيرة للشهية، لكن بلا جدوى . شرائح الجمبون يبست ، المشمش تخلّل في عصيره، قالب الكريم كرميل انهار في بحر من السكّر المحروق. بدأت الغرفة تشبه حجرة مخطوف، غير أنها غرفتها، ولم تكن فرنسواز ترغب في مغادرتها. كانت تحجب زهور الأقحوان المقشرة التي تزينُ ورق الجدران والسجادة الرثّة وأصوات الفندق. غرفتها، حياتها. تفضّل المكوث فيها، خائرة القوى، بلا حراك، على أن يقصوها بين جدران بيضاء مجهولة.

ـ لا أريد أن يأخذوني من هنا، قالت بصوت مخنوق. عادت موجات حارقة تعتريها واغرورقت عيناها من شدّة اضطرابها.

ـ لا تحزني، قالت كزافيير بتعاسة وشغف. ستتعافين بسرعة. إرتمت في حركة مفاجئة فوق السرير . ألصقت وجنتها النضرة بوجنة فرنسواز المحمومة واندسّت إلى جانبها.

ـ صغيرتي كزافيير، تمتمت فرنسواز متأثرة. ضمّت بذراعيها الجسد الطريّ الدافيء. كان جسد كزافيير مرتمياً بكل ثقله عليها،

حتى باتت تتنفس بصعوبة، لكنها لم تكن تريدها أن تبتعد. هكذا ضمّتها ذات صباح إلى قلبها، لمَ لم تحسن استبقاءها؟ كانت تحب كثيراً ذلك الوجه القلق المترع بالحنان.

ـ صغيرتي كزافيير، ردّدت. غصّ حلقها وكأنها سوف تبكي. لا، لن ترحل. لا شك أن خطأ ما حصل، أرادت معاودة كل شيء منذ البداية. اعتقدت من عمق كآبتها أن كزافيير ابتعدت عنها، غير أن هذا الاندفاع الذي جعل كزافيير ترتمي بين ذراعيها لا يمكن أن يخطيء. لن تنسى فرنسواز يوماً عينيها اللتين رسم القلق تحتهما ظلالاً وذلك الحبّ الرقيق المتّقد الذي تعبّر لها كزافيير عنه منذ يومين بلا تردّد.

ابتعدت كزافيير بنعومة من فرنسواز ونهضت.

ـ سأغادر، قالت. أسمع خطى لابروس في الخارج.

ـ إنني واثقة من أنه سيصرّ على إرسالي إلى عيادة، قالت فرنسواز بعصبية.

دقّ بيار على الباب ودخل، بدا مهموماً قلقاً.

ـ كيف حالك؟ سأل ممسكاً يد فرنسواز في يده. ابتسم لكزافيير. هل كنت مطيعة؟

ـ إنني بخير، قالت فرنسواز، اختنق قليلاً.

حاولت النهوض، غير أن ألماً لاذعاً مزّق صدرها.

ـ أرجو أن تدقّا عليّ وأنتما راحلان، قالت كزافيير وهي تنظر إلى بيار بلطف. سأعود.

ـ لا داع لذلك، قالت فرنسواز، عليك الخروج قليلاً.

ـ ألست ممرّضة جيدة؟ سألت كزافيير بلوم.

ـ الأفضل، قالت فرنسواز بحنوّ.

أغلقت كزافيير الباب خلفها بلا صوت وجلس بيار عند أسفل السرير.

ـ إذاً، هل رأيت الطبيب؟

ـ أجل، أجابت فرنسواز بحذر. قطّب وجهها. لم تكن تريد معاودة البكاء، لكنها شعرت بعجز تام عن السيطرة على نفسها.

ـ اجلب لي ممرّضة، لكن دعني هنا.

ـ اسمعي، قال بيار واضعاً يده على جبينها. قالوا لي في أسفل الفندق إنك بحاجة لمتابعة عن كثب. ليس الأمر خطيراً، لكن حين تصاب الرئة تصبح المسألة رغم كل شيء جدّية. يلزمك حقن، الكثير من العناية وطبيب في الجوار على الدوام. طبيب جيد. هذا العجوز أحمق.

ـ عليك أن تعثر على طبيب وممرّضة.

انهمرت دموعها. كانت لا تزال تقاوم بكلّ ما تبقى لديها من قواها الخائرة. لم تكن لتستسلم، لن تدعهم يقتلعونها من غرفتها، من ماضيها، من حياتها. لكن لم يعد بيدها حيلة للدفاع عن نفسها. حتى صوتها لم يعد سوى همسٍ.

ـ أريد البقاء معك. إسترسلت في البكاء. ها هي معدمة الإرادة، مستسلمة لغيرها، مجرّد جسد مرتعش تحت وطأة الحمّى، جسد غادرته حيوية، بلا كلام ولا تفكير حتى.

ـ سأبقى هناك طوال النهار، قال بيار، لن يتغيّر عليك شيء.

ـ نظر إليها متوسلاً، متأثراً.

ـ لا، بل سيتغيّر. كانت تغصّ بدموعها. انتهى الأمر.

كانت متعبة، مضناة، لا يسعها أن تميّز ما الذي يضمحلّ في نور الغرفة الأصفر، لكنها لم تكن ترغب أبداً في تخطّي حزنها. قاومت كثيراً. تشعر منذ وقت طويل أن خطراً ما يهدّدها. عاودتها بلا انتظام صور مختلفة. طاولات البول نور، مقاعد الدوم، غرفة كزافيير، غرفتها هي.

أبصرت نفسها متوترة، متشنجة، متقوقعة على شيء ما لم تعد تذكره. الآن حلّت اللحظة. مهما ضغطت على قبضتيها وتشبثت في انتفاضة أخيرة، سوف يحملونها رغماً عنها. لم يعد أي أمر يخضع لإرادتها والتمرّد الوحيد المتبقي لها هو الدموع.

سيطرت الحمّى على فرنسواز طوال الليل ولم تتمكن من النوم إلاّ عند طلوع الفجر. حين فتحت عينيها، كانت شمس شتائية هزيلة تضيء الغرفة ووجدت بيار منحنياً فوق السرير.

ـ سيارة الإسعاف هنا، قال.

ـ آه!

تذكرت أنها بكت مساء أمس، لكنها لم تعد تذكر السبب بوضوح. وحده الفراغ كان يحيط بها وهي هادئة تماماً.

ـ علي أن آخذ معي بعض الأغراض.

ابتسمت كزافيير.

ـ وضّبنا حقيبتك وأنت نائمة. ثياب للنوم، محارم، عطر. أظن أننا لم ننس شيئاً.

ـ يمكنك أن تطمئنّي، قال بيار مرحاً. تمكنت من ملء الحقيبة الضخمة.

ـ كنت ستدعها ترحل كيتيمة، حاملة معها فقط فرشاة أسنان

ملفوفة في محرمة، احتجّت كزافيير. اقتربت من فرنسواز ونظرت إليها بعينين قلقتين. كيف تشعرين؟ ألن تتعبك الرحلة كثيراً؟

ـ إنني بحال جيدة، أجابت فرنسواز.

حصل أمر ما وهي نائمة. لم تعرف يوماً منذ أسابيع طويلة سلاماً داخلياً كهذا. اضطرب وجه كزافيير. أمسكت بيد فرنسواز وضغطت عليها.

ـ إسمعهم يصعدون.

ـ ستأتين لزيارتي كل يوم، قالت فرنسواز.

ـ آه بالتأكيد، كل يوم. إنحنت فوقها وقبّلتها. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع. ابتسمت لها فرنسواز. لا تزال تعرف كيف تبتسم، لكنها نسيت كيف تؤثر الدموع في النفس أو كيف تتأثر النفس بأقل الأمور شأناً. رأت بعين غير مبالية الممرّضين يدخلان، يحملانها ويمدّدانها على حمّالة. ابتسمت مرة أخيرة لكزافيير الواقفة مسمّرة جنب السرير الفارغ قبل أن ينغلق الباب على كزافيير، على الغرفة، على الماضي. لم تعد فرنسواز سوى كتلة متراخية بلا حراك. ليست حتى جسداً منتظماً: ينزلونها الأدراج، الرأس إلى الأمام، القدمان في الهواء، مجرّد حزمة ثقيلة يعالجها الحمّالان حسب قوانين الجاذبية وراحتهما الشخصية.

ـ إلى اللقاء، آنسة ميكال، نتمنى لك الشفاء سريعاً.

كانت صاحبة الفندق، الخادم وزوجته يقفون مصطفّين في الرواق.

ـ أراكم قريباً، قالت فرنسواز.

لفحت وجهها ريح باردة أيقظتها تماماً. كان جمع من

الأشخاص واقفاً متجمهراً أمام الباب. مريض ينقلونه في سيارة إسعاف. كانت فرنسواز رأت هذا المشهد مراراً في شوارع باريس.

ـ لكن المريض هذه المرة هو أنا، فكرت مندهشة. لم تكن تصدّق الأمر كلياً. المرض، الحوادث، كل هذه القصص التي تصدر بآلاف النسخ، لطالما ظنّت أنه لا يمكن أن تصبح قصّتها هي. ردّدت لنفسها الأمر ذاته عن الحرب. تلك المآسي البعيدة التي تحلّ بمجهولين لا يمكن أن تحدث لها. كيف يمكن لي أن أكون أيّاً كان؟ ورغم ذلك ها هي، ممدّدة في السيارة التي تنطلق مسرعة بلا ارتجاج. كان بيار جالساً إلى جانبها. مريضة. حصل ذلك رغم كل شيء. أتراها أصبحت أياً كان؟ ألهذا تجد نفسها خفيفة وكأنها تفلّتت من نفسها ومن كل موكبها المضني من الأفراح والهموم؟ أغمضت عينيها. كانت السيارة تجري غير محدثة أي ارتجاج والزمن ينزلق.

توقفت سيارة الإسعاف أمام حديقة فسيحة. لفّ بيار الغطاء بإحكام حول فرنسواز ونقلت عبر مسالك يخيّم عليها برد قارس، عبر ممرات مشمّعة الأرضية. مدّدوها في سرير كبير وشعرت بلذة ببرودة القماشة الجديدة تلامس وجنتها وجسدها. كل ما هنا نظيف جداً، مريح جداً. حضرت ممرّضة صغيرة القامة تميل بشرتها إلى الإخضرار. ربّتت على الوسادات وتحدّثت إلى بيار خافضة صوتها.

ـ سأتركك، قال بيار. الطبيب قادم لرؤيتك. أراك بعد قليل.

ـ أراك لاحقاً، أجابت فرنسواز.

تركته يخرج بلا أسف. لم تعد بحاجة إليه. لم تعد بحاجة سوى إلى الطبيب والممرّضة. إنها مريضة كغيرها من المرضى،

تحمل الرقم ٣١، مجرّد حالة عادية من الاحتقان الرئوي. الملاءات نظيفة باردة، الجدران بيضاء، وفي نفسها شعور عارم بالإرتياح. ليس عليها سوى أن تتراخى، تستسلم. الأمر غاية في البساطة. لماذا تردّدت إلى هذا الحد؟ والآن، عوضاً عن تلك الأحاديث والثرثرة اللامتناهية في الشارع، الوجوه، وجهها هي، يخيّم الصمت من حولها، فلا تعود ترغب بأي شيء آخر. في الخارج تقصّف غصن تحت وطأة الريح. في هذا الفراغ التام، كان أدنى صوت ينتشر، تحمله ذبذبات واسعة يكاد الواحد يسمعها ويلمسها. يتردّد إلى ما لا نهاية باعثاً آلاف الذبذبات التي تبقى معلّقة في الأثير، خارج الزمن، تأسر القلب أكثر مما كانت فعلت أي موسيقى. تحت الطاولة الصغيرة كانت الممرّضة وضعت إبريقاً من شراب الليمون الشفاف الورديّ. شعرت وكأنها لن تسأم أبداً من تأملها. إنها هنا. من المعجزة أن يكون شيء ما هنا، بلا جهد، تلك النداوة العذبة أو أي شيء آخر. إنها هنا بلا قلق أو مشاكل، ولا تسأم من وجودها. فلم تتوقف العينان عن تأملها بافتتان؟ أجل، هذا هو بالضبط ما لم تجرؤ فرنسواز على تمنّيه قبل ثلاثة أيام: ها هي مرتاحة، مغمورة، ترقد في جوف لحظات هادئة منغلقة على نفسها، مستديرة وملساء مثل حصى.

ـ هل يمكنك الارتفاع قليلاً في السرير؟ سأل الطبيب. ساعدها على تقويم جلستها. هذا جيد، لن يطول الأمر.

بدا ودوداً وحاذقاً، أخرج من حقيبته جهازاً وضعه فوق صدر فرنسواز.

ـ خذي نفساً عميقاً، قال.

تنفست فرنسواز. كان هذا مجهوداً كبيراً. فأنفاسها قصيرة

للغاية وما إن تحاول التنفس عميقاً حتى تشعر بألم حادّ يخترقها.

- عدّي، واحد، إثنان، ثلاثة.

كان الآن يفحص الظهر، يربّت على قفص الصدر مثل شرطي سينمائي يستكشف جداراً مشبوهاً. وكانت فرنسواز تنقاد بطاعة إلى أوامره فتعدّ، تسعل، تتنفّس.

- حسناً، إنتهيت، قال الطبيب، وضع الوسادة تحت رأس فرنسواز ونظر إليها برفق.

- إنها إصابة طفيفة في الرئة. سنجري لك على الفور حقناً لمساندة القلب.

- هل سيطول الأمر؟

- يتم الشفاء عادة خلال تسعة أيام، لكنك ستحتاجين إلى فترة نقاهة طويلة. هل سبق وعانيت مشاكل في الرئة؟

- لا. لماذا؟ أتظنّ أنّ رئتي مصابة؟

- لا يمكن أن نعرف، قال الطبيب بغموض. ربّت على يد فرنسواز. حين تتحسّن حالتك سنجري لك صوراً على الأشعة ونرى عندها ما يمكن أن نفعل بك.

- هل سترسلني إلى المصح؟

- ليس بالتأكيد، قال الطبيب وهو يبتسم. على كل حال، لن يكون الأمر فظيعاً إن اضطررت إلى لزوم الراحة لبضعة أشهر. المهم ألاّ تقلقي.

- لست قلقة.

الرئة مصابة. أشهر في المصح. ربما سنوات. كم أن هذا غريب. كل هذه الأمور قد تحصل إذاً. كم غدت بعيدة ليلة رأس السنة

تلك، حيث كانت تظنّ نفسها أسيرة حياة واضحة المعالم. لم يكن أي شيء تقرر بعد. المستقبل يمتدّ مترامياً في البعيد، مسطحاً وأبيض كالملاءات، كالجدارن، مسلكاً طويلاً ليّناً يستكين فوقه الثلج. كانت فرنسواز كأي شخص آخر، وبات أي شيء فجأة ممكناً.

فتحت فرنسواز عينيها. تحب لحظات الاستفاقة هذه التي لا تخطفها من راحتها بل تدعها تعي سكينتها بافتتان. لم تكن حتى بحاجة إلى تبديل وضعيتها، فهي جالسة. اعتادت النوم هكذا. لم يعد النوم بالنسبة لها استقالة لذيذة ومتوحدة من العالم بل نشاطاً كغيره من النشاطات تمارسه في الوضعية ذاتها التي تتخذها لممارسة سواه. تأملت متمهلة البرتقالات، الكتب التي كدّسها بيار على الطاولة الصغيرة قرب السرير. أمامها يمتد يوم هادىء سينقضي بطيئاً.

ـ سيجرون لي بعد قليل صوراً على الأشعة، فكرت. هذا هو الحدث الرئيسي الذي تنتظم حوله كل الأحداث الأخرى. شعرت أنها لا تكترث لنتائج الفحص. ما يهمها هو أن تتخطّى عتبة هذه الغرفة. حيث ظلّت أسيرة طوال ثلاثة أسابيع. بدا لها أنها شفيت تماماً اليوم. لا شك أنها ستتمكن بسهولة من الوقوف والسير أيضاً.

إنقضت ما قبل الظهيرة بسرعة. الممرّضة الهزيلة السمراء التي كانت تعتني بفرنسواز حدّثتها مطولاً عن مصير المرأة العصرية وعن مفاتن العلم. ثم زارها الطبيب. وصلت السيدة ميكال حوالي الساعة العاشرة، حاملة معها بيجامتين مكويتين حديثاً، رداءً من الأنغوار الورديّ، بعض الليمون الأفندي وزجاجة من العطر. راقبت الفطور وشكرت الممرّضة. بعد أن غادرت، مدّدت فرنسواز ساقيها

ومكثت مستلقية على ظهرها، جذعها شبه مستقيم، تاركة العالم ينساب نحو الليل. كان ينزلق ثم يعود إلى الضوء لينزلق من جديد مترنّحاً بعذوبة لا متناهية. توقف ترنّحه المتردّد فجأة. كانت كزافيير منحنية فوق السرير.

ـ هل أمضيت ليلة جيدة؟ سألت.

ـ أحظى دائماً بنوم هانىء بفضل تلك القطرات الصغيرة.

وقفت كزافيير ملقية رأسها إلى الخلف وعلى شفتيها ابتسامة مبهمة، وهي تحلّ الوشاح الذي يغطي شعرها. كانت حركاتها مبطّنة دائماً بشيء من الطقوسية والغموض حين تعتني بنفسها. إنزلق الوشاح وهبطت كزافيير أرضاً من جديد. أمسكت القارورة بحذر بين أصابعها.

ـ عليك ألاّ تعتادي هذا. لن تتمكني بعدها من الاستغناء عنه. سوف تشخص عيناك ويضيق أنفك وتصبحين مخيفة.

ـ وسوف تتآمرين مع لابروس لإخفاء جميع قاروراتي الصغيرة عني، قالت فرنسواز، لكنني سأكشف أمركما.

أصيبت بنوبة سعال. الكلام يتعبها.

ـ أما أنا، فلم أنم طوال الليل، قالت كزافيير متفاخرة.

ـ ستقولين كل ما حصل بشكل دقيق.

جملة كزافيير اخترقتها مثلما يخترق فولاذ طبيب الأسنان ضرساً ميتاً. لم تشعر سوى بالشكل الفارغ لقلق لم يعد. بيار يجهد نفسه كثيراً وكزافيير لن تحقق شيئاً أبداً. مازالت الأفكار هنا، غير أنها عزلاء فاقدة الإحساس.

ـ جلبت لك غرضاً، قالت كزافيير.

خلعت معطفها وأخرجت من أحد جيوبها علبة صغيرة من الكرتون مربوطة بشريط من الحرير الأخضر. حلّت فرنسواز الرّبطة، رفعت الغطاء. كانت العلبة محشوة بالقطن والورق الرقيق. تحت الورق وضعت باقة من زهور الثلج.

ـ كم هي جميلة، قالت فرنسواز، تبدو حيّة واصطناعية في آن.

نفخت كزافيير بخفّة على البتلات البيضاء.

ـ هي أيضاً أمضت الليل من غير أن ترتاح، لكنني في الصباح أخضعتها لحمية وأصبحت بحال جيدة.

نهضت وسكبت بعض الماء في كوب، ثم وضعت فيه الزهور. جسدها الغضّ بدا أكثر رشاقة بعد في تايورها المخملي الأسود. لم تعد تشبه فلاحة صغيرة. باتت فتاة مكتملة واثقة من فتنتها. جذبت كنبة قرب السرير.

ـ أمضينا حقاً ليلة رائعة، قالت.

كانت تلتقي بيار كل ليلة لدى خروجه من المسرح. لم يعد هناك ما يعكّر الأجواء بينهما. غير أن فرنسواز لم ترَ على وجهها من قبل ذلك التأثر الورع. كانت تمطّ شفتيها وكأنما لتهب شيئاً. ما كانت كزافيير تداعبه بشفتيها وعينيها خلف الورق الرقيق، تحت القطن، إنما كان ذكرى بيار التي خبأتها بعناية في علبة صغيرة محكمة.

ـ تعلمين أنني أرغب منذ وقت طويل في القيام بجولة كبيرة في مونمارتر، قالت كزافيير، ولم يكن هذا يحصل أبداً.

ابتسمت فرنسواز. كانت دائرة سحرية تحيط بحيّ مونبارناس، دائرة لم تكن كزافيير تتخذ مرة قراراً بخرقها. كان البرد والتعب

يسمّرانها على الفور، فتلتجىء هلعة في الدوم أو البول نور.

ـ حقّق لابروس مساء أمس إنجازاً، روت كزافيير. خطفني في سيارة أجرة وأنزلني في ساحة بيغال. لم نكن ندري بالضبط أين نود الذهاب، فرحنا نستكشف.

ابتسمت.

ـ لا بد أن ألسنة نار كانت تخيّم فوق رؤوسنا، لأننا بعد خمس دقائق، وجدنا أنفسنا أمام منزل صغير أحمر كلياً مكسو بعدد كبير من المربعات الزجاجية، وعلى نوافذه تنسدل ستائر حمراء. بدا حميمياً للغاية ومشبوهاً قليلاً. لم أجرؤ على الدخول، لكن لابروس دفع الباب بحماس. كان الجو حاراً كإذن ملتهبة ومكتظاً بالناس. عثرنا رغم ذلك على طاولة في إحدى الزوايا. كان يكسوها شرشف وردي وزّعت عليه محارم وردية رائعة بدت أشبه بمناديل حريرية لشبان غير رصينين. جلسنا هناك. توقفت كزافيير لبرهة. وتناولنا طبقين من الشوكروت.

ـ أكلتما الشوكروت؟

ـ نعم، حقاً. كانت كزافيير سعيدة للدهشة التي أحدثتها. ووجدتها شهية.

كانت فرنسواز تحدس نظرة كزافيير الجريئة الملتمعة.

ـ طبق من الشوكروت لي أيضاً.

إنما اقترحت بذلك على بيار اتحاداً صوفياً. كانا جالسين جنباً إلى جنب، على إنفراد قليلاً. يتأملان الناس من حولهما ثم ينظران إلى بعضهما بصداقة، بتواطؤ وسعادة. لم تجد فرنسواز في هذه الصور ما يبعث القلق، استحضرتها بطمأنينة. كل هذا يحدث

خلف الجدران العارية، خلف حديقة العيادة، في عالم وهمي مثل عالم السينما الأسود والأبيض.

ـ بدا الحاضرون هناك غريبين، قالت كزافيير مكشرة بفمها متصنّعة الحشمة. تجار مخدّرات بالتأكيد، مجرمون. صاحب المكان رجل أسمر طويل القامة شاحب الوجه، شفتاه ضخمتان متورّدتان، يشبه لصاً. ليس فظاً، بل يبدو لصّاً رقيقاً إلى حدّ القسوة.

أضافت وكأنما لنفسها.

ـ كم أودّ لو أجذب رجلاً كهذا.

ـ وماذا تفعلين به؟

ـ أعذّبه، قالت متلذّذة.

تأملتها فرنسواز بقليل من الإنزعاج. يصعب عليها أن تدنّس تلك العفّة الصغيرة والمترمّتة وتتصوّرها في شخص امرأة تنتابها رغبات امرأة. لكن كيف كانت تتصوّر نفسها هي؟ أي أحلام من اللذّة والإغراء تبعث تلك الإرتعاشة في أنفها وفمها؟ لأي ذات محجوبة عن أنظار الجميع كانت تبتسم بتواطؤ غامض؟ كانت كزافيير في هذه اللحظة تحسّ بجسدها، تحسّ بنفسها امرأة وخيّل لفرنسواز أن امرأة غريبة ساخرة خدعتها، متخفية خلف تلك الملامح الأليفة.

توارت التكشيرة وتابعت كزافيير بلهجة صبيانية.

ـ ثم يصطحبني إلى محششة للأفيون ويعرّفني إلى مجرمين.

ظلّت لبرهة حالمة.

ـ ربما لو تردّد الواحد إلى هذا المكان كل ليلة، انتهى به الأمر

إلى تبنّيه. بدأنا بإقامة علاقات تعارف: امرأتان جالستان إلى البار، ثملتان تماماً.

تابعت وكأنها تبوح بسرّ:

ـ لوطيتان.

ـ تعنين سحاقيتين؟

ـ ألا يعني هذا الشيء نفسه؟ سألت كزافيير رافعة حاجبيها.

ـ لا يقال لوطيّ إلاّ من رجل.

ـ كانتا زوجاً في مطلق الأحوال، أوضحت كزافيير باستياء طفيف. نضح وجهها انفعالاً. كانت إحداهما تبدو بشعرها القصير أشبه بشاب، شاب فاتن مواظب على الفسق. الأخرى كانت المرأة. إنها أكبر سناً بقليل، امرأة جميلة ترتدي فستاناً من الحرير الأسود وعلى صدرها وردة حمراء. وجدت الشاب الصغير فاتناً، فقال لي لابروس إن عليّ أن أحاول جذبه. رميته بنظرات قاتلة فجاءت إلى طاولتنا وعرضت عليّ أن أشرب من كأسها.

ـ كيف تلقين نظرات قاتلة؟

ـ هكذا، قالت كزافيير. رمقت إبريق شراب الليمون بنظرة ماكرة ومثيرة. اضطربت فرنسواز من جديد. لم يكن امتلاك كزافيير هذه المواهب ما يدهشها، بل أن تستمع بالأمر بهذا القدر من الرضى والتساهل.

ـ وبعدها؟ سألت فرنسواز.

ـ وبعدها، دعوناها للجلوس.

انفتح الباب من دون أن يحدث صوتاً. اقتربت الممرّضة الشابة المخضوضرة الوجه من السرير.

ـ حان وقت الحقنة، قالت باندفاع.

نهضت كزافيير.

ـ لا حاجة لأن تخرجي، قالت الممرّضة وهي تملأ إبرة بسائل أخضر سيستغرق الأمر لحظة.

نظرت كزافيير إلى فرنسواز بوجه تعس فيه قليل من اللوم.

ـ إنني لا أصرخ، تعرفين، قالت فرنسواز مبتسمة.

اقتربت كزافيير من النافذة وألصقت جبينها بالزجاج. أزاحت الممرّضة الغطاء، عرّت جزءاً من ساقها. كانت مبقّعة بالكدمات، ومن تحتها دمل صغيرة قاسية. غرزت الإبرة بضربة سريعة. كانت ماهرة ولم تؤلمها.

ـ انتهيت، قالت. نظرت إلى فرنسواز نظرة تأنيب. عليك ألا تتكلّمي كثيراً، سوف ترهقين نفسك.

ـ لا أتكلم، أجابت فرنسواز.

ابتسمت لها الممرّضة وخرجت من الغرفة.

يا لها من امرأة بغيضة! قالت كزافيير.

ـ إنها لطيفة. شعرت فرنسواز برأفة واهنة حيال تلك الفتاة الماهرة واللطيفة التي تحسن الاهتمام بها.

ـ كيف يمكن للواحدة أن تكون ممرّضة! تعجبت كزافيير. رمقت فرنسواز بنظرة خائفة مشمئزة.

ـ هل آلمتك؟

ـ لا، لم أشعر بشيء إطلاقاً.

إنتابت كزافيير ارتعاشة. في مقدور صور أن تجعلها حقاً ترتعش.

ـ إبرة تنغرز في لحمي، لن أتمكن من احتمال هذا.

ـ لو كنت تتعاطين المخدرات...

ألقت كزافيير رأسها إلى الخلف مطلقة ضحكة استهزاء ضئيلة.

ـ آه! سأقوم بهذا بنفسي. في وسعي أن أفعل أي شيء لنفسي.

لمست فرنسواز نبرة التعالي والحقد تلك.

لم تكن كزافيير تحكم على الناس حسب أعمالهم بقدر ما تحكم عليهم حسب الأوضاع التي يعيشونها، وإن رغماً عنهم. غضّت النظر الآن لأن المسألة تتعلّق بفرنسواز، غير أن الواحد يقترف خطأ جسيماً إذ يمرض، تذكرت الأمر فجأة.

ـ سوف ترغمين على احتماله رغم كل شيء، قالت فرنسواز. وأضافت بقليل من سوء النية: قد يحدث هذا كل يوم.

ـ أبداً، أفضل الموت على الذهاب إلى طبيب.

مبادؤها الأخلاقية تستبعد الخضوع لعلاج. فالإصرار على العيش إن كانت الحياة تغادرنا أمر خسيس. إنها تكره أي شكل من أشكال التشبّث والإصرار، ترى فيه انتقاصاً للحرية المطلقة والكبرياء.

ـ سوف تستسلم للعلاج كغيرها، فكرت فرنسواز بعصبية. لكن هذا عزاء هزيل. فكزافيير في الوقت الحاضر هنا أمامها، نضرة وحرة، في تايورها الأسود. كانت ترتدي قميصاً ذا مربعات وياقة صارمة، يبرز تألق وجهها المشعّ. كان شعرها يلتمع. أما فرنسواز، فممدّدة، مكبّلة، رهن إرادة الممرّضات والأطباء. ممدّدة، هزيلة، بشعة، عاجزة، بالكاد تقوى على الكلام. شعرت فجأة بالمرض في داخلها مثل دنس مخزٍ.

ـ لو تكملين لي قصّتك؟ قالت.

ـ ألن تعود وتزعجنا؟ سألت كزافيير مقطّبة، إنها لا تدق حتى على الباب.

ـ لا أظنها ستعود.

ـ حسناً! أشارت إلى صديقتها، روت كزافيير بجهد. جلستا إلى جانبنا. إجترعت الشابة كأسها دفعة واحدة وانهارت على الفور فوق الطاولة، ملقية ذراعيها إلى الأمام ومتكئة وجنتها على مرفقها مثل ولد صغير. أخذت تضحك وتبكي في آن، مشعثة الشعر. كانت قطرات العرق تنضح من جبينها، لكنها بقيت نظيفة نقيّة.

صمتت كزافيير. كانت تستعيد المشهد في ذهنها.

ـ كم ينتابني إحساس قوي حين ألتقي شخصاً ذهب في شيء ما إلى النهاية. إلى النهاية حقا. ظلّت نظرتها تائهة في الفراغ لبرهة، ثم انتفضت متمالكة: راحت الأخرى تهزّها. كانت تريد اصطحابها بأيّ ثمن. بدت مثل عاهرة ينتابها إحساس بالأمومة، تعرفين، أولئك العاهرات اللواتي لا يدعن أحداً يمسّ رجلهنّ الصغير بدافع المصلحة، غريزة الملكية وشعور يشبه الشفقة القذرة.

ـ فهمت قالت فرنسواز.

يخال الواحد أن كزافيير أمضت سنوات من حياتها بين العاهرات.

ـ ألم يدقّ أحد الباب؟ سألت مرهفة السمع. قولي لهم أن يدخلوا أرجوك.

ـ أدخل، قالت كزافيير بصوت عذب، عبرت عينيها ومضة سخط. فتح الباب.

ـ مرحباً، قال جيربير. مدّ يده مرتبكاً إلى كزافيير.

ـ مرحباً، ردّد. اقترب من السرير.

ـ إنني مسرورة جداً بمجيئك، قالت فرنسواز.

ـ الواقع أن فكرة زيارته لم تعبر رأسها، غير أنها فوجئت وسرّت برؤيته. بدا وكأن ريحاً حادة ولجت الغرفة، طاردة رائحة المرض ودفءِ الجوّ الباهت.

ـ تبدين عجيبة، قال جيربير وهو يضحك متعاطفاً، تشبهين رئيس قبيلة من الهنود الحمر. هل تحسنت حالتك؟

ـ شفيت. هذه الأمور تتقرّر في تسعة أيام: إمّا أن يموت الواحد أو أن تهبط الحرارة. أجلس.

نزع جيربير شاله، شال من الصوف الغليظ ناصع البياض. جلس على «بوف» في وسط الغرفة مقلباً النظر بين فرنسواز وكزافيير وكأنه وقع في شرك.

ـ لم أعد محمومة، لكن ساقاي لا تحملانني حتى الآن. سيجرون لي بعد قليل صوراً على الأشعة. أعتقد أن الخروج من سريري سيبعث فيّ شعوراً غريباً. سوف يفحصون الرئة ليروا الوضع الذي وصلت إليه بالضبط. قال لي الطبيب إنني حين وصلت إلى هنا، كانت رئتي اليمين كقطعة كبد والأخرى تتحوّل ببطء إلى كبد بدورها.

أخذت تسعل سعالاً طفيفاً.

ـ آمل أن تكون رئتاي استعادتا قواماً مناسباً. هل يمكنك تصوّر الأمر، لو اضطررت إلى تمضية سنوات في المصحّ؟

ـ لن يكون هذا ممتعاً، أجاب جيربير. قلّب النظر في الغرفة بحثاً عن الوحي. لديك أزهار كثيرة! وكأننا في غرفة عروس!

ـ السلّة من طلاب المدرسة، قالت فرنسواز إناء الأزالية من تيديسكو ورامبلان. بول بيرجي أرسلت شقائق النعمان.

أصابتها نوبة سعال جديدة هزّتها.

ـ أترين؟ أنك تسعلين، قالت كزافيير بحنوّ حادّ بعض الشيء. الممرضة منعتك عن الكلام.

ـ أنت ممرّضة متعقّلة، قالت فرنسواز، سألزم الصمت.

خيم صمت قصير.

ـ وماذا حلّ بهاتين المرأتين؟ سألت.

ـ غادرتا، هذا كل شيء، قالت كزافيير. بازدراء.

ردّ جيربير بتصميم بطوليّ الخصلة المنسدلة على وجهه إلى الوراء.

ـ أتمنى أن تشفي في الوقت المناسب لتحضري عرض الدمى المتحركة الذي أعدّه، قال. تعرفين، تسير الأمور بشكل جيد. سيكون العرض جاهزاً بعد خمسة عشر يوماً.

ـ لكنك ستعدّ عروضاً أخرى خلال السنة، أليس كذلك؟ سألت فرنسواز.

ـ بلى، وخصوصاً وأننا حصلنا على الصالة الآن. فريق «إيماج» طيّب جداً. لا أحبّ ما يقومون به، لكنهم متساهلون جداً.

ـ هل أنك مسرور؟

ـ إنني مبتهج تماماً.

ـ أخبرتني كزافيير أن دماك جميلة للغاية.

ـ كم أنني أحمق. كان يجدر بي أن أجلب لك واحدة منها. لديهم هناك دمى بخيوط، لكن دمانا نحن كما في مسرح غينيول، نحرّكها باليد، هذا أكثر طرافة. إنها من القماش المشمّع، ترتدي تنانير طويلة فضفاضة تخفي الذراع بكامله. نضعها مثل قفازات.

ـ صنعتها بنفسك؟ سألت فرنسواز.

ـ أنا ومولييه، لكن الأفكار كلها مني، تعالى جيربير بلا تواضع. كان مأخوذاً بموضوعه، حتى أنه نسي خجله.

ـ ليس من السهل تحريكها، تعرفين، لأن الحركات يجب أن تتسم بالإيقاع وتكون معبّرة. لكنني بدأت أجيد ذلك. لا يمكن أن تتخيّلي كل صعوبات الإخراج الصغيرة التي تثيرها. تصوّري الأمر. رفع يديه في الهواء. لديك دمية في كل يد. إن أردت إرسال أحدهما إلى طرف المسرح المواجه، عليك أن تجدي حجّة تمكّن الدمية الثانية أيضاً من التحرّك. يتطلّب هذا مخيلة واسعة.

ـ أودّ حضور تمرين، قالت فرنسواز.

ـ نعمل حالياً يومياً من الخامسة إلى الثامنة. نعدّ مسرحية بخمس شخصيات وثلاثة اسكتشات. مضى زمن والفكرة تدور في رأسي!

التفت إلى كزافيير.

ـ كنا نعتمد قليلاً على حضورك أمس، ألا يهمّك الدور؟

ـ كيف؟ أجده طريفاً جداً، قالت كزافيير وكأنه أهانها.

ـ إذاً، تعالي معي بعد قليل. بالأمس قرأت شانو الدور، لكن الأمر كان فظيعاً، تتكلم وكأنها على خشبة مسرح. من الصعب

للغاية إيجاد اللهجة المناسبة، قال لفرنسواز، يجب أن يبدو الصوت وكأنه يخرج من الدّمى.

ـ لكنني أخشى ألاّ أحسن العمل، قالت كزافيير.

ـ لا، ستجيدين الدور بالتأكيد. الجمل الأربع التي تلوتها منذ بضعة أيام، قلتها كما ينبغي بالضبط.

إبتسم جيربير إبتسامة متملّقة.

ـ وتعلمين، نقسم الأرباح بين الممثلين. إن حالفك الحظ، سوف تتقاضين أجراً ضئيلاً قدره خمسة أو ستة فرنكات.

إستلقت فرنسواز على الوسادات. كانت مسرورة لرؤيتهما يتحدثان إلى بعضهما. فهي بدأت تشعر بالتعب. أرادت أن تمدّد ساقيها، إلاّ أن أدنى حركة كانت تتطلّب استراتيجية كاملة. كانت جالسة على دائرة من المطّاط مكسوّة بالبودرة. وضع كذلك مطاطاً تحت عقبيها في حين كانت دائرة من الخيزران ترفع الغطاء فوق ركبتيها، وإلا لكان الإحتكاك ألهب جلدها. تمكنت من التمدّد. بعد رحيلهما، إن لم يأت بيار، سوف تنام قليلاً. كانت تائهة، رأسها فارغ. سمعت كزافيير تقول:

ـ تحوّلت المرأة البدينة فجأة إلى منطاد، ارتفعت تنورتها لتشكّل سلّة المنطاد وطارت في الجوّ.

كانت تتكلّم عن دمى متحرّكة شاهدتها في عيد روان.

ـ أنا شاهدت في باليرمو «رولان الثائر»، قالت فرنسواز.

لم تكمل، لم تكن ترغب في إخبارهما. كان ذلك في زقاق ضيق، قرب بائع عنب. اشترى لها بيار عنقوداً دبقاً من العنب المسكيّ. كان المقعد بخمسة فلوس ولم يكن هناك سوى أطفال

في الصالة. المقاعد تتسع لمؤخراتهم الصغيرة تماماً. كان رجل يعبر خلال الاستراحة حاملاً طبقاً صفّ عليه أكواباً من المياه الباردة يبيعها بفلس واحد، ثم يجلس على مقعد قرب الخشبة. كان يمسك بيده عصا طويلة يضرب بها الأولاد الذين يحدثون ضجيجاً خلال العرض. على الجدران عرضت صور تشبه رسوم إيبينال، تروي قصة رولان. الدمى كانت رائعة، متصلّبة تماماً في ملابسها المدرّعة الخاصة بالفرسان. أغمضت فرنسواز عينيها. كان هذا قبل سنتين فقط، لكنه بدا لها وكأنه يعود إلى ما قبل التاريخ. كل شيء بات الآن معقّداً للغاية. المشاعر، الحياة، أوروبا. أما هي، فكان الأمر سيان بالنسبة لها. فهي تطفو مستسلمة مثل حطام سفينة، بينما تملأ صخور سوداء الأفق. تطفو على صفحة محيط رمادي، تغمرها مياه زفتية وكبريتية، وهي ممدّدة فوقها بلا حراك، لا خاطر يعبر رأسها، لا خوف ولا رغبة. فتحت عينيها من جديد.

الحديث انقطع. كزافيير تتأمل قدميها وجيربير يستشير بقلق إناء الأزلية.

ـ على أي مسرحية تعملين حالياً؟ قال أخيراً.

ـ «الفرصة» لميريميه.

لم تكن صممت بعد على أداء مشهدها مع بيار.

ـ وأنت؟

ـ أوكتاف في «نزوات ماريان»، لكنني أقوم بالدور فقط لأداء المشهد مع كانزيتي.

خيّم صمت جديد. ظهرت على وجه كزافيير تكشيرة حاقدة.

ـ هل أن كانزيتي جيدة في دور ماريان؟

ـ لا أظن الأمر طريفاً بالنسبة لها، قال جيربير.

ـ إنها سوقية.

صمتنا مرتبكين.

نفض جيربير رأسه لردّ شعره إلى الخلف.

ـ أتعرفين، قد أقدّم عرضاً للدمى المتحركة عند دومينيك أوريول. سيكون رائعاً لأن مسرحه يحظى بانطلاقة جيدة.

ـ أخبرتني ذلك اليزابيت، قالت فرنسواز.

ـ هي التي عرّفتني عليهم. هي التي تقرّر كل شيء هناك.

وضع يده على فمه، مسروراً ومستنكراً.

ـ غير معقول، كم أصبحت شخصاً مهماً الآن!

ـ باتت ثريه. تنعم ببعض الشهرة وهذا يبدّل حياتها، أجابت فرنسواز. أصبحت أنيقة للغاية.

ـ لا يعجبني ذوقها في الملبس، قال جيربير بانحياز متعمّد.

خطر لها أن الأيام هناك، في باريس، تمرّ ولا تتشابه. بدا لها هذا الخاطر غريباً. ثمة أمور تحدث. الأوضاع تتحرّك، تتغيّر. غير أن تلك التموّرات النائية، تلك الإختلاجات الغامضة، لا تترك في نفس فرنسواز أي رغبة.

ـ عليّ أن أكون في شارع جول شابلان في الساعة الخامسة، أعلن جيربير. ينبغي أن أذهب.

نظر إلى كزافيير.

ـ إذاً تأتين معي؟ وإلاّ لن تتخلّى شانو عن الدور.

ـ سأرافقك، أجابت كزافيير. إرتدت معطفها وعقدت شالها بعناية تحت ذقنها.

ـ هل ستمكثين هنا لوقت طويل بعد؟ سأل جيربير.

ـ آمل أن أبقى أسبوعاً فقط. وأعود بعدها إلى غرفتي.

ـ إلى اللقاء، أراك غداً، قالت كزافيير بفتور.

ـ أراك غداً، أجابت فرنسواز.

ابتسمت لجيربير الذي أومأ لها بيده. فتح الباب وتراجع بقلق مفسحاً لكزافيير. لا شكّ أنه يتساءل ماذا عساه يحدّثها. استلقت فرنسواز إلى الخلف على الوسادات. فكرت بسرور بمودّة جيربير لها. لا يمكن بالطبع مقارنتها بمودته للابروس، لكنها كانت عاطفة شخصية تتوجه إليها هي. وهي كانت تبادله المودّة. لا يمكن تصوّر علاقة أكثر وداً من تلك الصداقة المجرّدة من المطالب والمتواصلة بلا انقطاع. أغمضت عينيها. شعرت بالارتياح. سنوات في المصحّ... حتى هذه الفكرة لم تكن توقظ فيها أي سخط. سوف تعرف بعد دقائق. شعرت بالاستعداد لتلقّي أي حكم.

فتح الباب بنعومة.

ـ كيف حالك؟ سأل بيار.

اندفعت دماء فرنسواز إلى وجهها. الشعور الذي يبعثه فيها حضور بيار يفوق اللذّة. أمامه وحده تتبدّد لامبالاتهم الهادئة.

ـ في تحسّن متواصل، أجابت مستبقية يد بيار في يدها.

ـ سيجرون لك صور الأشعة بعد قليل؟

ـ أجل. لكن أتعلم، يظن الطبيب أن الرئة شفيت بشكل جيد.

ـ المهم ألا يتعبوك كثيراً.

ـ أشعر بالنشاط اليوم.

امتلأ قلبها بالحنان. كم ظلمته حين شبّهت حبّه بقبر قديم أبيض! هذا المرض جعلها تلمس بيدها فيضه الحي. لم يكن حضوره الدائم، اتصالاته الهاتفية وعنايته بها هي التي أثّرت في نفسها، بل وجدت عذوبة لا يمكن أن تنساها في القلق الشغف الذي لمسته فيه. قلق يتخطّى حنانه الطوعي، يغمره من غير أن يختاره. الوجه الذي كان يلتفت إليها في هذه اللحظة كان وجهها خارجاً عن سيطرته. كان مضطرباً من شدة القلق، رغم أنهم أكدوا له مراراً وتكراراً أنّ الأمر مجرّد إجراء شكلي. وضع كدسة من الكتب فوق السرير.

ـ انظري ماذا اخترت لك. هل تعجبك؟

نظرت فرنسواز إلى العناوين: روايتان بوليسيتان، رواية أميركية وبعض المجلات.

ـ إنها تعجبني. كم أنت لطيف!

خلع بيار معطفه.

ـ إلتقيت جيربير وكزافيير في الحديقة.

ـ اصطحبها إلى تمرين مسرحية للدمى المتحركة. من الطريف أن تراهما معاً. ينتقلان من الإسراف المهتاج في الكلام إلى الصمت الواجم.

ـ أجل، إنهما مضحكان.

قام بخطوة نحو الباب.

ـ كأن أحدهم قادم.

ـ الساعة الرابعة، حان الموعد، قالت فرنسواز.

دخلت الممرّضة متقدّمة بأهمية حمّالين ينقلان كرسياً واسعاً.

ـ كيف وجدت مريضتنا؟ سألت. آمل أنها ستتحمل بتعقّل رحلتها الصغيرة.

ـ تبدو جيدة.

ـ أشعر أنني جيدة.

مغامرة حقيقية أن تجتاز عتبة هذه الغرفة بعد أيام الاحتجاز الطويلة تلك. رفعوها، لفلفوها بالأغطية ووضعوها على الكرسي. أمر غريب أن تجد نفسها جالسة، لم يكن الأمر يشبه الجلوس في السرير. يبعث دواراً طفيفاً.

ـ كيف تشعرين؟ سألت الممرّضة وهي تدير قبضة الباب.

ـ بحال جيدة.

نظرت بدهشة يشوبها بعض السخط إلى ذلك الباب المنفتح على الخارج. ينفتح عادة لإدخال أشخاص، غير أنه بدّل فجأة وجهة عبوره ليتحوّل إلى مخرج. الغرفة أيضاً بدت مذهلة بسريرها الفارغ، لم تعد قلب العيادة ذاك إلى حيث تفضي الممرّات والأدراج. الممرّ ذو البلاط المشمّع الذي يخفت الأصوات أصبح الشريان الحيوي المفتوح على مجموعة غامضة من الحجر الضيّقة.

خيّل لفرنسواز أنها عبرت إلى الجانب الآخر للعالم. بدا الأمر غريباً كالولوج عبر مرآة.

وضع الكرسي في غرفة مكسوة أرضيتها بالبلاط ومليئة بالآلات المعقدة. كان الحرّ فيها فظيعاً. أغمضت فرنسواز عينيها قليلاً، تلك الرحلة إلى ما وراء غرفتها كانت تنهكها.

ـ هل يمكنك الوقوف لدقيقتين؟ سأل الطبيب الذي دخل للتوّ.

ـ سأحاول، أجابت فرنسواز. لم تعد واثقة تماماً من قواها.

أمسكتها ذراعان قويتان أوقفتاها وقادتاها بين الآلات. كانت الأرض تهرب من تحت رجليها، تدور في دوّامة. شعرت بالغثيان. لم تتصوّر يوماً أن المشي قد يتطلّب كل هذا المجهود. كان جبينها يتصبّب عرقاً.

ـ ابقي بلا حراك، قال صوت.

ألصقت بجهاز فجاءت لوحة خشبية صغيرة والتصقت على صدرها. شعرت بأنها تفقد أنفاسها. لن تتمكن من المكوث دقيقتين من دون أن تختنق. هبط الليل فجأة وخيّم الصمت. لم تعد تسمع سوى صفير تنفسها اللاهث المتقطّع، ثم سمعت صوتاً جافاً وغاب كل ما من حولها. حين استعادت وعيها، كانت مستلقية من جديد في كرسيها، الطبيب ينحني برفق فوقها والممرّضة تمسح جبينها المتصبّب عرقاً.

ـ إنتهيت، قال. رئتاك ممتازتان، يمكنك أن تنامي بسلام.

ـ هل تشعرين بأنك أفضل حالاً؟ سألت الممرّضة.

أشارت فرنسواز برأسها بوهن. كانت خائرة القوى. بدا لها وكأنها لن تستعيد أبداً قواها وستظل ممدّدة طوال حياتها. إتكأت متراخية إلى ظهر الكرسي ونقلوها عابرين بها الممرّات. شعرت برأسها فارغاً وثقيلاً. شاهدت بيار يذرع الممرّ أمام باب الغرفة. بادر مندفعاً نحوها.

ـ إنني جيدة، همست.

تقدّم نحوها.

ـ لحظة أرجوك، قالت الممرّضة.

التفتت فرنسواز إليه. رأته واقفاً بصلابة على رجليه فاجتاحها اليأس. كم أنها عاجزة ومعاقة! مجرّد رزمة بلا حراك ينقلونها بقوة الأذرع.

ـ الآن ستستريحين كما ينبغي، قالت الممرّضة. أخذت ترتّب الوسادات، تشدّ الملاءات.

ـ شكراً جزيلاً، قالت فرنسواز وهي تتمدّد بلذة. أرجوك أن تبلغيه في الخارج أن في وسعه الدخول.

خرجت الممرّضة من الغرفة. دارت خلف الباب. مشاورات قصيرة بصوت خافت ثم دخل بيار. تبعته فرنسواز بنظرها بحسد. كان يبدو له طبيعياً أن يتنقّل في أرجاء الغرفة.

ـ كم أنني مسرور، قال. يبدو أنك تعافيت تماماً.

انحنى فوقها وقبّلها. شعّت ابتسامته فرحاً بعث الدفء في قلب فرنسواز. لم يكن يتصنّع الفرح ليهديه إليها بل يعيشه من أجل نفسه بمجانية تامة. عاد حبّه لها جلياً واضحاً.

ـ كم بدوت جزعة في الكرسي ذي الحمالات، قال بحنان.

ـ كدت أصاب بنوبة.

أخرج بيار سيجارة من جيبه.

ـ يمكنك أن تدخّن غليونك، أتعرف؟

ـ لا، أبداً. رمق السيجارة برغبة. حتى هذه لا يجدر بي تدخينها.

ـ لا عليك، رئتي عادت سليمة، قالت فرنسواز بفرح.

أشعل بيار السيجارة.

ـ والآن، سنعيدك قريباً إلى غرفتك. سترين كم أن نقاهتك

ستكون ممتعة. سأحضر لك فونوغراف وأسطوانات، ستتلقين زيارات وتنعمين بالراحة.

ـ غداً أسأل الطبيب متى يسمح لي بالرحيل. تنهّدت. لكن يبدو أنني لن أتمكن بعد الآن من المشي.

ـ آه! ستعاودين المشي بسرعة. سيجلسونك على كرسيك قليلاً كل يوم، ثم يجعلونك تقفين لبضع لحظات وفي النهاية ستقومين بنزهات حقيقية.

ابتسمت له فرنسواز بثقة.

ـ يبدو أنك أمضيت سهرة عارمة أمس مع كزافيير.

ـ اكتشفنا مكاناً طريفاً جداً.

إغتمّ بيار فجأة. خيّل لفرنسواز أنها ألقت به دفعة واحدة في عالم من الخواطر المزعجة.

ـ حدّثني عنه بعينين جاحظتين، قالت خائبة.

رفع بيار كتفيه.

ـ ماذا؟ سألت فرنسواز. بماذا تفكّر؟

ـ آه! الأهم بلا أهمية، أجاب بيار بابتسامة متحفّظة.

ـ كم أنت غريب الأطوار! كل شيء يهمّني، إحتجّت فرنسواز بشيء من القلق.

تردّد بيار.

ـ إذاً؟ نظرت إليه. أرجوك، قل لي ما الذي يدور في رأسك.

ظلّ بيار متردّداً لبرهة، ثم بدا وكأنه اتخذ قراره.

ـ أتساءل إن لم تكن مغرمة بجيربير.

تفرّست فرنسواز في وجهه مذهولة.

ـ ماذا تعني؟

ما أقوله بالضبط. إن شيئاً كهذا سيكون طبيعياً تماماً. جيربير جميل وظريف. يمتلك تلك الفتنة التي تسحر كزافيير. نظر تائهاً من النافذة. حتى أنّ الأمر أكثر من احتمال.

ـ لكن كزافيير مهتمّة بك كثيراً. بدت تحت وطأة الليلة التي أمضتها أمس.

إستدقّت شفة بيار إلى الأمام واستعادت فرنسواز باضطراب ذلك الوجه القاسي المتحذلق قليلاً الذي لم تشاهده منذ زمن طويل.

ـ بالطبع، قال متعجرفاً، يمكنني أن أجعل أحداً ما يمضي وقتاً ممتعاً إن كلّفت نفسي هذا العناء. لكن ماذا يثبت ذلك؟

ـ لا أفهم لماذا تساورك هذه الأفكار.

بدا بيار وكأنه بالكاد سمعها.

ـ إننا نتكلم عن كزافيير وليس عن فتاة مثل اليزابيت. من الأكيد أنني أمارس عليها جاذباً ذهنياً ما، لكنها لا تخطىء. لا يمكن أن تلتبس عليها الأمور.

أحسّت فرنسواز بصدمة ضئيلة بعثت فيها بعض الكدر. فهي أحبّت بيار في الماضي بعد أن فتنها جذبه الذهني.

ـ إنها فتاة شهوانية، وشهوانيتها ليست زائفة. يعجبها حديثي، لكنها ترغب في قبلات شاب وسيم.

اشتدّ ضيق فرنسواز. فهي تحب قبلات بيار. هل أنه يواجهها بالإزدراء من أجل ذلك؟ لكنها ليست هي المعنية بالمسألة.

ـ أنا واثقة من أن جيربير لا يغازلها. فهو أولاً يعرف جيداً أنك مهتمّ بها.

ـ لا يعرف شيئاً على الإطلاق. لا يعرف أبداً أكثر مما يقال له. ثم ليست هذه المسألة.

ـ لكن هل لاحظت أي شيء بينهما؟

ـ حين شاهدتهما في الحديقة، صعقتني الفكرة بوضوح، قال بيار وهو يقضم أحد أظافره. ألم تلاحظي مرة كيف تنظر إليه حين تظن أن أحداً لا يراقبها؟ وكأنها تريد أن تلتهمه.

تذكرت فرنسواز نظرة نهمة فاجأتها على وجه كزافيير ليلة رأس السنة.

ـ أجل، أجابت، لكنها كانت كذلك مفتونة كلياً أمام بول بيرجي. تلك لحظات شغف ولا تشكل شعوراً حقيقياً.

ـ ألا تذكرين أيضاً كيف غضبت حين أخذنا مرة نمرح بشأن العمة كريستين وجيربير؟ سوف يلتهم أصبعه حتى العظام إن استمرّ هكذا.

ـ كان هذا يوم التقته. لا يمكنك الإدعاء بأنها كانت تحبّه.

ـ ولِمَ لا؟ أعجبها على الفور.

فكّرت فرنسواز قليلاً. في تلك الليلة تركت كزافيير وحيدة مع جيربير وحين عادت إليها أبدت كزافيير سخطاً غريباً. تساءلت فرنسواز حينها إن كان تصرف معها بشكل غير لائق، لكنها ربما غضبت منه على العكس لأنه أعجبها كثيراً. وبعد بضعة أيام حصلت الحادثة الموحشة حين أفشت كزافيير بسرّ سهرتهم...

ـ ماذا تعتقدين؟ سأل بيار بعصبية؟

ـ كنت أحاول أن أتذكر.

ـ أترين؟ إنك مترددة، قال بإلحاح. آه! ثمة دلائل كثيرة. ما الذي كان يدور في رأسها حين أخبرتها إننا خرجنا من دونه؟

ـ كنت تظنّ أنها بداية إعجاب بك؟

ـ ثمة قدر من الصحة في ذلك. فهي أخذت تهتمّ بي عندها. لكن لا شكّ أن المسألة كانت أكثر تعقيداً بعد. ربما أسفت حقاً لأنها لم تمض السهرة معه. ربما رغبت بالتواطؤ معه ضدّنا ولو للحظة. أو ربما أرادت أيضاً الانتقام منه للرغبات التي كان يثيرها في داخلها.

ـ على كل حال، لا أجد في كل هذا دلائل تشير إلى أي إتجاه. المسألة ملتبسة جداً.

قوّمت جلستها قليلاً على الوسادات. ذلك النقاش كان يتعبها وبدأت قطرات العرق ترشح في أسفل ظهرها وعلى راحتيها. وهي التي ظنت أنها انتهت من كل هذه التفسيرات والتحليلات حيث يمكن لبيار أن يدور ويراوح مكانه خلال ساعات طويلة... كانت تودّ أن تبقى هادئة غير آبهة لكلّ هذا، غير أن اضطراب بيار المحموم كان ينفذ إليها.

ـ لم تعطن هذا الانطباع منذ قليل، أضافت.

إستدقّت شفة بيار من جديد. لاح على وجهه تعبير غريب، وكأنه يهنيء نفسه لاحتفاظه بالخاطر الخبيث الذي كان يفصح عنه.

ـ لا ترين إلاّ ما تودين رؤيته.

احمرّ وجه فرنسواز.

ـ مضت ثلاثة أسابيع وأنا بعيدة عن العالم.

ـ لكن إشارات كثيرة كانت ظهرت قبل ذلك.

ـ أي إشارات؟

ـ كل ما تكلمّنا عنه، قال بيار بشكل مبهم.

ـ هذا لا وزن له.

بدا بيار مستاءً.

ـ أكرر لك أنني أعرف ما يجري.

ـ إذاً لا تسألني. إرتجف صوتها قليلاً. أمام قسوة بيار هذه غير المتوقعة شعرت بنفسها بائسة، خائرة القوى.

ـ إنني أتعبك بقصصي، قال في غمرة من الحنان.

ـ كيف يمكن أن يخطر لك هذا؟ بدا ممزّقاً، حتى أنها ودّت لا تستطيع أن تساعده. أؤكد لك بصدق أن إثباتاتك تبدو لي هشّة.

ـ رقصت مرة معه عند دومينيك، ليلة الافتتاح. حين عانقها جيربير، ارتعشت كزافيير من رأسها إلى قدميها وارتسمت على شفتيها ابتسامة لذّة لا يمكن أن تخدع.

ـ لِمَ لم تقل هذا من قبل؟

هزّ بيار كتفيه.

ـ لا أعرف.

أطرق لبرهة.

ـ بلى، أعرف، كان الأكثر إزعاجاً بين ذكرياتي والأشد وقعاً في نفسي. كنت أخشى أن أبوح لك بالأمر فتوافقيني الرأي بأنه واضح جليّ، ممّا سيجعله نهائياً.

إبتسم.

- ما كنت أظنّ أن المسألة ستصل بي إلى هذ االحدّ.

تذكرت فرنسواز وجه كزافيير وهي تتكلّم عن بيار. شفتاها المداعبات، نظرتها الرقيقة.

- لا أظن أن دليلك واضح كما تقول.

- سأتحدث إليها الليلة.

- سوف تغضب بشكل فظيع.

ابتسم بيار ابتسامة ساخرة بعض الشيء.

- لا، فهي تحب كثيراً أن أحدّثها عن نفسها، تظن أنني أحسن تقدير رهافة إحساسها. حتى أن هذه ميزتي الأولى في نظرها.

- إنها تحبك كثيراً. أعتقد أن جيربير يفتنها لوهلة، لكن الأمر لا يتخطّى هذا القدر.

انفرجت أسارير بيار قليلاً، لكنه ظلّ متوتراً.

- هل أنك واثقة ممّا تقولينه؟

- واثقة، لا يمكن أبداً أن يكون الواحد واثقاً.

- أترين، لست واثقة. كان يرمقها بنظرة شبه متوعدة. إنه بحاجة لسماع كلمات مطمئنة منها ليشعر بالهدوء ينزل عليه كالسحر. تشنّجت فرنسواز، لم تكن تريد أن تعامل بيار وكأنه طفل.

- لست نبيّة، قالت.

- بكم تقدرين احتمال أن تكون مغرمة بجيربير؟

- لا يمكن تقدير هذا حسابياً، أجابت فرنسواز وقد بدأت تفقد

صبرها. كان يؤلمها أن يتصرّف بيار بهذه الطريقة الصبيانية السخيفة، ولم تشأ التواطؤ معه.

ـ يمكنك إعطائي رقماً.

لا شك أن الحمّى اشتدت عليها كثيراً بعد الظهر. خيّل لفرنسواز أن جسدها سيذوب عرقاً.

ـ لست أدري. عشرة بالمئة، قالت عشوائياً.

ـ ألا تقدّرين الاحتمال بأكثر من ذلك؟

ـ اسمع، كيف تريدينني أن أعرف؟

ـ لا تبدين إرادة طيّبة، قال بيار بلهجة قاطعة.

أحسّت فرنسواز بكرة تتشكّل في حلقها. كانت ترغب في البكاء. من السهل أن تقول له ما يودّ سماعه، أن تستسلم. غير أنها شعرت من جديد بمقاومة متشبّثة، ومن جديد أصبح للأمور معنى وثمن وبدت جديرة بأن تقاوم من أجلها. إلا أنها لم تكن على مستوى المعركة.

ـ هذه حماقة، قال بيار. أنت محقّة، لماذا أقلقك بكل هذا؟

انفرج وجهه.

ـ لاحظي أنني لا أريد من كزافيير أكثر مما حصلت عليه، لكنني لن أحتمل إمكانية أن يحظى شخص آخر بالمزيد.

ـ أفهمك جيداً.

ابتسمت، غير أنها لم تشعر بالسلام يحلّ عليها. حطّم بيار وحدتها وراحتها، بدأت تبصر عالماً مفعماً بالثراء والعقبات، عالماً تودّ الانضمام إليه فيه لتشاطره الرغبات والمخاوف.

ـ سأكلّمها هذا المساء، تابع. غداً أخبرك كل شيء، لكنني لن أعود أقلقك بعدها، أعدك بذلك.

ـ لم تقلقني. أنا التي أرغمتك على الكلام، ليس هذا ما كنت تريده.

ـ كانت هذه نقطة حساسة جداً، قال مبتسماً. كنت واثقاً من أنني لن أتمكن من مناقشتها برباطة جأش. لم تكن تنقصني الرغبة في محادثتك بالأمر، لكنني حين كنت أصل وأرى وجهك المسكين الهزيل، كان كل ما تبقى يبدو لي بلا معنى.

ـ لم أعد مريضة. يجدر بك أن تتوقف عن مراعاتي.

ـ ترين أنني لا أراعيك البتة. إبتسم. حتى أنني أشعر بالخجل، لا نتكلم سوى عنّي.

ـ حقاً، لا يمكن القول إنك إنطوائي! أنت صادق إلى حدّ مدهش. قد تكون سفسطائياً عظيماً في المناقشات، غير أنك لا تخدع نفسك أبداً.

ـ لا فضل لي في ذلك. تعرفين جيداً أنني لا أشعر مرة أنني متورط في ما يحصل في داخلي.

رفع عينيه إلى فرنسواز.

ـ قلت لي اليوم الماضي أمراً صعقني: قلت إنني أضع مشاعري خارج الزمن، خارج المساحة، وأتغاضى عن عينيها حتى أحافظ عليها. كان في هذا الكلام بعض الظلم. لكنني أشعر أن ما أفعله بنفسي يشبه ذلك. أعتبر دائماً أنني في مكان آخر وأن كل لحظة خاصة إنما هي بلا أهمية.

ـ هذا صحيح، تظن نفسك على الدوام مترفعاً على ما يحدث لك.

ـ وهكذا أسمح لنفسي بأي شيء. ألجأ إلى فكرة أنني الرجل الذي ينجز عملاً ما، الرجل الذي نجح معك في إقامة حبّ قويّ بلا ثغرات. لكن هذا مناسب جداً. فكل ما تبقى موجود أيضاً.

ـ أجل، ما تبقى موجود.

ـ أترين، حتى صدقي هو وسيلة أخدع بها نفسي. أمر مذهل كم يمكن أن يكون الواحد ماكراً، أضاف واثقاً.

ـ آه! سنكشف مكرك، طمأنته فرنسواز.

ابتسمت له. ما الذي يقلقها؟ في وسعه أن يشكّك في نفسه، أن يعيد النظر في العالم بأسره. أما هي، فتعلم أنه ليس ثمة ما يدعو للقلق في هذه الحرية التي تفصله عنها. لا يمكن لأي شيء أن يبدّل حبهما أبداً.

إتكأت فرنسواز رأسها على الوسادة. الظهر. مازالت تمتد أمامها ساعات طويلة من الوحدة، لكنها لم تعد وحدة الصباح السوية البيضاء. فالسأم تسلّل إلى الغرفة، الأزهار فقدت تألقها وشراب الليمون برودته. الجدران والأثاث الأملس بدت عارية. كزافيير. بيار. حيثما يقع نظرها لا ترى سوى الغياب. أغمضت عينيها. للمرة الأولى منذ أسابيع كان القلق يستيقظ في نفسها. كيف أمضيا الليل؟ لا شك أن أسئلة بيار المتطفّلة جرحت مشاعر كزافيير. ربما سيتصالحان بعد قليل أمام سرير فرنسواز. «وبعد؟» كانت تعرف ذلك الطعم اللاذع في حلقها، ذلك القلب الخافق المحموم. أيقظها بيار من أعماق ضبابها ولم تعد تريد أن تهبط إليه من جديد. لم تعد تريد المكوث هنا. لم تعد هذه العيادة سوى

منفى. حتى المرض لم يكن كافياً ليعيد إليها صدراً متوحداً. ذلك المستقبل الذي يتشكل من جديد في الأفق كان مستقبلها إلى جانب بيار. مستقبلنا. أرهفت السمع. كانت في الأيام التي أمضتها مستقرّة بهدوء في قلب حياتها كمريضة تتلقى الزيارات كمجرّد تسلية. أما اليوم، فالأمر مختلف. كان بيار وكزافيير يتقدّمان خطوة خطوة في الممشى بعد أن صعدا الأدارج قادمين من المحطة، من باريس، من قلب حياتهما. الوقت الذي سيمضيانه هنا هو جزء من هذه الحياة. توقفت الخطوات أمام الباب.

ـ هل يمكننا الدخول؟ سأل بيار. دفع الباب. كان هنا ومعها كزافيير. كان الانتقال من غيابهما إلى حضورهما مبهماً، غامضاً، كما يحصل دائماً.

ـ قالت لنا الممرّضة إنك نمت جيداً.

ـ أجل. ما إن تتوقف الحقن حتى أتمكن من الرحيل.

ـ شرط أن تتعقلي ولا تقومي بنشاط كبير، أكد بيار. استريحي جيداً ولا تتكلمي. نحن سنخبرك قصصاً. ابتسم لكزافيير. لدينا قصص كثيرة نخبرك إياها.

جلس على كرسي قرب السرير وجلست كزافيير على مقعد «البوف» الضخم المربّع. لا شك أنهاغسلت شعرها في الصباح. كان زبد ذهبي كثيف يحيط بوجهها وتعبير رقيق وغامض ينبعث من عينيها وشفتيها الشاحبتين.

ـ جرت الأمور على أفضل حال مساء أمس في المسرح، قال بيار. كان الحضور حاراً. صفقوا لنا مراراً للمطالبة بعودتنا. لكن لست أدري لماذا كنت عكر المزاج بعد المسرحية.

ـ كنت عصبياً بعد الظهر، قالت فرنسواز مبتسمة بخفر.

ـ صحيح. ولا شك أن قلة النوم أخذت تؤثر عليّ. لست أدري. في مطلق الأحوال، بدأت أتصرّف بشكل لا يحتمل وأنا أهبط شارع «لاغيتي».

ارتسمت على وجه كزافيير تكشيرة صغيرة غريبة.

ـ كان مثل أفعى صغيرة حقيقية تصفر بضغينة، قالت. أما أنا، فكنت في غاية الفرح حين وصلت. كنت تدرّبت برصانة طوال ساعتين على دور الأميرة الصينية. ثم تعمدت النوم قليلاً حتى أكون نضرة تماماً، قالت بنبرة لوم.

ـ كل ما فعلته وسط استيائي كان أن أبحث عن حجج أغذي بها سخطي عليها! خطرت لها فكرة سيئة ونحن نعبر جادة مونبارناس إذ تركت ذراعي...

ـ بسبب السيارات، قاطعته كزافيير بحدّة، لم يعد من الممكن أن نسير بالسرعة ذاتها، لم يكن هذا مريحاً البتّة.

ـ اعتبرت أن في الأمر إساءة متعمّدة واجتاحني غضب جعل عظامي تصطكّ.

نظرت كزافيير إلى فرنسواز واجمة.

ـ كان الأمر فظيعاً، لم يعد يقول لي كلمة، باستثناء بعض الجمل المتباعدة بتهذيب لاذع. لم أعد أدري ما عليّ أن أفعل. شعرت أنه يعنّفني من غير أن أستحقّ هذا.

ـ أتصوّر ذلك، قالت فرنسواز مبتسمة.

ـ كنا قررنا أن نذهب إلى الدوم، لأننا أهملناها منذ بعض الوقت، تابع بيار. بدت كزافيير مسرورة لوجودها هناك من جديد، فظننت أن في سرورها إزدراء للسهرات الأخيرة التي أمضيناها معاً

نخوض مغامرات. اشتدّ غضبي وتقوقعت حوالي الساعة في حنقي، جالساً أمام كأس من الجعة.

ـ حاولت إيجاد مواضيع لإيجاد حديث بيننا.

ـ كانت جلودة إلى حدّ ملائكي، قال بيار بارتباك، غير أن كل جهودها للتحلي بإرادة طيبة لم يسعها سوى أن تزيد من حدّة غضبي. يدرك الواحد بوضوح حين يكون في حالة كهذه أن في وسعه الخروج منها إن أراد ذلك، لكنه لا يجد أي سبب يدفعه إلى مثل هذه الرغبة، بل على العكس. في نهاية الأمر، إنفجرت وأخذت أوجّه إليها اللوم. قلت لها إنها واهنة كالريح، وإن الواحد يكون واثقاً إن أمضى معها سهرة ممتعة من أن السهرة التالية ستكون بغيضة.

شرعت فرنسواز تضحك.

ـ ما الذي يدور في رأسك حين تكون سيىء النية إلى هذا الحد؟

ـ كنت أعتقد حقاً أنها استقبلتني بتحفظ وتمنّع. اعتقدت ذلك لأنني أقنعت نفسي مسبقاً بدافع الكآبة من أنها ستكون حذرة.

ـ أجل، قالت كزافيير شاكية. أوضح لي أن خوفه من عدم تمضية سهرة رائعة كالسابقة هو الذي أفسد مزاجه.

إبتسما لبعضهما بتواطؤ عذب. بدا أنهما لم يتطرّقا إلى جيربير. لا شكّ أن بيار لم يجرؤ على التحدث في الأمر، وفي النهاية اعتذر مفصحاً عن أنصاف حقائق.

ـ بدأت تحت وطأة ذهول أليم جعلني أشعر أنني أعزل وخجل.

أخبرتها بكل ما جال في رأسي منذ خروجي من المسرح. ابتسم لكزافيير. أبدت كرم أخلاق كبير وسامحتني.

بادلته كزافيير الابتسامة. عبرت لحظة صمت.

ـ ثم اتفقنا على أن جميع السهرات التي نمضيها معاً منذ فترة طويلة ممتعة، قال بيار. ثم أسرّت لي كزافيير بأنها لا تشعر بأي سأم معي وقلت لها إن الأوقات التي أمضيها برفقتها من أجمل أوقات حياتي.

وأضاف بسرعة وبلهجة دعوبة بدت في غير مكانها:

ـ واتفقنا على أن الأمر ليس مدهشاً إذ أننا في الواقع نحب بعضنا.

رغم خفّة صوته، بدا وقع الكلمة ثقيلاً في الغرفة وخيّم الصمت من حوله. ابتسمت كزافيير مرغمة. تصنّعت فرنسواز تعبير وجهها. لم تكن هذه سوى كلمة. هذا ما وصل إليه الوضع منذ وقت طويل، غير أن هذه الكلمة حاسمة وكان يجدر ببيار أن يستشيرها قبل التفوّه بها. لم تكن تغار منه، غير أنه لا يسعها أن تخسر بلا مقاومة تلك الفتاة الصغيرة الرقيقة والذهبية التي تبنتها ذات صباح باكر.

أكمل بيار بارتياح هادىء.

ـ قالت لي كزافيير إنها لم تدرك حتى ذلك الوقت أن ما بيننا هو الحب، ابتسم. كانت تلاحظ أن اللحظات التي نمضيها معاً سعيدة وكثيفة، غير أنها لم تلحظ أن ذلك ناجم عن حضوري.

التفتت فرنسواز إلى كزافيير التي كانت تحدّق أرضاً من دون أن

تبدي أي تعبير. ليست عادلة. كان بيار استشارها من قبل وبادرته منذ وقت طويل مؤكدة له «يمكنك أن تغرم بها». عرض عليها ليلة رأس السنة أن يتخلّى عن كزافيير. له الحق الكامل في أن يكون ضميره نقياً.

ـ هل بدا لك الأمر صدفة سحرية؟ سألت فرنسواز بارتباك.

رفعت كزافيير رأسها في حركة نزقة.

ـ لا، قالت. نظرت إلى بيار: كنت أعرف جيداً أن هذا بفضلك أنت، لكنني كنت أظن أن السبب هو فقط أنك مثير للإهتمام وودود. ليس من أجل... من أجل شيء آخر.

ـ لكن ماذا تظنين الآن؟ لا تقولي لي أنك بدّلت رأيك منذ أمس؟ سأل بيار بلهجة مشجعة تكشف عن بعض القلق.

ـ لا، بالطبع، لست دوارة هواء، قالت كزافيير بجفاء.

ـ قد تكونين أخطأت، أجاب بيار بصوت متردّد بين القسوة واللين. ربما في لحظة اندفاع لم تميّزي بين الصداقة والحب.

ـ هل كان الاندفاع بادياً عليّ مساء أمس؟ قالت بابتسامة متشنجة.

ـ بدوت مستغرقة في اللحظة تلك.

ـ ليس بشكل يفوق العادة. أمسكت بخصلة من شعرها وراحت تحملق بها بوجه أبله وفاسق. كل ما هناك، تابعت بصوت فاتر أن الكلمات الكبيرة تبعث على الفور إحساساً بالثقل.

وجم وجه بيار.

ـ إن كانت الكلمات صحيحة، فلمَ نخاف منها؟

ـ بالطبع، قالت كزافيير وهي لا تزال تحملق بشكل شنيع.

ـ ليس الحب شراً معيباً. أرى أنه من الضعف ألاّ ننظر بوضوح إلى ما يجري في داخلنا.

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ لا يمكن للواحد أن يغيّر نفسه. لا أمتلك روحاً تحب العلن.

بدا بيار محتاراً متألماً. شعرت فرنسواز بالأسف من أجله. يمكنه أن يكون هشاً للغاية إن أختار التخلي عن دفاعه وسلاحه.

ـ هل تجدين من المزعج أن نناقش المسألة ثلاثتنا؟ لكننا اتفقنا على ذلك مساء أمس. ربما كان من الأفضل أن يكلم كل منا فرنسواز على انفراد؟ نظر إلى كزافيير متردّداً. رمقته بنظرة ساخطة.

ـ لا يهمني إن كنا اثنين أو ثلاثة أو حشداً غفيراً. ما يبدو لي غريباً هو أن أسمعك تكلّمني أنا عن مشاعري الخاصة.

راحت تضحك بعصبية.

ـ الأمر غريب إلى أقصى الحدود، لا يسعني تصديقه. هل إنك تتكلّم عنّي أنا حقاً؟ هل إنني حقاً تلك التي تشرّحها؟ وأقبل أنا بذلك؟

ـ لمَ لا؟ المسألة تتعلّق بنا أنا وأنت. ابتسم بخفر. بدا لك ذلك طبيعياً الليلة الماضية.

ـ الليلة الماضية... علت وجه كزافيير تكشيرة أليمة. بدا عليك للمرة الأولى أنك تعيش الأمور ولا تكتفي بالتحدث عنها.

ـ كم إنك كريهة.

غرزت كزافيير أصابعها في شعرها وشدّته على صدغيها.

ـ من الجنون أن يتكلّم الواحد عن نفسه وكأنه قطعة من الخشب، قالت محتدمة.

ـ لا يمكنك أن تعيشي الأمور إلاّ في الظلّ والخفاء، أجاب بيار بنبرة لاذعة. لا يسعك أن تفكري بها وتبتغيها في وضح النهار. ليست الكلمات التي تزعجك. ما يغضبك هو إنني أطلب منك أن توافقي اليوم، بملء إرادتك، على ما اعترفت به مساء أمس بغتة.

إنهار وجه كزافيير ونظرت إلى بيار وكأنها محاصرة. ودّت فرنسواز لو توقف بيار. كانت تفهم جيداً كيف يمكن للواحد أن يخشى ذلك التوتر الطاغي الذي يبعث القسوة في ملامحه، ويحاول الهروب منه. لم يكن بدوره سعيداً في هذه اللحظة، لكنه لم يكن في مقدور فرنسواز إلاّ أن ترى فيه رغم هشاشته رجلاً مصراً على انتصار ذكوريته.

ـ تركتني أقول إنك تحبينني، تابع. حان الوقت لتتمالكي. لن أكون مندهشاً البتة إن تبيّن لي أنك لا تعرفين سوى الانفعالات الآنية.

نظر إلى فرنسواز بعينين ملؤهما الشرّ.

ـ هيا، قولي لي بصراحة إنك لا تحبينني.

ـ آه! أودّ لو أن كل هذا لم يحصل، صاحت يائسة، كم كانت الأمور جيدة من قبل! لماذا أفسدت كل شيء؟

بدا وكأن انفجار اليأس هذا أثّر في نفس بيار. نظر إلى كزافيير ثم إلى فرنسواز، متردّداً.

ـ دعها تتنفّس قليلاً، قالت فرنسواز، إنك تضايقها.

أن تحبّ، ألاّ تحب. كم يصبح بيار ضيّق الذهن وعقلانياً في تعطّشه إلى اليقين. كانت فرنسواز تتفهّم بشكل أخوي اضطراب

كزافيير. هي ذاتها، بأي كلمات كانت وصفت نفسها؟ كل شيء مبلبل جداً في داخلها.

ـ إعذريني، قال بيار، كان من الخطأ أن أغضب. انتهت المسألة. لا أريدك أن تفكري إن شيئاً ما أفسد بيننا.

ـ لكنك أفسدت ما بيننا، ألا ترى! كانت شفتا كزافيير ترتجفان. لم تعد أعصابها تحتمل. أخفت وجهها فجأة بين يديها.

ـ آه! ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟ تمتمت.

إنحنى بيار نحوها.

ـ لا، لم يحصل شيء، لم يتغير شيء، قال بإلحاح.

تهالكت يدا كزافيير فوق ركبتيها.

ـ كم بات الأمر غليظاً الآن. مثل غلاف من حولي يطبق علي. كانت ترتجف من رأسها إلى قدميها. كم بات الأمر غليظاً.

ـ لا تظني أنني أنتظر منك شيئاً آخر. لا أطلب منك أي شيء آخر. مازالت الأمور كما كانت عليه تماماً.

ـ انظر كيف صار الوضع الآن. انتصب ظهرها وألقت رأسها إلى الخلف لتمالك دموعها. كان عنقها ينتفخ مختلجاً. إنها مصيبة، أنا واثقة من ذلك، لا أقوى على الأمر، قالت بصوت متهدّج.

كانت فرنسواز تتأملها، عاجزة وآسفة. المشهد نفسه حصل مرة في الدوم. وكما في تلك المرة، لم يكن بوسع بيار القيام بأي إشارة، لكانت بدت وقاحة، لا بل صلافة. ودّت فرنسواز لو تحيط بذراعيها الكتفين المرتعشين وتجد كلمات تقولها، غير أنها كانت مضطجعة مشلولة بين الملاءات ولم يكن أي اتصال ممكناً. لا

يسعها سوى التفوّه بكلام مرتبك يبدو مبتذلاً مسبقاً. كانت كزافيير تتخبّط بلا مساعدة بين تلك الأخطار الخانقة التي تبصرها من حولها، وحيدة وكأنما مهووسة.

ـ لا تخشي أي مصيبة تحصل بيننا نحن الثلاثة، قالت فرنسواز. عليك أن تثقي بنا. ممّ تخافين؟

ـ إنني خائفة.

ـ بيار أفعى صغيرة، لكنه يصفر أكثر مما يعضّ. ثم إننا سندجّنه. أليس كذلك، ستدعنا ندجّنك؟

ـ لن أعود أصفر حتى، قال بيار، أقسم لك.

ـ إنني خائفة، ردّت بصوت منهك.

انفتح الباب بهدوء مثلما بالأمس في الساعة ذاتها، ودخلت الممرّضة حاملة حقنة. نهضت كزافيير منتفضة وذهبت إلى النافذة.

ـ لن يستغرق هذا وقتاً، قالت الممرّضة. نهض بيار وتقدّم خطوة وكأنما يريد الإنضمام إلى كزافيير، لكنه توقف أمام الموقدة.

ـ هل أن هذه هي الحقنة الأخيرة؟ سألت فرنسواز.

ـ سنجري لك حقنة أخرى غداً.

ـ وبعد ذلك، هل يمكنني أن أنهي العلاج في بيتي؟

ـ كم أنك على عجلة لمغادرتنا! علينا أن نتريّث قليلاً حتى تستعيدي بعضاً من قواك لنتمكن من نقلك.

ـ كم سيستغرق ذلك؟ ثمانية أيام؟

ـ ثمانية أو عشرة.

غرزت الممرّضة الإبرة.

ـ هيا، إنتهيت. أسدلت الغطاء وخرجت مبتسمة. استدارت كزافيير دفعة واحدة.

ـ أكره صوتها العذب، قالت بحقد. ظلّت لبرهة واقفة بلا حراك في قعر الغرفة، ثم اقتربت من الكنبة حيث كانت ألقت معطفها.

ـ ماذا تفعلين؟ قالت فرنسواز.

ـ سأخرج. هنا إختنق. قام بيار بحركة. إنني بحاجة لأن أبقى وحيدة، قالت بعنف.

ـ كزافيير! لا تتشبثي بموقفك! قال بيار، اجلسي ودعينا نتحدّث بشكل منطقي.

ـ نتحدث! تحدّثنا أكثر ممّا ينبغي حتى الآن! إرتدت معطفها على عجلة ومشت نحو الباب.

ـ لا تغادري هكذا، قال بيار برقة. مدّ يده ولامس ذراعها فوثبت كزافيير إلى الخلف.

ـ لا تفكر في إعطائي أوامر الآن! قالت بصوت مخنوق.

ـ اذهبي وبدّلي أفكارك قليلاً، نصحتها فرنسواز، لكن عودي إليّ في المساء، موافقة؟

نظرت إليها كزافيير.

ـ موافقة، قالت بنبرة مطيعة.

ـ هل أراك في منتصف الليل؟ قال بيار بجفاف.

ـ لست أدري، أجابت خافضة صوتها.

دفعت الباب بحدّة وأغلقته خلفها.

ذهب بيار إلى النافذة ومكث هناك لحظة بلا حراك، متكئاً

جبينه إلى الزجاج. كان يتأملها وهي تبتعد.

ـ إنها في ورطة كبيرة، قال وهو عائد إلى السرير.

ـ أجل، لكنك تصرّفت أيضاً، أجابت فرنسواز بعصبية. ماذا دهاك؟ لم يكن ينبغي أبداً أن تأتي هكذا برفقتها لتخبرني بغبطة واندفاع عن حديثكما. كان الوضع مزعجاً للجميع. حتى فتاة أقل حذراً ونزقاً من كزافيير لما كانت احتملت هذا.

ـ هاي! ماذا كان علي أن أفعل؟ إقترحت عليها أن تأتي بمفردها لرؤيتك، لكنها رأت بالطبع أن ذلك فوق قدرتها، وادّعت أنه من الأفضل أن نأتي معاً. لم يكن وارداً بالنسبة لي أن أكلمك في غيابها، وكأننا نريد أن نسويّ الأمور كأشخاص ناضجين ونتجاهلها.

ـ اعترف أن المسألة دقيقة.

تابعت بلذة غريبة عنيدة.

ـ بدا بسيطاً للغاية مساء أمس.

كانت نظرته تائهة في البعيد وكأنه في مكان آخر. اكتشفنا حبّنا، جئنا نخبرك تلك القصة الجميلة التي حصلت لنا.

إحتقنت الدماء في وجنتي فرنسواز واختلج قلبها حقداً. كانت تمقت ذلك الدور الذي يلبسانها إياه بحجة تبجيلها، لأنه يناسبهما، دور الآلهة التي تحلّ البركة من غير أن تتأثر.

ـ أجل وكانت القصة مباركة مسبقاً، قالت فرنسواز. أفهم ذلك جيداً. كانت كزافيير تحتاج أكثر منك حتى للتفكير بأنني سأعلم بهذه الليلة.

راودها من جديد التواطؤ والإفتتان الباديان عليهما حين وصلا

إلى غرفتها. كانا يأتيانها بحبّهما مثل هدية بديعة حتى تعيده إليهما فضيلة.

ـ غير أن كزافيير لا تدخل أبداً في تفاصيل الأمور. لم يخطر لها أنه سيتحتّم عليها استخدام كلمات. أصيبت بالذعر ما إن فتحت فمك. هذا لا يدهشني، لكن كان عليك أن تتوقع المسألة.

رفع بيار كتفيه.

ـ لم أفكر في احتساب الأمور. لم أحترس منها. تلك الثائرة الصغيرة لو رأيتها كيف استسلمت بوهن الليلة الماضية. ارتعشت قليلاً حين تفوّهت بكلمة «حبّ»، لكن وجهها أذعن على الفور. اصطحبتها إلى غرفتها.

ابتسم من غير أن يلحظ الأمر. ظلت نظرته تائهة في الفراغ.

ـ ضممتها بين ذراعي وأنا أفارقها ومدّت لي شفتيها. قبّلتها قبلة عفيفة، لكن حركتها كانت مفعمة بالحنان.

اخترقت الصورة فرنسواز فأحسّت بلهيبها. كزافيير، تايورها الأسود، قميصها ذو المربعات وعنقها الأبيض، كزافيير، لينة القدّ ودافئة بين ذراعي بيار، مغمّضة عينيها، مادة شفتيها. لن تتمكن مرة من مشاهدة ذلك الوجه. بذل جهداً قاسياً. ستكون ظالمة، لم تشأ الاستسلام لهذا الحقد المتنامي في داخلها.

ـ الحب الذي تقدّمه لها ليس بالحبّ السهل. من الطبيعي أن تجفل لوهلة. لسنا معتادين النظر إليها من هذه الزاوية. لكنها في نهاية الأمر فتاة شابة ولم تحب حتى الآن. وهذا مهم رغم كل شيء.

ـ أرجو ألاّ تقترف حماقة.

ـ أي حماقة تريدها أن تقترف؟

ـ لا أحد يدري معها. كانت في حالة فظيعة.

نظر إلى فرنسواز بقلق.

ـ حاولي أن تهدئي من روعها، أن تفسّري لها الأمور بشكل واضح. وحدك تستطيعين تسوية المسألة.

ـ سأحاول.

نظرت إليه وعاد إلى ذهنها الحديث الذي دار بينهما بالأمس. أحبّته طويلاً حباً أعمى من أجل ما كان يهبها. لكنها قطعت وعداً على نفسها بأن تحبه من أجله وفي تلك الحرية بالذات التي تجعله يتفلّت منها. لن تتوقف عند أول عقبة تعترض طريقها. ابتسمت له.

ـ ما سأحاول أن أوضّح لها جيداً هو أنك لست رجلاً ممزّقاً بين امرأتين، بل إننا نشكل نحن الثلاثة حالة خاصة، صعبة ربما، غير أنها قد تكون جميلة وتأتينا بالسعادة.

ـ أتساءل إن كانت ستأتي في منتصف الليل. كانت في غاية الغضب.

ـ سأحاول إقناعها. الحقيقة أن كل هذا ليس مهمّاً.

صمتا قليلاً.

ـ وجيربير؟ ألم يعد مطروحاً.

ـ بالكاد تكلّمنا عنه. لكن أظن أنك كنت على حق. يفتنها في اللحظة الحاضرة وبعد دقيقة يغيب عن ذهنها.

قلّب سيجارة بين أصابعه.

ـ هذا ما أثار المسألة برمّتها. كنت أجد العلاقات بيننا ممتازة كما كانت. لما كنت حاولت تغيير شيء فيها لو لم توقظ الغيرة

نزعتي إلى التسلّط. إنها نزعة مرضية. ما أن أشعر بمقاومة أمامي حتى ينتابني الدوار.

صحيح إنه يتبع آلية خطيرة خارجة عن سيطرته. شعرت فرنسواز بغصّة في حلقها.

ـ ستتمكن من مضاجعتها في نهاية الأمر، قالت.

أحست على الفور بيقين لا يحتمل. تلك اللؤلؤة السوداء، ذلك الملاك المتزمّت بيدي رجل مداعبتين، سيجعل منها بيار امرأة مستسلمة بوهن. فهو مرغ شفتيها بهاتين الشفتين العذبتين. نظرت إليه وقد إنتابها الهول.

ـ تعرفين جيداً أنني لست شهوانياً. لكن ما أبتغيه هو أن أجد في أي لحظة كانت وجوهاً كوجه الليلة الماضية، لحظات أكون لوحدي موجوداً.

ـ لكن هذا محتوم. لن يتوقف تسلّطك في منتصف الطريق. ولتتأكد من أنها تحبك على الدوام بالقدر ذاته، ستطلب منها كل يوم المزيد.

كانت في صوتها قسوة عدائية أصابت بيار فعلت وجهه تكشيرة.

ـ ستجعلينني أشمئز من نفسي.

ـ أشعر دائماً بالدّنس حين أفكر في كزافيير كامرأة ذات حياة جنسية، قالت فرنسواز بنعومة.

ـ وأنا كذلك. أشعل بيار سيجارة بحركة عازمة. لكن المسألة أنني لن أحتمل أن يضاجعها رجل آخر.

أحست فرنسواز من جديد بتلك القصة الأليمة في قلبها.

ـ لهذا السبب سيصل بك الأمر إلى مضاجعتها. لست أقول إنك ستفعل على الفور، لكن بعد ستة أشهر، بعد سنة.

كانت تبصر بوضوح كل مرحلة من هذه الطريق المحتومة التي تقود من القبلات إلى الملامسات، ومن الملامسات إلى الاستسلام. بسبب بيار ستسير كزافيير على هذه الطريق كأي امرأة أخرى. أبغضته من أجل ذلك للحظة.

ـ تعرف ما عليك أن تفعل الآن. قالت مسيطرة على صوتها. ستقبع في زاويتك كما فعلت في ذلك اليوم وتعمل بتعقّل. وأنا سأرتاح قليلاً.

ـ إنني أتعبك. أنسى دائماً أنك مريضة.

ـ لست أنت من يتعبني.

أغمضت فرنسواز عينيها. كانت تعاني من عذاب أليم وغامض. ما الذي تريده بالضبط؟ ماذا عساها تريد؟ لم تكن تدري. غير أنه من الغبن أن تكون تصوّرت أنها ستجد الخلاص في نكران نفسها. كانت ألف صورة أليمة تدور في رأسها، تمزّق قلبها. بدا لها أن الدم الذي يجري في عروقها مسموم. استدارت صوب الحائط وأخذت تبكي بصمت.

غادر بيار فرنسواز في الساعة السابعة. كانت انتهت من تناول عشائها. لم يكن في وسعها المطالعة من شدّة التعب. كل ما يمكنها القيام به كان انتظار كزافيير. لكن هل تأتي؟ أمر فظيع أن تكون خاضعة لتلك الإرادة النزقة من غير أن تجد وسيلة للتأثير عليها. أسيرة. قلّبت فرنسواز النظر بين الجدران العارية. الغرفة تعبق بالحمى والليل. كانت الممرّضة أخرجت الزهور وأطفأت الضوء. لم يبقَ سوى قفص نور حزين حول السرير.

ـ ماالذي أريده؟ ردّدت فرنسواز لنفسها بقلق.

كلّ ما فعلته أنها تشبّثت بعناد بالماضي تاركة بيار يكمل وحده إلى الأمام. والآن وقد أفلتت قبضتها، فهو ابتعد كثيراً ولم يعد في مقدورها اللحاق به. فات الأوان.

ـ وإن لم يكن فات الأوان بعد؟ تساءلت.

وإن قرّرت أخيراً أن ترتمي بكل ما لديها من قوة بدل أن تلتزم مكانها، فارغة اليدين؟ إرتقت قليلاً على وساداتها. أن توظف طاقتها هي أيضاً وبشكل كلي، تلك هي فرصتها الأخيرة. عندها قد يخطفها بدورها ذاك المستقبل الجديد الذي سبقها إليه بيار وكزافيير. رمقت الباب بقلق. هذا ما ستفعل. كانت مصمّمة. لم يكن لديها خيار آخر إطلاقاً. ينبغي فقط أن تأتي كزافيير. الساعة السابعة والنصف. ما تنتظره بيدين رطبتين وحلق جاف لم يكن كزافيير بل حياتها هي، مستقبلها وانبعاث سعادتها.

سمعت دقّة خافتة على الباب.

ـ أدخلي، قالت فرنسواز.

لم تردها حركة. لاشك أن كزافيير تخشى أن يكون بيار مازال هنا.

ـ ادخلي، صاحت فرنسواز بأعلى صوت ممكن، غير أن صوتها كان مخنوقاً. سترحل كزافيير من غير أن تسمعها ولا حيلة بيدها لإعادتها.

دخلت كزافيير.

ـ ألا أزعجك؟

ـ لا، كنت آمل أن تأتي.

جلست كزافيير قرب السرير.

أين أمضيت كل هذا الوقت؟ سألتها برفق.

ـ تنزّهت.

ـ كم كنت مضطربة. لماذا تقلقين نفسك هكذا؟ ممّ تخافين إلى هذا الحد؟ لا داع لذلك.

أخفضت كزافيير رأسها. بدت في ذروة الإعياء.

ـ كنت بغيضة اليوم. أضافت خجلة: هل أن لابروس كان مستاءً جداً؟

ـ بالطبع لا. كان قلقاً فقط، قلقاً للغاية.

ابتسمت.

ـ لكنك ستطمئنينه:

نظرت كزافيير إليها مذعورة.

ـ لن أجرؤ على الذهاب إليه.

ـ لكن هذا كلام بلا معنى. بسبب مشاجرة اليوم؟

ـ بسبب كل شيء.

ـ جفلت من كلمة. لكن الكلمة لا تغيّر شيئاً. اعتقدت أنه يظنّ أن لديه حقوقاً عليك؟

ـ أرأيت؟ أحدث هذا حتى الآن بلبلة كبيرة.

أنت التي أحدثت بلبلة لأنك أصبت بالذعر. ابتسمت فرنسواز. كل ما هو جديد يقلقك دائماً. كنت تخشين القدوم إلى باريس، تخشين العمل في مجال المسرح. وفي النهاية، لم يحصل لك أي سوء حتى الآن، أليس كذلك؟

ـ أجل، أجابت كزافيير وعلى وجهها ابتسامة شاحبة.

وجهها المنهار من شدّة التعب والقلق بدا نائياً أكثر من العادة. غير أن بيار لامس بشرته الغضّة بشفتيه. تأملت فرنسواز ملياً بعينين مغرمتين تلك المرأة التي يحبها بيار.

ـ على العكس، قد يكون كل شيء على مايرام. رجل وامرأة متحدان، هذا أمر جميل، لكن كم تكون العلاقة غنية بين ثلاثة أشخاص يحبون بعضهم بكل ما لديهم من قوة.

صمتت لبرهة. حان الوقت الآن لتتورّط بدورها وتتحمّل قسطها من المجازفة.

ـ لأن ما بيننا أنا وأنت في نهاية الأمر يشبه الحب، أليس كذلك؟

رمقتها كزافيير بنظرة سريعة.

ـ أجل، قالت بصوت خافت. تكوّر وجهها فجأة تحت وطأة حنوّ صبياني، اندفعت منحنية فوق فرنسواز وقبّلتها.

ـ كم أنك حارّة. أنت محمومة.

ـ تصيبني على الدوم بعض الحمّى في المساء. ابتسمت. لكنني سعيدة جداً لوجودك هنا.

كم أن الأمر بسيط. ذلك الحب المفاجىء الذي يفعم قلبها عذوبة كان على الدوام في متناول يدها. كان عليها فقط أن تمدّ تلك اليد الخائفة القاحلة.

ـ فكّري جيداً، إن كان ثمة كذلك حب يربطك بلابروس، كم يكون هذا ثلاثي رائع متوازن بدقّة. ليست هذه طريقة عيش عادية، لكنني لا أظنها تفوق قدرتنا. ألا تشاطرينني الرأي؟

ـ بلى، أجابت كزافيير. أمسكت يد فرنسواز وضغطت عليها.

ـ دعيني أشفَ فقط، وسترين كم ستكون حياتنا معاً حلوة.

ـ ستعودين بعد أسبوع؟

ـ إن كانت حالتي جيدة.

أحسّت على الفور بجسدها يتشنّج ويؤلمها. لا، لن تبقى أكثر من أسبوع في هذه العيادة. تخلّصت من استسلامها الهانىء واستعادت تعطّشها للسعادة.

ـ كم أن هذا الفندق كئيب من دونك، قالت كزافيير. في الماضي، حتى عندما لم أكن أراك طوال النهار، كنت أشعر بك فوق رأسي، أسمع خطواتك في الأدراج. أما الآن، فالفندق فارغ.

ـ لكنني سأعود، قالت فرنسواز متأثرة. لم يخطر لها من قبل أن كزافيير مصغية إلى هذا الحد إلى وجودها؟ إنها لم تكن تعرفها! كم ستحبها للتعويض عن الوقت الفائت. ضغطت على يدها ونظرت إليها بصمت. كان صدغاها يطنّان من شدّة الحرارة وحلقها جاف. أدركت أخيراً المعجزة التي حدثت في حياتها. كانت تتيبّس ببطء في ظلّ العمارات التي شيّدتها بصبر، رازحة تحت أفكار ثقيلة، حين انهار هذا العالم البشري غباراً في انفجار نقاء وحرية. كانت نظرة كزافيير الساذجة كافية لتدمير ذاك السجن. والآن ستبزغ آلاف العجائب على هذه الأرض الخالصة، بفضل هذا الملاك المتطلّب. ملاك داكن بيدين عذبتين، يدي امرأة حمراوين كيديّ فلاحة، بشفتين تفوح منهما رائحة العسل، التبغ الأشقر والشاي الأخضر.

ـ كزافيير الغالية، قالت فرنسواز.

الفصل (٩)

إستعرضت اليزابيت بنظرها الجدران المبطّنة بالقماش وتوقفت عند المسرح الصغير الأحمر في قعر الصالة. كانت فكرت لوقت: هذا عملي. لكن ليس في الأمر ما يدعو للفخر. فهو ينبغي أن يكون عمل أحد ما.

ـ يجب أن أعود إلى شقتي، قالت. بيار آت للعشاء عندي مع فرنسواز وباجيس الصغيرة.

ـ آه! باجيس تخلّت عني، قال جيربير خائباً.

لم يكن تسنّى له بعد إزالة الماكياج عن وجهه. بدا بجفنيه الخضراوين ووجنتيه المكسوتين بطبقة مغرية كثيفة أجمل منه بوجهه الطبيعي. اليزابيت هي التي عرّفته إلى دومينيك وجعلته يوافق على إستعراضه للدمى المتحرّكة. فهي لعبت دوراً كبيراً في تنظيم الكباريه. إبتسمت إبتسامة ساخرة. ساهمت الكحول والدخان خلال المناقشات في إحساسها المسكر بأنها تفعل شيئاً، لكن هذا كان مثل باقي حياتها، مجرّد أفعال زائفة. أدركت خلال تلك

الأيام الثلاثة القاتمة أن مطلق ما يصادفها يكون حقيقياً. أحياناً حين ينظر الواحد بعيداً عبر الضباب يتراءى له شيء ما يشبه حدثاً أو فعلاً قد يغشّ البعض، إلا أن هذه لم تكن سوى مظاهر خادعة فظّة.

ـ سوف تتخلّى عنك أكثر مما ستفعل أنت، قالت اليزابيت. في غياب كزافيير، استعادت ليز دورها وهي برأي فرنسواز تؤدي عملها بالجودة ذاتها على الأقل. غير أن جيربير بدا مستاءً. تفحّصته فرنسواز بنظرها.

ـ تبدو موهوبة، تلك الفتاة الصغيرة، لكنها في كل ما تقوم به تفتقد العزم. هذا مؤسف.

ـ أفهم جيداً كيف أنه لا يسرّها الحضور إلى هنا كل مساء، قال جيربير متراجعاً في حركة لم تغفل عنها اليزابيت. كانت تساورها منذ وقت طويل شكوك بأن جيربير مغرم قليلاً بكزافيير. هذا طريف. هل أن الأمر خطر لفرنسواز؟

ـ ماذا قرّرنا بشأن البورتريه خاصتك؟ سألت. مساء الثلاثاء؟ يلزمني فقط القيام ببعض الرسوم الإعدادية.

ما كان ينبغي معرفته هو رأي كزافيير بجيربير. لا شك أنها لا تكترث له كثيراً. فهما يمسكان بها عن كثب. إلا أن عينيها كانتا تلتمعان بشكل لافت ليلة الإفتتاح حين رقصت معه. هل ستتجاوب معه إن غازلها؟

ـ الثلاثاء، إن أرادت، أجاب جيربير.

كان خجولاً للغاية. لن يجرؤ أبداً على القيام بإشارة من تلقاء نفسه. لا يخطر له حتى أنه يحظى بفرصة. لامست فرنسواز بشفتها جبين دومنيك.

- إلى اللقاء عزيزي.

دفعت الباب. كان الوقت متأخراً. عليها أن تحثّ خطاها إن كانت تريد الوصول قبلهم. أخّرت حتى اللحظة الأخيرة وقت العودة إلى عزلتها. ستتدبّر أمرها للتحدّث إلى بيار. تعلم مسبقاً أن قضيتها خاسرة، لكنها تريد أن تحاول هذه الفرصة الأخيرة. زمّت شفتيها. حقّقت سوزان انتصاراً إذ وافق نانتوي للتو على مسرحية «تقاسم» للشتاء المقبل. كان كلود ينضح سروراً أبله. لم يبد يوماً الرقة التي أحاطها بها خلال هذه الأيام الثلاثة ولم تبغضه يوماً كما فعلت في هذه الفترة. وصولي، مغترّ، ضعيف الشخصية. سيبقى مقيّداً إلى سوزان للأبد. وستبقى اليزابيت عشيقة مسموح بها وخفية. خلال تلك الأيام ظهرت لها الحقيقة عارية، حقيقة لا تحتمل. جبنها هو الذي دفعها إلى التمسّك بآمال باطلة. لا يمكن أن تتوقع شيئاً من كلود، ورغم ذلك قد تقبل بأي شيء من أجل الاحتفاظ به. لا يمكنها العيش من دونه. لا يسعها حتى إدعاء حبّ سخيّ، فالعذاب والحقد قتلا حبها له. هل أنها أحبّته يوماً؟ هل أنها قادرة على هذا الشعور؟ حثّت خطاها. كان هناك بيار. لو أنه أعطاها حياته، كما كانت ربما وجدت نفسها كل هذا التمزّق وكل هذه الأكاذيب. لكان العالم ربما بدا لها ممتلئاً ولكان قلبها عرف السلام. لكن الأمر انتهى الآن. كانت تسرع إليه من غير أن تجد في نفسها سوى رغبة يائسة لإيذائه.

صعدت الأدراج، أشعلت الضوء. كانت أعدّت المائدة قبل أن تخرج وبدا العشاء فاخراً وشهياً. هي أيضاً بدت أنيقة في تنورتها المغضّنة، سترتها ذات المربعات وماكياجها المتقن. إن نظر الواحد إلى كل هذا الديكور في مرآة قد يظن نفسه أمام حلم قديم تحقّق.

حين كانت اليزابيت في العشرين في غرفتها الصغيرة الكئيبة، كانت تعدّ لبيار سندويشات من اللحم المفروم وأباريق من الخمر الأحمر، وتلعب متخيلة أنها تقدّم له عشاء فاخراً من بانيه «الفواغرا» والبورغونيه المعتّق. أما الآن، فالفواغرا على الطاولة إلى جانب الكافيار وزجاجات الكزيريس والفودكا. لديها مال وعلاقات كثيرة وبدأ صيتها ينتشر، غير أنها لا تزال تشعر أنها على هامش الحياة. هذا العشاء ليس سوى تقليد لعشاء، في تقليد لشقة أنيقة. وهي ليست سوى نسخة هزلية للمرأة التي تدّعي أن تكون. كسرت قطعة حلوى بين أصابعها. كانت اللعبة مسلية في الماضي، كانت تحمل توقعات لمستقبل لامع. أما الآن، فلم يعد لها مستقبل. تعرف أنها لن تتمكن يوماً في مطلق مكان من إدراك النموذج الأصلي الذي بنت حاضرها كنسخة عنه. لن تعرف يوماً سوى تلك الحيل الكاذبة. وكأنها ضحية ضرب من السحر يجعلها تحوّل كل ما تلمسه إلى عجين مورق.

رنّ جرس الباب. هل يعلمون أن كل ما هنالك زائف؟ يعلمون بالتأكيد. ألقت نظرة أخيرة إلى المائدة وإلى وجهها. فتحت الباب. ظهرت فرنسواز حاملة بين يديها باقة من شقائق النعمان. تلك هي الزهور المفضّلة لدى اليزابيت. أو على الأقل، هذا ما قرّرته قبل عشر سنوات.

ـ هذه لك، وجدتها عند «باتو»، قالت فرنسواز.

ـ أنت لطيفة، إنها جميلة جداً. شعرت اليزابيت بشيء ما يلين في داخلها. على كل حال، لم تكن فرنسواز هي من تكره.

ـ أدخلوا بسرعة، قالت وهي تتقدّمهم إلى المحترف...

كانت كزافيير مختبئة خلف بيار بمظهرها الخجل والأبله.

كانت اليزابيت استعدّت لحضورها، غير أن ذلك لم يمنعها من الشعور بالإستياء. فهما يجعلان من نفسهما محطاً للسخرية باصطحاب تلك الصغيرة معهما أينما ذهبا.

آه! كم أن المكان جميل! صاحت كزافيير.

قلبت النظر في الغرفة، ثم نظرت إلى اليزابيت من غير أن تخفي دهشتها، وكأنها تقول.

ـ ما كنت لأظن يوماً أنها قادرة على هذا.

ـ هذا المحترف ساحر حقاً، أليس كذلك؟ قالت فرنسواز. خلعت معطفها وجلست.

ـ اخلعي معطفك، ستبردين حين تخرجين، قال بيار لكزافيير.

ـ أفضّل الاحتفاظ به.

ـ الجوّ حار جداً هنا، قالت فرنسواز.

ـ أؤكد لكما أنني أشعر بالحرّ، أجابت كزافيير بهدوء عنيد. تفحّصها كلاهما بوجهين تعيسين ثم تشاورا متبادلين النظرات. تمالكت اليزابيت عن هز كتفيها. لن تحسن كزافيير أبداً اختيار ملابسها. إنها ترتدي معطفاً يليق بسيدة عجوز، فضفاضاً وقاتماً جداً، لا يلائمها.

ـ آمل أن تشعروا بالجوع والعطش، قالت اليزابيت بحماس. تناولوا ما تشاؤون، عليكم أن تأكلوا بشهية.

ـ إنني أتضوّر جوعاً وعطشاً، قال بيار. على كل حال، لا يخفى على أحد أنني نهم إلى حدّ فظيع. ابتسم، وكذلك فعلت كزافيير وفرنسواز. بدا على الثلاثة التواطؤ والجذل، حتى يخالهم الواحد ثملين.

ـ ماذا تتناولون؟ كزيريس أم فودكا؟ سألت اليزابيت.

ـ فودكا، أجابوا بصوت واحد.

بيار وفرنسواز يفضلان الكزيريس، إنها واثقة من ذلك. هل وصل الأمر بكزافيير إلى فرض أذواقها عليهما؟ ملأت الكؤوس. لا شكّ أن بيار كان يضاجع كزافيير، الأمر أكيد. والمرأتان؟ هذا ممكن، مما يشكّل ذلك المثلث المتناسق تماماً. يمكن التقاؤهم أحياناً أزواجاً، لا شك أنهم أعدوا جدولاً للمناوبة. غير أنهم يتنقلون غالباً بكامل عددهم، كلاً منهم متأبطاً ذراع الآخر وماشين بخطى منسجمة.

ـ لمحتكم بالأمس تجتازون تقاطع مونبارناس، قالت وهي تضحك ضحكة طفيفة. كان مشهدكم طريفاً.

ـ لماذا كان طريفاً؟ سأل بيار.

ـ كان كل منكم يمسك يد الآخر وتقفزون معاً من رجل إلى أخرى.

حين يولع بيار بأحد ما أو بشيء ما، لا يلزم أي حدود. لطالما كان هكذا. ماذا عساه يجد في كزافيير؟ لم تكن لافتة البتة بشعرها الأصفر، ووجهها الباهت ويديها الحمراوين.

التفتت إلى كزافيير.

ـ ألا تريدين تناول شيء؟

كانت كزافيير تتفحّص الأطباق بريبة.

ـ جرّبي إحدى سندويشات الكافيار هذه، نصحها بيار. إنها شهية. اليزابيت، تستقبليننا مثل أمراء.

ـ ثيابها أيضاً تليق بأميرة، قالت فرنسواز. الأناقة تلائمك تماماً.

ـ لا بل تلائم الجميع، أجابت اليزابيت.

ـ فرنسواز أيضاً تمتلك من المال ما يكفي لتكون أنيقة لو أنها أرادت ذلك.

ـ أظن أنني سأذوق الكافيار، قالت كزافيير مستغرقة في تأملاتها. أخذت سندويشة وتناولت لقمة منها. وقف بيار وفرنسواز يتأملانها باهتمام شغف.

ـ كيف وجدتها؟ سألتها فرنسواز.

أطرقت كزافيير:

ـ إنها طيبة، قالت بحزم.

انفرج الوجهان. من الواضح بعد ذلك أن تلك الصغيرة ليست هي المذنبة أن ظنّت نفسها آلهة.

ـ تعافيت تماماً الآن؟ سألت اليزابيت فرنسواز.

ـ لم أكن يوماً أفضل حالاً. ذلك المرض أرغمني على لزوم الراحة لفترة طويلة. كان مفيداً جداً.

كانت سمنت قليلاً وبدت نضرة. تأملتها اليزابيت بارتياب وهي تلتهم سندويشاً. هل أن تلك السعادة التي يعرضانها بفظاظة خالية حقاً من الثغرات؟

ـ أود رؤية لوحاتك الأخيرة، قال بيار. لم أرَ أياً من أعمالك منذ وقت طويل. أخبرتني فرنسواز أنك بدّلت أسلوبك.

ـ إنني في وسط تطوّري، قالت اليزابيت بمغالاة ساخرة. لوحاتها: ألوان منفلشة فوق لوحات بحيث تشبه اللوحات. تمضي أيامها وهي ترسم حتى تظنّ نفسها رسامة، لكن هذا لم يكن بدوره سوى لعبة كئيبة.

حملت إحدى لوحاتها، وضعتها على المسند وأشعلت الضوء الأزرق. هذا جزء من الطقوس. سوف تعرض لهم لوحاتها الزائفة ويثنون عليها ثناء زائفاً. لن يعرفوا أنها تعرف. هذه المرة، هي التي تخدعهم!

ـ إنه حقاً تبدّل جذري! تعجّب بيار.

تأمل اللوحة باهتمام حقيقي: إنها تصوّر جزءاً من حلبة أسبانية ويظهر في أحد زواياها رأس ثور وفي الوسط بنادق وجثث.

ـ إنها لا تشبه البتّة محاولتك الأولى، علّقت فرنسواز. عليك أن تعرضيها لبيار حتى يلاحظ التحوّل.

جلبت اليزابيت لوحة «إطلاق الرصاص».

ـ إنها مثيرة للاهتمام، قال بيار، لكنها ليست بمهارة الأخرى. أعتقد أنك أصبت حول مواضيع كهذه إذ تخليّت عن أي شكل من أشكال الواقعية.

أمعنت اليزابيت النظر في وجهه، لكنه بدا صادقاً.

ـ أرأيت، أنني أعمل الآن في هذا الإتجاه. أحاول استخدام تفكّك السرياليين وحريتهم، لكنني في الوقت نفسه أوجههما.

عرضت له «معسكرات الاعتقال»، «المشهد الفاشي»، «ليلة الإبادة»، فتفحصّها بيار محبّذاً. نظرت اليزابيت إلى لوحاتها بحيرة. أليس الجمهور كل ما ينقصها في نهاية الأمر لتكون فنانة حقيقية؟ ألا يخال أي فنان نفسه في الوحدة مجرّد مخربش. فالعمل يصبح حقيقياً عندما يحظى بجمهور. اختارت إحدى لوحاتها الأخيرة: «لعبة المجزرة». لمحت وهي تضعها على المسند كزافيير تلقي نظرة واجمة إلى فرنسواز.

ـ ألا تحبين الرسم؟ سألتها بابتسامة صفراء.

ـ لا أفقه شيئاً منه، أجابت كزافيير بلهجة اعتذار.

التفت بيار بحدّة إليها والقلق بادٍ عليه. أحسّت اليزابيت بالغضب يزمجر في قلبها. لا شك أنهما حذرا كزافيير في أن هذا واجب مزعج لا يمكن تجنّبه، لكنها بدأت تفقد صبرها وكان أي تعكّر في مزاجها أهم من مصير اليزابيت برمّته.

ـ ما رأيك؟ سألته.

كانت لوحة جريئة ومعقّدة تستحقّ تعليقات مسهبة. ألقى إليها بيار نظرة سريعة.

ـ هذه أيضاً تعجبني كثيراً، قال.

بدا من الواضح أنه لم يكن يرغب سوى في الانتهاء، من الأمر. أنزلت اليزابيت اللوحة.

ـ تعلمين، يمكنك وضع أسطوانة إن أردت، قالت لفرنسواز استخدمي فقط رأساً خشبياً بسبب المستأجر في الطابق السفلي.

ـ آه، أجل! هتفت كزافيير بحماس.

ـ لِمَ لا تحاولين عمل معرض هذه السنة؟ سأل بيار وهو يشعل غليونه. أنا واثق من أنك ستستقطبين جمهوراً كبيراً.

ـ الوقت غير مناسب. إنها حقبة مبهمة جداً ولا يمكن إطلاق أسماء جديدة.

ـ لكن الأمور تسير بشكل جيد بالنسبة للمسرح.

نظرت اليزابيت إلى بيار مترددة، ثم بادرته بغتة.

ـ أتعلم أن نانتوي واقف على مسرحية كلود؟

ـ آه، حقاً؟ أجاب بيار مراوغاً. هل إنها من التنازلات التي يمكن أن تغرق شخصاً ما للأبد.

تسلّحت اليزابيت بالشجاعة.

ـ آه! لو أنك وافقت على «تقاسم». لكنت أطلقت بيار.

ارتبك بيار. كان يكره أن يقول لا. غير أنه يتدبّر أمره عادة ليفلت منها حين تريد أن تطلب منه شيئاً ما.

ـ اسمعي، قال، أتريدينني أن أحاول التحدث إلى بيرجي مجدّداً بشأنه؟ إننا مدعوون للغداء عندهم.

كانت كزافيير عانقت فرنسواز وهي تراقصها على أنغام الرومبا. وجه فرنسواز متشنّج من شدّة الإنكباب، وكأنها تغامر بخلاص روحها.

ـ لن يعود بيرجي عن رفضه، قالت اليزابيت. عبرتها ومضة أمل عبثي. ليس بيرجي ما يلزمه، بل أنت وحدك. اسمع. ستقدّم مسرحيتك في الشتاء المقبل، لكنك لن تبدأ في تشرين الأوّل، أليس كذلك؟ ما رأيك لو تقدّم «تقاسم» لبضعة أسابيع؟

انتظرت وقلبها يخفق. كان بيار يمجّ غليونه مرتبكاً.

ـ أتعلمين ما سنقوم به على الأرجح؟ قال أخيراً. سنذهب السنة المقبلة في جولة عبر العالم.

ـ مشروع بيرنهايم العظيم؟ سألت كزافيير بحذر. لكنني ظننتك غير موافق في مطلق الأحوال على الجولة.

منيت بهزيمة، لكنها لن تدع بيار ينجو بهذه السهولة.

ـ المسألة مغرية جداً، قال بيار. سوف نجني مالاً ونزور بلداناً.

ألقى نظرة نحو فرنسواز.

ـ بالطبع، لم يتقرّر شيء بعد.

فكّرت اليزابيت قليلاً. سيصطحبان كزافيير بالتأكيد. يبدو بيار مستعداً لأيّ شيء من أجل أن يحظى بابتسامة منها. ربما هو مستعدّ للتخلّي عن أعماله من أجل تمضية سنة من الغزل الثلاثي الأطراف عبر البحر المتوسط.

ـ وإن لم تذهبوا؟

ـ إن لم نذهب... قال بيار بفتور.

ـ أجل، هل تأخذ «تقاسم» في تشرين الأوّل؟

أرادت الحصول على جواب نهائي منه. فهو لا يحبّ أن يحنث بوعد قطعه.

ـ مجّ بيار غليونه قليلاً.

ـ في الواقع، لِمَ لا؟ قال من غير قناعة.

ـ هل تتكلّم بجدية؟

ـ نعم، أجاب بلهجة أكثر عزماً. إن بقينا في باريس، في وسعنا إفتتاح الموسم بـ «تقاسم».

حصلت على موافقته بسرعة مريبة. لا شك أنه واثق تماماً من القيام بهذه الجولة. غير أنه رغم كل شيء لم يتصرّف بحذر. فإن لم يتحقق مشروعه، سوف يجد نفسه مرتبطاً.

ـ سيكون الأمر رائعاً بالنسبة لكلود! متى تتأكد تماماً؟

ـ بعد شهر أو إثنين.

صمتا قليلاً.

ـ لو أتمكن من إيجاد وسيلة تحول دون رحيله، فكّرت اليزابيت باندفاع.

كانت فرنسواز تراقبهما بطرف عينها منذ وقت. اقتربت مسرعة.

ـ جاء دورك للرقص الآن، قالت لبيار. كزافيير لا تعرف التعب، لكنني أنا منهكة.

ـ رقصت بشكل ممتاز، قالت كزافيير. ابتسمت بسذاجة. أترين، لم يكن يلزمك سوى قليل من الإرادة.

ـ لديك من الإرادة ما يكفي لإثنين، أجابت فرنسواز بمرح.

ـ سوف نرقص مجدّداً، قالت كزافيير متوعّدة بحنوّ.

تلك الملاطفة المتكلّفة السائدة بينهم مزعجة إلى أقصى الحدود.

ـ إعذريني، قال بيار. ابتعد مع كزافيير لاختيار أسطوانة. كانت قرّرت أخيراً خلع معطفها. جسدها نحيل، غير أنه في وسع عين رسّام متمرّسة تميز استعداد للبدانة. لكانت سمنت بسرعة لو لم تفرض على نفسها حمية صارمة.

ـ من حسن حظّها أنها تراقب نفسها، قالت اليزابيت، وإلاّ لاكتنزت بسهولة.

ـ كزافيير؟ شرعت فرنسواز تضحك. إنها رشيقة القدّ.

ـ هل تظنين أن عدم تناولها الطعام مسألة مجانية؟

ـ على كل حال، ليس السبب المحافظة على رشاقته.

بدت وكأنها وجدت الفكرة مضحكة تماماً. كانت احتفظت ببعض الوضوح في أفكارها لفترة، غير أنها أصبحت الآن على قدر ساذج من البلاهة، مثل بيار تماماً، وكأن كزافيير ليست امرأة كسواها! اليزابيت كشفت أمرها. تراها عرضة للضعف البشري تحت قناع العذراء الشقراء التي تختفي خلفه.

ـ أخبرني بيار أنكم قد تذهبون في جولة هذا الشتاء. هل أن الأمر جدّي؟

ـ إنه قيد البحث. بدت فرنسواز مرتبكة. لم تكن تعلم ما أخبرها بيار بالضبط ولا شك أنها كانت تخشى التورط في الحديث.

ملأت اليزابيت كأسين من الفودكا.

ـ تلك الصغيرة، ماذا ستفعلان بها؟ سألت وهي تهزّ رأسها. إنني أتساءل.

ـ ماذا نفعل بها؟ أصيبت فرنسواز بالذهول. إنها تدرس التمثيل، تعلمين هذا.

أوّلاً، إنها لا تفعل. ثم ليس هذا ما أعنيه.

أفرغت نصف كأسها.

ـ هل ستمضي حياتها تتعقبكما؟

ـ لا، بالطبع.

ـ ألا ترغب في أن تكون لها حياة خاصة بها، علاقات غرامية، مغامرات؟

ابتسمت فرنسواز في سرّها.

ـ لا أظنها تعير ذلك اهتماماً كبيراً في الوقت الحاضر.

ـ ليس في الوقت الحاضر، طبعاً.

كانت كزافيير ترقص مع بيار. إنها ترقص بمهارة. ارتسمت على وجهها ابتسامة دلع وقحة حقاً. كيف يمكن لفرنسواز أن تحتمل الأمر برمته؟ فتاة مغناج، شهوانية. راقبتها اليزابيت عن كثب. من الأكيد أنها مغرمة ببيار، لكنها ماكرة ومتقلّبة، وفي

وسعها التضحية بكل شيء من أجل لذّة تدوم لحظة. في تلك الفتاة قد تجد الثغرة.

ـ ماذا حلّ بذاك الرجل المغرم بك؟ سألت فرنسواز.

ـ مورو؟ دار شجار فظيع بيننا حول الحركة السلمية. سخرت منه، ثم غضب بشدة. وفي نهاية الأمر، كاد يخنقني.

نقبت في حقيبتها.

ـ انظري، هذه رسالته الأخيرة.

ـ لا أجده أحمق. حدّثني عنه بالسوء.

ـ يحظى بتقدير شامل، قالت اليزابيت.

كانت وجدته جذاباً في بداية الأمر، تمتعت بإيقاعه في حبائلها. لماذا سئمت منه إلى هذا الحد؟ أفصحت عمّا لديها. السبب أنه يحبّها. هذه أفضل وسيلة حتى يفقد اعتباره في نظرها. مازال في وسعها على الأقلّ التفاخر بهذه الميزة الأخيرة: أن تواجه بالإزدراء المشاعر الهزيلة التي تثيرها.

ـ إنها رسالة لائقة، قالت فرنسواز. ماذا أجبته؟

ـ وقعت في حيرة شديدة. كان من الصعب أن أشرح له أنني لم أقم اعتباراً لهذه العلاقة للحظة. على كل حال...

رفعت كتفيها. كيف يمكن أن تميّز مشاعرها؟ فهي نفسها تتيه فيها تلك الصداقة الموهومة التي نسجتها بدافع السأم قد تكون حقيقية بالنسبة لها بقدر ما هو الرسم، السياسة، قطيعاتها المتكررة مع كلود. كل هذا سيّان، مجرّد تمثيليات بلا أهمية.

تابعت:

ـ لاحقني حتى وصلت عند دومينيك. كان شاحباً كجثة،

عيناه جاحظتان. كان الليل حالكاً والشارع مقفراً، إنتابني الذعر.

ضحكت ضحكة طفيفة. لم تكن تتمالك عن أخبار قصصها. غير أنها لم تشعر بالخوف، ولم يحصل شجار. مجرّد رجل مسكين غاضب يرمي كلاماً عشوائياً ويقوم بحركات خرقاء.

ـ تصوّري، ألصقني بمصباح كهربائي وأمسك بعنقي وهو يقول لي بنبرة مسرحية: ستكونين لي اليزابيت، أو سأقتلك.

ـ كاد حقاً يخنقك؟ ظننت أنها صورة كلامية.

ـ لا، بدا مستعداً تماماً للقتل.

الأمر مزعج. إن قيلت الأشياء كما هي تماماً، ظنّ الناس أنها لم تحصل بتاتاً. وما إن يبدأون بتصديقها حتى يظنوا أن ما حصل أمر آخر. تذكرت العينين الكابيتين قرب وجهها والشفتين الشاحبتين الدانيتين من شفتيها.

قلت له أخنقني، لكن لا تقبلني. فضغطت يداه أكثر على عنقي.

ـ لكان اقترف جريمة عاطفية بامتياز، قالت كزافيير، قالت فرنسواز.

ـ آه! أفلتني على الفور. قلت: «هذا سخيف» وأفلتني.

شعرت بخيبة ما حين أفلتها، لكنه حتى ولو واصل الضغط على عنقها إلى أن سقطت أرضاً، لما كانت حصلت جريمة حقيقية، مجرّد حادث أرعن.

ـ هل يعقل أن يكون أراد قتلك بدافع ولعه بالحركة السلمية؟ سألت فرنسواز.

ـ أثرت غضبه حين قلت له إنّ الحرب هي الوسيلة الوحيدة

للخروج من القذارة التي نعيش وسطها.

ـ إنني أوافقه الرأي قليلاً. أخشى أن يكون الدواء أسوأ من العلّة نفسها.

ـ ولِمَ هذا؟

رفعت اليزابيت كتفيها. الحرب... لماذا يخشاها الجميع؟ إنها على الأقل صلبة كالحجر، لا تذوب كمعجون الكرتون بين اليدين. لو نشبت الحرب، لصادفت أخيراً شيئاً حقيقياً، ولكان من الممكن القيام بأعمال حقيقية. أن تنظّم الثورة... بدأت تتعلّم الروسية، علّها احتاجت إليها. ربما استطاعت أخيراً بذل كل ما لديه من طاقة. قد تكون الظروف هي التي تضيق عليها.

اقترب بيار.

ـ هل أنك واثقة تماماً من أن الحرب ستأتي بالثورة؟ سألها. وحتى إن فعلت، ألا تظنين أن الثمن سيكون باهظاً؟

ـ كل ما في الأمر أنها امرأة متطرّفة، قالت فرنسواز مبتسمة لها بحنان. لأضرمت الحرب في أوروبا برمّتها لو كان هذا يخدم القضية.

ابتسمت اليزابيت.

ـ متطرّفة... ردّدت بتواضع. توارت ابتسامتها بغتة. من الأكيد أنها لا تخدعهم. إنهم يعلمون. كل ما فيها أجوف، القناعة راسخة في كلماتها فحسب. هذا أيضاً كذب وتصنّع.

ـ متطرّفة! كرّرت مقهقهة بصوت ثاقب. هذه بدعة جيدة.

ـ ما بك؟ سأل بيار منزعجاً.

ـ لا شيء، أجابت. صمتت. تمادت كثيراً. تماديت كثيراً، قالت لنفسها. كثيراً. لكن هل كان هذا أيضاً متعمداً، ذلك

الإشمئزاز اللاذع حيال شخصها؟ وهذا الإزدراء لذلك الإشمئزاز الذي تتظاهر به، ألم يكن بدوره تصنّعاً... الأمر يبعث على الجنون. إن بدأ الواحد يلزم الصدق، ألا يعود في وسعه التوقف عند حدّ؟

ـ سنستودعك الآن، قالت فرنسواز. علينا أن نرحل.

ارتعشت اليزابيت. كانوا منتصبين أمامها وبدوا متضايقين للغاية. لا شك أن وجهها كان مريباً وهي صامتة.

ـ إلى اللقاء. سأمرّ بالمسرح ذات مساء، قالت وهي ترافقهم إلى الباب. سكبت كأساً كبيراً من الفودكا ارتشفتها دفعة واحدة. ماذا لو واصلت الضحك؟ لو صاحت في وجههم «أعرف، أعرف أنكم تعرفون». لكانوا ذهلوا. لكن ما الفائدة؟ النحيب، التمرّد، لكانت دخلت عندها دوراً آخر أكثر إعياء وبلا جدوى كالأول. لا سبيل للخروج من وضعها. لا تجد لها في أي مكان من العالم أو من داخلها حقيقة واحدة خاصة بها.

تأملت الأطباق الفارغة، الكؤوس المتسخة، المنفضة الطافحة بأعقاب السجائر. لن ينتصروا على الدوام. ثمة ما يمكن أن تقوم به. عمل ما يعني جيربير أيضاً. جلست عند طرف الكنبة. تذكرت وجنتي كزافيير الحليبيتين وشعرها الأشقر وابتسامة بيار المشدوهة وهو يراقصها. أخذت كل هذه الصور تدور في رأسها. لكنها غداً سترتب أفكارها. شيء ما تقوم به: عمل حقيقي يريق دموعاً حقيقية. في هذه اللحظة ربما ستشعر أنها هي أيضاً تحيا حقاً. عندها لن تتم الجولة وسوف يلعب بيار مسرحية كلود عندها...

ـ إنني ثملة، تمتمت.

لم يبقَ لها سوى أن تنام وتنتظر الصباح.

الفصل (١٠)

ـ قهوتان، قهوة بالكريمة وكرواسان، طلب بيار. ابتسم لكزافيير. ألست متعبة؟

ـ لا أتعب أبداً حين أمضي وقتاً ممتعاً، أجابت كزافيير. كانت وضعت أمامها كيساً من القريدس الوردي، موزتين ضخمتين وثلاثة قطع من الخرشوف النيء. لم يشعر أي منهم بعد خروجهم من شقة اليزابيت بالرغبة للعودة والخلود إلى النوم، فذهبوا لتناول طبق من حساء البصل في شارع مونتورغوي ثم تنزهوا في الهال التي فتنت كزافيير.

ـ كم أن الدوم جميل في هذه الساعة، قالت فرنسواز. كان المقهى شبه مقفر. ثمة رجل يرتدي مريولاً أزرق راكع أرضاً يمسح البلاط المغطى بالصابون، تفوح منه رائحة غسيل. حين وضع النادل أكواب القهوة على الطاولة، رشقته أميركية طويلة القامة ترتدي فستان سهرة بكرة من الورق على رأسه.

ـ إنها تقاوم الكحول بشكل جيد، قال وهو يبتسم.

ـ إن منظر أميركية ثملة منظر رائع، قالت كزافيير مطرقة.

الأميركيون هم الوحيدون الذين يثملون إلى أقصى درجة من غير أن يتحوّلوا على الفور إلى حثالة.

تناولت قطعتين من السكّر، أمسكتهما لبرهة فوق فنجانها ثم تركتهما يسقطان في القهوة.

ـ ماذا تفعلين، أيتها المسكينة؟ تعجّب بيار. لن تتمكني بعد ذلك من شرب القهوة.

ـ لكنني قمت بذلك عن قصد، لأزيل مفعول القهوة. نظرت كزافيير إلى كل من فرنسواز وبيار نظرة لوم. إنكما لا تدركان الأمر، لكنكما تسمّمان نفسكما بتناول كل هذه القهوة.

ـ يمكنك قول هذا، قالت فرنسواز ممازحة. أما أنت، فتتخمينّنا بالشاي، وهو أسوأ من القهوة!

ـ لكن الأمر معي منهجي. هزّت رأسها. أمّا أنتما، فتحتسيان القهوة من غير أن تلاحظا حتى، وكأنكما تشربان حليباً.

بدت نضرة تماماً. شعرها كان يلتمع وعيناها تشعّان كالخزف. لاحظت فرنسواز أن قزحية عينيها الفاتحة اللون كانت محاطة بدائرة من الأزرق الداكن. لا يمكن للواحد أن يفرغ أبداً من استكشاف هذا الوجه. كزافيير بتجدّد دائم.

ـ هل تسمعانهما؟ سأل بيار.

كان رجل وامرأة يتحدّثان بصوت منخفض قرب النافذة. المرأة تلامس بتأنق شعرها الأسود داخل شبكة تلفّه.

ـ هكذا، قالت، لم يرَ أحد يوماً شعري. إنه لي وحدي.

ـ لكن لماذا؟ سأل الشاب والشغف يملأ صوته.

ـ هؤلاء النساء التافهات، قالت كزافيير مكشرة بازدراء. عليهن

أن يخترعن لأنفسهن شيئاً ما نفيساً. لا شك أنهن يشعرن بأنفسهن رخيصات.

ـ صحيح، قالت فرنسواز. هذه المرأة تحافظ على شعرها، إيلوي على عذريتها، كانزيتي على فنّها. هذا يمكنهن من توزيع ما تبقى على من يشاء.

ابتسمت كزافيير ابتسامة طفيفة بعثت بعض الحسد في نفس فرنسواز. لا بدّ أن هذا الإحساس بكون الواحد عزيزاً على نفسه يمنح قوّة كبيرة.

كان بيار يحدّق منذ وقت في قعر كوبه. عضلاته انهارت، عيناه تائهتان وقسماته تعكس بلاهة أليمة.

ـ ألا تشعر بتحسّن؟ سألته كزافيير.

ـ لا، قال، لا. بيار المسكين لا يشعر أنه أفضل حالاً.

شرعا باللعبة في سيارة الأجرة. فرنسواز تستمتع دائماً برؤيته يرتجل مشاهد، لكنها لا تقبل لنفسها إلاّ بأدوار ثانوية.

ـ بيار ليس مسكيناً، بيار على ما يرام، أجابت كزافيير بسطوة عذبة. دنت منه حتى كاد وجهها المتوعد يلتصق بوجهه.

ـ إنك على مايرام، أليس كذلك؟

ـ أجل، إنني على مايرام، سارع إلى القول.

ـ إذاً ابتسم.

تسطحت شفتا بيار وتمددتا حتى أذنيه. اضطربت نظرته في الوقت نفسه، فبدا حول ابتسامته وجه معذّب متشنّج. يتمتع بقدرة مذهلة على التلاعب بوجهه. انهارت الابتسامة فجأة وكأن زنبركاً ما انكسر ولم تبقَ سوى تكشيرة متباكية. كبتت كزافيير ضحكة

ومرّرت يدها أمام وجه بيار من الأسفل إلى الأعلى بجدّية منوّم مغنطيسي. عادت الابتسامة خبيثة ماكرة، ثم أسدل بيار أصبعه فوق فمه فتبدّدت الابتسامة من جديد. قهقهت كزافيير ضاحكة.

ـ أي أسلوب خاص بي، أجابت كزافيير بتواضع. مزيج من الإيحاء، التخويف والمنطق.

ـ وتحصلين على نتائج مرضية؟

ـ مذهلة! لو تعرفين بأية حال كان حين توليت أمره.

ـ صحيح أنه ينبغي دائماً التفكير في نقطة الانطلاق. بدا المريض حالياً بالغ الإصابة. كان يمضغ التبغ بنهم من غليونه مثلما يتناول الحمار طعامه من المعلف. عيناه كانتا جاحظتين وكان يعلك التبغ حقاً.

ـ ربّاه! صاحت كزافير بهول.

تابعت بصوت هادىء:

ـ اسمع جيداً، عليك ألاّ تتناول سوى ما يؤكل. التبغ لا يؤكل. أنت بالتالي تخطىء في تناول التبغ.

أنصت بيار مذعناً، ثم عاد يتناول التبغ من غليونه.

ـ إنه طيّب، قال ممعناً.

ـ يجدر أن نحاول إخضاعه لتحليل نفسي. ربما كان والده في طفولته يضربه بغصن بيلسان.

ـ ولماذا؟

ـ يأكل التبغ لمحو آثار الضرب. التبغ هو لبّ البيلسان الذي يدمّره بتناوله الرمزي له.

في هذه الأثناء كان وجه بيار يتحوّل بشكل مخيف. إحمرّ وجهه، انتفخت وجنتاه وعمّ ضباب ورديّ عينيه.

ـ لم يعد لذيذاً، قال بحنق.

ـ دعك منه، قالت كزافيير منتشلة الغليون من يديه.

ـ آه! صاح بيار. نظر إلى يديه الفارغتين. آه آه آه! قال مطلقاً تأوهاً طويلاً.

شهق وانهمرت الدموع فجأة على خدّيه. آه! كم أنا تعس!

ـ إنك تخيفني، قالت كزافيير. توقف.

ـ آه! كم أنا تعس، ردّد بيار. كانت الدموع تسيل غزيرة فوق وجهه الصبياني المربع.

ـ توقف، قالت كزافيير وقد انقبضت قسماتها من الخوف. أخذ بيار يضحك ومسح دموعه.

ـ كم يمكن أن تتحول بمهارة إلى مخبول شاعري، قالت فرنسواز. يمكن لواحدة أن تغرم بمعتوه له وجه كهذا.

ـ لم أفقد الأمل كلياً، قال.

ـ أليس ثمة دور أبله في المسرح؟ سألت كزافيير.

ـ أعرف واحداً رائعاً في مسرحية لفال أينكلام، لكنه دور صامت.

ـ يا للأسف، علقت كزافيير بسخرية وحنان.

ـ هل أزعجتك اليزابيت مرة جديدة بمسرحية كلود؟ قالت فرنسواز. فهمت أنك تجنبتها معلناً أننا سنقوم بجولة الشتاء المقبل.

ـ أجل، قال بيار مستغرقاً في أفكاره. حرّك بملعقته القهوة المتبقية في كوبه. في الواقع، لماذا تصرين إلى هذا الحد على رفض

المشروع؟ إن لم نقم بهذه الرحلة السنة المقبلة، أخشى ألاّ نتمكن من تحقيقها فيما بعد.

شعرت فرنسواز ببعض الإستياء، غير أنه كان طفيفاً إلى حدّ فاجأها. كل ما يجول في داخلها خافت، كامد، وكأن حقنة من الكوكايين جرّدت روحها من أي إحساس.

ـ لكن المسرحية أيضاً قد لا تقدّم بعدها، قالت.

ـ سنتمكن بالتأكد من العمل حين لن يعود بوسعنا الخروج من فرنسا، قال بيار بخبث. رفع كتفيه. ثم أن مسرحيتي ليست هدفاً بحدّ ذاتها. عملنا كثيراً في حياتنا. ألا ترغبين ببعض التغيير؟

في هذا الوقت بالذات حيث أوشك على تحقيق الهدف. لكانت أنهت روايتها السنة المقبلة ولكان بيار حصد أخيراً ثمار عمل دام عشر سنوات. كانت تذكر جيداً أن الغياب لسنة يمثل ما يشبه الكارثة، لكنها كانت تتذكر ذلك بلا مبالاة واهنة.

ـ آه! أنت تعلم كم أنني شخصياً أحبّ السفر!

لا جدوى حتى في المقاومة، تعرف أنها هزمت، ليس بيار من هزمها، بل هي نفسها. ظلّ المقاومة هذا المتبقي لديها ضئيل للغاية، ولا يترك لها أملاً في خوض المعركة حتى النهاية.

ـ ألا ينتابك الجذل حين تتصوّريننا نحن الثلاثة على ظهر سفينة «كايروسيتي»، نتأمل الشاطىء اليوناني يقترب منا! ابتسم لكزافيير. نشاهد من بعيد الأكروبول وكأنها مجرّد صرح صغير مضحك. نستقلّ بعدها على الفور سيارة أجرة تنقلنا مترجرجة إلى أثينا. الطرقات هناك محدّبة.

ـ ونذهب لتناول العشاء في حدائق زابيون، أكملت فرنسواز.

ألقت نظرة فرحة إلى كزافيير في وسعها أن تحبّ القريدس المشوي وفوارغ الضأن، وحتى النبيذ المصمّغ.

ـ سأجدها لذيذة بالتأكيد، وافقت كزافيير. ما يثير اشمئزازي هو هذا الطعام المنطقي الذي يعدونه في فرنسا. هناك سآكل كالغول، أؤكد لكما.

ـ آه، في ما يتعلق بالطعام، فهو مقزّز كما في المطعم الصيني حيث تلذّذت بوجبتك، قالت فرنسواز.

ـ هل سننزل في تلك الأحياء المليئة بالأكواخ الصغيرة من الخشب والصفائح المعدنية؟

ـ لا يمكننا هذا، لن نجد فنادق هناك، قال بيار، مجرّد مجمّعات للمهاجرين. لكننا سنمضي فيها أوقاتاً طويلة.

سيكون من الممتع مشاهدة كل هذا برفقة كزافيير. نظرتها تبدّل ملامح أدنى الأشياء. حين عبرت فرنسواز معها للتو بين حانات الهال، بين تلال الجزر والمشرّدين، بدا لفرنسواز وكأنها تكتشفها للمرة الأولى. تناولت فرنسواز حفنة من القريدس الوردي وراحت تقشّرها. أرصفة مرفأ البيريه المكتظة بالناس، القوارب الزرقاء، الأطفال المتسخون، الحانات العابقة برائحة الزيت واللحم المشوي، كلها ستكشف في عيني كزافيير كنوزاً يجهلانها حتى الآن. نظرت إلى كزافيير ثم إلى بيار. إنها تحبّهما، إنهما يحبان بعضهما ويحبّانها. يعيشون منذ أسابيع معاً وسط افتتان جذل. كم أن هذه اللحظة ثمينة، غارقة في نور الصباح الباكر المنسكب فوق مقاعد الدوم الفارغة، في رائحة الصابون المنبعث من البلاط المغسول، وذاك الطعم الطفيف، طعم البحر الطازج.

ـ بيرجي لديه صور رائعة من اليونان، قال بيار. سوف أطلبها منه اليوم.

ـ صحيح أنكما ستتناولان الغداء عند هؤلاء الناس، قالت كزافيير مقطبة بتودّد.

ـ لو كانت بول وحدها هناك لكنا اصطحبناك معنا، قالت فرنسواز. لكن حضور بيرجي يجعل الأمور رسمية على الفور.

ـ سننفصل عن الفرقة في أثينا، تابع بيار، ونذهب في نزهة طويلة عبر البيلوبونيز.

ـ على ظهر البغل، اشترطت كزافيير.

ـ لمسافة فقط.

ـ وسنعيش مغامرات كثيرة، قالت فرنسواز.

ـ سنخطف طفلة يونانية جميلة، قال بيار. هل تذكرين في طرابلس الفتاة الصغيرة التي أثارت فينا الشفقة؟

ـ أذكر جيداً. شعرنا بالكآبة حين فكرنا أنها ستقبع طوال حياتها عند ذلك المفترق الصحرواي.

إمتقع وجه كزافيير.

ـ سيتوجب علينا بعد ذلك اصطحابها معنا أينما نذهب. سيكون الأمر مربكاً.

ـ سنرسلها إلى باريس، اقترحت فرنسواز.

ـ غير أننا سنجدها في انتظارنا لدى عودتنا.

ـ لكن، قالت فرنسواز، لو علمت أن ثمة في مكان ما من العالم شخصاً لطيفاً جداً أسير وتعس، ألن تحرّكي ساكناً لتأتي به؟

ـ لا، أجابت كزافيير بعناد. لن آبه البتة.

نظرت إلى بيار وفرنسواز وقالت فجأة بشراسة:

ـ لن أرغب في وجود أي كان معنا.

كان هذا تصرّفاً صبيانياً، لكن فرنسواز شعرت وكأن بكرة معدنية ثقيلة سقطت على كتفيها. كان ينبغي أن تشعر بالحرية بعد كل ماتخلّت عنه، لكنها رغم ذلك لم تفتقد يوماً طعم الحرية كما فعلت خلال الأسابيع الأخيرة. يخيل لها حتى في هذه اللحظة أنها مكبّلة تماماً.

ـ أنت محقة، قال بيار، لدينا ما يشغلنا ثلاثتنا. الآن وقد شكلنا ثلاثياً متناسقاً، علينا أن نغتنم الفرصة من دون أن نهتمّ بأي أمر آخر.

ـ لكن إن قام واحد منّا بلقاء مثير، قالت فرنسواز، فسوف يمثل هذا ثراء مشتركاً. من المؤسف أن يحدّ الواحد نفسه.

ـ لكن ما بيننا للتو مازال جديداً. علينا في بادىء الأمر أن نكون أمضينا وقتاً طويلاً، وبعدها يصبح في وسع كلّ منا خوض مغامرات، الرحيل إلى أميركا، تبنّي طفل صيني. لكن ليس قبل... لنقل خمس سنوات.

ـ أجل، بادرت كزافيير محتدمة.

ـ فوافق، قال بيار ماداً يده للمصافحة، إنه اتفاق بيننا. سوف يكرّس كلّ منا نفسه طوال خمس سنوات لثلاثتنا حصراً.

بسط يده على الطاولة.

ـ نسيت أنك لا تحبين هذه الحركة، قال مبتسماً.

ـ بلى، أجابت كزافيير بجدية، إنه اتفاق.

وضعت يدها فوق يد بيار.

ـ فليكن، قالت فرنسواز مادّة يدها بدورها.

خمس سنوات، كم أن هذه الكلمات ثقيلة. لم تخش يوماً الارتباط للمستقبل. غير أن ملامح المستقبل تبدّلت. لم يعد اندفاعاً حرّاً نابعاً من كامل كيانها. ما هو إذاً؟ لم يكن في مقدورها أن تفكر «مستقبلي»، لأنه لا يسعها الانفصال عن بيار وكزافيير. لكن لا سبيل لتقول «مستقبلنا». كانت هذه الكلمة ذات معنى مع بيار. كانا يخططان معاً للأمور نفسها التي يبصرانها أمامهم، حياة، عمل، حبّ. لكن كل هذا لم يعد له معنى مع كزافيير. لا يمكن للواحد أن يعيش معها بل إلى جانبها فحسب. رغم عذوبة الأسابيع الأخيرة، كان الذعر ينتاب فرنسواز حين تتصوّر أمامها سنوات مديدة متماثلة تمتدّ، غريبة ومحتومة مثل نفق مظلم سيتوجب عليها ولوج انعطافاته وتعرجاته باستسلام أعمى. لم يكن هذا مستقبلاً حقاً، بل مسافة من زمن عار، معدم الشكل.

ـ يبدو غريباً في الوقت الحاضر التخطيط لمشاريع، لاحظت فرنسواز. إعتدنا كثيراً العيش بصورة موقتة.

ـ لكنك لم تؤمني كثيراً من احتمال نشوب الحرب، احتجّ بيار، ابتسم. لا تبدئي الآن والأوضاع على وشك أن تسوّى.

ـ لا أفكرّ بالأمر إيجاباً، قالت، لكن المستقبل مسدود.

لم يكن هذا ناجماً عن الحرب، لكن ما هم. فهي مسرورة لأنها تتمكن من التعبير عن مشاعرها عبر هذا الإلتباس. لم تعد منذ وقت طويل متشدّدة كثيراً بشأن الصدق.

ـ صحيح أننا أخذنا شيئاً فشيئاً نعيش غير آبهين بالغد، قال بيار، هذا ما وصل إليه الجميع تقريباً على ما أظن، حتى الأكثر تفاؤلاً بينهم.

ـ هذا يجعل كل شيء جافاً. لم يعد للأمور أيّ امتداد في الزمن.

ـ حقاً؟ لا أعتقد هذا، قال بيار والاهتمام بادٍ عليه. على العكس، كل هذه المخاطر التي تهدّد الأمور تجعلها ثمنية في نظري.

ـ أما أنا، فكلّ ما هنالك يبدو لي بلا فائدة. كيف أشرح لك الأمر؟ في ما مضى، كان يخيّل لي في كل ما أقوم به أن الأشياء تجتذبني وتستحوذ عليّ. روايتي على سبيل المثال. كانت موجودة، تفرض عليّ أن أكتبها أما الآن، فالكتابة لم تعد في نظري سوى تكديس صفحات.

دفعت بيدها تلّة الهياكل الوردية الصغيرة التي أفرغتها. المرأة الشابة ذات الشعر المقوّس تجلس الآن وحيدة أمام كأسين فارغين. فقدت حيويتها. كانت الآن تمرّر تائهة أصبعاً من أحمر الشفاه على فمها.

ـ الحقيقة إننا انفصلنا عن قصّتنا الخاصة، قال بيار، لكن يبدو لي بالأحرى أن ذلك يحمل المزيد من الغنى.

ـ صحيح، قالت فرنسواز مبتسمة. لكنك حتى في الحرب ستجد وسيلة تغتني بها.

ـ لكن كيف تريد أن يحصل شيء كهذا؟ سألت كزافيير بخشونة. بدت متعالية عليهما. لا يمكن أن يكون الناس أغبياء إلى حدّ يجعلهم يرغبون في أن يقتلوا.

ـ لا أحد يسألهم رأيهم، قالت فرنسواز.

ـ لكن الناس هم الذين يقرّرون رغم كل شيء، وليسوا أغبياء جميعاً، احتجّت كزافيير بازدراء عدائي.

كانت تستاء على الدوام من العبث واللغو اللذين تجدهما في الأحاديث حول الحرب والسياسة. إلاّ أن فرنسواز فوجئت بعنف لهجتها.

ـ ليسوا مجانين، لكنهم ضاق ذرعهم، أوضح بيار. المجتمع آلة عجيبة، لا يسيطر عليها أحد.

ـ حسناً! لا أفهم كيف ندع هذه الآلة تسحقنا.

ـ ماذا تريديننا أن نفعل؟ سألت فرنسواز.

ـ ألاّ نحني رؤوسنا كالخراف.

ـ علينا إذاً أن ننضمّ إلى حزب سياسي.

قاطعتها كزافيير.

ـ رباه! لا أود تلطيخ يدي في حزب.

ـ إذاً ستكونين خروفاً، أكّد بيار. هكذا هي الأمور. لا يمكنك مقاومة المجتمع سوى بوسيلة اجتماعية.

ـ على كل حال، أعلنت كزافيير وقد اصطبغ وجهها بالحمرة من شدة حنقها، لو كنت رجلاً، لما كنت رحلت حين يأتون لاصطحابي.

ـ هذا لن يجدي، أجابت فرنسواز. سوف يقتادونك بين شرطيين، وإن تشبّثت في موقفك، سوف يلصقونك بالحائط ويرمونك بالرصاص.

عمّت تكشيرة متعجرفة وجه كزافيير.

ـ صحيح أن الموت يبدو لكما أمراً فظيعاً.

لا بدّ أن كزافيير كانت غاضبة إلى أقصى الحدود حتى أخذت تفكر بخبث كهذا. خيّل لفرنسواز أن فورة الغضب هذه تستهدفها

هي بصورة خاصة. لم تكن تدري إطلاقاً أي خطأ اقترفته. نظرت إلى كزافيير بألم. ذلك الوجه الرقيق الذي يبعث الحنان، أي أفكار مسمومة شوّهته فجأة؟ أفكار تمت بمكر داخل ذلك الجبين المتشبّث، في ظلّ الشعر الحرير، وكانت فرنسواز عزلاء أمامها. إنها تحب كزافيير ولم يعد في وسعها احتمال حقدها.

ـ قلت للتو إن الاستسلام للقتل أمر مثير للسخط، قالت.

ـ لكن الأمر مختلف إن مات الواحد عن قصد.

ـ أن تقتلي نفسك حتى لا يقتلك أحد لا يعني الموت عن قصد.

ـ على كل حال، أفضّل ذلك. وأضافت وكأنما تائهة، متعبة: ثم إن هناك وسائل أخرى. في وسع الواحد الفرار من الجيش.

ـ ليس هذا بالأمر السهل، تعلمين، قال بيار.

لانت نظرة كزافيير وابتسمت لبيار ابتسامة مخادعة.

ـ هل تفعلها إن أمكن الأمر؟ سألته.

ـ لا، لألف سبب. أولاً سيتوجب عليّ ألاّ أفكر في العودة يوماً ما إلى فرنسا، في حين أن مسرحي وجمهوري هنا، وهنا يكتسب عملي معنى ويحظى بفرص لأن يترك أثراً.

تنهّدت كزافيير.

ـ صحيح، قالت حزينة وخائبة الظن. تجرّ خلفك كل هذه الخردة القديمة.

ارتعدت فرنسواز. كلام كزافيير يحمل على الدوام معنى مبطّناً. هل إنها تشمل فرنسواز في الخردة القديمة؟ هل أنها تأخذ على بيار احتفاظه بقدر من الحبّ لها؟ لاحظت فرنسواز أحياناً لحظات

صمت مفاجئة حين كانت تقطع عليهما جلسة حميمة، اكتئاب عابر حين يطيل بيار الحديث إليها قليلاً. تغاضت عن المسألة حتى الآن، غير أن الأمر يبدو واضحاً اليوم. تود كزافيير أن تحسّ ببيار حراً ووحيداً أمامها.

ـ تلك الخردة القديمة، قال بيار، إنما هي أنا نفسي. لا يمكن تمييز شخص ما عمّا يحسّ به، عمّا يحبّ، عن الحياة التي بناها لنفسه.

أومضت عينا كزافيير.

ـ أنا من جهتي، قالت مرتعشة بشكل مسرحي قليلاً، أذهب إلى أي مكان في أي وقت كان. يجب ألاّ نكون مرتبطين ببلد أو بمهنة. ولا بأحد أو بأي شيء، أكملت باندفاع حاد.

ـ هذا لأنك لا تدركين أن ما نفعل هو ما نحن عليه، الأمر واحد، قال بيار.

ـ هذا يتوقف على الشخص، من يكون، قالت كزافيير. ابتسمت ابتسامة حميمة ملؤها التحدّي. لم تكن تفعل شيئاً وهي كزافيير. هي كزافيير بشكل لا يمكن إتلافه.

عبرت لحظة صمت قالت بعدها بتواضع حقود.

ـ بالطبع، أنتما تعرفان هذه المسائل أكثر مني.

لكنك تعتقدين أن ذرّة من التمييز أفضل من كل هذه المعرفة؟ قال بيار بمرح. لماذا أخذت تبغضيننا فجأة؟

ـ أنا، أبغضكما؟

كانت كزافيير تحملق بعينين بريئتين، لكن شفتيها ظلتا متشنجتين.

ـ يجب أن أكون مجنونة حتى أبغضكما.

ـ إستأت من ثرثرتنا المترددة حول الحرب في حين كنا نقوم بمشاريع جميلة؟

ـ يحقّ لكما التحدّث عمّا تشاءان.

ـ تظنين أننا نلهو باختراع مأساة من لا شيء، لكنني أؤكد لك العكس. الوضع يستوجب التفكير به ملياً. مجرى الأحداث مهم بالنسبة لنا ولك أيضاً.

ـ أعرف هذا جيداً، قالت كزافيير مرتبكة بعض الشيء. لكن ما نفع الكلام عليه؟

ـ لنكون مستعدين لكل احتمالات. ابتسم: ليس هذا بالاحتراس البورجوازي. لكنك إن كنت تكرهين حقاً أن يسحقك العالم، إن كنت ترفضين أن تكوني خروفاً بين الخراف، فلا سبيل سوى أن تعيدي التفكير بوضوح في وضعك.

ـ لكنني لا أفقه شيئاً في هذه المسائل، قالت كزافيير شاكية.

ـ لا يمكن فهم الأمور في يومٍ واحد. عليك أن تشرعي أولاً في قراءة الصحف.

ضغطت كزافيير بيديها على صدغيها.

ـ آه! كم أن هذا مزعج! لا يعلم الواحد من أي زاوية يمسك بها!

ـ هذا صحيح، قالت فرنسواز. إن لم يكن لديك اطلاع، استعصت عليك الأمور.

كان قلبها لايزال يغصّ بالألم والغضب. الغيرة هي التي تجعل كزافيير تكره أحاديث الكبار تلك التي لا يمكنها المشاركة فيها. الحقيقة أنها لم تحتمل أن يتحوّل انتباه بيار عنها لبرهة.

ـ حسناً، أعرف ما عليّ أن أفعل، قال بيار. سأقدّم لك في أحد الأيام شرحاً موسعاً عن السياسة، وسأطلعك بعدها بانتظام. تعرفين، ليست المسألة معقدة.

ـ أودّ ذلك، قالت كزافيير جذلة. انحنت نحو فرنسواز وبيار. هل رأيتما إيلوي؟ جلست إلى طاولة قرب المدخل بأمل أن تنتزع منكما بضع كلمات وأنتما خارجان.

كنت إيلوي تغمس كرواسان في فنجان من القهوة بالكريمة. لم يكن هناك أي مكياج على وجهها. بدت خفرة متوحدة، ولم يكن هذا بالانطباع المزعج.

ـ إن رآها الواحد هكذا من دون أن يعرفها، ظنّها لطيفة، قالت فرنسواز.

ـ أنا واثقة من أنها تعمّدت المجيء إلى هنا لتناول الفطور من أجل أن تلتقيكما، أكدت كزافيير.

ـ في وسعها القيام بأمر كهذا، قال بيار.

كان المقهى امتلأ ببعض الزبائن. إلى الطاولة المجاورة جلست امرأة تكتب رسائل وهي تسترق النظر إلى الصندوق وكأنها تخشى أن يضبطها أحد ما. لا شك أنها كانت تخشى أن يكشف نادل أمرها ويرغمها على استهلاك شيء ما. لكن أي نادل لم يظهر، رغم أن رجلاً جالساً قرب النافذة كان يطرق على الطاولة بضربات متكرّرة.

رمق بيار ساعة الحائط.

ـ علينا أن نعود، قال. مازال عليّ القيام بأمور كثيرة قبل أن نذهب إلى الغداء عند بيرجي.

ـ أجل، عليكما أن تذهبا الآن، وقد بدأنا للتو نستمتع بوقتنا، قالت كزافيير بنبرة لوم.

ـ لكننا استمتعنا بوقتنا، قال بيار. ما أهمية ظلّ طفيف لخمس دقائق بالمقارنة مع هذه الليلة الطويلة؟

ابتسمت كزافيير ابتسامة متحفّظة وخرجوا من الدوم وهم يومئون لإيلوي من بعيد. لم تكن فرنسواز متحمّسة كثيراً لفكرة الغداء عند بيرجي، لكنها كانت مسرورة لأنها ستتمكن من البقاء وحيدة قليلاً مع بيار، أو على الأقل من رؤيته في غياب كزافيير. إنها نافذة صغيرة على باقي العالم. بدأت تختنق داخل هذا الثلاثي الذي ينغلق مطبقاً أكثر وأكثر على نفسه.

أمسكت كزافيير بذراع كل من فرنسواز وبيار مبدية إرادة طيبة، غير أن وجهها ظلّ كئيباً. عبروا تقاطع الطرقات ووصلوا إلى الفندق من دون أن يتفوه أي منهم بكلمة. كانت رسالة تنتظر في خزانة فرنسواز.

ـ يتهيأ لي أنه خطّ بول. قالت فرنسواز. فتحت الرسالة. إنها تلغي الغداء. تدعونا بدل ذلك للعشاء في السادس عشر من الشهر.

ـ يا له من خط رائع! قالت كزافيير وعيناها تشعان.

ـ هذه فرصة حقيقية، قال بيار.

لم تقل فرنسواز شيئاً. وقفت تقلّب الورقة بين يديها. لو أنها لم تفتح الرسالة أمام كزافيير، لكانت تمكنت من إخفاء مضمونها عنها وأمضت النهار وحيدة مع بيار. أما الآن، فلم يعد من الممكن إصلاح الأمور.

ـ سنصعد لنغتسل قليلاً ونلتقي بعدها في الدوم، قالت.

ـ إنه يوم السبت، قال بيار. يمكننا الذهاب إلى سوق البال ونتناول الغداء في العنبر الأزرق الكبير.

ـ أجل، كم سيكون هذا ممتعاً! يا لضرب الحظ! رددت كزافيير جذلة كان فرحها ينطوي على إصرار يلامس التطفّل.

صعدوا الأدراج. دخلت كزافيير إلى غرفتها في حين تبع بيار فرنسواز إلى غرفتها.

ـ ألا تشعرين بالنعاس؟ سألها.

ـ لا، حين نتنزه هكذا، لا أجد صعوبة في قضاء ليلة من السهر.

بدأت تزيل الماكياج عن وجهها. ستأخذ حمّاماً بارداً وتشعر بعده أنها مرتاحة تماماً.

ـ الطقس جميل، سنمضي نهاراً رائعاً، قال بيار.

ـ إن كانت كزافيير لطيفة.

ـ ستكون لطيفة. تكتئب دائماً حين تفكر أنها ستفارقنا قريباً.

ـ لم يكن هذا السبب الوحيد.

تردّدت قليلاً، كانت تخشى أن يرى بيار التهمة فظيعة.

ـ أعتقد أنها استاءت حين دار حديث خاص بيننا لخمس دقائق. تردّدت من جديد.

ـ أظنها تغار قليلاً.

ـ بل تغار بشكل مريع، أكّد بيار. الآن فقط تدركين هذا؟

ـ تساءلت إن لم أكن مخطئة.

كانت تشعر دوماً بالصدمة حين ترى بيار يتقبّل بتعاطف مشاعر تقاومها بداخلها بكل ما لديها من قوة.

ـ تغار منّي، تابعت.

ـ تغار من كل شيء. من إيلوي، من بيرجي، من المسرح، من السياسة. إن فكرّنا في الحرب رأت في ذلك خيانة من جانبنا. علينا ألاّ نهتم إلا بها.

ـ كانت ناقمة عليّ أنا اليوم، قالت فرنسواز.

ـ أجل، لأنك أبديت تحفظات حيال مشاريعنا المستقبلية. لا تغار منك بسببي أنا فقط، بل عليك أيضاً.

ـ أعلم هذا.

إن كان بيار يسعى للتخفيف عنها، فهو لم ينجح. شعرت بالضيق يطبق عليها أكثر.

ـ أرى أن هذا مؤسف. إنه حبّ مجرّد من أي صداقة. خيّل للواحد أن الآخر يحبّه خلافاً له وليس من أجله.

ـ إنها طريقتها في الحب، أجاب بيار.

هذا الحب كان يناسبه بشكل جيد، حتى أنه يخيل له أنه انتصر على كزافيير. أما فرنسواز، فتشعر بألم أنها تحت رحمة هذا القلب الشغف المشكك. لم تعد موجودة إلاّ عبر المشاعر النزقة التي تكنها لها كزافيير. تلك الساحرة استولت على صورتها وراحت ترميها بأشدّ التعاويذ شراً. كانت فرنسواز في هذا الوقت شخصاً غير مرغوب فيه، روحاً خبيثة متيبّسة. عليها أن تنتظر ابتسامة من كزافيير حتى تستعيد بعض الاعتبار الذاتي.

ـ سوف نرى كيف سيكون مزاجها، قالت.

غير أنه كان مقلقاً حقاً أن تتوقف سعادتها وكيانها نفسه إلى هذا الحد على ذلك الضمير الغريب المتمرّد.

تناولت فرنسواز بلا حماس لقمة من قطعة الحلوى بالشوكولا الضخمة. لم يكن في وسعها ابتلاع أي شيء. كانت حاقدة على بيار. يعلم جيداً أن كزافيير ستأوي بالتأكيد إلى فراشها في ساعة مبكرة بعد الليلة التي أمضوها ساهرين. كان يجدر به أن يدرك بعد سوء التفاهم الذي حصل في الصباح أن فرنسواز متلهّفة للمكوث لوقت طويل وحيدة معها. حين شفيت فرنسواز من مرضها، قام الثلاثة بترتيبات صارمة تقضي بأن تخرج فرنسواز مع كزافيير كل يومين من السابعة إلى منتصف الليل في حين يلتقيها بيار في اليوم التالي من الثانية إلى السابعة. أما باقي الوقت، فيتوزع على هوى كل منهم. غير أن اللقاءات على إنفراد مع كزافيير كانت من المحرّمات. كانت فرنسواز تتقيّد حرفياً بهذا الاتفاق، بينما يعمل بيار بما يناسبه. بالغ هذا المساء إذ طلب متباكياً متظارفاً ألا يطرداه قبل أن يحين وقت رحيله إلى المسرح. لم يبد عليه أي نوم. جالساً على كرسي عالٍ إلى جانب كزافيير، كان يخبرها باحتدام حياة رمبو. بدأت القصة في سوق البال، لكن استطرادات كثيرة تخلّلتها، حتى أن رمبو لم يكن التقى فرلين بعد. كان بيار يتكلّم. جمله تصف رمبو، غير أن الصوت يحمل الكثير من التلميحات الحميمة وكزافيير تتفرّس فيه بانقياد شهواني. العلاقة بينهما تقارب العفّة، غير أن بعض القبلات والملامسات الطفيفة نسجت بينهما تفاهماً حسياً يظهر خلف تحفّظهما. حوّلت فرنسواز نظرها عنهما. هي أيضاً تعجبها قصص بيار عادة، غير أن أياً من تماوجات صوته، الصور اللذيذة التي يصفها أو الانعطافات غير المتوقعة في جملة لم تكن هذه الليلة تترك أثراً في نفسها. كان حقدها عليه كبيراً.

يحرص على أن يوضح لفرنسواز يومياً تقريباً أنها تحتل مثله مكانه خاصة في حياة كزافيير، غير أنه يتصرّف وكأن هذه الصداقة بين المرأتين لا وزن لها في نظره. إنه يحظى بالتأكيد بالمرتبة الأولى،، لكن هذا لا يبرر تطفّله. بالطبع لم يخطر لها أن تردّ طلبه. لكان اضطرب من شدة الغضب، وربما كزافيير أيضاً. لكن فرنسواز، إذ سارعت إلى الموافقة على وجود بيار، إنما بدت وكأنها لا تكترث لكزافيير. ألقت فرانسواز نظرة إلى المرآة التي تكسو الجدار بكامله فوق البار. كانت كزافيير تبتسم لبيار. يسرّها بالطبع أن يدّعي الإستئثار بها، لكن هذا لا يعني أنها لا تلوم فرنسواز التي تدعه يفعل.

ـ آه! أتصوّر منظر السيدة فرلين! قالت كزافيير لا تزال تكرهها؟ ظلت لطيفة طوال ما بعد الظهيرة، إنما بطريقة سطحية، لأن الطقس جميل ولأن سوق البال يفتنها. لطفها لم يكن يعني شيئاً.

ـ ثم ماذا يسعني أن أفعل إن كانت تكرهني؟ فكرت فرنسواز.

رفعت الكوب إلى شفتيها ولاحظت أن يديها ترتجفان. أسرفت كثيراً في تناول القهوة خلال النهار واللهفة بعثت فيها الحمّى. لا يسعها القيام بأي شيء ولا وسيلة لديها للتأثير على تلك الروح الصغيرة العنيدة، ولا حتى على ذلك الجسد البديع من لحم الذي يدافع عنها، جسد دافىء ليّن، متاح لا يدري رجل غير أنه ينتصب أمام فرنسواز كدرع صلب. لا يمكنها سوى أن تنتظر بلا حراك الحكم الذي سيبرّؤها أو يدينها. مضت عشر سنوات وهي تنتظر.

ـ هذا كريه، فكرت فجأة.

أمضت النهار بكامله تراقب أي عبسة من عبسات فرنسواز، أي تبدّل في صوتها. كلّ ما كان يشغلها في هذه اللحظة حتى

كان ذلك القلق البائس وهي منفصلة عن بيار، ذلك الديكور الجميل المنعكس في المرآة، وهي منفصلة عن نفسها.

ـ وإن كانت تكرهني، ما هم؟ قالت ثائرة. ألا يمكنها النظر في حقد كزافيير وجهاً لوجه، مثلما قطع الحلوى بالجبن المرصوفة على الطبق؟ قطع حلوى بلون أصفر زاهٍ بديع، مزينة بأصابع وردية، يكاد الواحد يشتهي التهاماً لو أنه يجهل طعمها الحاد كطعم مولود. ذلك الرأس الأشقر الصغير لم يكن يحتلّ مساحة أكبر من العالم، يمكن للواحد أن يغمره بنظرة وحيدة، ودخان الحقد ذاك المنبعث منه زوابع صغيرة، لو أمكن الواحد إعادته إلى علبته، لكان سيطر عليه. ليس عليها إلاّ أن تتفوّه بكلمة واحدة حتى ينهار الحقد بصخب عاتٍ ويذوب دخاناً يتسع له جسد كزافيير تماماً، دخاناً مسالماً مثل الحموضة المختبئة تحت الكريمة الصفراء التي تكسو قطع الحلوى. كانت تشعر بوجودها، لكن هذا لن يغيّر شيئاً. عبثاً كانت تتخبّط في دوامات غاضبة، كل ما سيظهر على وجهها الأعزل هو بعض التموّرات غير المتوقعة والمنتظمة مثل غيوم تعبر السماء.

ـ إنها مجرّد خواطر في رأسي، قالت لنفسها.

خالت لوهلة أنّ الكلمات أدّت مفعولها. لم يعد هناك سوى صور صغيرة تعبر مشوّشة داخل الجمجمة الشقراء، وإن حوّل الواحد رأسه لما عاد لمحها حتى.

ـ للأسف، علي أن أذهب! ها أنني تأخرت، قال بيار.

وثب هابطاً عن الكرسي وارتدى معطفه. كان تخلى عن وشاحات العجائز الدافئة التي اعتادها، فبدا شاباً وفرحاً. شعرت فرنسواز بالحنان يغمرها، لكنه كان حناناً متوحداً كالحقد. كان

يبتسم وركنت الابتسامة أمامها من غير أن تختلط باندفاعات قلبها.

ـ غداً صباحاً في العاشرة، في الدوم.

ـ إتفقنا، أراك غداً صباحاً.

صافحته غير مبالية ثم رأت يده تطبّق على يد كزافيير وأدركت من ابتسامة كزافيير أن عناق هذه الأصابع إنما هو ملامسة.

ابتعد بيار. إلتفت كزافيير إلى فرنسواز. أفكار في رأسها... من السهل أن تقول ذلك، غير أن فرنسواز لم تكن تصدّق ما قالته، لم يكن هذا سوى خدعة. كان ينبغي للكلمة السحرية أن تنبع من أعماق روحها، غير أن روحها كانت خدرة تماماً. ظلّ الضباب الخسيس معلّقاً فوق العالم، يفسد الأصوات والأضواء، ينسلّ داخل فرنسواز حتى العظام. عليها أن تنتظر حتى يتبدّد من تلقاء نفسه. أن تنتظر، تترقّب وتتألم بائسة.

ـ ماذا تودين أن نفعل؟ سألتها.

ـ ما تشائين، أجابت كزافيير بابتسامة فاتنة.

ـ تفضلين أن نذهب في نزهة أو أن نقصد مكاناً ما؟

تردّدت كزافيير، لا بدّ أنه كان لديها فكرة محدّدة في رأسها.

ـ ما قولك لو نذهب في جولة إلى «السهرة الراقصة الزنجية»؟ سألت.

ـ فكرة ممتازة، أجابت فرنسواز. لم نذهب إلى هناك منذ دهر.

خرجتا من المطعم وأمسكت فرنسواز بذراع كزافيير. ما تقترحه كزافيير عليها إنما هو سهرة رسمية. حين تريد التعبير بشكل خاص عن عاطفتها لفرنسواز، تختار أن تدعوها للرقص. لكن قد تكون

بكل بساطة رغبت في الذهاب إلى السهرة الراقصة الزنجية لحسابها الخاص.

ـ هل نمشي قليلاً؟ اقترحت فرنسواز.

ـ أجل، لنمشِ عبر جادة مونبارناس. أفلتت ذراعها موضحة: أفضّل أن أمسك أنا ذراعك.

أذعنت فرنسواز وحين شعرت بأصابع كزافيير تلامس أصابعها بثقة ورقة، بزغ في نفس فرنسواز فجر سعادة، غير أنها لم تدرِ ما إذا كان عليها أن تصدّق ذلك حقاً.

ـ انظري، ها هي السمراء الحسناء مع هرقلها، قالت كزافيير.

كانا متشابكي الأيدي. رأس المصارع بدا صغيراً دقيقاً فوق كتفيه الشاسعتين والمرأة تضحك مقهقهة.

ـ بدأت أشعر أنني في داري هنا، قالت كزافيير وهي تلقي نظرة سرور إلى رصيف الدوم.

ـ طال بك الأمر، أجابت فرنسواز.

أطلقت كزافيير تنهيدة طفيفة.

ـ آه! حين أتذكر شوارع روان القديمة في المساء حول الكاتدرائية، يكتئب قلبي!

ـ لَمْ يعجبك الأمر كثيراً حين كنت هناك.

ـ كان الأمر شاعرياً للغاية.

ـ هل ستعودين لزيارة عائلتك؟

ـ بالطبع، أنوي الذهاب إلى هناك هذا الصيف.

كانت عمّتها تراسلها كل أسبوع. تقبلوا المسألة في نهاية الأمر أفضل بكثير مما يمكن تصوّره.

إنهار فجأة طرفا فمها وبدت منهكة كامرأة ناضجة.

ـ كنت أحسن العيش في تلك الفترة. مذهل كيف كان في وسعي الإحساس بالأمور.

أسف كزافيير كان يخفي على الدوام لوماً ما. انتقلت فرنسواز إلى موقع دفاعي.

ـ لكنني أذكر أنك كنت في ذلك الوقت تشكين من أنك تتيبّسين.

ـ لم يكن الأمر كما هو الآن، قالت كزافيير بصوت مخنوق.

أخفضت رأسها وتمتمت:

ـ الآن صرت ذائبة.

قبل أن تتمكن فرنسواز من الردّ عليها، ضغطت كزافيير على ذراعها فرحة.

ـ لو تشترين واحدة من قطع الكرميل هذه الرائعة قالت وهي تتوقف أمام متجر وردي متلألى مثل علبة عمادة.

خلف زجاج الواجهة كان طبق خشبي كبير يدور ببطء على نفسه، عارضاً على الأنظار النهمة بلحاً محشواً، جوزاً معقداً بالسكر وحلوى بالشوكولا.

ـ إشتري لنفسك شيئاً، قالت كزافيير بإلحاح.

ـ ينبغي ألاّ أشعر بالغثيان خلال سهرة رسمية رائعة كما حصل في المرّة الماضية.

ـ آه! قطعة أو إثنتان من الكرميل، ليس بالأمر الخطير. ابتسمت. كم أن ألوان هذا المتجر جميلة، يخيل لي أنني ألج صوراً متحركة.

دفعت فرنسواز الباب.

ـ ألا تريدين شيئاً؟ سألتها.

ـ أودّ قطعة من راحة الحلقوم.

كانت كزافيير تتفحّص السكاكر بافتتان.

ـ لو نشتري أيضاً من هذا، اقترحت مشيرة إلى سكاكر رقيقة مغلفة بورق حرير. كم أن اسمها جميل.

ـ قطعتا كرميل، قطعة راحة حلقوم وربع أوقية من أصابع الجنّ، قالت فرنسواز.

حشرت البائعة السكاكر في كيس صغير من الورق المنقوش، يغلف بواسطة خيط ورديّ يندسّ في ثقب.

ـ في وسعي أن أبتاع السكاكر من أجل الحصول على الكيس، قالت كزافيير يشبه صرّة نقود قديمة. جمعت نصف دزينة منه، قالت بفخر.

مدّت قطعة كرميل لفرنسواز وأخذت لقمة من المربّع الصغير اللّزج.

ـ نبدو مثل عجوزين صغيرتين يروّحان عن نفسهما بالسكاكر، قالت فرنسواز. هذا مخجل.

ـ حين نبلغ الثمانين، سنجرّ نفسنا مهرولتين إلى متجر السكاكر ونقف ساعتين أمام الواجهة نناقش طعم راحة الحلقوم واللعاب يسيل قليلاً على شفاهنا. سكان الحي سيشيرون إلينا بالأصابع.

ـ وسوف نقول ونحن نهزّ رأسنا، لم يعد الكرميل ما كان في الماضي! لن تكون خطانا أسرع مما هي الآن.

إبتسمتا لبعضهما. كانتا تستمتعان وهما تتسعكان على طول الجادة بالسير بخطى عجائز ثمانينات.

ـ ألا يزعجك أن نلقي نظرة إلى القبعات، سألت كزافيير وهي تتوقف أمام متجر الملابس.

ـ هل تودين شراء واحدة؟

أخذت كزافيير تضحك.

ـ لا أقول إنني أمقت القبعات، لكن وجهي هو الذي يرفضها. لا، أتأملها من أجلك أنت.

ـ أتريدين أن أضع قبّعة؟

ـ ستبدين جميلة بإحدى قبعات القش هذه، قالت كزافيير متوسلة. تصوّري وجهك تحتها. وحين تذهبين إلى لقاء أنيق تضعين شبكة كبيرة تربطينها من الخلف بعقدة جميلة.

كانت عيناها تلتمعان.

ـ آه! قولي لي إنك ستفعلين.

ـ أشعر ببعض الخجل. شبكة!

ـ لكن يمكنك أن تسمحي لنفسك بكل ما تشائين، قالت كزافيير متباكية. آه! لو تتركينني أختار لك ملابسك!

ـ حسناً، أجابت فرنسواز فرحة، ستختارين لي ثيابي الربيعية. أسلّمك أمري.

صافحت كزافيير. كم يمكن أن تكون لطيفة! ينبغي التغاضي عن مزاجها المتقلّب، فالوضع ليس سهلاً وهي شابة جداً. نظرت إليها فرنسواز بحنان. كانت تتمنّى من كل قلبها أن تحظى كزافيير بحياة سعيدة.

ـ ماذا عنيت بالضبط حين اشتكيت منذ قليل من أنك ذائبة؟ سألت بعذوبة.

ـ آه! مجرّد ما قلت.

ـ لكن ماذا؟

ـ لا شيء.

ـ أودّ أن تكوني راضية عن حياتك.

لم تجب كزافيير. تبخّر كل فرحها بلحظة.

ـ هل تعتقدين أن معايشة الناس بشكل حميم تفقد الواحد بعضاً من نفسه؟

ـ أجل، يصبح الواحد أشبه بثؤلول.

كان في صوتها نية مسيئة. فكرت فرنسواز أنه لا يبدو عليها في الواقع استياء كبير من العيش في المجتمع، لا بل تغضب كثيراً حين يخرج بيار وفرنسواز من دونها.

ـ رغم ذلك، ما زالت أمامك أوقات كثيرة من الوحدة.

ـ لكن الأمر تغيّر، لم تعد وحدة حقيقية.

ـ أفهم هذا، باتت فواصل بيضاء، في حين كانت من قبل إحساساً يملؤك.

ـ هذا صحيح، وافقتها كزافيير بحزن.

فكّرت فرنسواز:

ـ لكن ألا تظنين أن المسألة ستكون مختلفة إن حاولت حمل نفسك على القيام بشيء ما؟ إنها أفضل وسيلة حتى لا تذويين.

ـ وماذا أفعل؟

بدت مثيرة للشفقة. تمنت فرنسواز من كل قلبها مساعدتها، لكنه من الصعب مساعدة كزافيير. ابتسمت.

ـ ممثلة مثلاً؟

ـ آه! ممثلة.

ـ إنني واثقة تماماً من أنك ستصبحين ممثلة لو أنك تعملين فقط، قالت فرنسواز بحماس.

ـ لا، أبداً، أجابت كزافيير منهكة.

ـ كيف لك أن تعرفي؟

ـ بالضبط، من العبث أن يعمل الواحد من غير أن يعرف.

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ كل من هذه النساء التافهات تعتقد أنها ستصبح ممثلة.

ـ هذا يعطيني فرصة من أصل مئة.

ضغطت فرنسواز أكثر على ذراعها.

ـ يا لهذا المنطق، قالت. إسمعي، أظن أنه ليس عليك إحتساب فرصك. فكل المكاسب تنتظرك من جهة، وليس لديك من جهة أخرى ما تخسرينه يجب أن تراهني على النجاح.

ـ أجل، سبق أن شرحت لي هذا.

هزّت كزافيير رأسها بارتياب.

ـ لا أحب أفعال الإيمان.

ـ ليس هذا فعل إيمان، بل رهانٌ.

ـ الأمر سيان.

كشّرت كزافيير تكشيرة طفيفة.

ـ هكذا تعزي كاتزيني وإيلوي نفسيهما.

ـ أجل، هذا يولّد أوهاماً للتعويض عن النقص. الأمر مثير

للاشمئزاز، وافقتها فرنسواز. لكن ليس المطلوب منك أن تحلمي بل أن تريدي، وهذا مختلف!

ـ اليزابيت تريد أن تكون رسامة كبيرة، قالت كزافيير، ويمكن القول إن النتيجة رديئة.

ـ أتساءل بشأنها. يبدو لي أنها تعمل بموجب وهمها حتى تصدّق بطريقة أفضل، لكنها عاجزة عن أن تريد أي شيء من كل قلبها.

ـ فكّرت قليلاً.

ـ يتهيأ لك أن الواحد يتشكّل منذ البدء بصورة نهائية، لكنني لا أوافقك الرأي. يخيّل لي أن للواحد الحرية في أن يجعل من نفسه ما هو. ليس من باب الصدفة. إن كان بيار طموحاً جداً في شبابه. أتعلمين ما قيل عن فكتور هوغو، قالت كزافيير.

حثّت خطاها.

ـ ألا يمكننا أن نسرع قليلاً؟ الجو بارد، ألا تظنين؟

ـ لنسرع إذاً، أجابت فرنسواز.

أضافت مستعيدة حبل أفكارها:

ـ كم أود إقناعك. لماذا تشككين في نفسك؟

ـ لا أريد أن أعلّل نفسي بالأكاذيب. أرى أن الإيمان شيء مقزّز. ليس هناك ما هو أكيد سوى ما نلمسه.

حدّقت في قبضتها المطبقة وعلى وجهها تقطيبة غريبة ملؤها الضغينة. تفرّست فرنسواز في وجهها بقلق: ما الذي يجول في رأسها؟ من المؤكد أنها لم تعرف النوم خلال تلك الأسابيع التي سادتها سعادة هائجة. طرأ ألف أمر في داخلها، في ظلّ ابتساماتها.

لم تنس شيئاً منها، كلّها هنا، في زاوية ما، وسوف تنفجر يوماً ما بعد أزمات طفيفة.

إنعطفتا في شارع بلومي. أبصرتا السيجار الأحمر الضخم الذي يعلو المقهى حيث مكتب لبيع التبغ.

ـ تناولي قطعة من هذه السكاكر، عرضت فرنسواز لتغيير الموضوع.

ـ لا، لا أحبها كثيراً.

شدّت فرنسواز أصابعها على أحد العيدان الرقيقة الشفافة.

ـ أرى أن طعمه لذيذ، قالت. طعم جاف ونقي.

ـ لكنني أكره النقاوة، قالت كزافيير وهي تلوي شفيتها.

انتاب القلق فرنسواز من جديد. ما الذي تراه كزافيير نقياً أكثر مما ينبغي؟ أهي الحياة التي يحتجزان فيها كزافيير؟ أهي قبلات بيار؟ أم هي نفسها؟ «كم أن وجهك نقي»، كانت تقول لها كزافيير أحياناً. على أحد الأبواب كتب بأحرف ضخمة بيضاء «سهرة راقصة استعمارية». دخلنا كان حشد يتدافع أمام الكونتوار، يعجّ بوجوه سوداء. وجوه صفراء شاحبة، وأخرى بلون القهوة بالحليب. وقفت فرنسواز في الصف لشراء بطاقتي دخول. سبعة فرنكات للسيدات وتسعة للرجال. تلك الرومبا من الجهة الأخرى من الفاصل كانت تبلبل كل أفكارها. ما الذي حصل بالضبط؟ بالطبع، إن تبرير ردّات فعل كزافيير بنزوة عابرة ينمّ دائماً عن قلّة تبصّر. إن العثور على مفتاح أفكارها يستوجب استعادة كل ما حصل خلال الشهرين الأخيرين. غير أن القديمة التي أخفتها كزافيير بعناية لا تنبعث إلا عبر معاكسة حاضرة. حاولت فرنسواز أن تتذكر. جادة مونبارناس، كان الحديث خفيفاً وبسيطاً. ثم بدل

أن تستسلم لتلك الخفة، انتقلت فرنسواز بغتة إلى مواضيع مهمة، فعلت ذلك بدافع العاطفة، لكن ألاّ تحسن إظهار عاطفتها إلا بواسطة الكلمات، في حين كانت تلك اليد المخملية متراخية في يدها وذلك الشعر العطر يلامس وجنتها؟ أهذه هي نقاوتها الخرقاء؟

ـ يا لها من مفاجأة! إنّ جماعة دومينيك بكاملها هنا! قالت كزافيير لدى دخولها الصالة الفسيحة.

كان هناك شانو الصغيرة، ليز مالان، دوران، شاييه... أشارت لهم فرنسواز برأسها مبتسمة في حين رمقتهم كزافيير بنظرة منطفئة. لم تفلت يد فرنسواز. لم تكن تستاء حين تدخلان مكاناً ما من أن يظنهما الناس عشيقتين. فهذا من الاستفزازات التي تعجبها.

ـ تلك الطاولة هناك ستكون ممتازة، قالت.

ـ سوف آخذ كأساً من البنش المارتينيكي.

ـ أنا أيضاً، كأساً من البانش.

أضافت بازدراء:

ـ لا أفهم كيف يحدّقون في أحد ما بتلك الفظاظة كالبقر. على كل حال، لا آبه.

أحسّت فرنسواز بلذّة حقيقية إذ شعرت بالأذية الحمقاء لتلك الجماعة الثرثارة تغلّفهما معاً. بدا لها أنهم يعزلونهما عن باقي العالم ويأسرونهما في خلوة هائمة.

ـ أتعرفين، يمكنني الرقص ساعة تشائين، قالت فرنسواز. أشعر الليلة أنني ملهمة.

باستثناء الرومبا، كانت ترقص بطريقة صحيحة حتى لا تجعل نفسها عرضة للسخرية.

انشرح وجه كزافيير.

ـ صحيح؟ هذا لا يزعجك؟

عانقتها كزافيير بسطوة. كانت مستغرقة في الرقص، لا تلتفت من حولها. غير أنها ليست فظة، تعرف كيف ترى من دون أن تنظر. كانت هذه مهارة تفتخر بها. الحقيقة أنها تحب أن تلفت الأنظار. لم تكن حركتها بريئة إذ كانت تشدّ فرنسواز إليها أكثر من العادة وتبتسم لها بتأنّق ظاهر بادلتها فرنسواز الابتسامة. كانت تشعر بنهدي كزافيير البديعين الدافئين لصق صدرها، تتنفّس لهاثها المغري. أكانت هذه رغبة؟ لكن ما الذي ترغبه؟ شفتا كزافيير على شفتيها؟ ذلك الجسد المتهالك بين ذراعيها؟ لم يسعها تخيّل شيء، مجرّد حاجة غامضة لأن تحتفظ إلى الأبد بوجه العاشقة ذاك ملتفتاً إليها ولأن تتمكن من القول بشغف إنها لي.

ـ رقصت بطريقة جيدة، بل ممتازة، قالت كزافيير وهما عائدتان إلى مقعديهما.

ظلّت واقفة. شرعت الفرقة الموسيقية في معزوفة رومبا وانحنى خلاسيّ أمامها موجهاً لها ابتسامة رسمية متكلّفة. جلست فرنسواز أمام كأسها وشربت جرعة من السائل الدبق. لا يرى الواحد في تلك الصالة الشاسعة المزينة بجداريات شاحبة والشبيهة بابتذالها لصالات الأعراس والمآدب سوى وجوه ملوّثة تتماوج بين الأسود الأبنوس والمفري الوردي. أولئك الزنوج يرقصون بفحش جامح، غير أن حركاتهم تتبع إيقاعاً خالصاً يضفي إلى تلك الرومبا رغم قسوتها الساذجة الطابع المقدّس لطقس بدائي. البيض القلائل

المبعثرون بينهم بدوا أقل حظاً، وخصوصاً النساء منهم اللواتي يشبهن آلات متيبّسة أو مخلوقات هستيرية منتسية. وحدها كزافيير تتحدّى برقتها التامة الفحش والحشمة معاً.

أشارت كزافيير برأسها رافضة دعوة جديدة وعادت لتجلس إلى جانب فرنسواز.

ـ وكأن شيطاناً يسكن أحشاء أولئك الزنجيات، قالت بحنق. لن أتمكن يوماً من الرقص هكذا!

غطّت شفتيها في كأسها.

ـ كم أنه حلو الطعم! لا يمكنني أن أشربه.

ـ ترقصين بشكل رائع، تعلمين!

ـ نعم، بالنسبة لشخص متحضّر، أجابت كزافيير بازدراء. كانت تحدّق في شيء ما وسط حلبة الرقص. ما زالت ترقص مع ذاك الكريولي، قالت مشيرة بعينيها إلى ليز مالان. لم تفارقه منذ أن وصلنا. أضافت بصوت متباكٍ. إنه جميل إلى حدٍ معيب.

صحيح أنه كان فاتناً، رشيق القامة في سترة وردية داكنة مشدودة عند الخصر. انبعث من شفتي كزافيير تأوه أكثر تباكياً بعد.

ـ آه! أتخلّى عن سنة من حياتي من أجل أن أكون تلك الزنجية لساعة فقط.

ـ إنها رائعة. لا تشبه قسماتها قسمات زنجية، ألا تظنين أن دماً هندياً يجري في شرايينها؟

ـ لست أدري، قالت كزافيير.

كان الإعجاب يبعث في نظرها ومضات حاقدة.

ـ أو ينبغي أن يكون الواحد ثرياً بقدر كافٍ لشرائها واحتجازها، قالت كزافيير. بودلير هو من فعل هذا، أليس كذلك؟ تصوّري أن يعود الواحد إلى منزله ليجد بدل الكلب أو الهرّ تلك المخلوقة الرائعة تخرّ أمام نار مشتعلة في الموقد!

جسد أسود عار ممدّد أمام النار... أهذا ما تحلم به كزافيير؟ إلى أين تصل في حلمها هذا؟

«أكره النقاوة». كيف أن فرنسواز لم تلحظ الشكل الشهواني لهذا الأنف وهذا الفم العينان النهمتان، اليدان، الأسنان الحادة الظاهرة من خلال الشفتين المشقوقتين، كلها تبحث عن شيء ما تلتقطه، شيء ما يمكن ملامسته. لم تعرف كزافيير حتى الآن ما هو هذا الشيء. الأصوات، الألوان، العطور، الأجساد، كلها في نظرها فريسة. أم أنها تعرف؟

ـ تعالي نرقص، قالت بغتة.

أطبقت يداها على فرنسواز.لكن لم تكن فرنسواز ما تشتهيه، ولا حنوّها المتعقّل. توهجت في عيني كزافيير ليلة لقائهما الأول شعلة ثملة انطفأت بعدها، ولن تعود وتنبعث أبداً. كيف يمكن أن تحبّي؟ فكرت فرنسواز بألم. قامة رقيقة متيبّسة مثل طعم السكاكر الذي تزدريه كزافيير، وجه قاسٍ شديد الصفاء، روح شفافة ونقية، جلية كما تقول اليزابيت. لما كانت كزافيير ضحّت بساعة من حياتها لتشعر في داخلها بذلك الكمال الجليدي الذي تكنّ له وقاراً ورعاً. ها أنذا إذاً، فكرت فرنسواز وهي تتأمل في نفسها ببعض الهول. تلك الرعونة المرتبكة بالكاد كانت تنتابها فيما مضى، حين لم تكن تحترس. أما الآن، فاجتاحت شخصيتها برمّتها، حركاتها وحتى أفكارها، لتكتسب زوايا حادّة وقاسية.

توازنها المتناغم تحول إلى عقم فارغ. تلك الكتلة من البياض شبه الشفاف والعاري ذات الحروف الخشنة كانت هي نفسها رغماً عنها وبشكل محتوم.

ـ ألست متعبة؟ سألت فرنسواز وهما عائدتان إلى مقعديهما.

كانت دائرتان قاتمتان قليلاً بدأتا تمتدان تحت عيني كزافيير.

ـ بلى، أشعر بالتعب. إنني أشيخ. مطّت شفتيها. وأنت؟

ـ بالكاد. كانت تشعر بالغثيان من جراء الرقص، النعاس وحلاوة الروم الأبيض.

ـ بالتأكيد، فنحن نلتقي دائماً في المساء. لا يمكن أن نكون نضرتين.

ـ صحيح، أجابت فرنسواز. أضافت متردّدة: لابروس لا يمكنه أبداً التفرّغ في الليل، فعلينا أن نخصص له ما بعد الظهيرة.

ـ أجل، بالطبع، قالت كزافيير واجمة.

نظرت إليها فرنسواز بأمل مفاجىء أشدّ تعذيباً من الحسرة. هل أن كزافيير تلومها على تنحّيها الخفر؟ هل أنها تتمنى لو تغصبها فرنسواز وتفرض عليها أن تحبّها؟ لكن كان يجدر بها أن تدرك أنها لم ترض بطيبة خاطر أن تفضل كزافيير عليها بيار.

ـ يمكننا ترتيب الأمور بشكل آخر، إقترحت فرنسواز.

قاطعتها كزافيير:

ـ لا، كل شيء ممتاز كما هو، قالت بحدّة.

قطب وجهها مكشراً. تمقت فكرة الترتيبات تلك، تود لو ترى بيار وفرنسواز تحت رحمتها كلياً، بلا جداول زمنية، وبرامج. إنها تتطلّب كثيراً. إبتسمت فجأة.

ـ آه وقع في الشرك، قالت.

كان الكريولي الذي اصطادته ليز مالان يقترب خجلاً ومغرياً.

ـ آه! لم أفعل من أجل فتنته بل لأنكّد ليز.

نهضت وتبعت الشاب إلى وسط الحلبة. أنجزت ما عليها بخفر، لم تلحظ فرنسواز أي نظرة أو ابتسامة. كزافيير تفاجئها على الدوام. حملت الكأس التي بالكاد لمستها حتى الآن وشربت نصفها دفعة واحدة. لو أن في استطاعتها أن تكشف لها عمّا يجول داخل هذا الرأس! هل أن كزافيير ناقمة عليها لأنها قبلت بحبها لبيار؟... لكنني لم أكن أنا من طلب منها أن تحبه، فكرت ثائرة. كزافيير هي التي اختارته بحرية. ما الذي اختارتها بالضبط؟ أين الحقيقة خلف ذلك الغنج، ذلك الحنان، تلك الغيرة؟ هل أن هناك حقيقة حتى؟ أحسّت فرنسواز فجأة أن في وسعها أن تكرهها. كانت ترقص، ساطعة في قميصها الأبيض ذي الكمين الفضفاضين. وجنتاها المضطرمتان. تورّدتا قليلاً. كانت تلتفت إلى الكريولي بوجه يشعّ لذّة، وبدت جميلة. رائعة، متوحّدة، غير آبهة. تعيش لحسابها الخاص بالعذوبة أو القسوة التي تمليها عليها اللحظة تلك القصة التي تستحوذ على فرنسواز، فيتوجب عليها أن تتخبّط وحيدة في مواجهتها وهي تبتسم ابتسامة ازدراء أو استحسان. ما الذي تنتظره بالتحديد؟ ينبغي أن تحزر. عليها أن تحزر كل شيء، ما يشعر به بيار، ما هو جيد، ما هو سيىء وما تريده هي نفسها في أعماق قلبها. أفرغت فرنسواز كأسها. لم تعد تميز بوضوح، لم تعد تميز شيئاً. لا ترى من حولها سوى حطام معدم الشكل، في داخلها الفراغ والليل في كل مكان.

توقفت الفرقة الموسيقية لدقيقة، ثم عاد الرقص. كانت كزافيير

قبالة الكريولي، على مسافة خطوات قليلة منه، لم يتلامسا، غير أن ارتعاشة واحدة اعترت جسديهما. في تلك اللحظة، لم تكن كزافيير ترغب أن تكون سوى نفسها، رقّتها المتمايلة تغمرها. وجدت فرانسواز نفسها فجأة مغمورة هي أيضاً. لم تعد شيئاً، مجرّد امرأة وسط حشد، مشدود كيانها إلى تلك الشذرة الشقراء الضئيلة التي تعجز عن التقاطها. لكن وسط هذا الانحطاط الذي آلت إليه أعطي لها ما تمنته بلا جدوى قبل ستة أشهر من قلب سعادتها: تلك الموسيقى، الوجوه، الأضواء راحت تتبدّل ندماً، ترقباً، حباً، تتحد بها لتضفي إلى كل من دقات قلبها معنى فريداً. سعادتها تشظّت، غير أنها تتساقط من حولها فتمطرها لحظات شغفة.

عادت كزافيير إلى الطاولة مترنّحة قليلاً.

ـ يرقص مثل إله صغير، قالت.

استرخت على كرسيها إلى الخلف وانهار وجهها دفعة واحدة.

ـ آه! كم أنني متعبة.

ـ أتريدين أن نعود؟

ـ آه أجل، أودّ هذا حقاً! أجابت متوسّلة.

غادرتا السهرة الراقصة واستوقفتا سيارة أجرة. ارتمت كزافيير على المقعد ودسّت فرنسواز ذراعها تحت إبطها. اخترقها شعور يشبه الفرح وهي تطبق يدها على تلك اليد الصغيرة المتهالكة. سواء شاءت أم أبت، فكزافيير مكبّلة إليها برابط أقوى من الحقد أو الحبّ. لم تكن فرنسواز أمامها فريسة كسواها، بل جوهر حياتها. لما كان من الممكن أن تعيش لحظات الشغف، اللذّة، الرغبة لولا تلك الروابط الوثيقة القائمة بينهما. كل ما يحصل لكزافيير إنما

يحصل لها عبر فرنسواز. فكزافيير ملكها، وإن رغماً عنها.

توقفت سيارة الأجرة أمام الفندق وتسلقتا الأدراج مسرعتين. لم تفقد كزافيير رغم تعبها أياً من حيويتها المهيبة. دفعت باب غرفتها.

ـ سأدخل للحظة فقط، قالت فرنسواز.

ـ مجرّد وصولي إلى غرفتي يخفف من تعبي.

خلعت سترتها وجلست إلى جانب فرنسواز فتبلبل سكونها الهشّ برمّته. كانت كزافيير هنا، منتصبة في قميصها الناصع، قريبة وباسمة الوجه، بعيدة المنال. لا يكبّلها أي رابط سوى ما تقرّر هي نفسها إقامته. لا يمكن الإمساك بها إن لم يكن هذا ما تريده.

ـ كانت سهرة لذيذة، قالت فرنسواز.

ـ أجل، علينا أن نعيد الكرّة.

نظرت فرنسواز من حولها مضطربة. سوف تطبق الوحدة على كزافيير من جديد، وحدة غرفتها، وحدة نومها وأحلامها. ولا سبيل لاختراق جدارها.

ـ سيأتي يوم تتمكنين فيه من الرقص بمهارة كالزنجية.

ـ للأسف! هذا غير ممكن.

عاد الصمت متثاقلاً. الكلام لا يسعه شيئاً. لم تجد فرنسواز أي حركة تقوم بها وقد شلتها الرقة المرحبة المنبعثة من ذلك الجسر البديع الذي لا تعرف حتى كيف تشتهيه.

تغمضت عينا كزافيير وكبتت تثاؤباً مثل طفلة.

ـ أظن أنني سأغفو حيث أنا، قالت.

ـ سأتركك. نهضت فرنسواز. شعرت بغصّة في حلقها، لكن لم يكن هناك ما يمكن أن تفعله. هذا كل ما تمكنت من القيام به.

ـ عمت مساءً.

كانت واقفة قرب الباب. وفي فورة حنان، ضمّت كزافيير بين ذراعيها.

ـ عمت مساءً صغيرتي، قالت وهي تلامس وجنتها.

استرخت كزافيير وظلّت متكئة إلى كتفها، طرية، بلا حراك. ماذا تنتظر؟ أن تدعها فرنسواز تبتعد عنها أم أن تضمّها أكثر؟ تفلّتت قليلاً.

ـ عمت مساءً، قالت بشكل تلقائي.

انتهى الأمر. صعدت كزافيير الأدراج والخجل يملأ نفسها لقيامها بتلك الحركة العديمة الجدوى. ارتمت على سريرها وقلبها حزين.

الفصل (١١)

ـ نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول، ستة أشهر من التمرين وسأكون جاهزاً للمعركة، فكّر جيربير.

كان مسمّراً أمام مرآة الحمّام يلوي طرفي ربطة العنق الرائعة التي استعارها للتو من بيكلار. كان يودّ أن يعرف ما إذا كان سيشعر بالخوف، لكنه من المستحيل التنبؤ بأمور كهذه. أكثر ما كان يصعب عليه تصوّره كان البرد. حين ينزع الواحد حذاءه ليجد أن أصابع رجليه لاتزال في طرفه.

ـ هذه المرّة، ليس هناك بصيص أمل، قال لنفسه مستسلماً. لم يكن يصدّق أن الناس جنّوا إلى حد أن يصمموا بكل هدوء أن يخرّبوا العالم. لكن الواقع أن القوات الألمانية دخلت تشيكوسلوفاكيا وأن انكلترا متشدّدة حيال الأمر.

تأمل جيربير بسرور العقدة الجميلة التي أنجزها. لم يكن يجب وضع ربطة عنق غير أنه لا يدري أين سيصطحبه لابروس وفرنسواز لتناول العشاء. كلاهما لديه ميل مرضي للصلصة بالكريمة ومهما قالت فرنسواز، يصبح الواحد محطاً للأنظار إن دخل أحد هذه

الأنزال حيث تنسدل على الطاولات أغطية ذات مربّعات وهو يرتدي كنزة. لبس سترة وانتقل إلى الصالون. كانت الشقة فارغة. اختار بعناية عن مكتب بيكلار سيجارين ثم توجه إلى غرفة جاكلين: قفازات، محارم، أحمر شفاه، عطر «أريج» من لانفين، يمكن تأمين الغذاء لعائلة كاملة بثمن هذه الترهات. دسّ جيربير في جيبه علبة سجائر «غرايز» وكيساً من الشوكولا. هذه نقطة ضعف فرنسواز الوحيدة، ولعها بالسكاكر. يمكن السماح لها بذلك. جيربير شاكر لها لأنها تنتعل غالباً أحذية بالية الكعب وتضع جوارب مثقوبة من غير أن تخجل من الأمر. كما أن الواحد لا يصادف في غرفتها ما يخدش نظره بتصنّعه الفاتن: لا تملك تحفاً أو أغطية مطرّزة، ليس لديها حتى طقماً من فناجين الشاي. ثم أن الواحد لا يضطّر معها إلى التكلّف. فهي لا تتغنّج، لا ينتابها أي صداع، أيّ تقلّب في المزاج، لا تتطلّب أي مراعاة. يمكن حتى لزوم الصمت بكل راحة بال معها. صفق جيربير باب المدخل خلفه وهبط مسرعاً أدراج الطوابق الثلاثة. أربعون ثانية، لن يتوصل لابروس أبداً إلى هبوط تلك السلالم الضيقة، المعتمة والملتوية بهذه السرعة. إن كان يربح السباق أحياناً، ذلك نتيجة حظ غير منصف. أربعون ثانية. سيتهمه لابروس بالتأكيد بالمبالغة. سأقول ثلاثين ثانية، قرّر جيربير. هكذا سيقرّ بالحقيقة. عبر ساحة سان جيرمان دي بري. كانا ضربا له موعداً في مقهى فلور. يجدان هذا المقهى ممتعاً لأنهما لا يأتيان إليه غالباً، لكنه هو سئم منه ومن كل هذه النخبة المستنيرة. في السنة المقبلة سأسافر، فكّر بحنق. سيكون الأمر رائعاً إن نظم لابروس هذه الجولة. يبدو مصمماً على الأمر. دفع جيربير الباب. في السنة المقبلة سيكون في الخنادق، ولن تعود المسألة مطروحة. عبر المقهى مبتسماً للفراغ، ثم اتسعت ابتسامته.

إن نظر الواحد إلى كل منهم على حدة، بدا طريفاً إلى حدّ ما، غير أن منظرهم معاً مضحك إلى أقصى الحدود.

ـ لماذا تضحك بجنون؟ سأل لابروس.

بسط جيربير يديه عاجزاً عن الإجابة.

ـ لأنني أراكم.

كانوا مصطفين على المقعد، فرنسواز ولابروس يحيطان بباجيس. جلس قبالتهم.

ـ هل أننا مضحكون إلى هذا الحد؟ قالت فرنسواز.

ـ لا تدركون الأمر.

رمقه لابروس بطرف عينه.

ـ إذاً، هل تستهويك فكرة تمضية صيف مليء بالإثارة من جهة الران؟

ـ كم أن هذا قبيح، أجاب جيربير. كنت تقول إن الأمور تميل إلى الهدوء على ما يبدو.

ـ لم تكن لنتوقع هذا التطوّر.

ـ لن نتمكّن هذه المرة من تخطّي الأزمة، هذا أكيد.

ـ أعتقد أن فرصنا أقل بكثير مما كانت عليه في أيلول. إنكلترا ضمنت تشيكوسلوفاكياً بشكل صريح ولا يمكنها التراجع.

خيّم صمت قصير. يشعر جيربير على الدوام بالضيق في حضور باجيس. حتى لابروس وفرنسواز لم يبدوا مرتاحين. أخرج جيربير السيجارتين من جيبه وناولهما للابروس.

ـ خذ، قال، إنهما من الصنف الكبير.

صفر لابروس مستحسناً الهدية.

ـ أوضاع بيكلار جيدة! سندخنهما بعد الطعام.

ـ وهذا لك، قال جيربير واضعاً السجائر والشوكولا أمام فرنسواز.

ـ آه! شكراً.

ـ انفرجت أسارير فرنسواز في ابتسامة أشبه بالابتسامات المفعمة بالحنو التي توجهها غالباً إلى لابروس. أحسّ جيربير بالدفء في قلبه. ثمة لحظات يكاد يخال فيها أن فرنسواز تكن له المودّة. غير أنه لم يرها منذ وقت طويل. لا تكترث له البتة، لا تكترث إلا للابروس.

ـ تفضلوا، قالت وهي تمرّر لهم الكيس.

هزّت كزافيير برأسها متحفّظة.

ـ لا، ليس قبل العشاء، قال بيار. سيقطع الشوكولا شهيتك.

تناولت فرنسواز قطعة من السكاكر. ستلتهم بالتأكيد الكيس بكامله في بضع لقمات. تمتلك قدرة فظيعة على ابتلاع كميات من الحلوى من غير أن تشعر بالغثيان.

ـ ماذا تتناول؟ سأل لابروس.

ـ كأساً من البيرنو.

ـ لماذا تشرب البيرنو إن كنت لا تحبّه؟

ـ لا أحبّ البيرنو، لكنني أحب أن أشرب منه.

ـ هذا يليق بك تماماً، قالت فرنسواز وهي تضحك.

صمتوا من جديد. كان جيربير أشعل غليونه. إنحنى نحو كأسه الفارغة ونفث الدخان ببطء.

ـ هل يمكنك أن تفعل هذا؟ سأل لابروس متحدّياً إياه.

إمتلأت الكأس دوائر حليبية غامضة.

ـ وكأنه مادة هيولية، قالت فرنسواز.

ـ كلّ ما عليك هو أن تنفث ببطء، قال بيار. أخذ مجّة من غليونه وانحنى بدوره منكباً فوق كأسه.

ـ هذا جيد، أقرّ جيربير متنازلاً. بصحتك!

ضرب كأسه بكأس بيار وابتلع الدخان دفعة واحدة.

ـ كم أنت فخور، قالت فرنسواز مبتسمة لبيار الذي شعّ وجهه سروراً. نظرت بأسف إلى كيس الشوكولا، لمَ وضعته بعزم في حقيبتها. تعلمون، إن كنتم تريدون أن يتسنى لنا تناول العشاء، يجدر بنا المغادرة الآن.

تساءل جيربير مرة جديدة لماذا، يجده الناس عادة قاسية ومهيبة. صحيح أنها لا تلاطف وتتأنق، لكن وجهها مليء بالفرح، بالحياة وبشهية صلبة. تبدو مرتاحة لنفسها حتى أنها تبعث الارتياح في نفوس الذين يقربونها.

التفت لابروس إلى باجيس وحدّق في وجهها بقلق.

ـ هل فهمت جيداً؟ ستستقلين سيارة أجرة وتقولين للسائق: إلى «الأبولو»، شارع بلانش. سيوصلك أمام السينما تماماً ولن يكون عليك سوى أن تدخلي.

ـ أهي حقاً قصة كاوبوي؟ سألت باجيس مرتابة.

ـ تماماً، أجابت فرنسواز. قصة مليئة بالجياد والعدو.

ـ وإطلاق الرصاص والمعارك الفظيعة، تابع لابروس.

كانا منحنيين نحو باجيس مثل شيطانين مجرّبين يكلّمانها

بصوت متوسّل. كاد جيربير ينفجر ضاحكاً، غير أنه بذل جهداً بطولياً ليتمالك. تناول جرعة من البيرنو. كان يأمل كل مرة أن تحصل معجزة تجعله فجأة يتلذّذ طعم اليانسون، لكن في كل مرة كانت تعتريه الارتعاشات الكريهة ذاتها.

ـ هل أن الرجل جميل؟ سألت باجيس.

ـ إنه لذيذ للغاية، أجابت فرنسواز.

ـ لكنه ليس جميلاً، أصرّت كزافيير بعناد.

ـ ليس بالمفهوم التقليدي للجمال، أقرّ لابروس.

قطبت باجيس خائبة.

ـ تساورني الشكوك بهذا الشأن، فالذي أرسلتماني لمشاهدته المرة الماضية، ذاك الذي يشبه رأسه رأس الفقمة، إنما خدعتماني.

ـ كان هذا ويليام باول، قالت فرنسواز.

ـ لكن هذا مختلف تماماً، قال لابروس مناشداً إياها. إنه شاب وجميل وبرّي تماماً.

ـ أجل، سوف أرى، قالت باجيس مستسلمة.

ـ ستكونين عند دومينيك في منتصف الليل؟ سأل جيربير.

ـ بالطبع، أجابت باجيس مستاءة من السؤال.

تلقّى جيربير ردهاً بقدر من التشكيك. باجيس لا تحضر مرة تقريباً.

ـ سأمكث هنا خمس دقائق، قالت حين نهضت فرنسواز.

ـ أتمنى لك سهرة جيدة، قالت فرنسواز بحرارة.

ـ ولك أيضاً. عكس وجه كزافيير تعبيراً غريباً، ثم خفضت

رأسها على الفور.

ـ أتساءل إن كانت ستذهب إلى السينما، قالت فرنسواز وهي تخرج من المقهى. هذا غبيّ، إنني واثقة من أن الفيلم سيعجبها.

ـ رأيتها، قال لابروس. تفعل كل ما بوسعها لتبقى لطيفة، لكنها لم تصمد حتى النهاية. إنها حاقدة علينا.

ـ لماذا؟ سأل جيربير.

ـ لأننا لم نمض السهرة معها، أجاب لابروس.

ـ كان عليكما اصطحابها معكما. بدا له بغيضاً أن يعتبر لابروس وفرنسواز هذا العشاء بمثابة عملية معقدة.

ـ تلك الفتاة مستبدّة صغيرة، لكننا محصّنان، قال بيار بمرح.

إطمأن جيربير لكنه كان يودّ أن يعرف تحديداً مكانة باجيس بالنسبة للابروس . هل إنه يلازمها مراعاة لفرنسواز؟ أم ماذا؟ لن يجرؤ أبداً على طرح السؤال عليه. كان يشعر بسرور كبير حين يحدثه لابروس بالصدفة عن نفسه قليلاً، لكن لا يجدر به أن يفاتحه بنفسه.

أوقف لابروس سيارة أجرة.

ـ ما رأيكما لو نتناول العشاء في «الفريه»؟ اقترحت فرنسواز.

ـ فكرة جيدة، أجاب جيربير. ربما لديهم الليلة أيضاً جمبون بالفاصوليا الحمراء. لاحظ فجأة أنه جائع فلطم جبينه. آه! كنت على يقين أنني نسيت أمراً ما.

ـ وما هو؟ سأل لابروس.

ـ نسيت عند الغداء أن أسكب المزيد من اللحم، كم أنني غبيّ!

توقفت السيارة أمام المطعم الصغير. كانت قضبان حديدية

غليظة تنسدل أمام زجاج الواجهة. في الداخل امتدّ إلى اليمين كونتوار من الزنك تتراكم عليه زجاجات تبعث الرغبة في تناول كأس. كانت الصالة فارغة. وحده صاحب المطعم وموظفة الصندوق كانا يتناولان العشاء إلى إحدى الطاولات الرخامية، وقد عقد كل منهما فوطة حول عنقه.

ـ آه! صاح جيربير لاطماً جبينه من جديد.

ـ أخفتني، قالت فرنسواز. ماذا نسيت أيضاً؟

ـ نيست أن أقول لك إنني هبطت الأدراج منذ قليل بثلاثين ثانية.

ـ إنك تكذب، بادره لابروس.

ـ كنت واثقاً من أنك لن تصدّق. ثلاثون ثانية بالضبط.

ـ انزلقت. أمسك جيربير لائحة المطعم: كانت تتضمن طبق الجمبون بالفاصوليا الحمراء.

ـ المكان مقفر هنا، لاحظت فرنسواز.

ـ مازال الوقت باكراً. أوضح لابروس، ثم تعلمين أن الناس يقبعون في منازلهم ما إن يحصل شيء خطير. سوف نلعب الليلة أمام عشرة مشاهدين. كان طلب بيضاً بالمايونيز وراح يسحق الصفار في الصلصة بإصرار أقرب إلى الهوس. كان يدعو هذا بيضاً بالميموزا.

ـ أفضّل أن يتقرّر كل شيء بصورة نهائية، قال جيربير. لا يمكن أن يعيش الواحد حياة هائئة وهو يقول كل يوم غداً تنشب الحرب

ـ لكننا بهذه الطريقة نكسب وقتاً إضافياً، قالت فرنسواز.

ـ هذا ما كنا نقوله وقت ميونيخ، قال لابروس، لكنني أعتقد أن

هذا حماقة. لا جدوى في التراجع. تناول زجاجة البوجوليه الموضوعة على الطاولة وملأ الكؤوس. لا، لا يمكن أن يستمرّ هذا التهرّب إلى ما لا نهاية.

ـ ولِمَ لا، الحقيقة؟ سأل جيربير.

تردّدت فرنسواز.

ـ أليس أي شيء أفضل من الحرب؟ قالت.

رفع لابروس كتفيه.

ـ لست أدري.

ـ إن ساء الوضع كثيراً هنا، يمكنك الرحيل إلى أميركا، اقترح جيربير. سيستقبلونك هناك بالتأكيد، فقد صرت مشهوراً.

ـ وماذا أفعل هناك؟

ـ أظن أن العديد من الأميركيين يتكلّمون الفرنسية. ثم يمكنك أن تتعلّم الإنكليزية، ستقدّم عندها مسرحياتك بالإنكليزية، قالت فرنسواز.

ـ لا يهمني هذا إطلاقاً. ما معنى أن أعمل في المنفى؟ على الواحد أن يتضامن مع العالم من حوله حتى يترك أثراً فيه.

ـ أميركا أيضاً عالم، أصرّت فرنسواز.

ـ لكنه ليس عالمي.

ـ سيصبح عالمك حين تتبنّاه.

هزّ لابروس رأسه.

ـ تتكلمين مثل كزافيير. لكنه لا يمكنني ذلك، فأنا متورط كثيراً في هذا العالم.

ـ مازلت شاباً.

ـ أجل، لكن تعلمين، لا تستهويني فكرة إنشاء مسرح جديد للأميركيين. ما يهمني هو إنجاز عملي الفني الخاص، ذاك الذي بدأته في مسرحي المتواضع، مسرح غوبلان، بالمال الذي كنت أحصل عليه من العمة كريستين بعرق جبيني. نظر لابروس إلى فرنسواز. ألا تفهمين هذا؟

ـ بلى.

كانت تنصت إلى لابروس باهتمام شغف بعث في جيربير إحساساً يشبه الأسف. غالباً ما رأى نساء تلتفت إليه بوجوه هائمة. كل ما يشعر به أمام وجوه كهذه هو الضيق. ذلك البوح العلني بالعواطف يبدو له غير لائق أو متسلّطاً. غير أن الحبّ الذي يومض في عيني فرنسواز لم يكن أعزل ولا متصلّفاً. يكاد الواحد يتمنى لو أنه يوحي بحبّ كهذا.

ـ تدرّبت بفضل ماضٍ كامل، تابع لابروس. الباليه الروسي، بيكاسو، السريالية، لما كنت شيئاً لولا كل هذا. وأتمنى بالطبع أن أشكّل للفنّ مستقبلاً فريداً، يكون مستقبلاً لذلك التقليد أيضاً. لا يمكن العمل في الفراغ، لا يفضي إلى مكان.

ـ بالطبع، أن تذهب بكامل متاعك للعمل في خدمة تاريخ ليس تاريخك، لن يكون هذا مرضياً، قالت فرنسواز.

ـ أنا شخصياً أفضل أن أذهب وأمدّ أسلاكاً شائكة في مكان ما من لورين عوض أن أذهب وآكل الذرة المسلوقة في نيويورك.

ـ لكنني أفضل رغم كل شيء الذرة، وخصوصاً إن كانت مشوية، احتجت فرنسواز.

ـ أما أنا، قال جيربير، فأقسم لكما أنني لو أجد وسيلة للفرار إلى فنزويلا أو سان دومينغو...

ـ إن نشبت الحرب، لا أريد أن تفوتني، قال لابروس. أعترف لكما حتى أنني أشعر بنوع من الفضول حيالها.

ـ إنك منحرف قليلاً، قال جيربير.

أمضى النهار بكامله، يحلم بالحرب، غير أن الذعر تملّكه لدى سماعه لابروس يتكلّم عنها بروية وكأنها من حولهم. إنها حقاً هنا، قابعة بين المدفأة التي تخرّ وكونتوار الزنك المتّشح بظلال صفراء. هذا العشاء نفسه ليس سوى وليمة جنائزية. خوذات، دبابات، بدلات عسكرية، شاحنات خضراء... إنهمر مدّ موحل هائل وغمر العامل. غرقت الأرض تحت ذلك الدبق الأسود حيث يغوص الواحد وعلى كتفيه ثياب من الرصاص تفوح منها رائحة كلب مبتل، في حين تنفجر في السماء أنولر كئيبة.

ـ أنا أيضاً لن يعجبني أن يحصل حدث مهم من دوني، قالت فرنسواز.

ـ إن كان هذا إحساسه، قال جيربير، كان يجدر به الالتحاق بالقواتْ من إسبانيا، أو حتى التوجه إلى الصين.

ـ الأمر مختلف، أجاب لابروس.

ـ لا أفهم السبب.

ـ يبدو لي أن المسألة مسألة ظروف، أوضحت فرنسواز. أذكر حين كنت في رأس «بوانت دورا» وأراد بيار أن يرغمني على الرحيل قبل العاصفة. كدت أجنّ من شدّة اليأس. لو قبلت لكنت

شعرت بالذنب. في حين أنني لن آبه الآن إن حلّت هناك جميع عواصف العالم.

ـ هذا هو إحساسي تماماً، وافقها لابروس. هذه الحرب جزء من تاريخي الخاص. لهذا لن أقبل أن أتفاداها.

أشرق وجهه متعة. نظر جيربير إليهما بحسد. لا شك أن إحساس كلّ منهما بأهميته بالنسبة للآخر يبعث فيهما الأمان. ربما لو كان هو نفسه مهماً بالنسبة لأحد ما، لكان ازداد اعتباره لنفسه. لم يكن في وسعه إضفاء قيمة إلى حياته وخواطره.

ـ هل تدركان الأمر، قال. يعرف بيكلار طبيباً صار ممسوساً من كثرة ما قطع أشخاصاً. ما إن ينتهي من عملية جراحية لأحدهم حتى يموت آخر. أخبر أن أحدهم لم يتوقف عن الصراخ وهم يجزّرونه فكان يصيح: آه! ألم الركبة! آه! ألم الركبة! لا بدّ أن الأمر لم يكن ممتعاً!

ـ في وضع كهذا، لا خيار للواحد سوى الصراخ، قال لابروس. لكن أتعلم، حتى هذا، لم أعد أثور عليه كثيراً. إنه أمر يتوجب علينا أن نعيشه كما نعيش سواه.

ـ إن فكّرت بهذه الطريقة أمكنك تبرير كل شيء، إحتجّ جيربير. وليس علينا عندها سوى أن نقف مكتوفي الأيدي.

ـ آه لا أبداً! قال لابروس. أن تعيش شيئاً ما لا يعني أبداً أن ترضخ له بغباء. أقبل أن أعيش أيّ شيء كان تقريباً، لأنه تحديداً سيظل في مقدوري أن أعيشه بحرية.

ـ يا لها من حرية، قال جيربير. لن نتمكن من القيام بأي من الأمور التي تهمّك.

ابتسم لابروس.

ـ أتعلم، أنني تغيّرت، لم يعد لدي إيمان صوفي بالعمل الفني. في وسعي التفكير في القيام بنشاطات أخرى.

أفرغ جيربير كأسه مطرقاً. أمر غريب أن يتصوّر أن لابروس قد يتغيّر. لطالما اعتبره جيربير ثابتاً لا يتبدّل لديه أجوبة لجميع الأسئلة. يعجز عن تخيّل الأسئلة التي قد يطرحها على نفسه بعد.

ـ إذاً لا يمنعك أي عائق من الذهاب إلى أميركا، قال.

ـ يبدو لي في الوقت الحاضر أن أفضل ما يمكن أن أستخدم حريتي من أجله هو الدفاع عن حضارة مرتبطة بجميع القيم التي أتمسّك بها.

ـ لكن جيربير على حق رغم كل شيء، قالت فرنسواز. سوف تجد تبريراً لأي عالم تجد مكانة لك فيه. ابتسمت: لطالما اشتبهت في أنك تظن نفسك الأب الإله.

بدت عليهما البهجة. يشعر جيربير على الدوام بالدهشة حين يراهما يحتدمان من أجل كلمات. ماذا يمكن للكلمات أن تغير؟ ماذا في مقدور الكلمات إزاء حرارة البوجوليه الذي يشربه، إزاء الغازات التي ستبعث الاخضرار في رئتيه والخوف الذي يتملّكه فيغصّ به حلقه؟

ـ ماذا؟ سأل بيار، لماذا تلومنا؟

إرتعد جيربير. لم يكن يتوقع أن يُضبط في جرم التفكير المشهود.

ـ لا، إطلاقاً.

ـ إرتديت وجه القاضي كما تفعل أحياناً، قالت فرنسواز. مدّت له لائحة المطعم. ألا تريد بعض الحلوى؟

ـ لا أحبّ الحلوى، أجاب.

ـ لديهم أصناف حلوى من التارت، إنك تحبّها.

ـ أجل أحبّها، لكنني خمول.

شرعوا يضحكون.

ـ هل مازلت تقوى على تناول كأس من مشروب الفاكهة المعتّق؟ سأل لابروس.

ـ أجل، يمكن تناوله في كلّ الظروف.

طلب لابروس ثلاث كؤوس من الكحول وجلبت النادلة قارورة ضخمة مغبرة. أشعل جيربير سيجاراً. رأى الأمر مضحكاً. حتى لابروس بحاجة إلى اختراع شيء ما يمكنه التمسّك به. لم يكن في وسع جيربير الاقتناع بأن سكونه صادق تماماً. هكذا يتدبّر الناس أمورهم ليحيطوا أنفسهم بعالم متين تكتسب حياتهم فيه معنى. لكن ثمة دائماً خداع ما في الأساس. إن نظر الواحد ملياً من غير أن يحاول خداع نفسه، لم يجد خلف تلك المظاهر المهيبة سوى اغبرار انطباعات صغيرة مبتذلة. النور الأصفر المنسكب فوق كونتوار الزنك، طعم الأكيدنيا الفاسدة ذاك في قعر المشروب. لا يمكن التقاطها في جمل، ينبغي الاستسلام لها بصمت وتتبدّد بعد ذلك من غير أن تترك أثراً ليتشكّل انطباع آخر لا يمكن إدراكه. مجرّد رمال وماء، ومن الجنون أن نحاول بناء شيء ما في أرض كهذه حتى الموت لا يستحق كل ما ينسجونه من حوله. إنه مروع بالطبع، لكن فقط لأنه لا يسعنا تصوّر ما سنشعر به.

ـ أن يقتل الواحد أمر مقبول نوعاً ما، قال جيربير، لكنه قد يبقى على قيد الحياة ومشوهاً.

ـ في وسعي التضحية بساق، قال لابروس.

ـ أفضل التضحية بذراع. شاهدت في مرسيليا شاباً إنكليزياً لديه شنكل بدل إحدى يديه. بدا على الأرجح أنيقاً على هذا الوجه.

ـ إن الساق الآلية لا تلفت الأنظار هكذا. أما الذراع، فمن المستحيل تمويهها.

ـ صحيح أن مهنتنا لا تسمح لنا بالكثير. إن اقتلعت إذن واحد انتهت حياته الفنية.

ـ لكن هذا غير ممكن، قالت فرنسواز فجأة. إختنق صوتها، تبدّل وجهها واغرورقت عيناها. وجدها جيربير جميلة تقريباً.

ـ يمكن للواحد أيضاً أن يعود بلا إصابات، قال لابروس وكأنه يسترضيها... ثم إننا لم نذهب بعد. ابتسم لفرنسواز. ينبغي ألاّ تراودنا منذ الآن أحلام مزعجة.

ابتسمت فرنسواز بدورها مرغمةً.

ـ الأمر الأكيد هو أنكما ستلعبان الليلة أمام صالة فارغة، قالت.

ـ أجل، وافق لابروس. استعرض بنظرة المطعم الفارغ. علينا الذهاب رغم كل شيء. حان الوقت الآن.

ـ سأعود إلى غرفتي للعمل، قالت فرنسواز. رفعت كتفيها. مع أنني لست واثقة من أنني سأجد الشجاعة الكافية.

خرجوا واستوقف لابروس سيارة أجرة.

ـ أتأتين معنا؟ سألها.

ـ لا، أفضّل العودة مشياً. صافحت لابروس وجيربير.

تأملها وهي تبتعد بخطى طويلة على قدر من الرعونة، غارزة

يديها في جيبيها. سيمضي الآن بالتأكيد قرابة الشهر من دون أن يراها مجدداً.

ـ اصعد، قال لابروس وهو يدفعه داخل سيارة الأجرة.

فتح جير بير باب مقصورته. كان كل من غيميو وميركاتون جالساً أمام منضدته، وقد دهن عنقه وذراعيه باللون المغري. صافحهما شارد الذهن، لم يكن يشعر بأي ودّ حيالهما. انتشرت رائحة المراهم وزيت الشعر النتنة مفسدة جو الغرفة الصغيرة الشديد الحرّ. كان غيميو مصرّاً على إبقاء النوافذ مغلقة خشية أن يصاب بالزكام. اقترب جيربير بتصميم من النافذة.

ـ إن قال هذا اللواطي الحقير شيئاً حطّمت له وجهه.

ودّ لو يتشاجر مع أحد ما حتى يروّح عن نفسه، غير أن غيميو لم يحرّك ساكناً. كان يمرّر على وجهه رشاشة صغيرة خبّازية اللون والبودرة تتطاير من حوله. عطس عطستين وبدا بائساً، لكن جيربير كان كثير الغمّ حتى أنه لم يضحك حتى لهذا المشهد. شرع يخلع ملابسه: السترة، ربطة العنق، الحذاءان، الجرابان. سوف يتوجب عليه عما قليل ارتداء كل هذا من جديد. شعر جيربير بالإرهاق مسبقاً. ثم إنه لا يحب أن يتعرّى أمام رجال آخرين.

ـ ماذا أفعل هنا بحقّ الجحيم! تساءل بغتة مقلباً النظر من حوله بذهول يلامس الألم. كان يعرف حقّ المعرفة هذه الحالات النفسية. إنها أسوأ ما يمكن. وكأن كل ما في داخله يتحول إلى مياه آسنة. غالباً ما كان هذا الإحساس ينتابه في طفولته، وخصوصاً حين يرى والدته منحنية فوق دلو ومن حولها يتصاعد بخار الغسيل. بعد بضعة أيام سوف يلمّع بندقية، سوف يمشي مشية عسكرية في فناء ثكنة ما، ثم سيعينونه للحراسة في مكان ما

ناءٍ حيث البرد قارس. هذا عبثي. لكنه في هذه الأثناء يطلي فخذيه بمسحوق من لون بشرة الهنود الحمر سوف يجد صعوبة كبيرة لإزالته، ولم يكن هذا أقل عبثية.

ـ آه! تباً، صاح بصوت عالٍ. تذكر فجأة أن اليزابيت قادمة هذا المساء لتقوم برسم إعدادي له. إنها تختار حقاً اليوم المناسب.

فتح الباب ومدّ رامبلون رأسه.

ـ هل أن أحدهم لديه دهان للشعر؟

ـ أنا، أجاب غيميو مندفعاً. كان يعتبر رامبلان شخصاً ثرياً ونافذاً، فيغازله بشكل فاضح.

ـ شكراً، قال رامبلان بفتور. أمسك القارورة حيث كان جيل ورديّ يرتجّ والتفت إلى جيربير. سيكون الجو على الأرجح بارداً الليلة؟ ثمة ثلاثة قطط هائمة في المقاعد الأمامية وثلاثة أخرى في المقصورات. انفجر ضاحكاً فجأة وراح جيربير يضحك معه مستسلماً. كان يحبّ نوبات الفرح المتوحدة هذه التي تصيب رامبلان غالباً. ثم أنه لم يحاول يوماً رغم لواطه التحرّش به.

ـ تيديسكو شاحب! تابع رامبلان. يظن أنهم سيحشرون جميع الغرباء في معسكرات اعتقال. كانزيتي تمسك بيديه وهي تنتحب. شانو اتهمته بأنه غريب قذر وتصيح أن النساء الفرنسيات سوف يعرفن كيف يؤدّين واجبهنّ. أقسم لك أن الجو ممتع.

كان يلصق بتأنٍ الخصلات حول وجهه وهو يبتسم لنفسه في المرآة بسرور وتشكيك في آن.

ـ جيربير صغيري، هلا أعطيتني بعضاً من مسحوقك الأزرق؟ سألت إيلوي.

تلك المرأة تتدبّر أمرها على الدوام لتدخل مقصورة الرجال وهم عراة. كانت هي نفسها نصف عارية، إلتفّت بشال شفاف بالكاد أخفى ثدييها الضخمين.

ـ أغربي من هنا، لسنا لائقين، قال جيربير.

ـ وتستّري، قال رامبلان وهو يشدّ وشاحها. لاحقها بنظرة متقزّزة. تقول إنها ستتطوع كممرّضة. إنها نعمة غير متوقعة، أتدرك ذلك؟ كل هؤلاء المساكين العزّل الذين سيقعون بين يديها؟

ابتعد. إرتدى جيربير بدلته الرومانية وراح يبرّج وجهه. كان هذا مسلياً، فهو يحب الأعمال الدقيقة. ابتكر طريقة جديدة لرسم العينين. يمدّد خطّ الجفن راسماً نجمة ذات تأثير رائع. نظر إلى نفسه في المرآة راضياً وهبط الأدراج. وجد اليزابيت جالسة على مقعد في صالة الفنانين، متأبطة حافظة الرسم.

ـ هل وصلت في وقت أبكر مما ينبغي؟ سألت بلهجة اجتماعية.

كانت شديدة الأناقة هذا المساء، هذا واضح. لا شك أن خياطاً ماهراً قصّ سترتها. جيربير خبير بهذا الشأن.

ـ سأتفرّغ لك بعد عشر دقائق، قال.

ألقى نظرة إلى الديكورات. كل شيء في مكانه والأكسسوارات موضوعة في متناول اليد. إسترق النظر من شق في الستارة وتفحّص الجمهور. لم يكن في الصالة أكثر من عشرين مشاهداً. ثمة أجواء كارثة مخيمة. عبر جيربير الممرات حاملاً صفارة بين أسنانه ليجعل الممثلين ينزلون ثم جاء وجلس مذعناً قرب اليزابيت.

ـ ألن يزعجك هذا؟ سألت وقد شرعت في إخراج أوراقها من الملفّ.

ـ لا أبداً، عليّ فقط أن أبقى هنا لأتأكد من أن أحداً لن يثير ضجيجاً.

انبعثت الدقات الثلاث وسط الصمت، احتفالية كئيبة. رفعت الستارة. كان موكب قيصر محتشداً قرب الباب المؤدي إلى الخشبة. دخل لابروس مدثراً بثوبه الأبيض.

ـ يا للمفاجأة، أنت هنا! قال لشقيقته.

ـ كما ترى.

ـ لكنني كنت أعتقد أنك توقفت الآن عن رسم البورتريات، قال ملتفتاً من فوق كتفه.

ـ إنه رسم إعدادي. إنّ الاقتصار على التأليفات يجعل الواحد يفقد مهارته.

ـ لاقِني بعد قليل.

اجتاز عتبة الباب واندفع الموكب خلفه.

ـ ينتاب الواحد انطباع غريب حين يشاهد مسرحية من الكوابيس، قالت اليزابيت. يكتشف كيف تنجز وتعدّ.

رفعت كتفيها.نظر جيربير إليها شاعراً بالضيق. لا يحسّ مرة بالارتياح أمامها، لا يفهم ما تريد منه بالضبط. من وقت لآخر تعطيه إنطباعاً بأنها ممسوسة قليلاً.

ـ ابق هكذا، لا تتحرك، قالت. ثم ابتسمت باهتمام مفاجىء: أليست وضعيتك متعبة؟

ـ لا، أجاب.

لم تكن متعبة البتة، لكنه أحسّ بنفسه أشبه بمغفّل. عبر رامبلان صالة الفنانين ورمقه بنظرة ساخرة. عبرت لحظة صمت. كانت جميع الأبواب مغلقة ولم يسمع أي صوت. كان الممثلون يتحرّكون هناك أمام صالة فارغة. اليزابيت ترسم بتشبث حتى لا تفقد مهارتها. وجيربير جالس هنا مثل أحمق. ما نفع كل هذا؟ فكّر بحنق. كما قبل قليل في مقصورته، أحسّ بفراغ في قعر معدته. ذكرى تعاوده على الدوام حين يكون مزاجه كما هو الآن يتذكر عنكبوتاً ضخماً شاهده ذات مساء في البروفانس خلال رحلة قام بها سيراً على الأقدام. كان معلّقاً بخيط يتدلّى من إحدى الأشجار، كانت تتسلّق ثم تتراخى هابطة في حركة متقطعة لتعود وتتسلّق من جديد بصبر مضنٍ. لا يفهم الواحد من أين تستمد تلك الشجاعة العنيدة. بدت وحيدة إلى حدّ فظيع، وحيدة في هذا العالم.

ـ هل سيستمرّ لبعض الوقت، عرض الدمى المتحرّكة الذي تقدّمه؟ سألت اليزابيت.

ـ حتى نهاية الأسبوع حسبما قال دومينيك.

ـ هل تخلّت باجيس نهائياً عن الدور في نهاية الأمر؟

ـ وعدتني بالمجيء الليلة.

تسمّر القلم في الهواء وحدّقت اليزابيت في عيني جيربير.

ـ ما رأيك بباجيس؟

ـ إنها لذيذة.

ضحكت اليزابيت من غير أن تتمالك.

ـ بالطبع، إن كنت خجولاً مثلها...

إنحنت فوق مخططها وعادت ترسم بانكباب.

ـ لست خجولاً، قال جيربير. شعر بحنق أن وجهه يحمرّ. هذا غباء، لكنه يكره أن يحدّثه أحد ما عن نفسه، ولا يسعه حتى القيام بإشارة لإخفاء وجهه قليلاً.

ـ بل أعتقد أنك كذلك، قالت اليزابيت ممازحة.

ـ لماذا؟

ـ لأنك لو لم تكن خجولاً لما كنت لاقيت صعوبة في التعرّف إليها بشكل أفضل. رفعت عينيها ونظرت إلى جيربير بحسن نية وفضول. هل أنك حقاً لم تلاحظ شيئاً أم أنك تتظاهر بذلك فقط؟

ـ لا أفهم قصدك، أجاب جيربير محتاراً.

ـ كم أنك عذب! من النادر أن يصادف الواحد تواضعاً كهذا. كانت تخاطب الفراغ واثقة من نفسها. قد يكون جنون حقيقي يصيبها.

ـ لكن باجيس لا تكترث لي.

ـ أتظن ذلك؟ قالت بسخرية.

لم يردّ جيربير. صحيح أن باجيس تصرّفت معه أحياناً بشكل غريب، لكن هذا لا يثبت شيئاً. هي لا تهتم سوى بفرنسواز ولابروس. اليزابيت تريد أن تهزأ به. راحت تمصّ طرف قلمها في حركة مزعجة.

ـ ألا تعجبك؟

رفع جيربير كتفيه.

ـ لكنك مخطئة، قال.

نظر من حوله مرتبكاً. لطالما كانت اليزابيت متطفّلة، تتحدّث

من غير أن تلاحظ الأمر، لمجرّد أن تتكلّم. لكنها تبالغ كثيراً هذه المرّة.

ـ أمهليني خمس دقائق، قال وهو ينهض. حان وقت الهتافات.

كان الممثلون الثانويون حضروا وجلسوا في الطرف الآخر من صالة الفنانين. أومأ إليهم وفتح بهدوء الباب المؤدي إلى الخشبة. لم تكن تسمع أصوات الممثلين، لكن جيربير كان ينصت للموسيقى التي ترافق خافتة حوار كاسيوس وكاسكا. كل مساء يعتريه الانفصال ذاته وهو يترقب اللازمة التي تعلن أن الشعب يقدّم التاج لقيصر. يكاد يصدّق الاحتفالية الملتبسة والمخيبة لهذه اللحظة. رفع يده وعلت صيحة طغت على أنغام البيانو الأخيرة. ترقب من جديد وسط الصمت المخيم على همهمة أصوات بعيدة، ثم سمعت النغمة القصيرة وعلت صرخة من كل الأفواه معاً، في المرة الثالثة، بالكاد ارتفعت بضع علامات موسيقية مشيرة إلى بداية النغمة حتى صرخت الأصوات بعنف متزايد.

ـ يمكننا الاستراحة الآن لبرهة، قال جيربير مستعيداً الوضعية ذاتها. لكنه كان محتاراً. يعلم جيداً أنه يعجب النساء، بل يعجبهنّ كثيراً، لكن أن يعجب باجيس، فهذا سوف يدغدغ كبرياءه.

ـ رأيت باجيس هذا المساء، قال بعد لحظة. أقسم لك أنها لم تبد وكأنها تكنّ لي نوايا طيبة.

ـ كيف ذلك؟

ـ كانت تتذمّر لأنني سأتناول العشاء مع فرنسواز ولابروس.

ـ آه! فهمت. تلك الفتاة تغار مثل نمرة. لا شك أنها كرهتك، هذا صحيح، لكن هذا لا يعني شيئاً. رسمت اليزابيت بضعة

خطوط بصمت. ودّ جيربير لو يستجوبها أكثر، غير أنه لم يتمكن من صياغة سؤال إلاّ وبدا له متطفلاً.

ـ أمر مربك أن يكون ثمة شخص صغير كهذا في حياة الواحد، تابعت اليزابيت. مهما بلغ تفاني فرنسواز ولابروس، فهي تثقل كاهليهما.

تذكر جيربير حادثة الليلة ونبرة لابروس الطيبة: «تلك الفتاة مستبدّة صغيرة، لكننا محصّنان».

يذكر وجوه الناس ونبرات أصواتهم، لكنه لا يحسن النظر من خلالها ليرى ما يجول في رؤوسهم. يبصر الأمور أمامه دقيقة وكامدة من غير أن يتمكن من تشكيل أي فكرة واضحة. تردّد. هذه فرصة غير منتظرة للاستفهام قليلاً.

ـ لا أفهم جيداً مشاعرهما تجاهها، قال.

ـ تعرف كيف هما، أوضحت اليزابيت، إنهما متمسكان بقوة واحدهما بالآخر. أما علاقاتهما بالناس، فتكون على الدوام سطحية، أو أنها بمثابة لعبة. انحنت فوق رسمتها مستغرقة في خطوطها.

ـ يجدان من الطريف أن يكون لهما ابنة بالتبنّي، لكنني أظنّ أن الأمر بدأ كذلك يفسد حياتهما قليلاً.

تردّد جيربير:

ـ يتفرّس لابروس أحياناً في باجيس برفق عظيم.

راحت اليزابيت تضحك.

ـ لا تقل لي إنك تظن بيار مغرماً بباجيس؟

ـ طبعاً لا. كاد يختنق من شدة غضبه. تلك المرأة عاهرة حقاً، تتصرّف وكأنها شقيقة كبرى له.

ـ راقبها، قالت مستعيدة وقارها. أنا واثقة ممّا أقول. ليس عليك سوى القيام بإشارة صغيرة. أضافت بسخرية لاذعة: صحيح أنه يجدر القيام بإشارة.

كان كباريه دومينيك مقفراً تماماً مثل مسرح «لي تريتو». جرى العرض أمام عشرة زبائن منتظمين جالسين بوجوه جنائزية. انقبض قلب جيربير وهو يوضب الأميرة الصغيرة من القماش الملمّع في حقيبة. قد تكون هذه آخر ليلة. غداً ينهمر على أوروبا مطر من الغبار الرمادي يغمر الدمى الهشّة، الديكورات، كونتوارات المقاهي وجميع أقواس قزح الملتمعة أنواراً في شوارع مونبارناس. تباطأت يده فوق الوجه الأملس البارد: إنه دفن حقيقي.

ـ وكأنها ميتة، قالت باجيس.

ارتعش جيربير. كانت باجيس تعقد وشاحاً تحت ذقنها وهي تنظر إلى الأجساد الصغيرة المثلجة المرصوفة في قعر العلبة.

ـ من اللطف أن تأتي الليلة، قال. يجري العرض بشكل أفضل بكثير حين تكونين معنا.

ـ لكنني قلت لك إنني قادمة، قالت بعزّة نفس مندهشة.

كانت وصلت في موعد رفع الستار تماماً ولم يتسنَّ لهما الوقت لتبادل بضع كلمات. رمقها جيربير بنظرة سريعة. لو أنه يجد فقط ما يقوله لها. يرغب في استبقائها للحظة. فهي في نهاية الأمر ليست مهيبة إلى الحد الذي تصوّره. حتى أنها بدت ممتلئة الوجنتين في هذا الوشاح الملفوف حول رأسها.

ـ هل ذهبت إلى السينما؟ سألها.

ـ لا، أخذت تشد على شرابات وشاحها. كانت السينما بعيدة جداً. ضحك جيربير.

ـ لكن سيارات الأجرة تقرّب المسافات كثيراً.

ـ آه! قالت باحتراس، لا أثق بها. ابتسمت بلطف. هل كان عشاؤك جيداً؟

ـ تناولت طبقاً من الجمبون بالفاصوليا الحمراء. كان معجزة حقيقية، قال بحماس. توقف مرتبكاً: لكن قصص الطعام تثير اشمئزازك أنت.

رفعت باجيس حاجبيها. بدا وكأنهما مرسومان بالريشة، مثلما على قناع ياباني.

ـ من أخبرك هذا؟ إنه اختلاق أحمق.

فكر جيربير بسرور إنه بدأ يتقن الأساليب السيكولوجية، إذ تراءى له بوضوح أن كزافيير مازالت مستاءة من فرنسواز ولابروس.

ـ لن تقنعيني بأنك ميالة إلى الأكل، قال ضاحكاً.

ـ هذا لأنني شقراء، قالت مغتمّة. يظنني الجميع أثيرية.

ـ أراهن أنك لن تتناولي معي طبق همبرغر! قال جيربير. قال هذا عفوياً فذهل على الفور لجرأته.

إلتمعت عينا كزافيير حماساً.

ـ أراهن أنني سأفعل.

ـ حسناً، هيا بنا. تنحى جانباً ليدعها تعبر أمامه. ماذا عساي أحدّثها؟ تساءل قلقاً. شعر رغم ذلك ببعض الفخر. لا يمكن القول

إنه لم يقم بإشارة، وهو الذي يجد على الدوام أن أحداً ما تقدّمه.

ـ آه! كم أن الجو بارد! تذمّرت باجيس.

ـ لنذهب إلى الكوبول. إنه على مسافة خمس دقائق.

نظرت باجيس من حولها يائسة.

ـ ألا يوجد مطعم أقرب؟

ـ طبق الهمبرغر يجب أن يؤكل في الكوبول، أجاب جيربير. بحزم.

هكذا هي النساء على الدوائم. إما يشعرن بالبرد أو بالحرّ. يتطلبن الكثير من المراعاة ولا يمكن اعتبارهن رفيقات طيبات.لا سبق لجيربير أن شعر بالحنان تجاه بعضهنّ لأنه يحبّ أن يحببنه، غير أنه سرعان ما يشعر بسأم محتوم. لو سنحت له الفرصة أن يكون لوطياً، لما كان خالط سوى الرجال. وبعدها تتعقد المسألة إن أراد الواحد الانفصال عنهنّ، وخصوصاً إن كان يكره أن يتسبب بالمعاناة لغيره. في نهاية الأمر، يفهمن مع الزمن، غير أنهنّ يتأخرن كثيراً. بدأت آني تفهم، هذا ثالث موعد يتخلّف عنه من دون سابق إنذار. نظر جيربير بحنو إلى واجهة الكوبول. تلك الأضواء تحرّك قلبه مثلما تفعل نغمة جاز كئيبة.

ـ أترين، ليس بعيداً.

ـ هذا لأن ساقيك طويلتان، أجابت كزافيير محدّقة فيه بنظرة استحسان. أحبّ أولئك الذين يمشون بسرعة.

التفت جيربير إليها قبل أن يدفع الباب الدوّار.

ـ هل ما زلت ترغبين في تناول همبرغر؟

تردّدت كزافيير.

ـ الحقيقة أنني لا أشعر برغبة كبيرة جداً. ما أشعر به في الواقع هو العطش.

نظرت إليه وكأنما لتعتذر. بدت طيبة حقاً بوجنتيها الممتلئتين وتلك الخصلة الصبيانية المتدلية من تحت وشاحها. خطرت لجيربير فكرة جريئة.

ـ في هذه الحال، لمَ لا ننزل إلى المرقص؟ حاول بخفر أن يوجه لها ابتسامة غالباً ما تعطي نتيجة مرضية. سألقنك درساً صغيراً في رقص الكلاكيت.

ـ آه سيكون هذا رائعاً! صاحت باجيس باندفاع بعث فيه بعض الذهول. نزعت وشاحها بحركة نزقة وراحت تهبط الأدراج الحمراء واثبة بسرعة. تساءل جيربير بدهشة إن لم يكن ثمة قدر من الصحة في تلميحات اليزابيت. فباجيس شديدة التحفظ عادة مع الآخرين! وها هي الليلة تتلقى باندفاع أدنى مبادراته.

ـ سنجلس هنا، قال مشيراً إلى إحدى الطاولات.

ـ أجل، سيكون هذا ممتعاً. نظرت باجيس حولها مسرورة. بدا في مواجهة خطر إندلاع كارثة أن الرقص يمثل ملاذاً أفضل من العروض الفنية. فكان بعض الأزواج يرقصون على الحلبة.

ـ آه! أحب كثيراً هذا النوع من الديكور، قالت باجيس. تغضّن أنفها. غالباً ما يجد جيربير صعوبة في أن يتمالك نفسه عن الضحك أمام تبدّل تعابير وجهها. كل ما عند دومينيك شحيح. هذا ما يدعونه الذوق الرفيع. كشرت قليلاً ونظرت إلى جيربير نظرة تواطؤ. ألا تجد أن هذا يوحي بالبخل؟ وكذلك أذهانهم ومزاجهم. كل شيء يبدو منتظماً ومتقناً.

ـ آه! أوافقك الرأي. حتى ضحكتهم زاهدة. يذكرونني بذلك

الفيلسوف الذي أخبرني عنه لابروس، كان يضحك حين يرى خطاً مماساً لدائرة، لأنه يشبه الزاوية من دون أن يكون واحدة.

ـ إنك تسخر مني.

ـ أقسم لك. كان يبدو له هذا المشهد مضحكاً للغاية، لكن الحقيقة أنه كان بائساً.

ـ لكن يبدو وكأنه لم يكن يفوت فرصة للاستمتاع بوقته.

ضحك جيربير.

ـ هل سبق إن سمعت شاربيني؟ هذا الرجل أعتبره طريفاً، خصوصاً عندما يغني كارمن: «أمي، أراها» فيبحث برانكاتو في كل مكان «لكن أين؟ هنا؟ أين هي المسكينة؟» أضحك كل مرة حتى الدموع.

ـ لا، أجابت باجيس متأسفة، لم أسمع يوماً شيئاً بهذه الطرافة. كم أودّ هذا.

ـ حسناً. علينا أن نذهب لمشاهدته في أحد الأيام. وجورجيوس؟ ألا تعرفين جورجيوس؟

ـ لا، أجابت باجيس وهي تنظر إليه نظرة مثيرة للشفقة.

ـ قد تجدينه سخيفاً، قال متردداً. أغنياته مليئة بالحيل الفظة والتلاعب على الألفاظ حتى. لم يكن يتصوّر باجيس تنصت مستمعة إلى جورجيوس.

ـ أنا واثقة من أنني سأجده طريفاً، قالت بنهم.

ـ ماذا تشربين؟

ـ ويسكي.

ـ إذاً كأسان من الويسكي، طلب جيربير. هل تحبين الويسكي؟

ـ لا، أجابت مكشرة. تفوح منه رائحة صبغة اليود.

ـ لكنك تحبين تناول كأس منه، مثلي أنا مع البيرتو. لكنني أحبّ الويسكي، أضاف بحرص. ابتسم لها ابتسامة جريئة. هل نرقص هذا التانغو؟

ـ بالتأكيد. نهضت وملّست تنورتها، براحة يدها. عانقها جيربير. يذكر أنها ترقص جيداً، ترقص أفضل من آني وكاتزيني، غير أن دقة حركاتها هذا المساء بدت له أشبه بالمعجزة. كانت رائحة طفيفة غضّة تفوح من شعرها الأشقر. استسلم جيربير للحظة بلا تفكير لإيقاع الرقصة، لأنغام القيثارات، لتلألؤ الأضواء البرتقالي، للعذوبة التي غمرته وهو يمسك جسداً طرياً بين ذراعيه.

ـ كنت غبياً حقاً، فكر فجأة. كان عليه أن يدعوها للخروج معه قبل أسابيع. ها أن الثكنة في انتظاره الآن، فات الأوان، هذه الليلة لن يكون لها غد. انقبض قلبه. كل ما عبر في حياته كان بلا غد. يعجب من بعيد بالقصص الجميلة المتقدة، لكن الحب العظيم كالطموح، لن يعرفه إلاّ في عالم حيث للأمور وزن، حيث الكلمات التي نقولها والإشارات التي نقوم بها تترك أثراً. خيل لجيربير أنه حشر في قاعة انتظار لا منفذ فيها إلى أي مستقبل. فجأة مع توقف الفرقة الموسيقية عن العزف، تحوّل القلق الذي لازمه طوال المساء إلى ذعر. كل تلك السنوات التي انسابت من بين أصابعه لم تبد له يوماً سوى زمن ضائع وموقت، لكنها تشكل وجوده الوحيد، لن يعرف أبداً وجوداً آخر. حين سيكون ممدّداً في حقل، متيبساً وملطّخاً بالوحل، وعلى معصمه صفيحة صغيرة تحمل هويته، لن يعود هناك شيء على الإطلاق.

ـ لنذهب ونشرب بعض الويسكي، قال.

ابتسمت له كزافيير بانقياد. لمحا وهما عائدان إلى طاولتهما بائعة أزهار مدّت لهم سلّة مليئة بالأزهار. توقف جيربير واختار وردة حمراء. وضعها أمام كزافيير فعلقتها على أعلى ثوبها.

الفصل (١٢)

ألقت فرنسواز نظرة أخيرة إلى المرآة. لم تهمل لمرة أي تفصيل. تأنّت في نتف حاجبيها. شعرها المرفوع يبرز عنقها الصافي. أظافرها تلتمع مثل الياقوت الأحمر. شعرت بالفرح لفكرة تمضية هذه السهرة. فهي تكنّ عاطفة خاصة لبول بيرجي. يمضيان على الدوام وقتاً ممتعاً حين يخرجان معها. اقترحت بول اصطحابهما هذا المساء إلى حانة إسبانية تشبه تماماً مرقصاً أشبيلياً. كانت فرنسواز مبتهجة لإفلاتها لبضع ساعات من الأجواء المتوترة، الهائمة والخانقة التي يحبسها بيار وكزافيير داخلها. شعرت بنفسها نضرة، مفعمة بالحياة ومستعدة للاستمتاع لحسابها الخاص بجمال بول، سحرِ العرض وشاعرية أشبيليا التي ستنبعث من جديد وسط أنغام القيثارة وطعم المانزنيلا.

منتصف الليل إلاّ خمس دقائق. لم يعد ينبغي التردّد. عليها أن تنزل وتدقّ على باب كزافيير إن لم تكن تريد إفساد هذه الليلة. بيار ينتظرهما في المسرح عند منتصف الليل وسوف يجنّ إن لم يصلا في الموعد المحدّد. عاودت من جديد قراءة الورقة الوردية

حيث يمتدّ بالحبر الأخضر خط كزافيير الضخم: «إعذريني لتخلفي عنك بعد الظهر، لكنني أودّ الاستراحة حتى أكون في حال جيدة هذا المساء. سأحضر إلى غرفتك في الحادية عشرة والنصف. أقبلك بحنان». وجدت فرنسواز هذه الرسالة الصغيرة تحت بابها في الصباح وتساءلت بقلق مع بيار عما يمكن أن تكون كزافيير قامت به خلال الليل حتى تنام طوال النهار. «أقبلك بحنان»، هذا لا يعني شيئاً، مجرّد عبارة فارغة. كانت كزافيير حاقدة حين تركاها في الفلور مساء أمس لتناول العشاء مع جيربير، ولا يمكن التنبؤ بمزاجها اليوم. ألقت فرنسواز على كتفيها دثاراً جديداً خفيفاً من الصوف، تناولت حقيبتها والقفازين الأنيقين اللذين أهدتها إياهما والدتها وهبطت الأدراج. لن تكترث إن كانت كزافيير واجمة وإن استاء بيار من الأمر، فهي مصممة على الاستخفاف بخصامهما. دقت الباب. وردها من خلفه حفيف غامض وكأنه اختلاج الأفكار الخفية التي تراود كزافيير في وحدتها.

ـ من هناك؟ سأل صوت نعس.

ـ هذه أنا، أجابت فرنسواز. هذه المرة لم تسمع أيّ حركة. أحست فرنسواز باشمئزاز رغم تصميمها الجذل بذلك القلق الذي يعتريها على الدوام وهي تنتظر ظهور وجه كزافيير. هل ستكون منشرحة أو مقطبة؟ مهما يكن، فإن مغزى هذه السهرة برمتها، مغزى العالم بأسره خلال هذا المساء سيتوقف على بريق عينيها. انقضت دقيقة قبل أن يفتح الباب.

ـ لست جاهزة على الإطلاق، قالت كزافيير بصوت كئيب. المسألة ذاتها كل مرة، وفي كل مرة الحيرة ذاتها. كزافيير ترتدي برنس الحمام وشعرها الشعث فوق وجهها الشاحب المتورّم. خلفها

بدا السرير بأغطيته المجعلكة وكأنه ما زال دافئاً، والستائر الخشبية لم تفتح طوال النهار. الغرفة يعمها الدخان ورائحة كحول نفاذة. لكن لم تكن الكحول والتبغ ما جعل الهواء خانقاً، بل كل الرغبات غير المشبعة، السأم والنقمة المتراكمة على مدى الساعات، على مدى الأيام والأسابيع، بين تلك الجدران المزركشة مثل رؤيا محمومة.

ـ سأنتظرك، قالت فرنسواز متردّدة.

ـ لكنني لم أرتد ثيابي، أجابت كزافيير. رفعت كتفيها باستسلام أليم. لا، اذهبي من دوني.

مكثت فرنسواز بلا حراك عند عتبة الغرفة، مذهولة. منذ رأت الغيرة والحقد ينفذان إلى قلب كزافيير، باتت تلك الحجرة تخيفها. لم تكن معبداً تمارس فيه كزافيير عبادة نفسها فحسب، بل مستنبتاً حاراً تنمو فيه نبتات كثيفة سامّة، زنزانة مهلوسة حيث الجو الدبق يلتصق ببشرتك.

ـ اسمعي، قالت، سأذهب لاصطحاب لابروس، ثم نمرّ بك بعد عشرين دقيقة. ألا يمكنك الاستعداد خلال عشرين دقيقة؟ إستيقظ وجه كزافيير فجأة.

ـ بلى، بالتأكيد. سترين، يمكنني أن أسرع متى أشاء.

ـ نزلت فرنسواز الطابقين الأخيرين. الأمر مزعج، فالسهرة بدأت بشكل سيىء. ثمة كارثة تحوم منذ بضعة أيام وسوف تنفجر في نهاية الأمر. العلاقة متوترة بصورة خاصة بين كزافيير وفرنسواز. فورة الحنان الخرقاء تلك. مساء السبت بعد السهرة الراقصة الزنجية لم تصلح شيئاً. حثّت فرنسواز خطاها. الأمر دقيق لا يمكن إدراكه: في وسع ابتسامة زائفة أو جملة ملتبسة أن تفسد فرحة نزهة برمّتها. ستتظاهر هذا المساء أيضاً بأنها لم تلاحظ شيئاً، لكنها

تعلم أن كزافيير لن تقول أو تفعل أي شيء بريء. لا يخفي نوايا باطنية.

لم تكن الساعة تجاوزت العشر دقائق بعد منتصف الليل حين دخلت فرنسواز مقصورة بيار. كان ارتدى معطفه وجلس على الكنبة يدخّن غليونه. رفع رأسه ونظر إلى فرنسواز بقسوة مشككة.

ـ هل جئت وحدك؟

ـ كزافيير تنتظرنا، لم تكن جاهزة تماماً. شعرت بغصّة في قلبها رغم أنها كانت مشت. لم يبتسم لها بيار حتى. لم يسبق له مرة أن استقبلها بهذه الطريقة.

ـ هل رأيتها؟ كيف كانت؟

حدّقت في وجهه مندهشة. ما الذي أثار اضطرابه؟ أموره هو تسير على ما يرام. فالخصامات التي قد تفتعلها كزافيير معه لم تكن سوى خصامات عاشقة.

ـ بدت كئيبة ومتعبة، أمضت النهار في غرفة النوم تدخّن وتشرب الشاي.

نهض بيار.

ـ أتعرفين ماذا فعلت الليلة؟

ـ ماذا فعلت؟ تشنّجت فرنسواز. ثمة أمر كريه يحوم في الجو.

ـ رقصت مع جيربير حتى الخامسة صباحاً، قال بيار بنبرة شبه منتصرة.

ـ آه! وماذا حصل؟

ـ ارتبكت. هذه أول مرة يخرج جيربير وكزافيير معاً. وفي هذه الحياة المحمومة والمعقدة التي تحاول بصعوبة المحافظة على توازنها،

فإن أي عنصر جديد يطرأ يحمل مخاطر جمّة.

ـ بدا جيربير مغتبطاً، حتى إنه كان مغتراً بعض الشيء.

ـ ماذا قال؟ لم يكن في وسع فرنسواز تحديد ذلك الشعور الملتبس الذي استقرّ في داخلها، لكن لونه العكر لم يكن ليدهشها. جميع أفراحها صارت الآن تخفي طعماً عفناً، وأشدّ همومها تبعث فيها لذة لاذعة.

ـ يرى أنها ترقص بشكل رائع وأنها لذيذة، قال بيار بنبرة جافة. بدا منزعجاً للغاية وارتاحت فرنسواز حين فكرت أن استقباله الفظّ لها لم يكن من غير مبرّر. لازمت غرفتها طوال النهار. هذا ما تفعله على الدوام حين يحصل لها حدث ما يؤثر في نفسها. تقبع في غرفتها ليتسنّى لها التأمل في أمره.

أغلق باب المقصورة وخرجا من المسرح.

ـ لمَ لا تُعلم جيربير بأنك متمسّك بها؟ اقترحت فرنسواز بعد صمت. ليس عليك سوى أن تقول له كلمة.

ازداد وجه بيار حدّة.

ـ أظن أنه حاول استكشاف نواياي، قال مطلقاً ضحكة كريهة. بدا مضطرباً ومرتبكاً. لا يمكن القول إنه لم يكن جذاباً. ثم أضاف بنبرة أكثر حدّة بعد: شجعته.

ـ إذاً بالطبع! كيف تريده أن يعرف؟ تتظاهر دائماً أمامه بعدم الاكتراث.

ـ تريدينني أن أعلق لافتة على ظهر كزافيير وأكتب عليها «مصاد خاص»، قال بيار بصوت لاذع. عضّ أحد أظافره. عليه أن يحزر.

إحتقن وجه فرنسواز. يتفاخر بيار باحترامه لقوانين اللعبة، غير أنه لا يتقبّل احتمال فشله. إنه في هذه اللحظة متشبّث وغير عادل، وتقديرها الكبير له يجعلها تبغض نقطة الضعف هذه لديه.

ـ تعرف جيداً أنه لا يجيد التحليل النفسي، قالت. ثم أكملت بشراسة: أنت نفسك أوضحت لي مراراً بالنسبة لعلاقتنا أننا حين نحترم أحداً ما احتراماً عميقاً نمتنع عن التسلّل إلى خفايا روحه من دون اعترافه هو.

ـ لكنني لا ألوم أحداً، قال بيار ببرودة. كل شيء على ما يرام هكذا حدّقت فيه ناقمة. كان يعاني، غير أن معاناته عدوانية أكثر من أن توحي بالشفقة. بذلت رغم ذلك مجهوداً لإبداء إرادتها الطيبة.

ـ أتساءل إن لم تكن كزافيير جاملته بدافع سخطها علينا.

ـ ربما، لكن الواقع أنها لم ترغب في العودة قبل الفجر وأجهدت نفسها من أجله. رفع كتفيه غاضباً. والآن سنكون برفقة بول ولن نتمكن حتى من توضيح الأمور.

أحسّت فرنسواز بالإحباط. حين يجد بيار نفسه مرغماً على الإنغماس بصمت في مخاوفه ومآخذه، يحوّل بمهارة مجرى الزمن إلى تعذيب بطيء وبارع. لم يكن ثمة ما تخشاه أكثر من ذلك الجدل المكبوت. لم تعد هذه السهرة التي كانت تترقّبها بفرح مصدر متعة. حوّلها بيار ببضع كلمات إلى عمل مرهق.

ـ إبق هنا، سأصعد وأجلب كزافيير، قالت حين وصلا أمام الفندق. تسلقت الطابقين مسرعة. ألن تسمح لها بعد الآن بأي انفتاح في فضائها؟ ألن تتمكن هذه المرة أيضاً من إلقاء أكثر من نظرات عابرة إلى الوجوه والديكورات؟ ودّت لو تكسر تلك الدائرة

السحرية حيث تجد نفسها أسيرة مع بيار وكزافيير، منفصلة عن باقي العالم.

دقت فرنسواز الباب، ففتح على الفور.

ـ أترين، أسرعت كثيراً، قالت كزافيير. يصعب التصديق أن هذه هي الرهينة الشاحبة والمحمومة التي رأتها فرنسواز منذ قليل. وجهها أملس وصافٍ وشعرها منسدل بتناسق فوق كتفيها. إرتدت فستانها الأزرق وعلّقت على صدرها وردة ذاوية قليلاً.

ـ إنني مسرورة جداً للذهاب إلى مرقص إسباني، قالت بحماس سوف نرى إسبانيين حقيقيين، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد. ستكون هناك راقصات جميلات وعازفو قيثارة وصناجات.

ـ هيا، لنسرع، قالت كزافيير. لامست برؤوس أصابعها معطف فرنسواز. هذا الدثار يعجبني كثيراً، يذكرني بدومينو في حفلة تنكّرية. إنك رائعة حقاً، أضافت بإعجاب.

ابتسمت فرنسواز مرغمة. لم تكن كزافيير منسجمة في الجو العام وسوف تفاجأ حين ترى وجه بيار المقطب. راحت تهبط الأدراج واثبة بفرح.

ـ جعلتك تنتظر، قالت مغتبطة وهي تمدّ يدها لبيار.

ـ لا يهم، ردّ بيار بصوت جاف جعل كزافيير تلتفت إليه بدهشة. أشاح بوجهه وأشار إلى سيارة أجرة.

ـ سنذهب أولاً لإحضار بول حتى تدلّنا على المكان، قالت فرنسواز يبدو أنه من الصعب الاستدلال إليه إن لم نكن نعرفه.

جلست كزافيير قربها على المقعد الخلفي.

ـ يمكنك الجلوس بيننا، المكان واسع، قالت فرنسواز مبتسمة لبيار. أخفض المقعد المتحرّك.

ـ شكراً، قال، سأكون على مايرام.

تبدّدت ابتسامة فرنسواز. إن كان مصراً على التجهم، فلا عليها سوى أن تدعه يفعل. لن ينجح في إفساد سهرتها هذه. التفتت إلى كزافيير.

ـ إذاً، يبدو أنك رقصت الليلة الماضية؟ هل أمضيت سهرة ممتعة؟

ـ آه أجل، جيربير بارع في الرقص، قالت كزافيير بعفوية. ذهبنا إلى مرقص الكوبول. هل أخبرك؟ كانت فرقة موسيقية ممتازة تعزف.

رفّت جفونها قليلاً ومطّت شفتيها وكأنما لتمدّ ابتسامتها لبيار.

ـ السينما تلك التي أوصيتني بالذهاب إليها بعثت فيّ الخوف. بقيت في الفلور حتى منتصف الليل.

رمقها بيار بنظرة شرسة.

ـ لكن هذا يعود لك، قال.

ظلت كزافيير لبرهة مذهولة، ثم عبرت وجهها إرتعاشة متعجرفة والتفتت مجدّداً إلى فرنسواز.

ـ علينا أن نذهب إلى هناك معاً، قالت. من الجائز في نهاية الأمر أن تذهب النساء معاً إلى المرقص. أمضينا سهرة جميلة للغاية مساء السبت في السهرة الراقصة الزنجية.

ـ أنا من جهتي موافقة نظرت بجذل إلى كزافيير. ها أنك تمضين سهرات ماجنة! ليلتان على التوالي بلا نوم.

ـ لذلك استرحت طوال النهار، أردت أن أكون نضرة حين أخرج معكما.

قاومت فرنسواز من غير أن يرفّ لها جفن نظرة بيار الساخرة. إنه يبالغ حقاً. لا داع للتهجّم هكذا لأن كزافيير استمتعت بالرقص مع جيربير. على كل حال، هو يعرف أنه مخطىء، غير أنه متمسّك بذلك التكبّر الشرس، مجيزاً لنفسه ازدراء حسن النية، أصول اللياقة ومبادىء الأخلاق على أنواعها.

كانت فرنسواز قررت أن تحبه حتى في حريته، غير أن قراراً كهذا يحمل تفاؤلاً مبسّطاً. إن كان بيار حراً، فلا يتوقف حبّه عليها وحدها، لأنه قد يختار بملء حريته أن يتصرّف بشكل بغيض. وهذا تماماً ما كان يفعله في هذه اللحظة.

توقفت السيارة.

ـ هل تريدين الصعود معي عند بول؟ سألت فرنسواز.

ـ آه أجل، قلت لي إن منزلها جميل جداً.

فتحت فرنسواز الباب.

ـ إصعدا أنتما الإثنين. أنا سأنتظركما، قال بيار.

ـ كما تشاء، أجابت فرنسواز. أمسكت كزافيير ذراعها وعبرتا البوابة.

ـ كم أنني مسرورة لمشاهدة شقتها الجميلة، تابعت كزافيير. بدت أشبه بطفلة سعيدة وضغطت فرنسواز على ذراعها. تلك العاطفة عذبة على قلبها رغم أنها ناشئة عن ضغينة تكنّها لبيار. على كل حال، قد تكون كزافيير نقّت قلبها طوال هذا النهار الذي

أمضته وحيدة. ذلك الأمل بعث الجذل في نفس فرنسواز، ممّا جعلها تعي كم كان عداء كزافيير أليماً بالنسبة لها.

رنّت فرنسواز الجرس ففتحت لهم خادمة الباب وأدخلتهم إلى غرفة شاسعة عالية السقف.

ـ سأخبر السيدة بقدومكما، قالت.

دارت كزافيير حول نفسها ببطء وقالت بافتتان:

ـ كم إنه رائع!

قلّبت نظرها بين الثريا المتعدّدة الألوان، صندوق القراصنة المرصوف بالمسامير النحاسية الباهتة، الفراش المكسو بمشلح قديم من الحرير الأحمر وعليه مراكب زرقاء، المرآة المعلقة في قعر المضجع. حول صفحتها المصقولة تداخلت عربسات زجاجية ملتمعة ونزقة مثل تفتح براعم جليدية. أحسّت فرنسواز برغبة غامضة تجتاحها. نعمة حقيقية أن يتمكن الواحد من طبع ملامحه في الحرير، خيوط الزجاج والخشب الثمين، إذ خلف تلك الأغراض المتنافرة المجموعة بحذاقة والتي اختارتها بول بذوقها الرقيق ارتسمت صورتها. صورة بول هي التي تراءت لكزافيير وهي تتأمل مفتونة الأقنعة اليابانية، الكرازات المتماوجة بين الخضرة والزرقة، الدمى الصوفية المتصلّبة تحت قبة زجاجية. وكما في السهرة الراقصة الزنجية الأخيرة وليلة رأس السنة، أحسّت فرنسواز بنفسها قبالة ما يحيط بها ملساء وعارية مثل تلك الرؤوس المعدمة الوجوه في لوحات شيريكو.

ـ مساء الخير، كم أنا سعيدة لرؤيتكما! بادرتهما بول. اقتربت مادّة يديها أمام جسدها، متقدّمة نحوهما بخطى سريعة تتباين مع فستانها الطويل الأسود المهيب. عقدت على خصرها باقة من المخمل الداكن المصبوغ بالأصفر. أمسكت بيدي كزافيير وشدّت

عليهما لبرهة «إنها تزداد شبهاً بصورة لفرا أنجيليكو»، قالت.

خفضت كزافيير رأسها بخجل وأفلتت بول يديها.

ـ إنني جاهزة، قالت وهي ترتدي معطفاً قصيراً من فرو الثعلب الفضي. نزلن الأدراج. أرغم بيار نفسه على الابتسام حين اقتربت بول.

ـ هل حضر كثيرون إلى مسرحك الليلة؟ سألت بول ما إن انطلقت سيارة الأجرة.

ـ خمسة وعشرون شخصاً. سنوقف العرض لفترة. على كل حال بدأنا التمرينات لمسرحية «السيد الريح» ومن المتوقع أن ننهي في غضون أسبوع.

ـ نحن أقل حظاً، قالت بول. كانت المسرحية بدأت تنطلق. ألا تجد غريباً كيف أن الناس يتقوقعون على أنفسهم حين تكون الظروف مقلقة؟ حتى بائعة البنفسج قرب منزلي أخبرتني أنها لم تبع ثلاث باقات في اليومين الأخيرين.

توقفت السيارة في شارع ضيق يتسلق صعوداً. تقدمت بول وكزافيير بضع خطوات بينما سدّد بيار أجرة سائق السيارة. كانت كزافيير تتأمل بول مفتونة.

ـ سوف أبدو لائقاً وأنا أدخل تلك الحانة محاطاً بثلاث نساء، دمدم بيار بصوت خافت.

كان يرمق بنظرة حاقدة الطريق المسدود المظلم الذي تسلكه بول. جميع المنازل بدت نائمة. على باب خشبي صغيرة في عمق الطريق كتب بحروف شاحبة «سيفيلانا».

ـ إتصلت بهم حتى يحجزوا لنا طاولة جيدة، قالت بول.

دخلت أمامهم وتقدمت بخطى سريعة نحو رجل أسمر الوجه لا شك أنه صاحب الحانة. تبادلا بضع كلمات وهما يبتسمان. الصالة صغيرة وفي وسط سقفها علّق كشّاف يسكب نوره الوردي فوق الحلبة التي تغصّ بأزواج الراقصين، أما باقي الصالة، فغارق في الظلمة. توجهت بول إلى إحدى الطاولات المصفوفة لصق الجدار، تفصل بينها حواجز خشبية.

ـ كم أن المكان جميل! قالت فرنسواز. يشبه تماماً حانات أشبيليا. كادت تلتفت إلى بيار. تذكرت السهرات الرائعة التي أمضياها قبل سنتين في أحد المراقص قرب ألاميدا. غير أن مزاج بيار لم يكن يسمح له باستحضار ذكريات. كان يطلب واجماً من النادل زجاجة مانزنيلا. نظرت فرنسواز من حولها. تحبّ تلك اللحظات الأولى، حين تبدو لها الديكورات والناس مجرّد مجموعة غامضة غارقة في دخان التبغ. تبتهج لفكرة أن هذا المشهد المبهم سوف يتوضح شيئاً فشيئاً فتبصر الكثير من التفاصيل والأحداث الممتعة.

ـ ما يعجبني هنا، قالت بول، هو أن هذا المكان خالٍ من الأكزوتيكية المبتذلة.

ـ أجل، لا يمكن العثور على ديكور مجرّد أكثر من هذا، قالت فرنسواز.

كانت الطاولات من الخشب الغليظ، وكذلك المقاعد المصفوفة من حولها والبار الذي تتكدّس خلفه براميل صغيرة من الخمر الأسباني. ليس هناك ما يسلب النظر باستثناء المنضدة حيث ينتصب بيانو والقيثارات البديعة اللمّاعة التي يضعها الموسيقيون في ستراتهم الفاتحة اللون بين ركبهم.

ـ يجدر بك أن تخلعي معطفك، قالت بول وهي تلامس كتف كزافيير.

ابتسمت كزافيير. عيناها لم تفارقا بول منذ أن صعد الجميع في سيارة الأجرة. خلعت معطفها بإذعان وكأنها مسرعة.

ـ كم أن فستانك جميل! قالت بول.

حدّق بيار بكزافيير بعينين ثاقبتين.

ـ لكن لماذا تحتفظين بالوردة؟ فهي ذاوية، بادرها بنبرة جافة.

رمقته كزافيير، نزعت الوردة ببطء عن صدرها ووضعتها في كأس المانزنيلا الذي كان نادل وضعه للتو أمامها.

ـ أتظنين أن هذا سينعشها؟ سألت فرنسواز.

ـ لِمَ لا؟ أجابت كزافيير وهي تراقب بطرف عينها الزهرة الذابلة.

ـ عازفو القيثارة جيدون، أليس كذلك؟ قالت بول. يعزفون الفلامنكو الحقيقي. هم الذين يضفون الطابع الخاص إلى هذا المكان. نظرت إلى البار. كنت أخشى أن يكون المكان مقفراً، لكن الإسبانيين غير متأثرين كثيراً بالأحداث.

ـ أولئك النساء مدهشات، قالت فرنسواز. على بشراتهن تتراكم طبقات من مساحيق التجميل، لكنها لا تجعلهنّ يبدين متصنّعات، بل تبقى وجوههنّ حية ووحشية.

راحت تتفحص على التوالي الإسبانيات الصغيرات القامة البدينات، بوجوههن المبرّجة بشكل صارخ تحت شعورهن السوداء الكثيفة. جميعهن يشبهن نساء أشبيليا، أولئك النساء اللواتي يشكنّ خلف أذنهنّ في ليالي الصيف باقات من زهور الناردين يفوح منها عطر ثقيل.

ـ ويرقصن بشكل رائع! تابعت بول. أتردّد غالباً إلى هنا لأشاهدهنّ. حين يشرحن بيدين مكتنزات وقصيرات القامة، يخالهنّ الواحد بليدات. لكن ما إن يتحرّكن حتى تصبح أجسادهن مجنّحة ونبيلة.

غطّت فرنسواز شفتيها في كأسها. طعم الجوز المجفف ذاك يحرك في نفسها الأطياف العذبة للبارات الأشبيلية حيث كانت تلتهم مع بيار الزيتون والأنشوفة بينما ترزح الشوارع تحت حرارة الشمس. التفتت إليه. ودّت لو تتحدّث معه عن تلك العطلة الرائعة. لكن بيار كان لا يزال يحدّق في كزافيير بعينين تضمران لها الشرّ.

ـ ترين، لم يستغرق الأمر طويلاً، قال.

كانت الوردة متدلية حزينة على عنقها وكأنما مسمومة، وقد اصفرّ لونها وتشيّطت بتلاتها. أخذتها كزافيير بنعومة بين أصابعها.

ـ أجل أعتقد أنها ماتت تماماً، أجابت.

رمت الوردة على الطاولة، ثم نظرت إلى بيار نظرة تحدّ. أمسكت كأسها وشربتها دفعة واحدة. حملقت بول مندهشة.

ـ أطيّبة الطعم روح وردة؟

استلقت كزافيير إلى الخلف وأشعلت سيجارة من غير أن تجيب. خيّم صمت مرتبك. ابتسمت بول لفرنسواز.

ـ أتريدين أن نجرّب حظنا مع هذا الباسو دوبلي؟ سألتها في محاولة واضحة لتبديل الأجواء.

ـ حين أرقص معك أكاد أخال أنني أجيد الرقص، أجابت فرنسواز وهي تنهض.

ظلّ بيار وكزافيير جالسين جنباً إلى جنب من دون أن يتبادلا كلمة. كانت كزافيير تلاحق مفتونة دخان سيجارتها.

ـ ماذا حلّ بمشروع العرض الراقص؟ قالت فرنسواز بعد لحظة.

ـ إن توضحت الأوضاع، سأحاول تنظيم شيء ما في أيار.

ـ ستحرزين نجاحاً أكيداً.

ـ ربما. تجهمت بول قليلاً. لكن ليس هذا ما يهمني على وجه التحديد. كنت أود إيجاد وسيلة لإدخال أسلوبي في الرقص إلى المسرح.

ـ لكن هذا ما تفعلينه بطريقة ما. الطابع الجمالي لرقصاتك متقن تماماً.

ـ هذا لا يكفي، قالت بول. إنني واثقة من أن ثمة شيء ما ينبغي البحث عنه، شيئاً جديد حقاً. عبرت وجهها من جديد غيمة من الكآبة. لكن سيتوجب عليّ المجازفة والتقدم على دروب مجهولة...

نظرت إليها فرنسواز بتعاطف وتأثر. بول تخلّت عن ماضيها لترتمي بين ذراعي بيرجي، ظنّت أنها تبدأ إلى جانبه حياة من المغامرة والبطولة، وكل ما يفعله بيرجي الآن هو استغلال الشهرة التي اكتسبها بحسّ تجاري. قدمت بول من أجله تضحيات عظيمة ولا يمكنها الإقرار بخيبتها، غير أن فرنسواز تتبيّن التصدّع الأليم في هذا الحب، في هذه السعادة التي لا تزال تتظاهر بها. إعتراها إحساس مرير. كان بيار وكزافيير لا يزالان صامتين في الزاوية حيث مكثا وحيدين. بيار يدخّن مطرقاً قليلاً وكزافيير تتأمله خلسة وعلى وجهها الأسف. كم أنها حرة! حرة في التصرف بقلبها،

بأفكارها، حرة بأن تتألم، تشكّ وتكره. لا يكبّلها أي ماضٍ، أيّ وعد قطعته، أي وفاء لنفسها.

تلاشت أنغام القيثارات. عادت بول وفرنسواز إلى مكانهما. لاحظت فرنسواز بقدر من القلق أن زجاجة المانزينلا فارغة وأن عيني كزافيير تلتمعان بحدّة تفوق العادة تحت رموشها الطويلة المطلية بالأزرق.

ـ ستشاهدون الراقصة، قالت بول. أجدها رائعة.

كانت امرأة ناضجة ومكتنزة ترتدي زياً إسبانياً تتقدم وسط الحلبة. وجهها ممتلىء مستدير تحت شعر أسود في وسطه فرق في منتصف رأسها ويعلوه مشط أحمر بلون شالها. ابتسمت للحاضرين في حين أطلق عازف القيثارة بعض النغمات الجافة، ثم شرع يعزف. انتصب صدر المرأة في حركة بطيئة، ورفعت ذراعيها الرائعتين الشابتين، طقطقت الصناجات في أصابعها وراح جسدها يثب بخفّة صبيانية، والتنورة الفضفاضة المزخرفة بالزهور تدور مثل دوامة حول ساقيها المشدودتي العضلات.

ـ لمَ صارت رائعة فجأة، تعجّبت فرنسواز ملتفتة إلى كزافيير.

لم تقل كزافيير كلمة. لم تكن تقبل بأي كان إلى جانبها في تأملاتها الشغفة. كانت وجنتاها توردتان عند رأسيهما ولم تعد تسيطر على وجهها. نظراتها تلاحق حركة الراقصة بافتتان مخبول. أفرغت فرنسواز كأسها. تعلم جيداً أنه لا يمكن أبداً الاتحاد مع كزافيير في عمل أو شعور مشترك، غير أنها وجدت من الصعب ألاّ تعود موجودة في نظرها بعد العذوبة التي غمرتها قبل قليل حين استعادت حنانها. حدّقت من جديد في الراقصة. كانت الآن تبتسم لعاشق وهمي، تغويه، تتمنّع، ترتمي أخيراً بين ذراعيه لتتحوّل

إلى ساحرة تقوم بإشارات غامضة ومخيفة. رقصت بعد ذلك مثل فلاحة مرحة، راحت تدور وقد جنّ رأسها وجحظت عيناها، في احتفال قروي. الشباب والفرح الطائش الكامنان في الرقصة اكتسبا في ذلك الجسد المتقدّم في السنّ حيث اكتملا نقاوة مؤثرة. لم تتمالك فرنسواز عن الالتفات مرة جديدة إلى كزافيير فصعقت: لم تعد كزافيير تنظر، أحنت رأسها. كانت تمسك بيدها اليمنى سيجارة دخّنت نصفها وراحت تقرّبها ببطء من يدها اليسرى. كبتت فرنسواز بصعوبة صرخة. كانت كزافيير تلصق الجمرة الحمراء بجلدها فابتسمت شفتاها ابتسامة حادة، ابتسامة حميمة ومتوحدة مثل ابتسامة ممسوسة، ابتسامة شهوانية ومعذّبة لامرأة شبقة. بالكاد يمكن تحمل مشهد هذه الابتسامة، فيها شيء ما فظيع.

كانت الراقصة أنهت وصلتها فحيت المشاهدين الذين كانوا يصفقون. أدارت بول وجهها وحملقت بعينين مشرّعتين متعجبتين من دون أن تقول كلمة. كان بيار لاحظ منذ وقت ما تفعل كزافيير. غير أن أحداً لم ير من الضروري أن يتكلّم، فتمالكت فرنسواز. إلا أن ما كان يحدث كان غير محتمل. تكوّرت شفتا كزافيير بغنج متكلّف وراحت تنفخ برقّة على الرماد المتراكم فوق حرقها. وحين انتهت من تبديد تلك الطبقة الصغيرة الواقية، ألصقت الطرف المشتعل من سيجارتها من جديد بالجرح العاري. انتفضت فرنسواز. لم يكن جسدها وحده الذي انتفض. أحسّت بالارتعادة بشكل أعمق وأقوى في قلب كيانها. خلف تلك التكشيرة المهووسة لاح خطر أشد هولاً من كل ما تصوّرته يوماً، خطر حاسم ونهائي. كان شيء ما قابع هنا، يعانق نفسه بنهم، شيء قائم بالنسبة لذاته بيقين تام. لا يمكن الاقتراب منه حتى في

الذهن. فحين تكاد الفكرة تدرك هدفها تذوب وتتبدّد. لم يكن شيئاً ملموساً يمكن القبض عليه، بل انبجاس متواصل وهروب دائم، شفاف بالنسبة لنفسه وحدها وغامض أبداً. لا يسع الواحد إلاّ أن يدور حوله، مبعداً عنه للأبد.

ـ إنها حماقة قالت. سوف تحرقين يدك حتى العظم.

رفعت كزافيير رأسها ونظرت من حولها تائهة.

ـ هذا لا يؤلم، قالت.

أمسكت بول معصمها.

ـ ستشعرين بألم فظيع بعد برهة، قالت لها. يا له من تصرّف صبياني!

بدا الجرح بحجم قطعة نقدية وعميقاً جداً.

ـ أقسم لك أنني لا أشعر بأي ألم، قالت كزافيير وهي تسحب يدها. رمقتها بنظرة تواطؤ وسرور. الحرق لذيذ، قالت.

اقتربت الراقصة، حاملة بيد صينية والأخرى أحد هذه الأباريق بفوهتين التي يشرب منها الإسبانيون.

ـ من يريد أن يشرب نخبي؟ سألت.

وضع بيار ورقة نقدية على الصينية وتناولت بول الإبريق. قالت بضع كلمات للمرأة بالإسبانية ثم ألقت رأسها إلى الخلف وصوّبت بمهارة إلى فمها سيلاً من الخمر الأحمر قطعته بحركة سريعة.

ـ دورك، قالت لبيار.

أخذ بيار الإناء، تأمله مشغول البال ثم ألقى رأسه إلى الخلف واضعاً الفوهة على طرف شفتيه.

ـ لا، ليس هكذا، قالت المرأة.

أمسكت الإبريق بيد حازمة وأبعدته. صبّ بيار للحظة الخمر في فمه، ثم قام بحركة لاستعادة أنفاسه فسال النبيذ على ربطة عنقه.

ـ تباً! صاح غاضباً.

أخذت الراقصة تضحك وتنهره بالإسبانية. بدا بيار مستاءً بشدّة، مما أضحك بول فأشرقت ملامحها الصارمة مرحاً وشباباً. بالكاد تمكنت فرنسواز من القيام بتكشيرة ضئيلة. فالخوف استتبّ فيها ولايمكن لأي أمر تحويل تفكيرها عنه. شعرت بالخطر يهدّدها هذه المرة متخطياً سعادتها.

ـ هلا بقينا قليلاً بعد؟ سأل بيار.

ـ إن كان الأمر لا يزعجك، أجابت كزافيير بخفر.

كانت بول غادرت للتو. انشراحها الهادىء هو الذي أضفى إلى هذه السهرة سحرها. أطلعتهم الواحد تلو الآخر إلى خطوات الباسو دوبلي والتانغو النادرة، دعت الراقصة إلى طاولتهم وجعلتها تغنّي لهم أغاني شعبية جميلة ردّدها الحضور بصوت واحد. أسرفوا في شرب المانزنيلا وفي نهاية الأمر، انشرحت أسارير بيار واستعاد مرحه. لم يبد على كزافيير أن الحرق يؤلمها. عكست قسمات وجهها على التوالي مئات المشاعر المتناقضة والعنيفة. وحدها فرنسواز أحسّت بأن الزمن مرّ بطيئاً ثقيلاً. لم تتمكن الموسيقى ولا الأغنيات والرقص من طرد الجزء الذي كان يشلّها. لم تعد صورة ذاك الوجه المعذّب والمنتشي تفارق ذهنها. مجرّد ذكراه كانت تجعلها ترتعش. التفتت إلى بيار، شعرت بالحاجة إلى إقامة اتصال معه مجدّداً، غير أنها كانت انفصلت عنه انفصالاً عنيفاً ولم يعد

في وسعها العودة إليه. وجدت نفسها وحيدة. كان بيار وكزافيير يتكلّمان. كانت تسمع صوتهما وكأنما من بعيد.

ـ لماذا فعلت هذا؟ قال بيار ملامساً يد كزافيير.

نظرت إليه كزافيير متوسلة. لم يكن وجهها برمّته سوى رضوخ رقيق. بسببها غضبت فرنسواز من بيار حتى أنها لم تعد تستطيع حتى أن تبتسم له، وها أن كزافيير تصالحت معه من وقت طويل بصمت. بدت مستعدة للإرتماء بين ذراعيه.

ـ لماذا؟ ردّد بيار. تأمل لبرهة اليد المحروقة.

ـ إنني واثق من أن حرق مقدّس، قال.

ابتسمت كزافيير ناظرة إليه بوجه أعزل.

ـ حرق تكفيري، أضاف.

ـ أجل. تصرّفت بعاطفية خسيسة مع تلك الوردة. خجلت من تصرفي هذا!

ـ أهي ذكرى ليلة أمس التي أردت طمرها في داخلك؟ تكلّم بيار بلهجة ودية، غير أنه كان متوتراً.

حملقت كزافيير بإعجاب.

ـ كيف تعرف هذا؟ بدت مذهولة تحت وطأة هذا السحر.

ـ تلك الوردة الذاوية، كان من السهل أن أحزر.

ـ ذلك التصرّف كان سخيفاً، تصرّف ممثلة. لكنك أنت من استفزّني، قالت بدلال.

كانت ابتسامتها حارة كقبلة وتساءلت فرنسواز والضيق يغمرها. ماذا كانت تفعل هنا وسط هذه الخلوة الغرامية. مكانها لم

يكن هنا. لكن أين هو مكانها بالضبط؟ ليس في مكان آخر بالتأكيد. شعرت في هذه اللحظة أنها ممحوة من العالم.

ـ أنا! تعجّب بيار.

ـ كنت تنظر إليّ بنظراتك الساحرة، ترمقني بعينين غاضبتين متوعدتين، قالت كزافيير بحنان.

ـ أجل، كنت بغيضاً. أعتذر. لكنني أحسست بك منشغلة بأمور مختلفة تماماً.

ـ لا شك أن لديك هوائيات، لأنك كنت تستشيط غيظاً قبل حتى أن أفتح فمي. هزّت رأسها: غير أن نوعيتها رديئة.

ـ أدركت على الفور أن جيربير سحرك، قال بيار بخشونة.

ـ سحرني؟ تغضّن جبين كزافيير. لكن ماذا أخبرك ذاك الرجل الحقير؟

لم يكن بيار تعمّد ذلك. فالخساسة ليست من أطباعه، إلاّ أن كلامه حمل تلميحاً مسيئاً إلى جيربير.

ـ لم يخبرني شيئاً، غير أنه كان مفتوناً بالسهرة ومن النادر أن تبذلي جهداً من أجل أن تفتني أحداً.

ـ كان عليّ أن أحزر، قالت كزافيير حانقة. ما إن نتصرّف بتهذيب مع شخص ما حتى تنتابه أفكار شاذة! الله أعلم أي قصة نسجها ذهنه الضيق الهزيل!

ـ ثم لازمت غرفتك طوال النهار. لا شك أنك كنت تودين التأمل في تلك السهرة الرومنسية.

ـ كانت هذه رومنسية مرغمة، أجابت بغضب.

ـ هذا ما يبدو لك في هذه اللحظة.

ـ لا، عرفت هذا على الفور، قالت فاقدة الصبر. نظرت في عيني بيار. أردت لتلك السهرة أن تكون رائعة. هل تفهمني؟

عبرت لحظة صمت. لن يعلم أحد أبداً ما الذي مثله جيربير بالتحديد بالنسبة لها خلال الساعات الأربع والعشرين تلك، وها أنها نسيته. الأمر الأكيد هو أنها في هذه اللحظة تنكره بصدق تام.

ـ كنت تثأرين منّا.

ـ أجل، أجابت كزافيير بصوت منخفض.

ـ لكننا لم نتناول العشاء مع جيربير منذ وقت مديد. كان علينا أن نراه قليلاً، قال بيار وكأنه يعتذر.

ـ أعرف هذا جيداً، لكنني أستاء دائماً حين أراكم تدعون كل هؤلاء الأشخاص ينهشونك.

ـ إنك شخص صغير متملّك.

ـ لا يمكنني أن أبدّل أطباعي، قالت مرهقة.

ـ لا تحاولي، أجابها بحنوّ. ليس نملك غيرة دنيئة بل ينساب تماماً تعنّتك وعنف أحاسيسك. لن تكوني أنت نفسك إن تخليت عنه.

ـ آه، كم يكون الأمر ممتعاً لو كنا نحن الثلاثة وحيدين في العالم! التمعت نظرتها بشغف. نحن الثلاثة فقط!

ابتسمت فرنسواز بجهد. ذاك التواطؤ بين بيار وكزافيير آلمها مراراً، غير أنها لمست فيه الليلة حكم إعدام موجّهاً ضدّها. الغيرة، الحقد، تلك المشاعر التي لطالما قاومتها، ها أنهم يتكلمون عنها وكأنها أغراض جميلة، مربكة وثمينة ينبغي التعامل معها باحتراس ووقار. كان في وسعها هي أيضاً العثور على تلك الثروات المخيفة

في قلبها. لماذا آثرت عليها المبادىء القديمة الجوفاء التي تدفعها كزافيير بعيداً بازدراء وقح؟ مرات عديدة اعترتها الغيرة، كادت تكره بيار وتتمنى لكزافيير الشرّ، غير أنها أفرغت نفسها كاملة. وكمكافأة لهذا الخيار، اكتسبت وزناً والتفت إليها بيار باهتمام هائم. فرنسواز من جهتها لم تجرؤ أن تكون هي نفسها وأدركت في انفجار أليم أن هذا التخاذل الخبيث جعلها تغدو عدماً.

رفعت عينيها. كانت كزافيير تتكلّم.

ـ أحبّك حين تبدو متعباً. تصبح شاحباً حتى الشفافية. وجهت إلى بيار ابتسامة مفاجئة. تشبه شبحك. كنت جميلاً في زيّ شبح.

نظرت فرنسواز إلى بيار. صحيح أنه شاحب. تلك الهشاشة المتوترة التي عكستها في هذه اللحظات ملامحه المتعبة حرّكت غالباً مشاعرها إلى حدّ الدموع، غير أنها ابتعدت عنه كثيراً ولا يمكن لهذا الوجه أن يؤثر في نفسها. لم تكن تدرك جاذبيته الخيالية إلاّ عبر ابتسامة كزافيير.

ـ لكن الشبح ليس جثة هامدة. إنه كائن حيّ. غير أنه يستمدّ جسده من روحه. لا لحم ودم يثقله، لا يشعر بالجوع أو العطش أو النعاس. توقف نظرها على جبين بيار، على يديه، يدان طويلتان قاسيتان ونحيلتان غالباً ما تلامسهما فرنسواز بعشق غير أنه لا يخطر لها مرة تأمّلهما. ثم أنني أراه شاعرياً لأنه ليس ملتصقاً بالأرض. فهو أينما وجد يكون في مكان آخر.

أنا لست في أي مكان آخر سوى هنا.

ابتسم لكزافيير برقّة. تذكرت فرنسواز بأيّ عذوبة تلقّت مراراً ابتسامات كهذه. لكنه لم يعد في مقدورها أن تشتهيها.

ـ أجل، قالت كزافيير، لكنني لست أدري كيف أقول هذا: إنك هنا لأن هذا ما تريده. لا تبدو قليلاً.

ـ هل أبدو غالباً مكبلاً؟

تردّدت كزافيير.

ـ أحياناً، ابتسمت بغنج. حين تتحدّث إلى رجال وقورين، تكاد تبدو واحداً منهم.

ـ أذكر حين تعرفت إليّ، كنت تظنينني حقاً مدّعياً بغيضاً!

ـ تغيّرت.

أحاطته بنظرة راضية وفخورة، نظرة ملاك. تعتقد أنها غيّرته. هل أن هذا صحيح؟ لم يعد من شأن فرنسواز أن تحكم. هذه الليلة كانت الكنوز النفيسة تغرق في إهمال قلبها المتيبّس. عليها أن تثق بذلك الشوق الداكن الملتمع في عيني كزافيير بتوهّج نضر جديد.

ـ تبدين مرهقة.

ارتعدت فرنسواز. كان يخاطبها هي وبدا قلقاً. حاولت أن تسيطر على صوتها.

ـ أظن أنني أسرفت في الشرب، قالت.

اختنقت الكلمات في حنجرتها. نظر إليها بيار متأسفاً.

ـ كنت كريهاً تاماً طوال السهرة، قال نادماً.

أمسك يدها بحركة عفوية. تمكنت من الابتسام له. كان لعطفه وقع في نفسها، لكن حتى ذلك الحنان الذي أحياه في قلبها لم يكن يسعه انتشالها من كربها المتوحّد.

ـ كنت كريهاً بعض الشيء، قالت ممسكة يده.

ـ أعذريني. لم أكن أسيطر على نفسي بشكل جيد. كان مضطرباً للغاية لأنه أحزنها، حتى أنها لكانت اطمأنت لو كان حبهما وحده المعني. أفسدت سهرتك. كنت ترقبينها باغتباط.

ـ لم تفسد شيئاً. بذلت فرنسواز جهداً كبيراً وأضافت بمزيد من الحماس: مازال لدينا متّسع من الوقت. الجلسة هنا ممتعة. التفتت إلى كزافيير:

أليس كذلك؟ كانت بول محقّة، إنه مكان جميل.

ضحكت كزافيير ضحكة غريبة.

ـ ألا تجدون أننا نشبه سياحاً أميركيين يكتشفون «باريس ليلاً» نجلس على انفراد قليلاً حتى لا نلطّخ أنفسنا وننظر من دون أن نلمس شيئاً...

تجهّم وجه بيار.

ـ ماذا تقولين؟ تريديننا أن نطقطق بأصابعنا ونصيح «أولي»؟

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ ماذا تريدين؟ قال بيار.

ـ لا أريد شيئاً، أجابت كزافيير ببرودة. أقول ما أرى.

عاد الشجار من جديد وعادت كزافيير لاذعة. كانت تنفث الحقد في دوائر ثقيلة. غير مجد أن يحاول الواحد الاحتماء في تلك النهشة المؤلمة. ليس عليه إلاّ أن يحتمل وينتظر، لكن فرنسواز أحسّت بقواها خائرة. بيار لم يستسلم. فهو لا يخشى كزافيير.

ـ لماذا تبغضيننا فجأة؟ بادرها بقسوة.

انفجرت كزافيير ضاحكة بحدّة.

ـ آه لا، لا تبدأ من جديد. كانت وجنتاها ملتهبتين وفمها

متشنّج. بدت في غاية الغضب. لا أمضي وقتي وأنا أبغضكما. أستمع إلى الموسيقى.

- بل تبغضيننا، ردّد بيار.

- لا إطلاقاً. استعادت أنفاسها. ليست هذه أول مرة أعبّر فيها عن دهشتي لاستمتاعك بالنظر إلى الأمور من الخارج وكأنها مجرّد ديكور في مسرح. لامست صدرها: أنا، قالت بابتسامة شغفة، أنا من لحم ودم، أتفهم؟

نظر بيار إلى فرنسواز متأسفاً، تردّد ثم بدا وكأنه يكابد نفسه.

- ماذا حصل؟ قال بنبرة أكثر تساهلاً.

- لم يحصل شيء.

- وجدت أننا نبدو أشبه بزوج.

نظرت كزافيير في عينيه.

- تماماً، قالت بعجرفة.

صرّت فرنسواز أسنانها. أحسّت برغبة وحشية في أن تضرب كزافيير وتدوسها برجليها. تمضي ساعات تستمتع بتريّث لأحاديثها مع بيار، في حين تنكر لها كزافيير الحق في تبادل أي إشارة ودّية معه! إنها تبالغ، لا يمكن أن يستمر الأمر على هذه الحال، لم تعد تحتمل.

- لست عادلة أبداً، قال بيار بغضب. إن كانت فرنسواز حزينة، فهذا بسبب موقفي منك. لا أظن أن ثمة علاقة زوج هنا.

إنحنت كزافيير إلى الأمام من غير أن تجيب. نهضت امرأة شابة إلى طاولة مجاورة وشرعت تلقي بصوت أبحّ قصيدة إسبانية. ساد الصالة صمت عميق وتوجّهت الأنظار إليها. لم يكن معنى

الكلمات واضحاً، غير أن الواحد ينجذب إلى هذه النبرة المتّقدة، إلى ذلك الوجه المطبوع بشوق مؤثر. القصيدة تتحدّث عن الكره والموت، ربما عن الأمل أيضاً. وعبر انتفاخها الثائر وشكواها حضرت إسبانيا الممزّقة فجأة إلى جميع القلوب. النار والدم طردا من الشوارع. القيثارات، الأغاني، الوشاحات المتوهجة ألواناً، أزهار الناردين. المراقص انهارت والقنابل بقرت الخوابي المليئة بالخمر. في عذوبة الليالي الدافئة يحوم الخوف والجوع. لم تعد أنغام الفلامنكو وطعم الخمر المتصاعد إلى الرأس سوى الذكرى الجنائزية لماضي ميت. حدّقت فرنسواز للحظة بالغم الأحمر المأساوي مستسلمة للصور الكئيبة التي تستحضرها التعويذة الشرسة. ودّت لو تذوب كلياً في هذه النداءات، في هذه الحسرات المرتعشة خلف الأصوات الغامضة. أشاحت بوجهها. كان في مقدورها التوقف عن التفكير في نفسها، لكنه لا يمكنها التغاضي عن وجود كزافيير إلى جانبها. لم تعد كزافيير تنظر إلى المرأة. راحت تحدّق في الفراغ. كانت سيجارة تشتعل بين أصابعها وبدأت الجمرة تلامس لحمها من غير أن تدرك الأمر. بدت مستغرقة في انخطاف هيستيري. مسحت فرنسواز جبينها بيدها. كان يتصبب بالعرق. الجو خانق والأفكار في داخلها تلتهب مثل ألسنة من النار. ذلك الوجود العدائي التي تراءى قبل قليل في ابتسامة مجنونة أخذ يدنو منها أكثر فأكثر. لم يعد هناك سبيل لتفادي انقشاعه المريع. يوماً بعد يوم، دقيقة بعد دقيقة، هربت فرنسواز من الخطر، لكن الأمر انتهى. إلتقت أخيراً تلك العقبة المنيعة التي حدستها منذ طفولتها الأولى في أشكال غامضة. كانت الفضيحة تنفجر عبر انتشاء كزافيير المهووس، عبر حقدها وغيرتها، فضيحة فظيعة ونهائية كالموت. قبالة فرنسواز لكن من دونها، كان شيء ما موجوداً مثل

إعدام محتوم. كان وعي غريب ينتصب، حراً، مطلقاً، لا يمكن قهره. إنه أشبه بالموت، بإنكار تام، غياب أبدي. ورغم ذلك يمكن لهوة العدم هذه بفعل تناقض مخيف أن يكتسب حضوراً بالنسبة لنفسه، أن يمنح نفسه وجوداً مكتملاً لذاته. يبتلع العالم برمته. فرنسواز نفسها وقد سلب منها العالم للأبد، تذوب وتتلاشى في هذا الفراغ الذي لايمكن لأي كلمة أو صورة رسم حدوده اللامتناهية.

- إنتبهي، قال بيار.

إنحنى فوق كزافيير ونفض عن أصابعها الجمرة الحمراء. تفرّست في وجهه وكأنها تخرج من كابوس، ثم نظرت إلى فرنسواز. أمسكت فجأة كلاً منهما بيد. كانت راحتاها ملتهبتين. ارتعشت فرنسواز عند ملامسة الأصابع المحمومة المتشبثة بأصابعها. ودّت لو تسحب يدها، تدير رأسها، تكلّم بيار، لكنه لم يسعها القيام بحركة. كانت مشدودة إلى كزافيير، تتأمل بذهول ذلك الجسد الذي يمكنها لمسه، ذلك الوجه الرائع الذي تراه ومن خلفه يختبيء وجود فاضح. ظلت كزافيير لوقت طويل مجرّد جزء من حياة فرنسواز. وها أنها تضحي فجأة الواقع المطلق الوحيد، في حين تتلاشى فرنسواز لتصبح صورة شاحبة.

- لماذا هي، وليس أنا؟ فكرت فرنسواز بانفعال. أن كلمة واحدة تكون كافية. ليس عليها سوى أن تقول «أنا». لكنه يتوجب عليها أن تومىء بهذه الكلمة، أن تحسن اختيار نفسها. مضت على فرنسواز أسابيع وهي لم تعد قادرة على تحويل حقد كزافيير، عطفها وأفكارها إلى دخان عاجز تركتها تنهشها، جعلت من نفسها فريسة، عملت بحرية عبر مقاوماتها وانتفاضاتها على تدمير

نفسها. كانت تتابع قصّتها مثل شاهد غير آبه، من غير أن تجرؤ أبداً على تأكيد وجودها. أما كزافيير، فلم تكن من رأسها إلى أخمص قدميها سوى تأكيد حيّ لذاتها. تثبت وجودها بقوة واثقة، حتى أنها فتنت فرنسواز وقادتها إلى تفضيلها على نفسها وإلغاء ذاتها. راحت تنظر بعيني كزافيير إلى الأمكنة، إلى الناس، إلى ابتسامات بيار. أفضى بها ذلك إلى التعرّف إلى نفسها فقط عبر المشاعر التي تكنّها لها كزافيير. وها أنها تحاول الآن أن تذوب فيها. لكن كل ما تتوصل إليه في هذا السعي المستحيل هو الانداحار.

واصلت القيثارات أنغامها الرتيبة وكان الجو حارقاً مثل ريح شرقية. يدا كزافيير لم تفلتا فريستيهما ووجهها المسمّر لم يكن يحمل أي تغيير. بيار أيضاً لم يتحرّك، وكأن رقية سحرية واحدة حوّلتهم الثلاثة إلى أشخاص من رخام. عبرت ذهن فرنسواز صور: سترة قديمة، غرفة مهجورة في غابة، زاوية من «البول نور» يعيش فيها بيار وكزافيير خلوة غامضة. سبق لها في الماضي أن شعرت بكيانها يذوب أمام كائنات لا يمكنها إدراكها، غير أنها لم تعِ مرة بوضوح وانقشاع كاملين تلاشي ذاتها. لو أنها على الأقل فرَغت من كل ما في داخلها، غير أنه لم يزل هناك وميض فوسفوري مبهم يطفو على صفحة الأشياء بين آلاف الأنوار الزائلة غير المجدبة. انهار فجأة التوتر الذي كان يجعلها تتصلّب فانفجرت باكية بصمت.

انكسر السحر، فرفعت كزافيير يديها وتكلّم بيار.

ـ ما رأيكما لو نرحل؟

نهضت فرنسواز. فرغت من كل أفكارها دفعة واحدة وراح جسدها يتقدّم بانقياد. حملت دثارها تحت إبطها وعبرت الصالة.

جفف الهواء البارد في الخارج دموعها، غير أن الارتعاشة في داخلها لم تتوقف. لمس بيار كتفها.

ـ لست على ما يرام، قال. مشغول البال.

كشّرت فرنسواز وكأنها تعتذر.

ـ الحقيقة أنني أسرفت في الشرب.

كانت كزافيير تتقدّمهما ببضع خطوات، متصلّبة مثل إنسان آلي.

ـ هي أيضاً تناولت كؤوساً كثيرة، قال بيار. سنعيدها إلى غرفتنا ثم نتحدّث بكلّ طمأنينة.

ـ أجل.

برودة الليل وحنان بيار جعلاها تستعيد بعض الهدوء. إنضما إلى كزافيير وأمسكها كل منهما بذراع.

ـ أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نمشي قليلاً، قال بيار.

لم تردّ كزافيير. كانت شفتاها منقبضتين في وجهها الشاحب المقطب وكأنه من حجارة. هبطا الشارع بصمت. كان الفجر يطلع. توقفت كزافيير بغتة.

ـ أين نحن؟ سألت.

ـ في ترينيتي، أجاب بيار.

ـ آه! أظن أنني كنت ثملة قليلاً.

ـ هذا ما أظنه أنا أيضاً، قال بيار بمرح. كيف تشعرين؟

ـ لا أعلم، لست أدري ما الذي حصل. تغضّن جبينها وكأنها تتألّم. أذكر امرأة رائعة تتكلّم بالأسبانية، ثم هناك فجوة سوداء.

ـ تأملتها لوقت. كنت تدخنين السجائر الواحدة تلو الأخرى وكان علينا أن ننتزع الأعقاب من بين أصابعك. تركتها تحرقك من غير أن تشعري بشيء. ثم بدوت وكأنك تستيقظين قليلاً وأمسكت يدينا.

ـ آه، أجل! قالت وارتعشت. كنا في قعر الجحيم، خلت أننا لن نبارحه أبداً.

ـ بقيت لفترة وكأنك تحولت إلى تمثال. ثم راحت فرنسواز تبكي.

ـ أذكر، قالت كزافيير وعلى شفتيها ابتسامة غامضة. انخفض جفناها وقالت بصوت ناء: كم سررت حين بكت. هذا ما كنت أود أن أفعله تماماً.

نظرت فرنسواز بهول إلى الوجه الرقيق المليء بالقسوة حيث لم تلمح مرة انعكاس فرحها أو حزنها. لم تكترث كزافيير للحظة خلال هذه السهرة ليأسها. لم تبصر دموعها إلاّ لتبتهج بها. أفلتت فرنسواز ذراع كزافيير وأخذت تركض إلى الأمام وكأن إعصاراً يدفعها، وهي تشهق باكية وتنتفض سخطاً. مخاوفها، دموعها، ليلة التعذيب تلك، كلها ملك لها هي ولن تسمح لكزافيير أن تسلبها منها. ستهرب إلى طرف العالم لتفلت من مجسّاتها النهمة التي تريد التهامها وهي حيّة. سمعت خلفها وقع خطى مسرعة وأحسّت بيد قوية تستوقفها.

ـ ما بك؟ سأل بيار. أرجوك، هدئي من روعك.

ـ لا أريد، قالت فرنسواز. لا أريد. انهارت باكية على كتفه. حين رفعت رأسها، رأت كزافيير وقد اقتربت، وراحت تنظر إليها

بفضول ودهشة. إلاّ أن فرنسواز فقدت أي إحساس بالحياء، لم يعد شيء يطالها. دفعهما بيار داخل سيارة أجرة وواصلت البكاء، عاجزة عن كبت دموعها.

ـ ها أننا وصلنا، أعلن بيار.

صعدت فرنسواز الأدراج مسرعة من دون أن تنظر خلفها وانهارت على الكنبة. كان رأسها يؤلمها. وردت أصوات من الطابق العلوي وانفتح الباب على الفور.

ـ ما الذي يجري؟ قال بيار. اقترب منها بخطى حثيثة وضمّها إليه. التصقت به ولم يعد هناك لبرهة طويلة سوى الفراغ والليل وملامسة رقيقة على شعرها.

ـ حبيبتي، ما بك؟ كلّميني، قال صوت بيار. فتحت عينيها. بدت الغرفة نضرة بصورة غريبة في نور الصباح الباكر. أحسّت بأن الليل لم يلامسها. ذهلت فرنسواز إذ وجدت نفسها أمام أشكال أليفة. استولى عليها نظرها بهدوء. لم تكن فكرة ذلك الواقع المتمنّع محتملة أكثر من فكرة الموت. كان يجدر بها الهبوط إلى كلية الأشياء وكلية ذاتها. غير أنها ظلت مضطربة وكأنها خارجة من احتضار. لن تتمكن من النسيان.

ـ لست أدري، قالت. ابتسمت له ابتسامة واهنة. كل شيء كان ثقيلاً للغاية.

ـ هل أنني أنا من أحزنك؟

أمسكت يديه.

ـ لا.

ـ هل حزنت بسبب كزافيير؟

رفعت فرنسواز كتفيها عاجزة. كان من الصعب أن توضح له. رأسها يؤلمها كثيراً.

ـ هل آلمك أن تغار منك؟ لمست في صوته ندماً. أنا أيضاً وجدتها لا تطاق. لا يمكن أن يستمرّ الأمر. سأكلّمها غداً.

إنتفضت فرنسواز.

ـ لا يمكنك أن تفعل هذا. سوف تكرهك.

ـ فلتفعل.

نهض وقام ببضع خطوات في الغرفة، ثم عاد إليها.

ـ أشعر بالذنب، قال. استرحت بسذاجة على المشاعر الطيبة التي تكنها تلك الفتاة لي، لكن الأمر لم يكن مجرّد محاولة إغواء دنيئة. أردنا بناء علاقة ثلاثية حقيقية، حياة متوازنة بين ثلاثة أشخاص لا يكون أي منّا فيها مغبوناً. ربما كان هذا أمراً مستحيلاً، لكنه كان يستحقّ المحاولة! لكن إن تصرفّت كزافيير كعاهرة صغيرة غيورة، إن كنت أنت ضحية مسكينة بينما أنا منهمك في المغازلة، عندها تصبح قصتنا مقزّزة. كان وجهه متجهماً وصوته قاسياً. سأكلمها، ردّد.

نظرت إليه فرنسواز بحنوّ. إنه يحكم على نقاط الضعف التي يمكن أن يكون أبداها بالقسوة ذاتها التي تحكم بها هي عليها. استعادته بكليته في قوته، وضوحه، رفضه المتغطرس لأي حقارة. لكن حتى ذلك الانسجام التام الذي استعاداه لم يردّ لها السعادة. شعرت بنفسها مرهقة وخائرة أمام احتمال تعقيدات جديدة.

ـ هل تدّعي أنك ستجعلها تقرّ بأنها تغار مني بدافع حبّها لك؟ سألت متعبة.

ـ سأبدو بالتأكيد مغروراً وستجن غضباً، لكنني سأجازف.

ـ لا، إن خسر بيار كزافيير فسوف تشعر بدورها بذنب لا يحتمل. لا، أرجوك. على كل حال، ليس هذا سبب بكائي.

ـ ما هو إذاً؟

ـ ستسخر منّي، قالت مبتسمة بوهن. تراءى لها بصيص أمل. ربما إن توصلت إلى وضع قلقها في جمل، تمكنت من التخلص منه. لأنني اكتشفت أن لديها وعياً كوعيي. هل حصل لك يوماً أن تشعر وكأنما من الداخل بوعي شخص آخر؟ عادت ترتجف من جديد. لم تكن الكلمات تريحها. هذا أمر غير مقبول، تعلم ذلك.

كان بيار يحدّق بها وكأنه لا يسعه التصديق.

ـ تظنني ثملة، تابعت فرنسواز. على كل حال، إنني كذلك، صحيح، لكن هذا لا يغيّر شيئاً. لماذا دهشت إلى هذا الحد؟ نهضت فجأة: لو قلت لك أنني أخشى الموت لكنت فهمت! هذا أيضاً حقيقي ومريع. بالطبع، يعرف كلّ منا أنه ليس وحيداً في العالم. إنها أمور نقولها، مثلما نقول إننا سنموت يوماً. لكن حين نبدأ نؤمن بذلك... إتكأت إلى الجدار. كانت الغرفة تدور من حولها.

ـ إسمعي، ألا تظنين أنه يجدر بك أن تستريحي؟ لست أستخفّ بما تقولينه لي، لكن من الأفضل أن نبحث الأمر بهدوء بعد أن تنامي قليلاً.

ـ ليس ثمة ما يمكن أن أقوله. إنهمرت دموعها من جديد. شعرت بنفسها متعبة حتى الموت.

ـ تعالي واستريحي، قال بيار.

مدّدها على السرير، إنتزع لها حذاءها وغطّاها.

- أرغب في الخروج، قال، لكنني سألازمك حتى تنامي.

جلس إلى جانبها وضغطت يده على وجنتها. لم يعد حبّ بيار هذا المساء كافياً ليبعث فيها السلام. لا يمكنه أن يحميها من ذاك الذي تراءى لها اليوم. إنه في منأى لا يمكن النيل منه، لم تعد فرنسواز تحسّ حتى بملامسته الغامضة، غير أنه يواصل وجوده المحتوم. جميع المتاعب، المصاعب، الكوارث حتى التي جلبتها كزافيير معها حين قدمت إلى باريس، تقبّلتها فرنسواز برحابة صدر كلحظات من حياتها هي. غير أن ما حصل هذه الليلة كان من نوع آخر. لا يمكنها ضمّه إلى حياتها. ها أن العالم ينتصب قبالتها مثل تجسيد هائل للمحظور. ما تراءى لها كان فشل وجودها نفسه.

الفصل (١٣)

ابتسمت فرنسواز للبوابة وعبرت الفناء الداخلي حيث يتعفّن ديكور قديم. صعدت مسرعة الدرج الخشبي الصغير الأخضر. توقفت العروض في المسرح منذ بضعة أيام وهي تترقب بسرور تمضية سهرة طويلة مع بيار. لم تلتقه منذ أربع وعشرين ساعة وكان بعض القلق يشوب شوقها. لا يمكنها أبداً أن تنتظر صافية القلب أخبار مواعيده مع كزافيير، رغم أنها كلها متشابهة: ثمة قبلات، مشاجرات، مصالحات رقيقة، أحاديث شغفة، أوقات صمت طويلة. دفعت فرنسواز الباب. كان بيار منحنياً فوق أحد أدراج خزانة يغرف بيديه من كدسات من الأوراق. هرول إليها.

ـ آه! كم بدا لي الوقت طويلاً من دون أن أراك، قال. كم لعنت بيرنهايم وغداء العمل هذا! لم يدعونِ أرحل إلاّ مع حلول موعد التمرين. أمسك فرنسواز بكتفيها. ماذا حلّ بك؟

ـ لدي أمور كثيرة أريد أن أخبرك إياها.

ـ ماذا كنت تفعل؟ ترتّب مقصورتك؟

ـ آه! سأتخلّى عن مشروعي هذا، فالأمر يائس، قال بيار وهو

يرمق الخزانة بحقد. على كل حال، لم يعد الأمر ملحاً كثيراً.

ـ كانت الأجواء تميل بوضوح إلى الارتياح والاستجمام في هذا العرض الأول، قالت فرنسواز.

ـ أجل، أظن أننا نجونا مرة جديدة. لكن لكم من الوقت، فهذه مسألة أخرى. حفّ بيار غليونه بأنفه ليلمّعه. هل كان العرض ناجحاً؟

ـ ضحكنا كثيراً. لست واثقة من أن هذا كان المفعول المتوقع، لكنني في مطلق الأحوال أمضيت وقتاً ممتعاً. أرادت بلانش بوغي أن تستبقيني للعشاء، لكنني فررت مع رامبلان. نزّهني في عدد لا يحصى من البارات، لكنني صمدت. لم يمنع هذا من العمل جيداً طوال النهار.

ـ ستكلمينني بالتفصيل عن المسرحية، وعن بوغي ورامبلان. أتريدين كأساً صغيرة؟

ـ أعطني كأساً من الويسكي. ثم أخبرني أنت أولاً ماذا فعلت؟ هل أمضيت سهرة جيدة مع كزافيير؟

هووا! رفع بيار يديه. لا يمكنك أن تتصوري الشجار. لكنه لحسن الحظ انتهى بصورة جيدة. لكننا بقينا ساعتين ننتفض حقداً، جالسين جنباً إلى جنب في زاوية من البول نور. لم تحصل بيننا حتى الآن مأساة سوداء كهذه.

أخرج من خزانته زجاجة «فات ٦٩» وملأ كأسين حتى منتصفهما.

ـ ماذا جرى؟ سألت فرنسواز.

ـ تطرّقت أخيراً إلى مسألة غيرتها منك.

ـ ما كان يجدر بك أن تفعل.

ـ قلت لك إنني مصمم تماماً.

ـ كيف أثرت الموضوع؟

ـ تحدثنا عن نزعتها التملكية. قلت لها إن هذه النزعة لديها قوية وجديرة بالتقدير في مجملها، لكن ثمة حالة معينة حيث لا مكان لها، وهي داخل ثلاثي. وافقتني الرأي بطيبة خاطر، لكن حين أضفت أنها تعطي انطباعاً بأنها تغار منك، احمرّ وجهها من شدّة المفاجأة والغضب.

ـ لم تكن في وضع مريح.

ـ لا، كان يمكن أن أبدو لها مثيراً للسخرية أو بغيضاً. لكنها ليست دنيئة. جوهر التهمة وحده أثار فيها الاضطراب. قاومت بشراسة ، لكنني صمدت وذكرتها بأمثلة كثيرة. بكت من شدة حنقها. أبغضتني بقوة حتى أنني أصبت بالجزع. ظننتها ستختنق.

نظرت إليه فرنسواز بقلق.

ـ هل أنت واثق على الأقل من أنها ليست ناقمة عليك؟

ـ واثق تماماً. أنا أيضاً غضبت في بادىء الأمر. لكنني أوضحت لها جيداً بعدها أن كلّ ما أردته كان مساعدتها، لأنها أخذت تبدو كريهة في نظرك. جعلتها تدرك كم أن ما نعتزم نحن الثلاثة إقامته صعب وكم أنه يتطلب من كل منا إرادة طيبة تامة. حين اقتنعت بأن كلامي لا يحمل أي لوم، بل إنني أحذرها فقط من خطر ما، لم تعد ناقمة عليّ. أظن أنها لم تغفر لي فحسب، بل صممت على القيام بمجهود كبير لتبديل سلوكها.

ـ إن كان هذا صحيحاً، فهذا تصرّف تحمد عليه، قالت فرنسواز. شعرت بالثقة تعود إليها.

ـ تحدثنا بصدق أكثر من العادة، ويخيل لي أن شيئاً ما انحل فيها بعد هذا الحديث. تعلمين، ذلك الانطباع الذي تعطيه بأنها تحتفظ بأفضل ما لديها، فهو اختفى. بدت حاضرة بكليتها معي من دون أي تحفظ، وكأنها لم تعد ترى أي عقبة تمنعها من أن تحبني جهراً.

ـ ربما حين اعترفت بصراحة بغيرتها تخلصت منها. تناولت فرنسواز سيجارة ونظرت إلى بيار بحنوّ.

ـ لماذا تبتسمين؟ سأل بيار.

ـ أجدك على الدوام طريفاً كيف أنك تعتبر المشاعر الطيبة التي يكنّها الواحد لك بمثابة فضائل أخلاقية. هذه طريقة أخرى لتخال نفسك الله متجسداً.

ـ ثمة بعض الصحة في ما تقولين، أجاب بيار مرتبكاً. ابتسم للعدم واعترت وجهه براء طيبة لم ترها فرنسواز على ملامحه إلاّ وهو نائم. دعتني لتناول الشاي في غرفتها وهناك للمرة الأولى بادلتني القبلات حين قبّلتها. بقيت حتى الثالثة صباحاً بين ذراعي، مستسلمة كلياً.

أحسّت فرنسواز بغصّة صغيرة في قلبها. عليها هي أيضاً أن تتغلّب على مشاعرها. تجد على الدوام من المؤلم أن يتمكن بيار من معانقة هذا الجسد الذي لما كانت أحسنت تلقيه لو أتيح لها.

ـ ألم أقل لك أنك ستتمكن من مضاجعتها في نهاية الأمر؟ ابتسمت، محاولة التخفيف من حدّة كلامها.

قام بيار بإشارة مبهمة.

ـ سيتوقف الأمر عليها، قال. أنا بالطبع... لكنني لا أودّ استدراجها إلى ما لا ترغب به.

ـ هي لا تمتلك أطباع فتاة طاهرة عفيفة، قالت فرنسواز.

ما إن تلفّظت بهذه الكلمات حتى أحسّت بها قاسية في داخلها واحتقن وجهها قليلاً. تكره أن تنظر إلى كزافيير كامرأة لديها رغبات امرأة، غير أن الحقيقة تفرض نفسها: أكره النقاوة، أنا من لحم ودم. تتمرّد كزافيير بكل قوتها على هذه الطهارة الغامضة التي يحكمون عليها بها. في مزاجها السيىء تظهر مطالبة شرسة.

ـ بالطبع لا، أجاب بيار. أظن حتى أنها لن تعرف السعادة إلاّ حين تجد توازناً شهوانياً. تعيش حالياً أزمة نقص، ألا تظنين؟

ـ بلى، هذا ما أظن تماماً.

ربما كانت قبلات بيار وملامساته هي التي أيقظت حواس كزافيير. لن تتوقف الأمور بالتأكيد عند هذا الحد. تفحصت فرنسواز باهتمام أصابعه. سوف تعتاد الفكرة في نهاية الأمر، حتى أنها بدأت تجدها أقل نفوراً. لن تجد أي صورة مؤذية طالما أنها واثقة من حبّ بيار وعطف كزافيير.

ما نطلبه منها ليس عادياً، قال بيار. إن تمكنّا من تصوّر طريقة عيش مماثلة، فلأن حبّاً استثنائياً يربطنا نحن الإثنين، ولا يمكنها تقبّل الرضوخ لهذا الأمر إلاّ لأنها هي نفسها شخص استثنائي. أفهم جيداً كيف تعيش لحظات تردّد وتمرّد حتى.

ـ أجل، علينا أن نمنح أنفسنا بعض الوقت.

نهضت فرنسواز، اقتربت من الدرج الذي تركه بيار مفتوحاً

وغرزت يديها في الأوراق المبعثرة. هي نفسها أخطأت باستسلامها للريبة، غضبت مراراً من بيار آخذة عليه إهمالاً غالباً ما كان طفيفاً. كتمت أفكاراً كثيرة كان ينبغي أن تطلعه عليها وسعت مراراً إلى محاربته أكثر منها إلى تفهمه. أمسكت صورة قديمة وابتسمت. ظهر فيها بيار يرتدي زياً يونانياً وعلى رأسه شعر مستعار مجعّد. كان ينظر إلى السماء وبدا شاباً وقاسياً.

ـ هكذا كنت حين ظهرت لي للمرة الأولى. وما زلت على القدر نفسه من الشباب.

ـ وأنت كذلك. اقترب منها وانحنى فوق الدرج.

ـ أود أن نشاهد كل هذا معاً، قالت فرنسواز.

ـ أجل، هذه الصورة مليئة بالذكريات الطريفة. نهض ولامس ذراع فرنسواز. أتظنين أننا أخطأنا حين تورطنا في هذه القصة؟ سألها بقلق. أتظنين أننا سنفلح؟

ـ ساورتني شكوك أحياناً، لكنني الليلة استعدت الأمل.

ابتعدت عن الخزانة وجلست من جديد أمام كأسها.

ـ وأنت، إلى أين توصلت؟ سأل بيار وهو يجلس أمامها.

ـ أنا؟ تخجل دائماً من التحدّث عن نفسها وهي هادئة.

ـ نعْم، هل ما زلت تعتبرين وجود كزافيير بمثابة فضيحة؟

ـ تعلم، لا يعتريني هذا الإحساس إلاّ في ومضات متقطعة.

ـ غير أنه يعاودك من وقت لآخر، أليس كذلك؟ سأل بإصرار.

ـ بالطبع.

ـ إنك تدهشينني. لم أصادف أياً كان سواك يمكن أن يذرف الدموع حين يكتشف عند شخص غيره وعياً مشابهاً لوعيه.

ـ أتجدها حماقة؟

ـ لا، بالتأكيد. صحيح أن كلاً يعيش وعيه الخاص كمطلق. كيف يمكن لأكثر من مطلق أن يتآلف؟ يبقى هذا غامضاً كالولادة أو الموت. هذه النقطة تطرح مشكلة عسيرة سقطت عندها جميع الفلسفات.

ـ ما الذي يدهشك إذاً؟

ـ ما يدهشني هو أن تتأثري إلى هذا الحد الملموس من جراء وضع ميتافيزيقي.

ـ لست أقول العكس. نظر إليها بيار مستغرباً. غير أنني رغم ذلك أجد قدرتك هذه على عيش فكرة ما جسداً وروحاً استثنائية.

ـ لكن الفكرة بالنسبة لي ليست نظرية. إما أن تختبرها أو أن تبقى نظرية ولا أهمية لها بالتالي. ابتسمت: وإلاّ لما كنت انتظرت كزافيير لتعلمني أن وعيي ليس وحيداً في هذا العالم.

مرر بيار مطرقاً أصبعاً على شفته السفلى.

ـ يمكنني أن أفهم جيداً كيف أنك اكتشفت هذا بالنسبة لكزافيير.

ـ أجل. لم أشعر يوماً بالضيق معك لأنني لا أميّزك البتة عن نفسي.

ـ ثم إن هناك مبادلة بيننا.

ـ ماذا تعني؟

ـ تعلمين لحظة تقرّين لي بوعي بأنني أقرّ لك كذلك بوعي. وهذا يبدّل كل شيء.

ـ ربما. نظرت فرنسواز بحيرة في قعر كأسها. هنا تكمن

الصداقة في نهاية الأمر، في أن يتخلّى كل واحد عن هيمنته. لكن ماذا لو رفض واحد من الإثنين أن يفعل؟

ـ في هذه الحال تكون الصداقة مستحيلة.

ـ وكيف يتدبّر الواحد أمره عندها؟

ـ لست أدري، قال بيار.

كزافيير لا تنكر نفسها أبداً. مهما علا شأن الواحد في نظرها، ومهما أحبّته، يبقى بالنسبة لها عرضاً، مادة.

ـ الأمر ميئوس منه.

ابتسمت. ينبغي لذلك قتل كزافيير... نهضت وسارت نحو النافذة. لم تكن كزافيير هذا المساء تثقل قلبها. رفعت الستارة. تحب هذه الساحة الصغيرة الهادئة حيث يأتي سكان الحي لتنشق الهواء الطلق. ثمة عجوز جالس على مقعد يخرج من كيس من ورق بعض الطعام، طفل يركض حول شجرة يسكب عليها نور مصباح فيبرز أوراقها بدقّة معدنية. بيار حرّ. وهي وحيدة. لكن في وسعهما وسط هذا الانفصام استعادة وحدة جوهرية كتلك التي كانت تحلم بها في ما مضى بسهولة فائقة.

ـ ما الذي تفكرين فيه؟ سأل بيار.

أمسكت وجهه بين يديها وراحت تكسوه بالقبلات من غير أن تجيب.

ـ أمضينا سهرة ممتعة حقاً، قالت فرنسواز.

أمسكت مغتبطة بذراع بيار. كانا أمضيا وقتاً طويلاً يشاهدان صوراً، يعيدان قراءة رسائل قديمة، ثم قاما بنزهة طويلة على ضفاف السين، في شاتليه والهال، تحدّثا خلالها عن رواية فرنسواز، عن

شبابهما، عن مستقبل أوروبا. كانت هذه أول مرة منذ أسابيع يجري بينهما حديث طويل كهذا، حديث حرّ ومجاني. إنكسرت أخيراً دائرة الشغف والقلق حيث كانت شعوذة كزافيير تحتجزهما ووجدا أنفسهما متشابكين من جديد في قلب العالم الشاسع. خلفهما امتد الماضي مترامياً بلا حدود. إنفلشت القارات والمحيطات بركاً وحقولاً واسعة على صفحة الأرض واعتراهما يقين خارق بوجودهما وسط هذه الثروات الغفيرة، متفلّتاً حتى من حدود المساحة والزمن الضيقة.

ـ انظري، الضوء مشتعل عند كزافيير، قال بيار.

اختلجت فرنسواز. بعد تحليقها المتفلّت، هذا أنها تحطّ في الشارع الضيق المعتم أمام فندقها فتشعر بصدمة أليمة. الساعة الثانية صباحاً. راح بيار يتفحّص بوجه شرطي مترقّب نافذة مضاءة في الواجهة القاتمة.

ـ ما المدهش في الأمر؟ سألت فرنسواز.

ـ لا شيء. دفع بيار الباب وصعد الأدراج مسرعاً. توقف عند فسحة الطابق الثاني. تناهت في الصمت همهمة أصوات.

ـ ثمة أحد ما يتكلّم في غرفتها، قال بيار. وقف بلا حراك، مرهفاً السمع. تسمّرت فرنسواز أيضاً على مسافة بضع درجات من تحته، يدها على الدرابزون.

ـ من عساه يكون؟ قال.

ـ مع من كان يفترض أن تخرج الليلة؟

ـ لم يكن لديها أي مشاريع. تقدّم بيار خطوة. أريد أن أعرف من هو. تقدّم خطوة ثانية فصرّت الأرض الخشبية.

ـ سوف يسمعانك، حذرته فرنسواز.

تردّد بيار، ثم انحنى وراح يفكّ شريط حذائه. غمر فرنسواز يأس يفوق مرارة كل الإحباط الذي شعرت به حتى الآن، كان بيار يتقدّم بخطى صامتة بين الجدران الصفراء. كل شيء إمّحى: تلك الليلة السعيدة، فرنسواز والعالم. لم يعد هناك سوى ذلك الممرّ الصامت واللوح الخشبي، وهذين الصوتين الهامسين. نظرت إليه فرنسواز بائسة. كان يصعب عليها أن تتعرف في ذلك الوجه المهووس المضطرب إلى الوجه المحبوب الذي كان يبتسم لها بحنو لا متناهٍ قبل قليل. صعدت الدرجات الأخيرة. بدا لها أنها وقعت في فخ ممسوس تنتابه لحظات صحوة هشّة. غير أن عصفة صغيرة تكفي لدفعه مجدداً إلى الهذيان. تلك الساعات الهادئة المنطقية لم تكن سوى استكانة بلا غد. لن يعرف يوماً الشفاء. عاد إليها بيار على رؤوس أصابعه.

ـ إنه جيربير، قال خافضاً صوته. حدست ذلك.

صعد الطابق الأخير حاملاً حذاءيه بيده.

ـ حسناً، ليس في المسألة سر غامض، قالت فرنسواز وهي تدخل الغرفة. خرجا معاً ثم رافقها إلى غرفتها.

ـ لم تخبرني أنها ستلاقيه. لماذا أخفت عليّ الأمر؟ إو أنه قرار إتخذته بشكل مفاجىء؟

كانت فرنسواز خلعت معطفها. إنسلت خارج فستانها وارتدت مبذلها.

ـ لا شك أنهما التقيا، قالت.

ـ لم يعودا يذهبان عند دومينيك. لا، لا بد أنها ذهبت خصيصاً لإحضاره.

ـ قد يكون هو الذي جاء إليها.

ـ لن يسمح لنفسه أبداً بدعوتها في اللحظة الأخيرة.

كان بيار جلس فوق حافة الكنبة وهو يتأمل حائراً رجليه العاريتين.

ـ ربما شعرت بالرغبة في الرقص، قالت فرنسواز.

ـ رغبة مفاجئة وعنيفة جعلتها تتصل به، وهي التي يغمى عليها أمام الهاتف من شدة الخوف. أو دفعتها للذهاب إلى سان جيرمان دي بري، وهي العاجزة عن الابتعاد ثلاث خطوات خارج مونبارناس! كان بيار لا يزال مستغرقاً في تأمل قدميه. كان الجورب الأيمن مثقوباً، يظهر طرف أصبع يبدو وكأنه منجذب إليه بافتتان.

ـ ثمة أمر ما، قال.

ـ ماذا تريد أن يكون هناك؟ كانت فرنسواز تسرّح شعرها مستسلمة. منذ متى يتواصل ذلك النقاش المستمر إلى ما لا نهاية والمتجدّد دوماً؟ ماذا فعلت كزافيير؟ ماذا ستفعل؟ ماذا يجول في رأسها؟ لماذا؟ ليلة بعد ليلة يعود الهاجس مضنياً عبثياً، باعثاً في فمها ذاك الطعم المسعور وفي قلبها تلك الحسرة وفي جسدها التعس ذاك الإرهاق. ما إن تجد الأسئلة أخيراً أجوبة حتى تنبثق أسئلة أخرى كلها متشابهة فيعود الدوار المحتوم، ماذا تريد كزافيير؟ ماذا ستقول؟ كيف؟ لماذا؟ لا سبيل لوقف سيل الأسئلة.

ـ لست أفهم، قال بيار. كانت مساء أمس رقيقة، راضية، واثقة.

ـ لكن من قال لك أنها تغيّرت؟ على كل حال لم تقترف جريمة إن أمضت سهرة مع جيربير.

ـ لم يدخل غرفتها مرة أحد سوانا أنا وأنت. إن دعت جيربير إليها، فإما أنها تنتقم مني، وهذا يعني أنها بدأت تبغضني، أو أنها رغبت بصورة عفوية في جلبه إلى غرفتها، وهذا يعني أنه يعجبها كثيراً. كانت رجلاه تتأرجحان متدليتين، وبدا حائراً وغبياً. وربما الإثنان معاً.

ـ قد تكون أيضاً مجرّد نزوة، قالت فرنسواز غير مقتنعة. بالطبع، كانت مصالحة الأمس مع بيار صادقة، ثمة مخادعة معينة لا يمكن لكزافيير القيام بها. لكن على الواحد ألا يتفق معها بابتسامات اللحظة الأخيرة، فهي لا تبشّر إلا بهدنة هشّة. ما أن تفارق كزافيير الشخص أمامها حتى تستعيد المسألة برمّتها. وحين يتركها الواحد هادئة، مستكينة ورقيقة بعد التفاهم معها، غالباً ما يلقاها بعدها تتقد حقداً.

رفع بيار كتفيه.

ـ تعلمين جيداً أن المسألة غير ذلك، قال.

تقدّمت فرنسواز خطوة نحوه.

ـ هل تعتقد أنها ناقمة عليك بسبب الحديث الذي دار بينكما؟ إنني آسفة جداً.

ـ لا داعٍ للأسف، أجاب بقسوة عليها أن تحتمل سماع الحقيقة.

نهض وقام ببضع خطوات عبر الغرفة. سبق لفرنسواز أن رأته مراراً قلقاً، لكنه هذه المرة بدا وكأنه يتخبط وسط ألم لا يحتمل.

ودت لو تخلّصه من المعاناة التي كان فيها. كل الريبة الحاقدة التي تنتابها حياله عادة حين يكون ذهنه قلقاً مغتماً تبدّدت أمام اليأس الذي عكسه وجهه. لكنها لم تعد تتحكم بأي شيء.

ـ ألن تنام؟ سألت.

توارت خلف البارافان وطلت وجهها بمسحوق برائحة الليمون. كان قلق بيار ينفذ إليها. تحت قدميها تماماً كانت كزافيير بوجهها الذي يعجز الواحد عن التنبؤ بتعابيره وجيربير الذي تأملهما، تفصلها عنهما بضعة الألواح الخشبية وقليل من الجصّ. كزافيير أشعلت المصباح الصغير تحت حاجبه الدامي، والكلمات المكبوتة تشقّ طريقها في العتمة المليئة بالدخان. ماذا كانا يقولان؟ هل أنهما جالسان جنباً إلى جنب؟ هل أنهما يتلامسان؟ من الممكن تصوّر وجه جيربير، فهو متشابه دوماً، لكن كيف ينعكس في قلب كزافيير؟ هل أنه مثير للرغبة، مؤثر، قاس، غير آبه؟ هل أنه موضع تأمل، معادٍ أو فريسة؟ لا يصل الصوت إلى الغرفة. لم تكن فرنسواز تسمع سوى حفيف قماش من الجانب الآخر للبارافان وتكتكة المنبّه المتضخّمة في الصمت وكأنما عبر دخان محموم.

ـ هل أنك جاهز؟ قالت فرنسواز.

ـ أجل. كان بيار ارتدى بيجامته ووقف عاري القدمين قرب الباب. فتحه بهدوء. لم يعد يسمع شيئاً، قال. أتساءل إن كان جيربير لا يزال هنا.

اقتربت فرنسواز.

ـ لا، لا يرد مطلق صوت.

ـ سأذهب لأتحقق من الأمر، قال بيار.

وضعت فرنسواز يدها على ذراعه.

ـ احترس، سيكون الوضع مخزياً إن عثرا عليك.

ـ لن يفعلا.

لاحقته فرنسواز بنظرها لبرهة عبر الباب المشقوق، ثم أخذت قطعة من القطن، قارورة من مزيل الطلاء، وراحت تفرك أظافرها بعناية أصبعاً تلو الآخر. ظلت آثار وردية ملتصقة بحواشي أظافرها. لو يستطيع الواحد أن يستغرق في كل لحظة، لما كانت المصيبة أدركت قلبه، فهي بحاجة إلى تواطؤ ما لتفعل.

ـ ماذا وجدت؟ سألته.

ـ الغرفة صامتة تماماً، قال بيار. ظلّ متكئاً إلى الباب. لا شك أنهما يتبادلان القبلات.

ـ أو أن جيربير رحل على الأرجح.

ـ لا. لو فتح الباب وأغلق لكنت سمعته.

ـ على كل حال، قد يكونان صامتين من دون أن يقبلا بعضهما.

ـ إن جاءت به إلى غرفتها، فلأنها ترغب في الارتماء بين ذراعيه.

ـ ليس بالضرورة.

ـ أنا واثق من ذلك.

لم يكن يكلمها عادة بهذه النبرة القاطعة. تشنّجت فرنسواز.

ـ لا أتصوّر كزافيير تأتي برجل ما إلى غرفتها لتقبّله، إلاّ إن كان مغمى عليه. لو خطر لجيربير أنه يعجبها لفقدت صوابها! أرأيت كيف أخذت تكرهه حين اشتبهت ببعض الغطرسة من جانبه.

تفرّس بيار في وجه فرنسواز، بدا غريباً.

ـ ألا يمكن أن تثقي في حسّي السيكولوجي؟ أؤكد لك أنهما كانا يقبّلان بعضهما.

ـ لست معصوماً عن الخطأ.

ـ ربما، لكن حين تتعلّق المسألة بكزافيير، فأنت تخطئين على الدوام.

ـ عليك أن تثبت ذلك.

إبتسم بيار إبتسامة ساخرة، تكاد تكون شريرة.

ـ وإن قلت لك أنني شاهدتهما؟ قال.

دهشت فرنسواز. لماذا أوقع بها هكذا؟

ـ أجل، استرقت النظر من ثقب القفل. كانا جالسين على الكنبة يقبلان بعضهما.

إزداد شعور فرنسواز بالضيق. في تصرف بيار قدر من الارتباك والزور.

ـ لماذا لم تقل لي هذا على الفور؟ سألت.

ـ أردت أن أعرف إن كنت ستثقين بي، أجاب بيار وهو يضحك ضحكة كريهة.

كبتت فرنسواز دموعها بصعوبة. تعمّد بيار إذاً ضبطها وهي مخطئة! هذه المناورة الغريبة تفترض من جهته عداءً لم يخطر لها مرة. هل يعقل أن يكون يضمر لها أحقاداً خفية؟

ـ تظنّ نفسك نبياً! قالت بنبرة لاذعة.

اندسّت بين الأغطية بينما توارى بيار خلف البارافان. كان حلقها ملتهباً. لم تكن هذه الضغينة المفاجئة مقبولة بعد ليلة من

الانسجام والرقّة. لكن أكان هذا الجاسوس المتخفّي المنحني أمام ثقب قفل وعلى وجهه تكشيرة رجلاً مخدوعاً مفعماً بالغيرة، هو ذاته ذاك الذي كان يحدّثها منذ قليل عن نفسها بحنوّ عارم؟ لم تتمالك عن الإحساس بهول حقيقي أمام هذا التطفّل العنيد المحموم. كانت مستلقية على ظهرها شابكة يديها تحت عنقها، تلجم أفكارها كمن يحبس أنفاسه حتى تؤخر اللحظة التي ستتألم فيها. لكن هذا التشنّج نفسه كان يضفي بعض الليونة إلى ملامحه من غير أن يخفف من قسوتها. تحت الرأس المتصلّب المغلق بدا بياض عنقه بذيئاً. تراجعت نحو الجدار. تمدّد بيار إلى جانبها ووضع يده على زرّ الكهرباء. للمرة الأولى في حياتهما، سيناما متخاصمين. مكثت فرنسواز مشرّعة العينين. كانت تخشى ما يمكن أن يحصل حين تستسلم لمشاعرها.

ـ ألا تشعرين بالنعاس؟ قال بيار.

ظلت بلا حراك.

ـ فيمَ تفكرين؟

لم تجب. لن تتمكن من قول كلمة من غير أن تبدأ بالبكاء.

ـ تجدينني بغيضاً، قال.

تمالكت.

ـ أظن أنك أنت من يبغضني، قالت.

ـ أنا! أحسّت بيده على كتفها ورأته يلتفت إليها بوجه مضطرب. لا أريد أن يخطر لك أمر كهذا. ستكون هذه الطامة الكبرى.

ـ هذا ما بدا عليك، قالت بصوت مخنوق.

ـ كيف أمكنك أن تفكري هكذا؟ أن أبغضك، أنت؟

كان في صوته يأس أليم. أبصرت فرنسواز فجأة وسط تمزّق ابتهاج. وحزن دموعاً في عينيه. ارتمت نحوه مجهشة في البكاء. لم ترَ بيار مرة يبكي.

ـ لا، لا أظن، قالت. سيكون الأمر مريعاً.

ضمّها بيار إليه.

ـ أنا أحبك، قال بصوت منخفض.

ـ وأنا أيضاً أحبك.

واصلت البكاء متكئة إلى كتفه، غير أن دموعها انهمرت عذبة. لن تنسى أبداً عيني بيار المغرورقتين بسببها.

ـ أتعلمين، قال بيار، كذبت عليك.

ـ كيف؟

ـ ليس صحيحاً أنني أردت امتحانك. شعرت بالخجل لاستراقي النظر، لذلك لم أخبرك بالأمر على الفور.

ـ آه! لذلك بدوت مريباً!

ـ أردتك أن تعرفي أنهما كانا يتبادلان القبلات، لكنني كنت آمل أن تصدقيني. نقمت عليك حين أرغمتني على قول الحقيقة.

ـ ظننتك تصرّفت هكذا. عن سوء نية، بدا لي الأمر فظيعاً. لامست برقة جبين بيار. غريب، ما كنت لأعتقد يوماً أنك قد تشعر بالعار.

ـ لا يمكن أن تتصوّري كم أحسست بنفسي خسيساً وأنا أهيم بالبيجاما في هذا الممشى وأتلصص من ثقب القفل.

ـ أعرف، الشغف شعور خسيس، قالت فرنسواز.

إطمأن بالها. لم تعد ترى بيار مسخاً طالما أن في مقدوره أن يحكم على تصرّفاته بوضوح وواقعية.

ـ خسيس حقاً، ردّد بيار. كان يحدّق في السقف. لايمكن احتمال فكرة أنها تقبّل جيربير.

ـ أفهم هذا، قالت فرنسواز. وضعت وجنتها على وجنته. لطالما حاولت حتى هذه الليلة إبعاد استياء بيار عنها. ربما نجم هذا التصرّف عن حذر فطري، إذ أنها الآن تشعر بمعاناة لا تحتمل تتملّكها وهي تحاول مشاطرته اضطرابه.

ـ يجدر بنا الخلود إلى النوم، قال بيار.

ـ أجل، أغمضت عينيها. تعلم أن بيار لا يرغب في النوم. هي أيضاً لم تشعر بالنعاس.

لا يسعها التفكير سوى في تلك الكنبة فوق رأسها حيث يتعانق جيربير وكزافيير ويتبادلان القبلات. ما الذي تبحث عنه كزافيير بين ذراعيه؟ انتقام من بيار؟ إشباع لحواسها؟ هل أن الصدفة هي التي جعلتها تختار هذه الفريسة وليس سواها؟ أم أن جيربير هو الذي كانت تشتهيه حين تطالب بشراسة بشيء تلمسه؟ كان جفنا فرنسواز يتثاقلان. استعادت في ومضة عابرة وجه جيربير، وجنتيه السمراوين، أهدابه الطويلة كأهداب امرأة. هل أنه يحب كزافيير؟ هل أنه يستطيع أن يحب؟ هل كان أحبّها هي لو أرادت ذلك؟ لماذا لم يكن هذا ما أراده؟ كم أن مطلق منطق قديم يبدو فارغاً! أم أنها هي التي لم يعد في وسعها الآن العثور على معناه المتمنّع؟ على كل حال، كزافيير هي التي كان يقبّلها. أصبحت عيناها قاسيتين كالحجر. ظلّت لبرهة تسمع إلى جانبها أنفاساً رتيبة، ثم لم تعد تسمع شيئاً.

استعادت فرنسواز وعيها فجأة. إمتدت خلفها طبقة من الضباب الكثيف. لا بدّ أنها نامت طويلاً. كانت خيوط الفجر تسللت إلى عتمة الغرفة. وجدت بيار جالساً. بدا مستيقظاً تماماً.

ـ كم الساعة؟ سألت.

ـ الخامسة.

ـ ألم تنم؟

ـ بلى، قليلاً. نظر إلى الباب. أود أن أعرف إن كان جيربير رحل.

ـ لا بدّ أنه لم يمض الليل بكامله هنا.

ـ سأذهب لأتحقق من الأمر.

دفع الأغطية عنه ونهض من السرير. هذه المرة لم تحاول فرنسواز استبقاءه. فهي أيضاً ترغب في التحقق من المسألة. نهضت وتبعته خارج الغرفة. كان نور رمادي تسرّب إلى الأدراج. الكل في الفندق نائم. إنحنت فوق الدرابزون وقلبها يدق. ما الذي سيحصل الآن؟

ظهر بيار مجدداً بعد برهة عند أسفل الأدراج وأومأ لها. نزلت بدورها.

ـ المفتاح في القفل، لم يعد بوسعي أن أرى شيئاً، لكن أظن أنها وحدها في الغرفة. يتهيأ لي أنها تبكي.

اقتربت فرنسواز من الباب. سمعت طقطقة طفيفة وكأن كزافيير تضع فنجاناً على صحن. سمع بعدها صوت مخنوق وزفرة، ثم زفرة أخرى أقوى، قادها نحيب متواصل، يائس ومسترسل. لا شك أن كزافيير جثت على ركبتيها أمام الكنبة أو

ارتمت أرضاً. كانت تتمالك نفسها دوماً في أشد حزنها، حتى أنه لا يمكن التصديق أن هذا النشيج البهيمي يتصاعد من جسدها حقاً.

ـ ألا تعتقد أنها ثملة؟ سألت فرنسواز.

وحدها الكحول يمكن أن تجعل كزافيير تفقد أي سيطرة على نفسها.

ـ هذا ما أظن، أجاب بيار.

مكثا أمام الباب، قلقين وعاجزين. ليس ثمة حجّة واحدة تجيز لهما أن يدقّا الباب في مثل هذه الساعة من الليل. ورغم ذلك شعرا بعذاب حقيقي وهما يتصوّران كزافيير تشهق بالبكاء خائرة، فريسة كوابيس السكر والوحدة.

ـ لا يمكننا البقاء هنا، قالت فرنسواز أخيراً. كانت الزفرات خفتت، تحولت إلى حشرجة أليمة. ستعرف كل ما جرى بعد ساعات، أضافت.

صعدا بخطى بطيئة إلى الغرفة. لم يكن أي منهما يقوى على تخيّل ظروف جديدة محتملة، ليست الكلمات هي التي ستخلصهما من هذا الخوف الغامض حيث يتردد إلى ما لا نهاية أنين كزافيير. ما هو مصابها؟ وهل يمكن أن تشفى منه؟ استلقت فرنسواز على السرير وعرفت عاجزة إلى عمق الإعياء، التخوف والألم.

حين استيقظت فرنسواز كان النور يرشح من الأباجورات كانت الساعة العاشرة صباحاً. بيار نائم، شابكاً يديه فوق رأسه. بدا وجهه ملائكياً وأعزل. إرتفعت فرنسواز قليلاً متكئة على مرفقها. ثمة ورقة وردية صغيرة موسوسة تحت الباب. عاودتها دفعة

واحدة ذكرى هذا الليل بكامله بخطاه المحمومة ذهاباً وإياباً وصوره اللاذعة. نهضت فجأة من السرير. كانت الورقة مشطورة في وسطها. وعلى الجزء الممزّق تطاولت خطوط ودوائر مشكلة كلمات متداخلة معدمة الشكل. تمكنت فرنسواز من قراءة مطلع الرسالة: «إنني مشمئزة من نفسي إلى أقصى الحدود. كان يجدر بي أن أرمي نفسي من النافذة، لكنني لا أملك الشجاعة الكافية. لا تغفرا لي، يجدر بكما قتلي غداً صباحاً إن تخاذلت». الجمل الأخيرة كانت غير مقروءة. كتبت كزافيير عند أسفل الورقة بأحرف ضخمة مرتجة: «لا غفران».

ـ ما هذا؟ سأل بيار.

كان جالساً عند حافة السرير، مشعث الشعر، وعيناه لا تزالان نعستين. غير أن قلقاً واضحاً بدأ يلوح في هذا الضباب.

مدّت له فرنسواز الورقة.

ـ كانت ثملة حقاً، قالت. أنظر إلى الخطّ.

ـ «لا غفران»، قال بيار. قرأ على عجلة الأسطر الخضراء. اذهبي بسرعة وتحققي من حالتها. دقي عليها الباب.

كان الجزع يملأ عينيه.

ـ إنني ذاهبة إليها، أجابت فرنسواز. إنتعلت خفيّها وهبطت الأدراج مسرعة وساقاها ترتجفان. ماذا لو أصيبت كزافيير فجأة بالجنون؟ هل ستجدها ممدّدة جثة هامدة خلف الباب؟ أم مختبئة في زاوية مذعورة؟ ثمة بقعة وردية على الباب. اقتربت فرنسواز: وجدت قطعة ورق معلّقة بمسمار على اللوح الخشبي. إنها الجزء الثاني من الورقة الممزّقة.

كتبت كزافيير على الورقة بأحرف ضخمة: «لا غفران»، تداخلت تحتها خربشة غير واضحة. إنحنت فرنسواز فوق القفل، غير أن المفتاح كان يسدّ الثقب. دقّت الباب. سمعت طقطقة طفيفة لكن أحداً لم يجب لا شك أن كزافيير نائمة.

تردّدت فرنسواز للحظة ثم انتزعت الورقة وعادت إلى غرفتها.

ـ لم أجرؤ على دق بابها، قالت. أظنها نائمة. أنظر ماذا علّقت على بابها.

ـ الخط غير مقروء. تأمل لبرهة الإشارات الغامضة. ثمة كلمة «غير جديرة». الأمر الأكيد هو أنها كانت غاضبة تماماً. فكّر قليلاً. هل كانت ثملة حين قبّلت جيربير؟ هل أنها تعمّدت الأمر لتشجّع نفسها، لأنها كانت تنوي الإيقاع بي؟ أم أنهما شربا معاً حتى سكرا من دون سابق تصميم؟

ـ كانت تبكي. كتبت هذه الكلمات، ثم غفت على الأرجح، تكهّنت فرنسواز.

فتحت الأباجورات فدخل النور الغرفة. تأملت للحظة بذهول ذلك الشاعر المنهمك، الواضح، حيث كل شيء يبدو منطقياً. ثم التفتت إلى الغرفة الدبقة من شدّة القلق، حيث تواصل الأفكار بإصرار مهووس دورانها من دون توقف.

ـ سأذهب على كل حال وأدقّ بابها، قالت. لا يمكننا أن نبقى قلقين هكذا من غير أن نعرف ماذا جرى. وإن تناولت أدوية ما؟ الله أعلم في أي حال هي!

ـ أجل، واصلي قرع بابها حتى تردّ، قال بيار.

هبطت فرنسواز الأدراج. لم تتوقف منذ ساعات عن الصعود والهبوط على الأدراج، سواء على ساقيها أو في ذهنها. لا يزال نحيب كزافيير يتردّد في رأسها. لا شك أنها بقيت خائرة القوى لوقت طويل ثم إنحنت من النافذة. أمر فظيع أن نتصوّر دوامة الاشمئزاز هذه التي أطبقت على قلبها. قرعت فرنسواز الباب وقلبها يدقّ بجنون. لم يأتها أي ردّ. قرعت بمزيد من الوقوة. همهم صوت خافت:

ـ من هناك؟

ـ أنا، أجابت فرنسواز.

ـ ما الأمر؟

ـ أردت أن أعرف إن كنت مريضة.

ـ لا، كنت نائمة.

ارتبكت فرنسواز. فالنهار طلع وكزافيير راقدة في سريرها، تتكلم بصوت حيّ. إنه صباح اعتيادي بدا فيه طعم الليل المفجع في غير مكانه تماماً.

ـ جئت بسبب الليلة الماضية، قالت فرنسواز. هل إنك حقاً بخير؟

ـ نعم، نعم، إنني بخير، أريد أن أنام، أجابت كزافيير باستياء.

وقفت فرنسواز حائرة لوقت. كانت تحمل في قلبها المكان الفارغ حيث عصف إعصار ولم تسدّه تلك الأجوبة الواجمة. بعث ذلك في نفسها انطباعاً غريباً، محبطاً وباهتاً. من المستحيل أن تشدد أكثر. عادت إلى غرفتها. بعد تلك الزفرات المنتحبة والنداءات المؤثرة، يصعب عليها أن تبدأ يوماً أليفاً وكئيباً.

ـ كانت نائمة، قالت لبيار. بدت وكأنها تجد غير لائق إطلاقاً أن أوقظها.

ـ ألم تفتح لك الباب؟

ـ لا.

ـ أتساءل إن كانت ستحضر إلى الموعد عند الظهر. لا أعتقد.

ـ لا أعتقد أنا أيضاً.

اغتسلا بصمت. من العبث أن يرتبا بكلمات أفكاراً لا تقود إلى أي مكان. حين اصبحا جاهزين، خرجا من الغرفة واتجها معاً إلى الدوم.

ـ أتعلمين ماذا علينا أن نفعل؟ قال بيار، علينا أن نتصل بجيربير ونطلب منه أن يوافينا هناك. سوف يطلعنا على ما جرى.

ـ وبأي حجّة تطلب منه هذا؟

ـ قولي له ما حصل: إن كزافيير كتبت رسالة غامضة وأقفلت على نفسها باب غرفتها، وإننا قلقون ونود أن تستوضح الأمور منه.

ـ حسناً، هذا ما سأفعل، قالت فرنسواز وهي تدخل المقهى. أطلب لي قهوة. تماماً. ما الذي حصل بالضبط هذه الليلة؟ مجرّد قبلات؟ ماذا ينتظر كل من الآخر؟ ماذا سيحصل؟

ـ ألو، قالت موظفة الهاتف. انتظر قليلاً، لديك مخابرة.

دخلت فرنسواز الحجرة.

ـ ألو، أودّ التحدّث إلى السيد جيربير من فضلك.

ـ جيربير يتكلّم. من المتصل؟

ـ أنا فرنسواز. هل يمكنك ملاقاتنا في الدوم؟ سنوضح لك السبب.

ـ حسناً، قال جيربير. سأصل بعد عشر دقائق.

ـ ممتاز. وضعت فرنسواز بعض النقود في الصحن وصعدت إلى المقهى. وجدت اليزابيت جالسة إلى طاولة خلفية وقد فلشت الصحف أمامها ووضعت في فمها سيجارة. كان بيار جالساً بجانبها ووجهه يقطر غيظاً.

ـ يا للمفاجأة! كنت هنا، تعجبت فرنسواز. تعلم اليزابيت أنهما يأتيان إلى الدوم كل صباح تقريباً. لا شك أنها جلست هنا في انتظارهما. هل أنها على علم بشيء؟

ـ دخلت لقراءة الصحف وكتابة بعض الرسائل، قالت اليزابيت. أضافت بقدر من السرور. ليس من الواضح جيداً.

ـ لا، أجابت فرنسواز. لاحظت أن بيار لم يطلب القهوة، فهو يريد بالتأكيد الخروج بأسرع ما يمكن.

ضحكت اليزابيت مستغربة.

ـ ماذا جرى لكما هذا الصباح؟ تبدوان كئيبين.

تردّدت فرنسواز.

ـ سكرت كزافير هذه الليلة، أوضح بيار. كتبت رسالة مجنونة قالت فيها إنها تريد أن تنتحر. وهي الآن ترفض أن تفتح لنا الباب. رفع كتفيه. يمكنها القيام بأي حماقة.

ـ علينا أن نعود إلى الفندق بسرعة، قالت فرنسواز. لست مطمئنة إطلاقاً.

ـ هدّئا من روعكما! لن تقتل نفسها، قالت اليزابيت. حدّقت بطرف سيجارتها. التقيتها الليلة في جادة راسباي، كانت تمشي واثبة مع جيربير، أقسم لكما إنها لم تكن تفكر في الانتحار.

ـ هل بدت ثملة؟ سألت فرنسواز.

ـ تبدو على الدوام وكأنها مخدّرة إلى حدّ ما، قالت اليزابيت. لا يمكنني أن أجزم. هزّت رأسها. إنكما تعتبرانها بجدية تفوق المعقول. أنا أعرف ما يلزمها: يجدر بكما أن تدخلاها جمعية رياضية حيث يرغمونها على مزاولة الرياضة لثماني ساعات في اليوم وتناول البفتيك. سوف تتحسّن حالها، أؤكد لكما ذلك.

ـ سنذهب لنرى، ماذا حلّ بها، قال بيار وهو ينهض.

صافحا اليزابيت وخرجا من المقهى.

ـ قلت لها فوراً إننا دخلنا فقط لاستخدام الهاتف، قال بيار.

ـ أجل، لكنني طلبت من جيربير أن يلاقينا هنا.

ـ سننتظره في الخارج ونناديه ما إن نراه.

راحا يذرعان الرصيف بصمت.

ـ إن خرجت اليزابيت ووجدتنا هنا، كيف سنبدو؟ سألت فرنسواز.

ـ آه! لا يهمني، قال بيار بعصبية.

ـ إلتقتهما الليلة الماضية فجاءت تجسّ النبض. كم أنها تكرهنا!

لم يردّ بيار. كان يحدّق في مدخل المترو بينما تراقب فرنسواز بتخوّف رصيف المقهى. لن يعجبها أن تباغتها اليزابيت في لحظة الاضطراب هذه.

ـ ها هو! قال بيار.

كان جيربير يقترب مبتسماً. كانت ظلال داكنة تمتدّ تحت عينيه وتتطاول حتى منتصف خديه. انفرجت أسارير بيار.

ـ مرحبا، لنهرب بسرعة، قال مبتسماً ابتسامة ودّية. اليزابيت ترصّدنا في الداخل. سنختبىء في المقهى المقابل.

ـ ألم يزعجك القدوم إلى هنا؟ سألت فرنسواز.

كانت مرتبكة. سوف يجد جيربير هذا اللقاء غريباً، بدا مكرهاً.

ـ لا، إطلاقاً، قال.

جلسوا إلى طاولة وطلب بيار ثلاثة فناجين من القهوة. بدا وحده مرتاحاً.

ـ انظر ماذا وجدنا هذا الصباح تحت بابنا، قال وهو يخرج من جيبه رسالة كزافيير. دقت فرنسواز الباب عليها فرفضت أن تفتح لها. ربما يمكنك إطلاعنا على الأمر، سمعنا صوتك الليلة الماضية: هل كانت ثملة أم لا؟ كيف كانت حالتها حين غادرتها؟

ـ لم تكن ثملة، لكننا جلبنا معنا إلى الغرفة قنينة من الويسكي، ربما شربتها بعد رحيلي. توقف وردّ خصلته إلى الخلف مرتبكاً. عليّ أن أقرّ لكما بالأمر، فأنا ضاجعتها الليلة.

خيّم صمت وجيز.

ـ ليس في الأمر ما يمكن أن يدفعها لترمي نفسها من النافذة، قال بيار ببساطة ساذجة.

نظرت إليه فرنسواز بإعجاب. كم أنه يحسن إخفاء مشاعره! لو لم تكن على علم بأمره لكان خدعها!

ـ لكنني أتصوّر أن المسألة أشبه بمأساة بالنسبة لها! قالت مرغمة. هذا الخبر لم يفاجىء بيار بالتأكيد، لا شكّ أنه صمّم

المحافظة على رباطة جأشه. لكن حين يتوارى جيربير، أي انفجار غضب، أي عذاب سوف ينتابه!

ـ لاقتني في مقهى دوماغو، قال جيربير. تحدّثنا لوقت ودعتني إلى غرفتها. هنا، لم أعد أذكر كيف جرت الأمور، لكنها إنقضّت عليّ تقبّلني ووجدت نفسي أضاجعها.

كان يحدّق بإصرار في كوبه وبدا خجلاً ومستاءً بعض الشيء.

ـ كان الأمر يتحضّر منذ وقت! قال بيار.

ـ وتظنّ أنها بعد رحيلك ارتمت على زجاجة الويسكي، قالت فرنسواز.

ـ هذا محتمل. رفع جيربير رأسه. طردتني، لكن أقسم لكما أنني لم ألاحقها أكّد. انشرح وجهه. أوسعتني شتماً! أصبت بالذهول! تصرّفت حيالي وكأنني اغتصبتها!

ـ هذه طريقتها في التصرّف، قالت فرنسواز.

نظر جيربير إلى بيار بخجل مفاجىء.

ـ ألا تلومني؟

ـ ولماذا ألومك؟

ـ لست أدري، قال جيربير مرتبكاً. إنها شابة. لست أدري، ردّد واحمرّ وجهه قليلاً.

ـ كل ما أطلبه منك ألاّ تحمل منك.

أطفأت فرنسواز سيجارتها في الصحن والضيق يغمرها. ازدواجية بيار بعثت فيها الاضطراب. كانت أكثر من رياء. إنه في هذه اللحظة ينظر ساخراً إلى نفسه وإلى كل ما يعلّق عليه أهمية.

غير أن هذا الهدوء الشرس لا يمكن تحقيقه إلاّ مقابل ضغط أليم يتعذّر تصوّره.

ـ آه! إطمئن، قال جيربير. ثم أضاف قلقاً: أتساءل إن كانت ستعود.

ـ تعود إلى أين؟ سألت فرنسواز.

ـ قلت لها قبل أن أرحل إنها تعرف أين تجدني، لكنني لن أذهب إليها بنفسي، قال جيربير بعزّة نفس.

ـ آه، ستفعل مهما قلت، أجابت فرنسواز.

ـ لن أفعل بالتأكيد، قال مستاءً. عليها ألا تتصوّر أنه من الممكن أن تخدعني.

ـ لا تخف، سوف تعود كزافيير، قال بيار. تبدو متعجرفة أحياناً، لكن سلوكها لا يقوم على مبادىء ثابتة، سترغب في رؤيتك وستجد الأعذار المناسبة. أخذ مجّة من غليونه. هل تعتقد أنها مغرمة بك أم لا؟

ـ لا أعرف بالضبط. قبّلتها أحياناً، لكنها لم تبد راضية على الدوام.

ـ يجدر بك الذهاب إليها للتحقق من حالتها.

ـ لكنها سبق وطردتني، قالت فرنسواز.

ـ لا يهمّ، يجب أن تصرّي حتى تفتح لك الباب. ينبغي ألاّ نتركها وحيدة. الله أعلم أي أفكار تعجّ في رأسها. ابتسم بيار: لكنت ذهبت بنفسي، لكن أظن أن هذا لن يكون مناسباً.

ـ لا تقولي لها أنك قابلتني، قال جيربير قلقاً.

ـ لا تخف، طمأنته فرنسواز.

ـ وذكريها بأننا ننتظرها عند الظهر، أوصاها بيار.

خرجت فرنسواز من المقهى وسلكت شارع دولامبر. تكره دور الوسيط هذا الذي يجعلها بيار وكزافيير تلعبه غالباً والذي يجعلها تبدو بغيضة في نظر كل منهما على التوالي. غير أنها مصممة اليوم على أداء هذا الدور من كل قلبها إذ أنها قلقة حقاً بشأنهما.

صعدت الأدراج ودقّت الباب. فتحت كزافير. كان وجهها شاحباً وعيناها متورمتين، غير أنها تأنّت في اختيار ملابسها. رسمت فمها بأحمر الشفاه وطلت أهدابها بالريميل.

ـ جئت آخذ من أخبارك.

ـ رمقتها كزافيير بنظرة كئيبة.

ـ أخباري؟ لست مريضة.

ـ كتبت لي رسالة أخافتني كثيراً.

ـ رسالة؟ أنا؟

ـ انظري، قالت فرنسواز وهيّ تمدّ لها الورقة الوردية.

ـ آه! أذكر هذا بشكل مبهم. جلست كزافيير على الكنبة قرب فرنسواز. سكرت بشكل فظيع.

ـ ظننتك تنوين حقاً الانتحار. لهذا قرعت الباب هذا الصباح.

تأملت كزافيير الورقة باشمئزاز.

ـ كنت ثملة أكثر مما أظن. مرّرت يدها على جبينها. إلتقيت جيربير في مقهى دو ماغو. لسبب لم أعد أذكره صعدنا إلى غرفتي ومعنا زجاجة ويسكي. شربنا قليلاً معاً وبعد رحيله أفرغت الزجاجة. نظرت إلى البعيد وعلى فمها تكشيرة غامضة. أجل،

أذكر الآن أنني بقيت لوقت طويل أمام النافذة أفكر في أنه يجدر بي أن أرتمي منها. ثم شعرت بالبرد.

ـ كم كان الأمر جميلاً لو جلبوا لي جثتك الصغيرة، قالت فرنسواز.

ارتعشت كزافيير.

ـ على كل حال، لن أقتل نفسي بهذه الطريقة.

انهار وجهها. لم يسبق لفرنسواز أن رأتها يائسة إلى هذا الحد. اجتاحها حنو عارم. كانت تودّ مساعدتها، لكن ينبغي أن تقبل كزافيير هذه المساعدة.

ـ ولماذا فكرت في الانتحار؟ قالت برقة. هل إنك تعسة إلى هذا الحد؟

اضطربت عينا كزافيير وعكست ملامحها انخطافاً أليماً. أحست فرنسواز بأنها تنسلخ عن نفسها لتغرق في هذا الحزن غير المحتمل. عانقت كزافيير وضمّتها إليها.

ـ كزافيير صغيرتي، ما بك حبيبتي؟ أخبريني.

استرخت كزافيير على كتفيها وأجهشت بالبكاء.

ـ ماذا هناك؟ ردّدت فرنسواز.

ـ أشعر بالخجل.

ـ ولِمَ الخجل؟ ألأنك سكرت؟

تمالكت كزافيير عن البكاء وقالت بصوت طفل دامع:

ـ لهذا، لكل شيء، لا أحسن التصرّف مع جيربير، طردته، كنت كريهة. ثم كتبت هذه الرسالة الغبية.ثم... راحت تئن وتبكي من جديد.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم لا شيء. ألا تجدين هذا كافياً؟ أشعر أنني قذرة. تمخّطت وبدت مثيرة للشفقة.

ـ كل هذا لا يهمّ كثيراً، قالت فرنسواز. ذاك الألم السخيّ الرائع الذي ملأ قلبها للحظة بات ضيّقاً فاتراً. تحتفظ كزافيير وسط يأسها بسيطرة تامة على نفسها... كم أنها تكذب باستسلام كلي!

ـ لا تقلقي هكذا!

ـ أعذريني. مسحت عينيها وقالت بحنق: لن أدع نفسي أسكر من جديد.

من الجنون أن تأمل فرنسواز بأن كزافيير ستفتح قلبها لها مثلما لصديقة. فهي كثيرة الكبرياء وقليلة الشجاعة. عبرت لحظة صمت. أحسّت فرنسواز بشفقة مقلقة أمام هذا المستقبل الذي يتهدّد كزافيير من غير أن يتمكن أي كان من تجنيبها إياه. لا شك أن كزافيير ستخسر بيار للأبد. وهذا الانفصال سينعكس أيضاً على علاقتها بفرنسواز. لا يمكن لفرنسواز أن تنقذها إن رفضت كزافيير القيام بأي مجهود.

ـ لابروس ينتظرنا لتناول الغداء، قالت.

إرتمت كزافيير إلى الخلف.

ـ آه! لا أريد الذهاب.

ـ لماذا؟ أشعر أنني متبالدة ومتعبة.

ـ ليس هذا سبباً كافياً.

ـ لا أريد. دفعت كزافيير فرنسواز كمن يدفع عنه فخاً. لا أريد أن أرى لابروس في هذه اللحظة.

أحاطتها فرنسواز بذراعها. كم كانت تودّ انتزاع الحقيقة منها! لا تعرف كزافيير إلى أي حدّ تحتاج إلى مساعدة.

ـ ماذا تخشين؟ سألتها.

ـ سيظن أنني سكرت عن قصْد، بسبب الليلة السابقة، لأنني كنت مسرورة للغاية معه. سيقوم بيننا نقاش جديد وأنا سئمت، سئمت. راحت تبكي بغزارة.

ضمتها فرنسواز أكثر وقالت.

ـ ليس هناك ما ينبغي توضيحه.

ـ بل ينبغي توضيح كل شيء. أخذت الدموع تنساب على وجنتيها من غير أن تحاول كبتها. لم يعد وجهها برمّته سوى كتلة أليمة.

ـ كلما قابلت جيربير ظنّ بيار أنني مستاءة منه ونقم عليّ. لم أعد أحتمل، لم أعد أريد رؤيته صرخت في أشد اليأس.

ـ دعينا نذهب لمقابلته بدل ذلك إن كلمته من تلقاء نفسك، فأنا واثقة من أن هذا سيصلح الأمور بينكما.

ـ لا، ليس هناك ما يمكن أن أفعله. كل شيء انتهى، سوف يكرهني. إنهار رأسها على ركبتي فرنسواز. كانت تشهق باكية. كم ستكون تعاستها كبيرة! وكم أن بيار يتعذّب في هذه اللحظة!

شعرت فرنسواز أنها تتمزّق واغرورقت عيناها. لم لا ينفع حبهما إلاّ ليعذب كل منهما الآخر! ما ينتظرهما الآن هو جحيم مظلم.

رفعت كزافيير رأسها ونظرت إلى فرنسواز مذهولة.

ـ تبكين بسببي، قالت. تبكين! آه! لا أريد.

انتفضت ممسكة وجه فرنسواز بين يديها وأخذت تقبّله باندفاع ورع. كانت هذه قبلات مقدّسة طهّرت كزافيير من دنسها وأعادت لها اعتبارها الذاتي. أحست فرنسواز بنفسها عند ملامسة هاتين الشفتين الرقيقتين سامية، أثيرية، سماوية، حتى أنها تمرّدت. فهي ترغب في صداقة بشرية وليس في هذه العبادة المتزمّتة والمتسلّطة التي تحوّلها إلى صنم خانع.

ـ لا أستحق أن تبكي من أجلي، قالت كزافيير. حين أرى ما أنت عليه! لو أنك تعرفين فقط ما أنا! وتبكين بسببي!

بادلتها فرنسواز القبلات. فهذا الاندفاع العنيف من الحنان والتواضع كان رغم كل شيء يتوجه إليها. استعادت على وجنتي كزافيير، ممتزجاً بطعم الدموع المالح، ذكرى تلك الساعات في مقهى صغير نعس حيث قطعت على نفسها وعداً بأن تجعلها سعيدة. لم تتمكن من ذلك، لكن لو أن كزافيير فقط توافق، فسوف تعرف كيف تحميها من العالم مهما كلّفها الأمر.

ـ لا أريد أن يحصل لك مكروه، قالت بشغف.

هزّت كزافيير رأسها.

ـ لا تعرفينني، إنك ترتكبين خطأ إذ تحبينني.

ـ لكنني أحبك، لا يسعني شيئاً حيال ذلك، أجابت فرنسواز مبتسمة.

ـ أنت مخطئة، ردّدت كزافيير وهي تبكي.

ـ يبدو لك العيش صعباً جداً. دعيني أساعدك.

ودت لو تقول لكزافيير: أعرف كل شيء وهذا لا يبدّل أمراً بيننا. لكنه لا يمكنها أن تتكلم من غير أن تخذل جيربير. أحسّت

برحمة غير مجدية تربكها من غير أن تجد أي خطأ محدّد تتجه إليه. لو أن كزافيير تقرّر الاعتراف، لأمكنها مواساتها وطمأنتها. لأمكنها حمايتها من بيار حتى.

ـ أخبريني عمّا يقلقك إلى هذا الحد، قالت بإلحاح. أخبريني.

عبر ظلّ من التردّد وجه كزافيير. كانت فرنسواز تنتظر، معلّقة بشفتيها. ستحقق كزافيير بجملة واحدة ما ترنو إليه فرنسواز منذ وقت مديد: وحدة تامة يلتقي فيها فرحهما، قلقهما، عذابهما.

ـ لا يمكنني أن أخبرك، قالت كزافيير بائسة. استعادت أنفاسها وتابعت بمزيد من الهدوء: ليس هناك شيء.

رغبت فرنسواز في فورة غضب وعجز لو تضغط بيديها هذا الرأس الصغير المتصلّب حتى ينفجر. ألا توجد وسيلة تمكنها من إرغام كزافيير على الخروج من تكتمها؟ فهي تلتزم رغم الرقة، ورغم العنف حتى، تحفظاً عدائياً. سوف يحلّ بها إعصار ولا يمكن لفرنسواز سوى أن تبقى على حياد مثل شاهد بلا جدوى.

ـ يمكنني مساعدتك، إنني واثقة من هذا، قالت بصوت يرتجف غضباً.

ـ لا يمكن لأحد مساعدتي. ردّت رأسها إلى الخلف ورتبّت شعرها بطرف أصابعها. سبق وقلت لك أنني لا أساوي شيئاً. حذّرتك، قالت فاقدة الصبر بدت من جديد شرسة ونائية.

لم يعد في وسع فرنسواز الإصرار من دون أن تغدو متطفّلة. كانت فرنسواز مستعدة لأن تهب نفسها لكزافيير بلا حدود لو قبلت كزافيير بهبتها. لكانت تحرّرت من نفسها ومن ذاك الوجود الغريب الأليم الذي يعترض على الدوام طريقها. غير أن كزافيير دفعتها بعيداً. كانت ترضى أن تبكي أمام فرنسواز، لكنها لن

تسمح لها بمشاطرتها الدموع. وجدت فرنسواز نفسها وحيدة أمام ضمير متوحد جموح. لامست بأصبعها يد كزافيير التي يشوهها نتوء ضخم.

ـ هل شفي تماماً هذا الحرق؟ سألت.

ـ انتهيت منه. تأملت كزافيير يدها. لم يخطر لي مرة أنه يؤلم إلى هذا الحد.

ـ أنت أيضاً عالجته بطريقة غريبة. صمتت فرنسواز مثبطة العزيمة. علي أن أذهب. حقاً لا تريدين المجيء؟

ـ لا، أجابت.

ـ وماذا أقول للابروس؟

ـ رفعت كزافيير يديها وكأن المسألة لا تعنيها.

ـ ما تشائين.

نهضت فرنسواز.

ـ سأحاول تسوية الأمور، قالت إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء، أجابت كزافيير.

استبقت فرنسواز يدها قليلاً.

ـ يحزنني أن أتركك هنا متعبة وكئيبة.

ابتسمت كزافيير ابتسامة واهنة.

ـ أكون دائماً على هذه الحال غداة ليلة سكر، قالت. ظلت جالسة على طرف الكنبة وكأنما مسمّرة. خرجت فرنسواز من الغرفة.

ستحاول رغم كل شيء الدفاع عن كزافيير. ستكون معركة

وحيدة محبطة بما أن كزافيير نفسها ترفض الوقوف إلى جانبها. غير أنها تخشى العداوة التي ستثيرها مع بيار إن تولت حماية كزافيير منه. لكن ثمة رابط يقيّدها إلى كزافيير، رابط لا تختاره بنفسها. نزلت الشارع بخطى بطيئة. ودّت لو تتكىء برأسها إلى مصباح وتبكي.

وجدت بيار جالساً في المكان ذاته حيث تركته. كان وحيداً.

- إذاً، هل رأيتها؟ بادرها.

- رأيتها. بكت بلا انقطاع. كانت مضطربة.

- هل ستأتي؟

- لا، يصيبها ذعر تام لفكرة أن تراك. نظرت فرنسواز إلى بيار واختارت كلماتها بحرص شديد: أظن أنها تخشى أن تحزر كل ما جرى، واحتمال خسارتك يبعث فيها اليأس.

ضحك بيار ساخراً.

- لن تخسرني من غير أن يجري بيننا نقاش صغير ممتع. لدي أشياء كثيرة أقولها لها. بالطبع لم تخبرك شيئاً؟

- لا، لا شيء. قالت فقط إن جيربير زارها في غرفتها وأنها طردته وسكرت بعد رحيله. رفعت فرنسواز كتفيها محبطة.

- خلتها للحظة ستتكلم.

- سأعرف كيف أنتزع منها الحقيقة.

- احذر، مهما ظننت أن لديك حبلاً سحرية، فسوف تتشبّث بأنك تعرف إن أصرّيت كثيراً.

تجهّم وجه بيار أكثر.

ـ سأتدبّر أمري. سأقول لها إن اقتضت الحاجة إنني استرقت النظر من ثقب القفل.

أشعلت فرنسواز سيجارة في محاولة للمحافظة على رباطة جأشها. كانت يدها ترتجف. غمرها الهول وهي تتصور الذل الذي ستشعر به كزافيير إن ظنّت أن بيار شاهدها. سيعرف كيف يختار كلمات قاسية.

ـ لا تفقدها صوابها، سوف تسبب كارثة في نهاية الأمر.

ـ لا، فهي جبانة إلى أقصى الحدود.

ـ لا أقول إنها ستنتحر، لكنها ستعود إلى روان وتفسد حياتها.

ـ لتفعل ما تشاء،، أجاب بيار بحنق. لكن أقسم لك أنني سأبادلها بالمثل.

خفضت فرنسواز رأسها. ارتكبت كزافيير خطأ تجاه بيار، جرحته في صميم روحه. أحسّت فرنسواز بهذا الجرح بعنف. لو أنها تمكنت من التركيز فقط على هذا الجرح، لكانت المسألة أكثر بساطة. لكنها ترى أيضاً وجه كزافيير اليائس.

ـ لا يمكنك أن تتصوّري، تابع بيار بلهجة أكثر عذوبة، كم كانت رقيقة معي. لم يكن ثمة ما يرغمها على التظاهر بالشغف. تصلّب صوته من جديد. ليست سوى متحذلقة، نزقة وغادرة. مارست الحب مع جيربير في فورة حقد فقط، حتى تجرّد مصالحتنا من أي قيمة، حتى تخدعني وتنتقم. أفلحت في ذلك، لكنها ستدفع الثمن غالياً!

ـ إسمع، لا يسعني أن أمنعك من التصرّف على هواك، لكنني أطلب منك شيئاً واحداً: لا تقل لها إنني على علم بالأمر. فإن

عرفت، فلن تحتمل العيش إلى جانبي.

نظر إليها بيار.

ـ حسناً، سأدّعي أنني احتفظت بالسرّ.

وضعت فرنسواز يدها على ذراعه واجتاحها يأس مرير. إنها تحبه، غير أنها تقف في مواجهته مثل امرأة غريبة لإنقاذ كزافيير التي لا يمكن إقامة أي علاقة حبّ معها. ربما أصبح غداً عدواً لها. سيتألم، ينتقم من دونها ورغماً عنها حتى. تردّه إلى وحدته وهي التي لم ترغب في الاتحاد معه! سحبت يدها. كان تائهاً في البعيد. لقد خسرته.

الفصل (١٤)

ألقت فرنسواز نظرة أخيرة إلى إيلوي وتيديسكو اللذين يواصلان على الخشبة حواراً متقداً.

ـ سأذهب ، همست.

ـ هل ستكلمين كزافيير؟ سأل بيار.

ـ أجل، وعدتك.

نظرت إلى بيار بألم. لا تزال كزافيير تصّر على تفاديه وهو يصرّ على التقائها لتوضيح الأمور بينهما. إزدادت عصبيته خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. فحين لا يستفيض في تحليل مشاعر كزافيير، يغرق في صمت واجم. تمرّ الساعات بليدة ثقيلة إلى جانبه، حتى أن فرنسواز هرعت بارتياح إلى تمرين بعد الظهر هذا وكأنه حجّة للهروب.

ـ كيف أعرف أن وافقت؟

ـ سترى فى الساعة الثامنة إن كانت هنا أم لا.

ـ لكن الانتظار من دون أن أعرف شيئاً غير محتمل.

رفعت فرنسواز كتفيها عاجزة. كانت شبه واثقة من أن هذا المسعى لن يعطي نتيجة، لكنها إن قالت هذا لبيار سيشك في إرادتها الطيبة.

- إين ستلتقيان؟ سأل بيار.

- في دو ماغو.

- إذاً سأتصل بعد ساعة وتطلعيني على قرارها.

تمالكت فرنسواز نفسها عن الاحتجاج. فهي كثيراً ما تعارض بيار، حتى أن أي نقاش بينهما بات ينطوي على قدر من الشراسة والحذر يعصر قلبها.

- حسناً، قالت.

نهضت وتوجهت إلى الممرّ في الوسط. بعد غد يجري العرض الأول، لكنها لا تكترث، وكذلك بيار. قبل ثمانية أشهر في هذه الصالة بالذات كانوا ينتهون من تمرينات «يوليوس قيصر». كانت تظهر في العتمة الرؤوس ذاتها الشقراء والسمراء. كان بيار جالساً في المقعد نفسه، محدّقاً في الخشبة التي تضيئها مثلما اليوم أنوار الكشافات. لكن كل شيء بات مختلفاً! في الماضي كانت ابتسامة من كانزيتي، إشارة من بول، ثنية فستان، تعكس أو تنذر بقصة فاتنة. كان تماوج صوت ما أو لون دغل يبرز بتألق محموم وسط أفق شاسع من الأمل. في ظلّ المقاعد الحمراء كان ينتظر مستقبل برمّته. خرجت فرنسواز من المسرح. الشغف أنضب كنوز الماضي ولم تعد تجد في هذا الحاضر القاحل شيئاً تحبه أو فكرة تراودها. الشوارع عرّت الذكريات والوعود التي كانت في الماضي ترصف حياتهما إلى ما لا نهاية. لم تعد تحت السماء الغامقة التي تتخلّلها ثقوب ضيقة من الزرقة سوى مسافات يتحتّم اجتيازها.

جلست فرنسواز على رصيف المقهى. كانت تفوح في الجوّ رائحة بليلة، رائحة صباغ الجوز. هذا هو الفصل حيث كان الواحد يبدأ في السنوات الأخرى بالتفكير في دورب حارقة، في قمم جبال ظليلة. تذكرت فرنسواز وجه جيربير المسمّر، جسده الرشيق المنحني تحت حقيبة ظهر. ماذا حلّ بعلاقته مع كزافيير! تعلم فرنسواز أنها ذهبت إليه في المساء الذي تلى الليلة المفجعة وأنهما تهادنا. تظهر كزافيير حيال جيربير لا مبالاة شديدة، غير أنها تقرّ بأنها تلتقيه مراراً. ما هي حقيقة مشاعرها تجاه.

ـ مرحبا، بادرتها كزافيير بفرح. جلست ووضعت أمام فرنسواز باقة صغيرة من زنبق الوادي. هذه لك، قالت.

ـ كم أنت لطيفة.

ـ يجب أن تعلقيها على صدرك.

إمتثلت فرنسواز مبتسمة. لم تكن تجهل أن ذلك العطف الساذج الملتمع في عيني كزافيير لم يكن سوى سراب. كزافيير تستخفّ بها تماماً وتكذب عليها بطمأنينة بالغة. خلف ابتساماتها المداهنة ثمة ربما ندم وبالتأكيد ارتياح مفتون لفكرة أن فرنسواز لا تبدي أي مقاومة لخداعها. لا شك أن كزافيير تبحث أيضاً عن تحالف ما ضدّ بيار. لكن مهما كان قلبها شريراً، فإن إغواء وجهها المداهن يؤثر في نفس فرنسواز. كانت غبطة صافية تفعم ملامحها الخالية من الغموض.

ـ كم أن الطقس جميل! قالت. إنني فخورة بنفسي. مشيت ساعتين كرجل ولا أشعر بأي تعب.

ـ أما أنا، فأشعر بالأسف، أجابت فرنسواز. فلم أستفد من الطقس المشمس. أمضيت ما بعد الظهيرة في المسرح.

إنقبض قلبها. كانت تودّ لو تستسلم لتلك الأوهام الفاتنة التي تنسجها لها كزافيير بسحر. لكانتا قصتا على بعضهما أخباراً وانحدرتا نحو السين بخطى بطيئة وهما تتبادلان جملاً رقيقة. لكنها كانت محرومة حتى من تلك العذوبة الهشّة، عليها أن تدخل على الفور في صلب نقاش عسير سيبدّل ابتسامة كزافيير ويجعل آلاف من الشموع الخفيفة تغلي فيها.

ـ هل تجري الأمور بشكل جيد؟ سألت كزافيير باهتمام.

ـ بشكل مقبول. أظن أن المسرحية ستعرض لثلاثة أو أربعة أسابيع، حتى ينتهي الموسم.

أخذت فرنسواز سيجارة وراحت تدحرجها بين أصابعها.

ـ لم لا تحضرين التمرينات؟ سألني لابروس مرة جديدة إن كنت قرّرت عدم مقابلته بعد الآن.

قطب وجه كزافيير. رفعت كتفيها قليلاً.

ـ كيف خطر له هذا؟ إنها فكرة سخيفة.

ـ مضت ثلاثة أيام وأنت تتجنّبينه.

ـ لست أتجنّبه. تخلّفت عن موعد معه لأنني أخطأت في الساعة.

ـ وموعد آخر لأنك كنت متعبة. كلّفني أن أسألك إن كان في وسعك المرور به عند الثامنة في المسرح.

أشاحت كزافيير بوجهها.

ـ الثامنة؟ لا أستطيع.

تفحّصت فرنسواز بتخوّف ذلك الوجه المتهرّب الواجم المختبىء تحت الشعر الأشقر الكثّ.

ـ هل أنت واثقة؟

لم يكن من المقرّر أن يخرج جيربير هذا المساء مع كزافيير. إستعلم بيار قبل تحديد الموعد.

ـ أجل، ليس لدي مشاريع الليلة، لكنني أود النوم باكراً.

ـ يمكنك التقاء لابروس في الثامنة والنوم باكراً.

رفعت كزافيير رأسها وعبرت عينيها ومضة غضب.

ـ تعرفين جيداً أن هذا مستحيل! سيتوجب علي مجادلته حتى الرابعة صباحاً! رمقت فرنسواز كتفيها.

ـ أقرّي بصراحة أنك لا تودين رؤيته بعد الآن. لكن أعطه أسباباً.

ـ سيوجّه إليّ اللوم مجدداً، قالت كزافيير بصوت فاتر. أنا واثقة من أنه يكرهني حالياً.

صحيح أن بيار لم يكن يرغب في هذا اللقاء إلاّ لينفصل عن كزافيير بشكل عنيف. لكن إن وافقت على الاجتماع به، قد تعرف كيف تسكن غضبه. في حين أنها بتهربّها مرة أخرى، ستغيظه تماماً.

ـ لا أظن في الحقيقة أنه يكنّ لك مشاعر طيبة، قالت. لكن في مطلق الأحوال، لا فائدة من الاختباء، سيعثر عليك في نهاية الأمر. من الأفضل أن تكلميه هذا المساء بلا تباطؤ.

نظرت إلى كزافيير فاقدة الصبر.

ـ حاولي قليلاً.

عكس وجه كزافيير الإرهاق.

ـ إنه يخيفني، قالت.

ـ اسمعي، أجابت فرنسواز واضعة يدها على ذراع كزافيير. هل تودين أن يتوقف لابروس نهائياً عن رؤيتك؟

ـ لن يريد رؤيتي بعدها؟

ـ بالطبع، إن استمريت في تشبثك.

خفضت كزافيير رأسها يائسة. كم مرة تأملت فرنسواز بإحباط ذلك الرأس الذهبي حيث يصعب إدخال أفكار منطقية!

ـ سيتّصل بي بعد لحظة. وافقي على الموعد.

لم تجب كزافيير.

ـ يمكنني أن أذهب إليه قبلك إن أردت. سأحاول أن أشرح له.

ـ لا، أجابت كزافيير بعنف. سئمت قصصكما هذه. لا أريد الذهاب.

ـ تفضلين الانفصال عنه؟ فكري ملياً، هذا ما ستتوصلين إليه.

ـ ليكن، أجابت كزافيير وكأنها تستسلم لأمر محتوم.

قصفت فرنسواز بين أصابعها عنق زهرة. لا يمكن الوصول إلى أي مكان مع كزافيير. جبنها يزيد من خطورة خيانتها. غير أنها كانت تخدع نفسها إن ظنّت أن وسعها الإفلات من بيار. فهو قد يقرع بابها في منتصف الليل.

ـ تقولين هذا لأنك لا تفكرين مرة في المستقبل بجدية.

ـ آه! على أي حال، لم يكن من الممكن أن تفضي علاقتنا أنا ولابروس إلى مكان.

غرزت يديها في شعرها، كاشفة عن صدغيها العاريين. كان تفجع ضغينة وألم يجتاح وجهها المتورّم وانشقّت شفتاها في تكشيرة أشبه بتصدّع ثمرة ناضجة. من هذا الشق المشرّع خرج إلى

النور لبّ خفي مسموم. لا تفضي علاقتنا إلى أي مكان. اشتهت كزافيير بيار برمّته، وبما أنه لا يمكنها امتلاكه لوحدها من دون منازع، فهي تتخلّى عنه في حقد ساخط يغلّف فرنسواز أيضاً.

لزمت فرنسواز الصمت. بتصرّفها هذا تجعل كزافيير المعركة التي صممت فرنسواز أن تخوضها من أجلها شاقة حقاً. إنكشفت غيرة كزافيير فظهرت عاجزة بلا قناع، غير أنها لم تفقد من شراستها. لا يمكن أن تمنح فرنسواز بعض العطف إلاّ بعد أن تنتزع منها بيار جسداً وروحاً.

ـ الآنسة ميكال مطلوبة على الهاتف، صاح صوت.

نهضت فرنسواز.

ـ قولي إنك موافقة، قالت بإلحاح.

رمقتها كزافيير بنظرة متوسلة وهزّت رأسها.

نزلت فرنسواز الأدراج، دخلت الحجرة وأمسكت الهاتف.

ـ آلو، أنا فرنسواز.

ـ إذاً، هل ستأتي أم لا؟

ـ لم تبدّل رأيها، إنها خائفة جداً. لم أتمكن من إقناعها. بدت قلقة إلى أقصى الحدود حين حذّرتها من أنك ستنقطع علاقتك بها في نهاية الأمر.

ـ حسناً، قال بيار. سوف ترى.

ـ فعلت كل ما بوسعي.

ـ أعرف، إنك لطيفة حقاً، قال بيار بصوت جاف.

أقفل الخطّ. عادت فرنسواز وجلست إلى جانب كزافيير التي استقبلتها بابتسامة منفرجة.

ـ أتعلمين، قالت كزافيير، قبّعة القش هذه تناسبك أكثر من أي قبعة أخرى.

ابتسمت فرنسواز فاقدة الحماس.

ـ ستتولّين على الدوام اختيار قبعاتي.

ـ لاحقتك غريتا بنظرة مغتاظة. تجن حين ترى امرأة أخرى تضاهيها أناقة.

ـ إنها ترتدي تايور جميلاً.

شعرت بالارتياح إلى حد ما. فالمسألة لم تعد تتعلّق بها. كزافيير تصرّ على رفض دعمها ونصائحها فتحرّرها من واجب إسعادها. نظرت من حولها على رصيف المقهى حيث تظهر للمرة الأولى المعاطف الفاتحة اللون، السترات الخفيفة، قبعات القشّ، متباعدة وخفرة. شعرت فجأة كما في السنوات الفائتة بشوق حاد إلى الشمس والإخضرار والنزهات الطويلة على سفح التلال.

نظرت إليها كزافيير خفية وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالتلميحات.

ـ هل رأيت فتاة المناولة الأولى؟ قالت. مشهد الفتيات في هذا السنّ بصدورهنّ النحيلة حزين.

بدت وأنها تريد إبعاد فرنسواز عن مشاغل مكربة لا تعنيها. عكست بكليتها سكينة لامبالية وساذجة. ألقت فرنسواز نظرة طيّعة إلى العائلة المنهدمة التي تعبر الساحة.

ـ هل اضطررت للقيام بالمناولة الأولى؟ سألت.

ـ فهمت، أجابت كزافيير. راحت تضحك مغالية في انفعالها. طالبت بفستان تكسوه ورود مطرّزة من الأعلى إلى الأسفل. وفي

نهاية الأمر، وافق والدي المسكين.

توقفت فجأة. تبعت فرنسواز إتجاه عينيها ورأت بيار يقفل باب سيارة أجرة. إمتقع وجهها. هل نسي بيار وعده؟ إن كلّم كزافيير أمامها، فلن يتمكن من التظاهر بأنه احتفظ بسرّ اكتشافه المعيب.

ـ مرحباً، قال بيار. جلب كرسياً وجلس بارتياح. تبدو أن لا وقت فراغ لديك الليلة أيضاً، قال لكزافيير.

كانت كزافيير لا تزال تحدّق به بذهول تام.

ـ ظننت أنه يجدر طرد اللعنة المخيمة بإصرار على مواعيدنا.
ابتسم بيار ابتسامة ودّية. لماذا تتحاشينني منذ ثلاثة أيام؟

نهضت فرنسواز. لم تكن تريد أن يواجه بيار كزافيير بالحقيقة في حضورها. وأحست خلف تهذيبه بتصميم لا يعرف الرحمة.

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن تتفاهما من دوني، قالت.

تشبّثت كزافيير بذراعها.

ـ لا، إبقي، قالت بصوت مخنوق.

ـ دعيني، أصرّت فرنسواز بعذوبة. ما سيقوله بيار لك لا يعنيني.

ـ إبقي، وإلاّ خرجت أنا أيضاً، قالت كزافيير ضاغطة على أسنانها.

ـ هيا، إبقي، قال بيار فاقد الصبر. ألا ترين أنها ستصاب بنوبة هستيرية؟

التفت إلى كزافيير بوجه بات قاسياً.

ـ أود أن أعرف لماذا أرعبك إلى هذا الحد؟

جلست فرنسواز وأفلتت كزافيير يدها. بلعت ريقها، وبدت

وكأنها تستعيد كرامتها.

ـ إنك لا ترغبني.

ـ بل يبدو أنني أفعل. تفرّس في عيني كزافيير. على أي حال، يمكنني أن أوضح لك السبب.

ـ إذاً لا تسألني.

ـ كنت أودّ سماعه منك. لزم برهة صمت بدت مسرحية بعض الشيء ثم قال وهو لا يزال يحدّق بها: تخشين أن أقرأ في قلبك وأقول لك بصوت عالٍ ما أرى فيه.

انقبض وجه كزافيير.

ـ أعرف أن رأسك مليء بالأفكار القذرة. إنها تثير اشمئزازي ولا أريد أن أعرفها، قالت بتقزّز.

ـ لست أنا المذنب إن كانت الأفكار التي توحين بها وسخة.

ـ على كل حال، احتفظ بها لنفسك.

ـ آسف، لكنني جئت إلى هنا بقصد إطلاعك عليها.

توقف لبرهة. الآن وقد سيطر على كزافيير، بدا هادئاً، وكأنه يجد من الطريف أن يدير المشهد على هواه. صوته، ابتساماته، صمته، كل شيء محتسب بدقّة، حتى أن بصيص أمل تراءى لفرنسواز. ما يريده هو إخضاع كزافيير. لكن إن توصل إلى ذلك بلا عناء، ربما جنّبها حقائق قاسية مؤلمة، ربما اقتنع بفكرة عدم قطع علاقته بها.

ـ تبدين وكأنك لم تعودِ ترغبين في رؤيتي، قال. سوف أفرحك بالتأكيد إن قلت لك إنني أنا أيضاً لم أعد أرغب في مواصلة علاقتنا. غير أنه ليس من عاداتي أنا أن أتخلّى عن الأشخاص من

غير أن أعطيهم السبب.

انهارت عزّة نفس كزافيير الهشّة دفعة واحدة. كل ما غسلته عيناها المحملقتان وفمها الفاغر كان اضطراباً مرتاباً. من المستحيل ألاّ يلين بيار أمام هذا القلق الصادق.

ـ لكن ماذا فعلت لك؟ سألت كزافيير.

ـ لم تفعلِ لي شيئاً. على كل حال، لا تدينين لي بشيء، لم أعتبر يوماً أن لدي حقوقاً عليك. عكس وجهه خشونة وعدم اكتراث. لا، لكنني ببساطة أدركت أخيراً من تكونين. عندها لم تعد هذه القصّة تهمّني.

قلّبت كزافيير النظر من حولها وكأنما للاستغاثة. كانت يداها متشنجتين، بدت وكأن رغبة جامحة تتملّكها في أن تقاوم، تدافع عن نفسها، لكن لا شك أنها لم تجد أي جملة مفخخة إلى حد كاف. ودّت فرنسواز لو تهمس لها دورها. إنها واثقة الآن من أن بيار ليس مصرّاً على قطع صلته كاملة بها، بل يأمل في أن تنتزع قسوته من كزافيير كلاماً يخمد غيظه.

ـ أمن أجل تخلّفي عن هذه المواعيد؟ قالت كزافيير أخيراً بصوت شاكٍ.

ـ من أجل الأسباب التي جعلتك تتخلفين عنها. إنتظر لحظة. لم تقل كزافيير شيئاً. كنت تخجلين من نفسك، أضاف.

انتفضت كزافيير.

ـ لم أشعر بالخجل. لكنني كنت واثقة من أنك غاضب مني. أنت تغضب دائماً حين أقابل جيربير، وبما أنني سكرت برفقته...

رفعت كتفيها بازدراء.

ـ لكنني سأكون مسروراً جداً إن كنت تكنين الصداقة لجيربير، أو حتى الحبّ. لا يمكنك اختيار رجل أفضل. هذه المرة لم يعد يكبت الغضب الذي يزمجر في صوته. لكنك عاجزة عن الإحساس بعاطفة خالصة: لم ترِ فيه للحظة سوى وسيلة لإرضاء، غطرستك وإشباع غضبك. قطع بحركة احتجاجات كزافيير. أنت بنفسك إعترفت بذلك، حتى تظاهرت بالرومانسية معه، كان ذلك بدافع الغيرة. ولم تأتِ به إلى غرفتك الليلة الماضية حبّاً به.

ـ كنت واثقة من أنك ستفكّر هكذا. كنت واثقة. صرّت أسنانها وانسابت دمعتان على وجنتيها من شدة الحنق.

ـ لأنك تعرفين أن هذا صحيح. سأقول لك أن ما حصل. حين أرغمتك على الإقرار بغيرتك غير المحتملة، استشطت غيظاً. ترحبين بأي دناءة تجول في داخلك شرط أن تبقي في الظلّ. أصبت بالإحباط حين رأيت أن كلّ دلالك وحذلقتك لم ينجحا في كتم خفايا روحك الصغيرة عنّي. ما تطلبينه من الآخرين هو إعجاب ساذج. تجدين مهينة أي حقيقة.

نظرت إليه فرنسواز بتخوف. ودّت لو تدفعه. بدا وكأنه فقد السيطرة على كلامه وفقد هدوءه. لم تعد قسوة وجهه مجرّد قناع.

ـ إنك تظلمني، قالت كزافيير. فارقني على الفور أي إحساس بالحقد حيالك!

ـ لا، قال بيار، يجب أن يكون الواحد ساذجاً حتى يصدّق هذا. لم يتوقف أبداً حقدك عليّ. لكن على الواحد أن يكون أقلّ وهناً منك حتى يسترسل ملياً في الحقد. إنه شعور متعب، فمنحت نفسك استراحة صغيرة. كنت مطمئنة البال، تعلمين جيداً أنه في

مقدورك استعادة حقدك كاملاً حين يلائمك الأمر، فطرحته جانباً لبضع ساعات لأنك رغبت في أن يقبّلك أحد ما.

اختلج وجه كزافيير.

ـ لم أكن أرغب أبداً في أن تقبّلني أنت، قالت في انفجار غضب.

ـ هذا محتمل. ابتسم ابتسامة لاذعة. لكنك كنت ترغبين في أن يقبّلك أحد ما. وصدف أن كنت هناك. تأملها من رأسها إلى أخمص قدميها وتابع بصوت بذيء: أؤكد لك أنني لا أشكو من الأمر، قبلاتك لذيذة وقد انتهزت الفرصة بقدر ما فعلت أنت.

استعادت كزافيير أنفاسها. كانت تنظر إلى بيار بهول تام، حتى أنها كادت تبدو ساكنة، غير أن دموعاً صامتة منسابة على وجهها كانت تنفي الهدوء الهستيري المخيّم على وجهها.

ـ ما تقوله فظيع، همست.

ـ ما الفظيع في الأمر سوى تصرّفك؟ قال بيار بعنف. علاقتك معي برمّتها لم تكن سوى غيرة، كبرياء وخداع. كل ما أردته هو إخضاعي والسيطرة عليّ. دفعتك خيبتك إلى محاولة كل هذا بسبب ميلك الصبياني إلى التملّك. ثم رحت تغارين من فرنسواز إلى حدّ أنك جازفت بصداقتك معها. وحين ناشدتك أن تحاولي بناء علاقات إنسانية معنا مجرّدة من الأنانية والنزق، كل ما استطعت القيام به هو أن تحقدي عليّ. وفي النهاية ارتميت بين ذراعي وقلبك مفعم بالحقد لأنك كنت بحاجة إلى ملامسات.

ـ أنت تكذب. تختلق كل شيء.

ـ لماذا قبّلتني؟ لم يكن هذا لإرضائي، لأن ذلك يفترض من جانبك عطاءً لم يلمس أي كان أثراً له لديك. وعلى كل حال، لم أكن أطلب كل هذا.

ـ آه! كم أنني نادمة على هذه القبلات، قالت كزافيير صارّة أسنانها.

ـ هذا ما أعتقد، قال بيار بابتسامة خبيثة. غير أنه لم يسعك أن تحرمي نفسك منها، لأنه لا يمكنك أبداً أن تحرمي نفسك من أي شيء. أردت أن تبغضيني تلك الليلة، لكنك بقيت متمسكة بحبّي. رفع كتفيه. كيف أمكنني أن أخال هذا التقلّب غير المتماسك ناجماً عن روح غنية معقّدة!

ـ أردت أن أتوخى التهذيب معك.

ـ أرادت أن تهينه، غير أنها لم تعد تسيطر على صوتها المرتجف. ودّت فرنسواز لو توقف هذا الإعدام. كان هذا القدر كافياً، لن تتمكن كزافيير بعد ذلك من رفع رأسها أمام بيار. غير أن بيار مصرّ وسيذهب حتى النهاية.

ـ أسرفت كثيراً في تهذيبك، قال الحقيقة إنك أبديت تأنقاً وإغواءً بلا ذمّة. كانت علاقتنا لا تزال تعجبك، فقررت الاستمرار فيها محتفظة مع ذلك بالحق في أن تبغضينني. أعرفك جيداً، لست حتى قادرة على القيام بمناورة عن سابق تصميم، خبثك يخدعك أنت نفسك.

ضحكت كزافيير ضحكة ضئيلة.

ـ كم أنها سهلة، تلك التلفيقات الجميلة الفارغة! لم أكن أبداً هائمة بالقدر الذي تصفه تلك الليلة. ومن جهة أخرى، لم أكن أكرهك. نظرت إلى بيار.

وقد استعادت بعضاً من ثقتها في نفسها. لا بدّ أنها بدأت تعتقد أن تأكيداته لا تقوم على أي واقع ملموس. أنت من يدّعي أنني كنت أكرهك لأنك تختار على الدوام التأويل الأبشع.

ـ لست أتكلّم هباء، قال بيار بنبرة يومض فيها التهديد. أعرف جيداً ما أقول. كنت تكرهينني من غير أن تجدي الشجاعة الكافية لتفكري هذا في حضوري. ما إن فارقتني حتى سعيت إلى الانتقام، بعد أن أغاظك ضعفك. لكن جبنك لم يسمح لك مرة جديدة سوى بانتقام سريّ.

ـ ماذا تعني؟

ـ دبّرت الأمور بشكل جيد. كنت سأظلّ أعبدك بثقة كاملة وكنت ستقبّلين ولائي لك وأنت تسخرين منّي. هذا نوع الانتصار الذي يبهجك لكن مصيبتك أنك عاجزة أكثر من أن تلفّقي كذبة ممتازة. تظنين نفسك داهية، لكن حيلك واضحة. يقرأ الواحد أفكارك بسهولة تامة، لا تحسنين حتى إتخاذ الاحتياطات البديهية لإخفاء خياناتك.

كان رعب كريه انتشر على وجه كزافيير.

ـ لا أفهم، قالت.

ـ لا تفهمين؟

خيّم صمت. رمقته فرنسواز متوسّلة، لكنه لم يكن يشعر في تلك اللحظة بأي ودّ حيالها. إن كان يذكر وعده، فلن يتردّد في تجاهله عمداً.

ـ أتظنين إن في وسعك إقناعي بأنك دعوت جيربير إلى غرفتك

بالصدفة؟ تعمّدت إشرابه الكحول حتى يثمل لأنك كنت تعتزمين ممارسة الحب معه انتقاماً منّي.

ـ آه! هذا ما تفكّر به! تلك هي الاتهامات الشائعة التي يمكن أن ينسجها خيالك!

ـ لا داع للنفي، لا أتخيل شيئاً، إنني أعلم.

نظرت إليه كزافيير بدهاء وانتصار مجنونة.

ـ هل تجرؤين على الادعاء بأن جيربير اختلق هذه القذارات؟

وجّهت فرنسواز بصمت نداءً يائساً آخر إلى بيار. لا يمكنه اتهام كزافيير بهذه القسوة لا يمكنه أن يخون ثقة جيربير العمياء. تردّد بيار.

ـ بالطبع، لم يخبرنِ جيربير بشيء، قال أخيراً.

ـ إذاً؟ أترى...

ـ لكن لدي عينان وأذنان، وأستخدمها عند الاقتضاء. من السهل أن ينظر الواحد من ثقب القفل.

ـ أنت... ضغطت بيدها على عنقها الذي انتفخ وكأنها ستختنق. لم تفعل هذا؟

ـ لا! فهذا مخزٍ! قال بيار ساخراً. لكن مع شخص مثلك تكون كل الوسائل ممكنة.

نظرت كزافيير إلى بيار ثم إلى فرنسواز وقد أعماها غضب عاجز. راحت تلهث. عبثاً بحثت فرنسواز عن كلمة، عن إشارة، كانت تخشى أن تبدأ كزافيير بالصراخ أو بتحطيم الأكواب أمام الجميع.

ـ شاهدتك، أكّد بيار.

ـ آه، كفى، قالت فرنسواز. أسكت.

كانت كزافيير وقفت واضعة يدها على صدغيها، والدموع تنهمر على وجهها. اندفعت فجأة.

ـ سأرافقها، قالت فرنسواز.

ـ إن شئت.

ألقى بيار نفسه إلى الخلف بتكلّف وأخرج الغليون من جيبه. عبرت فرنسواز الساحة راكضة. كانت كزافيير تمشي مسرعة. متشنّجة القامة، ورأسها مرفوع إلى السماء. لحقت بها فرنسواز وتسلقتا بصمت جزءاً من شارع رين. التفتت كزافيير فجأة إلى فرنسواز.

ـ دعيني، قالت بصوت مخنوق.

ـ لا، لن أفارقك.

ـ أريد العودة إلى غرفتي.

ـ سأعود معك. أومأت إلى سيارة أجرة. إصعدي، قالت بتصميم. إمتثلت كزافيير. إتكأت رأسها إلى الأرائك وحدّقت في السقف. رفعت تكشيرة شفتها العليا.

ذلك الرجل، سأدبّر له مكيدة، قالت.

لامست فرنسواز ذراعها.

ـ كزافيير، همست.

ارتعشت كزافيير وعادت إلى الخلف متنفضة.

ـ لا تلمسيني، قالت بعنف.

نظرت في وجه كزافيير تائهة وكأن فكرة جديدة خطرت لها.

ـ كنت على علم بالأمر، قالت. كنت تعرفين كل شيء.

لم تردّ فرنسواز. توقفت السيارة، دفعت فرنسواز للسائق أجرته وصعدت مسرعة خلف كزافيير. كانت كزافيير تركت باب غرفتها مشقوقاً. وجدتها فرنسواز متكئة إلى المغسلة، متورّمة العينين، مشعثة الشعر، وجنتاها مكسوتان ببقع ورديّة. بدت وكأن شيطاناً ممسوساً يسكنها، شيطاناً ينتفض فيؤلم جسدها الرقيق.

ـ هكذا إذاً تركتني طوال هذه الأيام أكلّمك وأنت على يقين بأنني أكذب!

ـ لا ذنب لي إن كان بيار أخبرني بكل شيء ولم أشأ أخذ المسألة بعين الإعتبار.

ـ كم سخرت مني!

ـ كزافيرا! لم يخطر لي أن أسخر منك، قالت فرنسواز وهي تتقدّم خطوة نحوها.

ـ لا تقتربي، صرخت كزافيير. لا أريد أن أراك بعد الآن. أودّ الرحيل إلى الأبد.

ـ إهدأي! كل هذا سخيف. لم يحصل أي شيء بيننا. لا دخل لي إطلاقاً في قصصك هذه مع لابروس.

كانت كزافيير أمسكت بمنشفة وراحت تشدّ بعنف على شراباتها.

ـ قبلت مالك! قالت، تركتك تعيليني! أتدركين هذا!

ـ إنك تهذين. سأعود لأراك حين تستعيدين رشدك.

تركت كزافيير المنشفة.

ـ أجل، قالت، أخرجي.

سارت نحو الكنبة وارتمت عليها وهي تجهش بالبكاء.

تردّدت فرنسواز ثم خرجت بصمت من الغرفة، أغلقت الباب وصعدت إلى غرفتها. لم تكن قلقة بشدّة، فخنوع كزافيير يفوق شجاعتها. لن تجد في نفسها الشجاعة العبثية لهدم حياتها والعودة إلى روان. كل ما هنالك أنها لن تغفر لفرنسواز تفوّقها الأكيد عليها. سيكون هذا مأخذاً جديداً، يضاف إلى لائحة مآخذها عليها. نزعت قبعتها ونظرت إلى نفسها في المرآة. لم تعد تقوى حتى على الإحساس بالإحباط، لم تعد تتحسّر على صداقة مستحيلة، لا تجد في نفسها أثراً لأي ضغينة حيال بيار. كل ما يتوجّب عليها الآن هو أن تحاول بصبر وحزن إنقاذ ما تبقى من حياة كثيراً ما تفاخرت بها. سوف تقنع كزافيير بالمكوث في باريس. سوف تحاول الفوز بثقة بيار. ابتسمت ابتسامة واهنة لصورتها في المرآة. بعد تلك السنوات من التطلّب الشغف، من السكينة الصارمة والإصرار العنيد على السعادة، أتراها تصبح مثل العديد من الأخريات امرأة مستسلمة؟

الفصل (١٥)

أطفأت فرنسواز سيجارتها في المنفضة.

ـ هل ستجد الشجاعة الكافية للعمل في هذا القيظ؟

ـ لا يزعجني القيظ، أجاب بيار. وأنت، ماذا تفعلين بعد الظهر؟

كانا جالسين على المصطبة الملاصقة لمقصورة بيار، حيث تناولا الغداء للتو. من تحتهم بدت ساحة المسرح الصغيرة رازحة تحت السماء الزرقاء المتثاقلة.

ـ سأذهب إلى سينما «أورسولين» مع كزافيير. يقيمون هناك مهرجاناً لأفلام شارلو.

إستدقّت شفة بيار إلى الأمام:

ـ ما عدت تفارقينها، قال.

ـ إنها مكسورة تماماً.

لم تعد كزافيير إلى روان. لكن رغم اهتمام فرنسواز الكبير بها ولقاءاتها الكثيرة مع جيربير، كانت تجرّ نفسها مثل جسد بلا روح في هذا الصيف المتألق.

ـ سأحضر لاصطحابك في السادسة، قالت فرنسواز. هل يناسبك هذا؟

ـ تماماً. أضاف بابتسامة مرغمة: أتمنى لك وقتاً طيباً.

إبتسمت له فرنسواز، لكن ما إن غادرت الغرفة حتى تبدّدت بشاشتها الهزيلة. فهي الآن حين تكون وحيدة تشعر بالكآبة تغمر قلبها. بالطبع لا يلومها بيار حتى في سرّه على إبقائها كزافيير إلى جانبها، لكن لا شيء يمنع أن تبدو في نظرة متشبّعة بحضور بغيض. فهو يستشف فيها على الدوام كزافيير.

كانت ساعة تقاطع فامين تشير إلى الثانية والنصف. حثّت فرنسواز خطاها. أبصرت كزافيير جالسة على رصيف الدوم، ترتدي قميصاً ناصعاً وشعرها يلتمع. بدت من بعيد مشرقة، غير أن وجهها كامد ونظراتها ذابلة.

ـ تأخرت، بادرتها فرنسواز.

ـ وصلت للتو.

ـ كيف حالك؟

ـ الجو حارّ، أجابت كزافيير متنهّدة.

جلست فرنسواز إلى جانبها. إشتمّت بدهشة رائحة مستشفى غريبة ممتزجة برائحة التبغ الأشقر والشاي التي تفوح على الدوام حول كزافيير.

ـ هل نمت جيداً هذه الليلة؟ سألت فرنسواز.

ـ لم نرقص، كنت منهكة. قامت بتكشيرة: وجيربير كان يشعر بصداع.

كانت تتحدّث عن جيربير بسرور، لكنها لا تخدع فرنسواز.

ليست الصداقة هي التي تدفعها للبوح لها أحياناً بأسرارها، بل رفضها لأيّ تضامن مع جيربير. لا شك أنها متمسكة به جسدياً، فتثأر منه بالحكم عليه بصرامة.

ـ أما أنا، فقمت بنزهة طويلة مع لابروس، روت فرنسواز. كان ليلاً رائعاً على ضفاف السين. توقفت. لم تكن كزافيير حتى تتظاهر بالاهتمام. كانت تائهة في البعيد، مضناة.

ـ علينا الانطلاق. إن أردنا الذهاب إلى السينما، قالت فرنسواز.

ـ أجل، أجابت كزافيير.

نهضت وأمسكت ذراع فرنسواز. قامت بذلك بشكل تلقائي، من دون أن تبدو وكأنها تلحظ أي وجود إلى جانبها. مشت فرنسواز في خطاها. في هذه اللحظة كان بيار يعمل في حرارة مقصورته المرهقة. في الماضي كانت تنقضّ بنهم على تلك الساعات الخاوية المديدة. فالمسرح مقفل، لديها أوقات فراغ وكل ما يتوجب عليها كان تبديدها. لم تكن الآن تخال نفسها في عطلة، لكنها فقدت تماماً حسّ الانضباط الماضي.

ـ هل ما زلت ترغبين في الذهاب إلى السينما؟ سألت.

ـ لا أدري. أظنّ أنني أفضل التنزّه.

شعرت فرنسواز بالخوف أمام هذه الصحراء من السأم الفاتر الممتدّ. فجأة تحت خطاها. سيتوجب عليها أن تعبر هذا الامتداد الزمني المترامي من دون أي عون! لم يكن مزاج كزافيير يحملها على التحدّث، غير أن حضورها لا يسمح بتذوّق صمت حقيقي يمكّن الواحد من مناجاة نفسه.

ـ حسناً، لنتنزّه إذاً، قالت فرنسواز.

الشارع يبعث رائحة قطران، يلتصق بالأقدام. موجات الحرّ الأولى تلك التي تنذر بالعواصف الرعدية تفاجىء الواحد على حين غرّة. شعرت فرنسواز بنفسها تتحوّل إلى كتلة باهتة قطنية.

ـ أما زلت متعبة اليوم أيضاً؟ سألت بصوت ودود.

ـ ما زلت متعبة. إنني أصبح امرأة عجوزاً. رمقت فرنسواز بنظرة نعسة. إعذريني، لست رقيقة ممتعة.

ـ كم أنك حمقاء! تعلمين جيداً إنّ رفقتك تسرّني دائماً.

لم تردّ لها كزافيير الابتسامة. فهي انغلقت على نفسها. لن تتوصّل فرنسواز يوماً إلى إقناعها بأنها لا تطلب منها أن تعرض من أجلها رقة جسدها ولا مفاتن ذهنها، بل أن تدعها فقط تشاركها حياتها. حاولت بإصرار طوال هذا الشهر أن تتقرّب منها، لكن كزافيير ظلّت تلك الغريبة التي يلقي حضورها الممتنع على فرنسواز ظلاً متوعداً. في بعض الأوقات كانت فرنسواز تغوص في ذاتها، وفي أوقات أخرى تكرّس نفسها كلياً لكزافيير، غير أن تلك الإزدواجية التي كشفتها لها ابتسامة مهووسة ذات ليلة كانت تراودها غالباً فتبعث فيها القلق. الوسيلة الوحيدة لتبديد ذلك الواقع المخزي كان أن تذوب مع كزافيير في صداقة فريدة. أحسّت فرنسواز بهذه الحاجة تزداد إلحاحاً في نفسها خلال الأسابيع الأخيرة الطويلة. لكن كزافيير لن تنسى نفسها يوماً لتذوب معها.

إنبعث في كثافة الهواء الملهبة نشيج كئيب. كان رجلاً يجلس على كرسي صغيرة عند زاوية شارع مقفر، ممسكاً بين ركبتيه منشاراً. راحت الآلة تئن وهو يغني معها لحناً حزيناً:

تمطر على الطريق

في الليل أنصت

تائه القلب

لوقع خطاك.

ضغطت فرنسواز على ذراع كزافيير. بدت لها تلك الموسيقى المتهالكة وسط العزلة المحرقة وكأنها صورة عن قلبها. ظلّت ذراع كزافيير لصق ذراعها، مستسلمة، فاقدة الحسّ. لا يمكن الوصول إلى كزافيير حتى عبر ذلك الجسد الرائع الملموس. رغبت فرنسواز في الجلوس على قارعة الطريق والمكوث هناك.

ـ لو نذهب إلى مكان ما، قالت. لا يمكننا التنزّه في هذا القيظ الشديد. لم تعد تقوى على التسكّع تحت السماء المتماثلة برتابة.

ـ آه، أجل! أودّ الجلوس لكن أين نذهب؟

ـ أتريدين أن نعود إلى المقهى المغربي الذي سحرنا مرّة؟ إنه قريب.

ـ هيا بنا إذاً، وافقت كزافيير.

إنعطفتا عند زاوية الشارع. شعرت بالارتياح الآن وهي تمشي نحو هدف ما.

ـ كانت هذه أول مرة أمضينا فيها نهاراً جميلاً وطويلاً معاً، قالت فرنسواز. أتذكرين؟

ـ تبدو لي الذكرى نائية. كم كنت شابة حينذاك!

ـ لم تمض سنة على ذلك النهار، قالت فرنسواز.

هي أيضاً شاخت منذ ذلك الشتاء القريب. كانت حينها تحيا من دون أن تطرح أسئلة، العالم حولها امتد شاسعاً وزاخراً، وكان ملكها. كانت تحب بيار وهو يبادلها الحب، أحياناً تجد حتى بعض

الترف في النظر إلى سعادتها بسأم. دفعت الباب، تعرّفت إلى البسط الصوفية، الأطباق النحاسية، المصابيح الملوّنة. لم يتغيّر هذا المكان. رأت الراقصة والموسقيين جالسين على أعقابهم في مقر المقهى، يتحادثون.

ـ كم بات هذا المقهى حزيناً! قالت كزافيير.

ـ هذا لأن الوقت مبكر، لا شك أنه سيمتلىء. أتريدين أن نذهب إلى مكان آخر؟

ـ لا، دعينا نبق هنا.

جلستا إلى الطاولة ذاتها كما في ذلك النهار، على الأرائك الخشنة، وطلبتا فنجانين من الشاي بالنعناع. إشتمت فرنسواز من جديد وهي تجلس قرب كزافيير الرائحة الغريبة التي حيّرتها في الدوم.

ـ بأي مسحوق غسلت شعرك اليوم؟ سألت.

لامست كزافيير بأصابعها خصلة ناعمة.

ـ لم أغسل شعري اليوم، قالت بدهشة.

ـ تفوح منه رائحة تشبه رائحة الصيدلية.

إبتسمت كزافيير إبتسامة حاذقة سرعان ما كبتتها.

ـ لم أمسّ شعري، قالت.

تجهّم وجهها وأشعلت سيجارة وعلى وجهها الشؤم. وضعت فرنسواز يدها برقّة على ذراع كزافيير.

ـ تبدين كئيبة للغاية، قالت. عليك ألاّ تستسلمي هكذا للإحباط!

ـ ماذا يسعني أن أفعل؟ لا أملك طبعاً فرحاً.

ـ لكنك لا تبذلين أي جهد. لماذا لم تأخذي الكتب التي جهّزتها لك؟

ـ لا يمكنني أن أقرأ وأنا حزينة.

ـ لمَ لا تعملين مع جيربير؟ سيكون هذا أفضل علاج لك إن قمت بإعداد مشهد جيد.

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ لا يمكن العمل مع جيربير! إنه يلعب لحسابه الخاص، ليس في مقدوره إرشاد أحد، وكأنك تعملين مع جدار. أضافت بنبرة قاطعة: ثم إن ما يفعله لا يعجبني، عمله ضيّق.

ـ إنك تظلمينه. يفتقر قليلاً إلى قوة الشخصية، لكنه ذكي وحسّاس.

ـ هذا لا يكفي. إنقبض وجه كزافيير: أكره الوضاعة، قالت بحنق.

ـ إنه فتيّ، لا يملك الكثير من الخبرة. لكن أعتقد أنه سيتوصل إلى شيء ما.

هزّت كزافيير رأسها.

ـ لو كان على الأقل رديئاً كلياً، لكان هناك بعض الأمل، لكنه مسطّح. كل ما يسعه هو تنفيذ ما يقوله له لابروس بدقّة.

كان لكزافيير مآخذ كثيرة على جيربير، لكن أشدّها هو بالتأكيد إعجابه بلابروس. يقول جيربير إنها أكثر ما تكون شرسة حين يكون عائداً من لقاء مع بيار أو حتى مع فرنسواز.

ـ هذا مؤسف، قالت فرنسواز. فسوف تتغيّر حياتك إن عملت قليلاً.

نظرت إلى كزافيير بملل. لا ترى أي أمر يمكن القيام به من أجلها. تعرفت فجأة إلى تلك الرائحة المنبعثة من كزافيير.

أشاحت كزافيير بوجهها من دون أن تردّ.

ـ ماذا حاجتك إلى الأثير؟ سألتها.

ـ لا شيء.

ـ لكن ماذا فعلت به؟

ـ تنشقت القليل منه، قالت كزافيير. يبعث شعوراً لذيذاً.

ـ هل أن هذه هي المرة الأولى أم سبق وتنشقّت منه؟

ـ آه! يحصل لي أن أفعل أحياناً، قالت كزافيير بغموض مدروس. خيّل لفرنسواز أنها لم تمتعض من انكشاف سرّها.

ـ احذري، قالت فرنسواز، سوف تصبحين مخبولة أو تفسدين صحّتك.

ـ ليس لديّ ما أخسره.

ـ لماذا تفعلين هذا؟

ـ لم أعد أحتمل السكر، الكحول تمرضني.

ـ ستمرضين أكثر بهذه الطريقة.

ـ تصوّري، قالت كزافيير. ليس عليك إلاّ أن تقربي قطعة قطن من أنفك ولا تعودي تشعرين بعدها لساعات مديدة أنك على قيد الحياة.

أمسكت فرنسواز يدها.

ـ هل أنك تعيسة إلى هذا الحد؟ قالت. ما بك؟ أخبريني.

كانت تعرف جيداً ما يعذب كزافيير، لكنه لا يمكنها حملها على الإقرار به دفعة واحدة.

ـ إن طرحنا العمل جانباً، هل أنك على تفاهم مع جيربير؟

ترقبت الجواب باهتمام لم يكن ناجماً فقط عن حرصها على كزافيير.

ـ آه! جيربير! أجل. رفعت كزافيير كتفيها. ليس له وزن كبير، تعرفين.

لكنك متمسكة به كثيراً.

ـ إنني أتمسك دائماً بما هو لي. أضافت بشراسة: أمر مطمئن أن يكون للواحدة رجل لها هي وحدها. لأن صوتها: لكن هذا لا يمثل في نهاية الأمر سوى شيء سارّ في حياتي، لا أكثر.

تجمّد الدم في عروق فرنسواز. أحسّت بإهانة شخصية في ازدراء كزافيير.

ـ إذاً لست حزينة بسبب؟

ـ لا.

بدت عزلاء مثيرة للشفقة، حتى أن العداء الضئيل الذي انتاب فرنسواز تبدّد بسرعة.

ـ ولا بسببي أنا؟ سألت. هل أنت راضية عن علاقتنا؟

ـ آه، أجل. قالت كزافيير. ابتسمت ابتسامة طفيفة رقيقة سرعان ما توارت عن وجهها. احتدمت ملامحها فجأة. إنني أضجر، قالت بشغف. أضجر بشكل فظيع.

لم تجب فرنسواز. غياب بيار هو الذي خلّف فراغاً كهذا في حياة كزافيير. كان ينبغي إعادته لها، غير أن فرنسواز تخشى أن

يكون هذا مستحيلاً. شربت ما تبقى في فنجان الشاي. كانت القهوة امتلأت ببعض الزبائن وراح العازفون ينفخون منذ وقت في ناياتهم المخنخنة. تقدمت الراقصة إلى وسط الصالة وأخذ جسدها يرتعش.

ـ كم أن وركيها عريضان، قالت كزافيير مشمئزة. سمنت منذ المرة الأخيرة.

ـ كانت سمينة على الدوام.

ـ محتمل. كانت أمور بسيطة جداً كافية في ما مضى لتبهرني. قلّبت النظر من حولها مستعرضة الجدران. تغيّرت كثيراً.

ـ الواقع أن كل هذا زائف، قالت فرنسواز. لا تحبين الآن سوى ما هو حقاً جميل، ليس ثمة ما يمكن أن تأسفي عليه.

ـ لا، لم يعد شيء يؤثر فيّ الآن. رفّت كزافيير جفونها وقالت شاكية: إنني منهكة.

ـ تستمتعين بهذه الفكرة، قالت فرنسواز باستياء، لكنها مجرّد كلمات: لست منهكة، إنك كئيبة فحسب.

نظرت إليها كزافيير بوجه تعس.

ـ تهملين نفسك، تابعت فرنسواز برفق. يجب ألاّ تستمرّي في سلوكك هذا. اسمعي: عليك أولاً أن تعديني بألاّ تشمّي الأثير بعد اليوم.

ـ لكنك لا تدركين. تلك النهارات التي لا نهاية لها أمر فظيع.

ـ أكلّمك بجدية، تعلمين. ستدمرين نفسك تماماً إن لم تتوقفي.

ـ لن تكون هذه خسارة لأي كان.

ـ بل لي أنا، قالت فرنسواز بحنان.

ـ آه! تعجبت كزافيير.

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا شك أنك ما عدت تكنين لي الكثير من التقدير.

شعرت فرنسواز بدهشة مقلقة. فغالباً ما لا تتجاوب كزافيير مع عطفها، لكنها على الأقل لم تشكك فيه يوماً.

ـ كيف هذا؟ سألت فرنسواز. تعلمين جيداً أنني لطالما قدرتك كثيراً.

ـ في الماضي، أجل، كانت لي مكانة طيبة عندك.

ـ ولم تبدّل الوضع الآن؟

ـ إنه انطباع، قالت كزافيير بوهن.

ـ لكن لم يحصل لنا من قبل أن أمضينا معاً هذا القدر من الوقت، ولم أبحث يوماً عن علاقة أكثر حميمية معك مما أفعل الآن، أجابت فرنسواز مضطربة.

ـ هذا لأنك تشفقين عليّ. ضحكت كزافيير ضحكة مريرة. هذا ما وصلت إليه أنا! أن أصبح شخصاً يثير الشفقة!

ـ لكنك مخطئة، ما الذي جعلك تفكرين هكذا؟

حدّقت كزافيير بعناد في جمرة سيجارتها.

ـ عليك أن تبرري ما قلت. لا يمكنك أن تؤكدي أشياء كهذه من دون أن توضحي أسبابك.

تردّدت كزافيير وأحسّت كزافيير بانزعاج أنه عبر تحفّظها وصمتها، كانت كزافيير هي التي توجه هذا الحديث كما يحلو لها.

ـ من الطبيعي أن تشمئزي منّي. لديك كل الأسباب لتحتقريني.

ـ هذه القصة القديمة دوماً! لكننا تفاهمنا جيداً. أدركت أنك لم تشاء إطلاعي على الفور بعلاقتك مع جيربير وأقريت بدورك أنك لو كنت مكاني لكنت لزمت الصمت مثلما فعلت.

ـ أجل، قالت كزافيير.

تعرف فرنسواز جيداً أن أي تفاهم معها لا يمكن أن يكون نهائياً. فكزافيير سوف تستيقظ في الليل غاضبة وتتذكر كيف خدعتها فرنسواز خالية البال طوال ثلاثة أيام.

ـ أنت ولابروس تفكران بطريقة مماثلة، تابعت كزافيير. وهو يراني خسيسة جداً.

ـ هذا يعنيه وحده.

تلك الكلمات كانت تكلفها جهداً هائلاً. فيها إنكارها ما لبيار، لكنها رغم ذلك لا تعبّر سوى عن الحقيقة. فهي رفضت حقاً التحيّز له.

ـ تظنينني سريعة التأثر، تابعت على كل حال، لا يحدّثني عنك تقريباً.

ـ لا شك أنه يبغضني كثيراً، قالت كزافيير بحزن.

صمتتا قليلاً.

ـ وأنت؟ هل تبغضينه؟ سألت فرنسواز.

انقبض قلبها. لم يكن الهدف من هذا الحديث برمّته إلاّ أن يوحي لها بهذا السؤال. بدأت تبصر النهاية التي تتجه نحوها.

ـ أنا؟ تعجّبت كزافيير. نظرت إلى فرنسواز متوسّلة. أنا لا أبغضه.

ـ إنه مقتنع بعكس ذلك. انقادت لرغبة كزافيير فأضافت: هل تقبلين الالتقاء به مجدّداً؟

رفعت كزافيير كتفيها.

ـ هو لا يرغب في ذلك.

ـ لا أعلم. قد تتبدّل الأمور إن علم أنك نادمة.

ـ بالطبع أنا نادمة، أجابت كزافيير ببطء. ثم تابعت بوقاحة خرقاء: تعلمين أن لابروس ليس من الصنف الذي يمكن للواحد الافتراق عنه بلا ندم.

تأملت فرنسواز لبرهة الوجه الضخم الشاحب الذي يبعث رائحة أدوية. هذا الكبرياء الذي يلازم كزافيير حتى في اليأس مثير للشفقة إلى حدّ جعل فرنسواز تقول مكرهة تقريباً.

ـ ربما يمكنني أن أحاول التحدّث إليه في هذا الشأن.

ـ آه! لن يجدي الأمر.

ـ ليس بالتأكيد.

حسمت المسألة. فقد اتخذ القرار من تلقاء ذاته وتعلم فرنسواز الآن أنها لن تتمكن من الامتناع عن تنفيذه. سيصغي إليها بيار والشر يملأ وجهه، سيجيبها بقسوة ويكتشف عبر كلامه الجارح مدى عدائه لها.

خفضت رأسها مرهقة.

ـ ماذا ستقولين له؟ سألت كزافيير بصوت مخادع.

ـ إننا تكلّمنا عنه، إنك لم تبد أي ضغينة، بل على العكس. وأنك من جهتك ستكونين سعيدة باستعادة صداقته لو أنه فقط ينسى مآخذه عليك.

حدّقت شاردة في ستارة مزركشة. يتظاهر بيار بعدم الاكتراث لكزافيير، لكن ما إن يتلفظ الواحد باسمها حتى يحسّ به متيقظاً. صادفها مرة في شارع دولامبر فلمحت فرنسواز في عينيه رغبة مذعورة في التهافت إليها. قد يوافق عى رؤيتها من جديد ليعذّبها أكثر، ربما تستعيده عندها. لكن لا إشباع حقده ولا انبعاث حبّه القلق سوف يقرّبانه من فرنسواز. الأمل الوحيد الممكن كان في إعادة كزافيير إلى روان وبدء حياة جديدة من دونها.

هزّت كزافيير رأسها.

ـ لاداع لهذا، قالت باستسلام أليم.

ـ يمكنني المحاولة على الأقل.

رفعت كزافيير كتفيها وكأنها تبرىء نفسها من أي مسؤولية.

ـ آه! إفعلي ما تشائين.

أحسّت فرنسواز بالغضب. كزافيير هي التي حملتها على قول هذا، برائحة الأثير المنبعثة منها ووجهها الحزين، وها أنها الآن تنسحب كعادتها مظهرة عدم إكتراث متعجرف لتجنب نفسها عار الفشل أو واجب عرفان الجميل.

ـ سأحاول، قالت فرنسواز.

لم تعد تساورها أي آمال في أن تحقق مع كزافيير تلك الصداقة القادرة وحدها على إنقاذها. لكنها على الأقل ستفعل كل ما بوسعها لتستحقّها.

ـ سأكلم بيار فور عودتي، قالت.

حين دخلت فرنسواز مقصورة بيار، كان لا يزال جالساً أمام طاولته والغليون بين أسنانه، مشعّث الشعر ومغتبطاً.

ـ كم أنك مواظب على العمل، قالت. لم تبرح مكانك طوال هذا الوقت؟

ـ سترين، أظن أني أنجزت عملاً جيداً، أجاب. دار على كرسيه. وأنت؟ هل أمضيت وقتاً طيباً؟ هل كان برنامج المهرجان جيداً؟

ـ آه! لم نذهب إلى السينما. كان هذا متوقعاً. تسكعنا في الشوارع، كان الحرّ محبطاً. جلست فرنسواز على أريكة عند حافة المصطبة. كان الجو يبرد قليلاً وراحت رؤوس أشجار الدلب ترتعش بوهن. إنني مسرورة لذهابي مع جيربير في رحلة، سئمت باريس.

ـ سوف أمضي وقتي مرتجفاً من الخوف سترسلين لي برقية كل مساء: لم أمت بعد.

إبتسمت له فرنسواز. كان بيار راضياً عن نهاره، ووجهه يعكس الفرح والرقّة. ثمة على الدّوم أوقات كهذه يخال الواحد فيها أن شيئاً لم يتغير منذ الصيف الماضي.

ـ لا تخف، قالت فرنسواز، مازال الوقت مبكراً لتسلّق الجبال الوعرة. سنذهب إلى جبال سيفين أوكانتال.

ـ لن تمضي الليلة تعدّين خططاً، أليس كذلك؟ سأل بيار بخشية.

ـ لا تخف، سنجنّبك هذا. ابتسمت من جديد ابتسامة خفرة. سيتحتّم علينا نحن أيضاً بعد قليل وضع خطط.

ـ صحيح، بعد شهر نرحل.

ـ وسيتوجّب علينا في نهاية الأمر أن نقرر إلى أين.

ـ أظن أننا في مطلق الأحوال سنبقى في فرنسا. يجب أن نتوقع

مرحلة من توتر في حوالي منتصف شهر آب. لن يكون من الممتع أن تكون في طرف العالم، وإنّ لم يحصل شيء على الإطلاق.

ـ كنا تكلّمنا عن كورد وجنوب فرنسا، قالت فرنسواز. وأضافت ضاحكة: سنجد بالتأكيد هناك بعض المناظر الجميلة، لكن سنزور أيضاً الكثير من المدن الصغيرة. ألا تستهويك المدن الصغيرة؟

نظرت إلى بيار والأمل يغمر نفسها. حين يجدان نفسيهما وحيدين بعيداً عن باريس، ربما لن يعود يفارقه ذلك المظهر الودود الهادىء. كم كانت تنتظر بفارغ الصبر أن ترحل بصحبته لأسابيع مديدة.

ـ سأكون مسروراً جداً للتنزه معك في ألبي، في كورد، في تولوز، قال بيار. وسترين، سأقوم بين الحين والآخر بنزهة بلا مرواغة.

ـ وأنا سأجلس في المقاهي قدر ما تشاء من دون أن أتذمّر، أجابت فرنسواز ضاحكة.

ـ وماذا ستفعلين بكزافيير؟

ـ عائلتها تود استقبالها خلال العطلة. ستذهب إلى روان. لن يزعجها أن تستعيد صحّتها.

أشاحت فرنسواز بوجهها. إن تصالح بيار مع كزافيير، ماذا سيحل بكل هذه المشاريع الفرحة؟ قد يستعيد شغفه بها ويتشكّل الثلاثي من جديد. سيتحتّم اصطحابها معهما في الرحلة. أحسّت فرنسواز بغصّة في حلقها. لم تشعر يوماً برغبة قوية كرغبتها في هذه الخلوة الطويلة.

ـ هل أنها مريضة؟ سأل بيار بفتور.

ـ لنقل إنها في وضع سيىء.

عليها ألا تتكلم. عليها أن تدع ضغينة بيار تتبدّد ببطء وتضمحل في اللامبالاة. باتت على وشك الشفاء. بعد شهر لن تعود هذه السنة المحمومة تحت سماء الجنوب سوى ذكرى بعيدة. كل ما عليها أن تفعل كان ألاّ تضيف كلمة وتبدّل الموضوع. همّ بيار بفتح فمه للتحدّث عن أمر آخر، لكن فرنسواز بادرته.

ـ أتعرف ما ابتكرته الآن؟ إنها تشمّ الأثير.

ـ فكرة حاذقة. ولماذا؟

ـ إنها تعسة للغاية. بدا الأمر أقوى من طاقتها. كانت ترتجف أمام الخطر، لكنه يسحرها بشكل لا يقاوم. لم تحسن مرة توخي الحذر.

ـ الصغيرة المسكينة، قال بيار بسخرية غليظة. ما الذي يحلّ بها؟

فتلت فرنسواز محرمة بين يديها الرطبتين.

ـ تركت فراغاً في حياتها، قالت بخفة بدت زائفة.

تصلّب وجه بيار.

ـ آسف. لكن ماذا عساي أفعل؟

ضغطت فرنسواز أكثر على محرمتها. كم أن الجرح لا يزال حياًّ! تحصّن بيار منذ الكلمات الأولى في مواقع دفاعية. لم تعد تكلّم صديقاً. استجمعت شجاعتها.

ألا تفكّر إطلاقاً في التقائها يوماً؟

التفت إليها بيار بعينين باردتين.

ـ آه! هل كلفتك استبطان نواياي؟

تصلّب صوت فرنسواز بدوره.

ـ أنا اقترحت عليها ذلك حين أدركت أنها نادمة عليك كثيراً.

ـ فهمت. أثارت شفقتك بتمثيلياتها وتظاهرها بإدمان الأثير.

إحمرّ وجه فرنسواز. تعلم جيداً أن ثمة بعض التكلّف في مأساة كزافيير وأنها خدعتها بحيلها، لكنها ازدادت عناداً أمام نبرة بيار القاطعة.

ـ هذا موقف سهل جداً. أفهم جيداً ألا تكترث لمصير كزافيير، لكن الحقيقة أنها منهارة تماماً، وهذا بسببك أنت!

ـ بسببي أنا! إنك تمزحين! نهض ووقف أمام فرنسواز ساخراً: تريدينني أن أمسك كل ليلة بيدها وأقودها إلى سرير جيربير؟ هذا ما تريده حتى تستكين روحها الصغيرة!

قامت فرنسواز بجهد عظيم لكظم غيظها. لا فائدة من الغضب.

ـ.تعرف جيداً أنك وجهت إليها إهانات قاسية قبل أن تنفصل عنها. حتى شخص أقلّ كبرياء منها لما كان تمكن من تخطي الأمر.

إعذريني. لا أمنعك عن الاسترسال في غفران الإهانات، لكنني من جهتي لا أحس أنني أمتلك دعوة راهبة بر وإحسان.

تلك اللهجة المزدرية أصابت فرنسواز في الصميم.

ـ لم تكن مضاجعة جيربير في نهاية الأمر جريمة فظيعة. فهي حرّة ولم تعدك بشيء. كان هذا بمثابة ضربة قاسية لك، لكن تعلم جيداً أنه في وسعك تخطّيه إن أردت ذلك. إرتمت على كنبة. أرى

ضغينتك هذه جنسية وخسيسة تبدو كرجل يحقد على امرأة لم يحصل عليها. وهذا لا يليق بك.

انتظرت بقلق. أصابت الهدف. التمعت ومضة كراهية في عيني بيار.

ـ إنني حاقد عليها لأنها أغوتني وخانتني. لماذا تركتني أقبّلها؟ لماذا كل هذه الابتسامات الرقيقة؟ لماذا ادّعت أنها تحبّني؟

ـ لكنها كانت صادقة، إنها متمسكة بك. استعادت فجأة ذكريات قاسية. ثم أنت الذي فرضت عليها أن تحبك. تعرف جيداً كيف أنها ذعرت حين تلفّظت بهذه الكلمة للمرة الأولى.

ـ أتلمحين إلى أنها لم تكن تحبني؟ سأل بيار.

لم يسبق له أن نظر إلى كزافيير بهذا العداء المشدّد.

ـ ليس هذا ما أقوله. كل ما أقوله أن ثمة بعض الإرغام في هذا الحب، مثلما يرغم واحد نبتة على النمو. كنت تطالب على الدوام بالمزيد من الحميمية والكثافة.

ـ تروين القصة بشكل غريب حقاً، قال بيار وعلى وجهه ابتسامة شريرة. هي التي بدت متطلّبة لدرجة أنه تحتم عليّ وقفها. كانت تطلب مني ببساطة أن أضحّي بك.

انهارت فرنسواز دفعة واحدة. صحيح أن بيار خسر كزافيير بسبب وفائه لها هي. هل أنه نادم الآن؟ هل أنه يأخذ الآن عليها ما قام به في لحظة اندفاع عفوي؟

ـ لو حصلت عليّ لها وحدها، لكانت على استعداد لتهواني بشغف، أكمل بيار. مارست الحب مع جيربير حتى تعاقبني على

عدم التخلي عنك. عليك أن تقري أن هذا تصرّف مقزّز. مناصرتك لها تدهشني.

ـ لست أناصرها، قالت فرنسواز بصوت خافت. أحسّت أن شفتيها بدأتا ترتجفان. أيقظ بيار في نفسها بكلمة أحقاداً لاذعة. لماذا تصرّ على مؤازرة كزافيير والوقوف إلى جانبها؟ إنها تعسة كثيراً همست.

ضغطت جفنيها بأصابعها. لم تكن تريد أن تبكي، لكنها وجدت نفسها فجأة في قلب يأس عميق لا قعر له. لم تعد ترى بوضوح، سئمت البحث عن اتجاهها. كل ما تعرفه أنها تحب بيار، وتحبه هو وحده.

ـ أتظنينني في غاية السعادة؟ قال بيار.

أحسّت فرنسواز بتمزّق حاد عنيف، جعل صرخة تتبادر إلى شفتيها. صرّت أسنانها، لكن دموعها راحت تنهمر. غمرها عذاب بيار. لم يكن شيء في العالم يهم سوى حبه، وهي تركته طوال هذا الشهر يتخبّط وحيداً في حين كان بحاجة إليها. فات الأوان لتطلب منه السماح. ابتعدت عنه كثيراً ولا يمكن أن يكون لا يزال يرغب في مساعدتها.

ـ لا تبكي، قال بيار فاقد الصبر. كان ينظر إليها بعينين خاليتين من الودّ. تغفر جيداً أنها بعد أن وقفت ضدّه، لم يعد من حقها أن تفرض عليه دموعها. لكنها لم تعد سوى فوضى عارمة من الألم والنوم. أرجوك، إهدئي، قال بيار.

لم يكن في وسعها أن تهدىء من روعها. خسرته بسبب سوء تصرفها، ولن تكفي حياتها برمّتها لتبكي هذه الخسارة. أخبأت وجهها بين يديها. كان بيار يذرع الغرفة، لكنها لم تعد حتى

تكترث له، فقدت أي سيطرة على جسدها وأفكارها، لم تعد سوى آلة قديمة معطلة.

شعرت فجأة بيد بيار على كتفها. رفعت عينيها.

ـ تكرهني الآن، قالت.

ـ لا، لا أكرهك، أجاب بابتسامة مرغمة.

تمسّكت بيده.

ـ أتعلم، قالت بصوت متهدّج، لست صديقة كزافيير بالقدر الذي تظن، لكنني أحسّ بمسؤولية كبيرة. قبل عشرة أشهر كانت شابة، شغفة، مفعمة بالأمل، والآن هي حطام محزن.

ـ حتى في روان كانت بائسة وتتحدّث على الدوام عن قتل نفسها.

ـ ليس الوضع مماثلاً.

إنتابتها شهقة جديدة. الأمر يعذّبها. ما إن تتذكر وجه كزافيير الشاحب حتى تعجز عن التضحية، ولو من أجل سعادة بيار. ظلّت مسمّرة لوقت، متشبثة بهذه اليد الراقدة بلا حراك على كتفها. كان بيار ينظر إليها. قال أخيراً:

ـ ماذا تريدينني أن أفعل؟ كان وجهه متشنجاً.

أفلتت فرنسواز يده ومسحت دموعها.

ـ لم أعد أريد شيئاً.

ـ ماذا كنت تريدين قبل قليل؟ قال وهو بالكاد يسيطر على عصبيته.

نهضت وسارت نحو المصطبة. تخشى أن تطلب منه شيئاً ما.

فما سيفعله من أجلها رغماً عنه لن يسعه إلا أن يبعده عنها أكثر. عادت إليه.

ـ كنت أعتقد أنك لو رأيتها من جديد قد تستعيد بعضاً من عطفك لها فهي متمسكة بك كثيراً.

قاطعها بيار بقسوة.

ـ حسناً، سألتقيها من جديد.

ابتعد واتكأ إلى الدرابزون. تبعته فرنسواز. كان يتأمل خافضاً رأسه الفناء حيث تنطنط بعض الحمامات. حدّقت فرنسواز في عنقه المتقوّس. غصّ قلبها بالندم من جديد. ها أنها تلقي به من جديد في دوامة من العذاب في حين أنه يسعى جاهداً لاستعادة سلامه الداخلي. تراءت لها من جديد ابتسامة الفرح التي استقبلها بها. يقف أمامها الآن رجل مليء بالمرارة، يستعدّ بخنوع ثائر للخضوع لطلب لا يوافق عليه. طلبت مراراً من بيار القيام بأمر ما، غير أن أياً منهما لم يكن يشعر في زمن وحدتهما بأن ما يقوم به من أجل الآخر هو بمثابة تضحية. لكنها هذه المرة وضعت بيار في وضع اضطر معه للتنازل لها بضغينة. لامست صدغيها. كان رأسها يؤلمها وأحسّت بلهيب في عينيها.

ـ ماذا نفعل الليلة؟ سأل بيار بشكل مفاجىء.

ارتعدت فرنسواز.

ـ لا شيء، على حد علمي.

ـ حسناً! إتصلي بها إذاً. طالما إنني مضطر لتسوية هذه المسألة، أفضل أن أفعل في أسرع وقت ممكن.

عضّ بيار أحد أظافره بعصبية. تقدّمت فرنسواز نحو الهاتف.

ـ وجيربير؟

ـ ستقابلينه من دوني.

طلبت فرنسواز رقم الفندق. كانت تعرف عن ظهر قلب تلك الكماشة الحديدية القاسية التي تعصر معدتها. كل الأحوال القديمة سوف تنبعث من جديد. لن يقيم بيار يوماً صداقة مع كزافيير. إسراعه نفسه ينذر بعواصف وشيكة.

ـ آلو! هل يمكنك أن تنادي الآنسة باجيس؟ قالت.

ـ حالاً، لا تقفلي الخطّ.

سمعت طقطقة كعبين على الأرض وجلبة: كان أحدهم يصيح اسم كزافيير في الأدراج. إختلج قلب كزافيير. عصبية بيار كانت تنفذ إليها.

ـ آلو، قال صوت كزافيير القلق. أخذ بيار السماعة.

ـ فرنسواز معك. هل لديك وقت فراغ الليلة؟

ـ أجل، لماذا؟

ـ لابروس يسأل إن كان يمكنه القدوم لرؤيتك.

لم تسمع جواباً.

ـ آلو، ردّدت فرنسواز.

ـ يريد القدوم الآن؟ سألت كزافيير.

ـ هل يزعجك؟

ـ لا، لا يزعجني.

ـ ظلت فرنسواز صامتة لبرهة من غير أن تدري ماذا تقول.

ـ إذاً اتفقنا، قالت، سيأتي حالاً.

ـ أقفلت الخط.

ـ إنك تدفعينني لارتكاب حماقة، قال بيار باستياء. لم تبد راغبة أبداً في مجيئي.

ـ أظن على العكس أنها كانت متأثرة.

صمتنا لوقت طويل.

ـ إنني ذاهب، قال بيار.

ـ عد إلى غرفتي حين تنتهي لتخبرني كيف سارت الأمور.

ـ حسناً، أراك ليلاً. أظن أنني سأكون عندك باكراً.

اقتربت فرنسواز من النافذة ونظرت إليه وهو يعبر الساحة، ثم عادت وجلست على الكنبة حيث مكثت مرهقة. بدا لها وكأنها قامت بخيار حاسم. وهي اختارت التعاسة. انتفضت. كان أحدهم يدقّ على الباب.

ـ أدخل، قالت.

دخل جيربير. دهشت فرنسواز لرؤية الوجه النضر المحاط بشعر أسود وأملس كشعر صينية. إزاء نصاعة هذه الابتسامة، انقشعت الظلال المتراكمة في قلبها. تذكرت فجأة أن ثمة في العالم أشياء يمكن أن تحبّها غير كزافيير وبيار. ثمة قمم مكسوة بالثلوج، أشجار صنوبر تحت الشمس، أنزال دروب، أناس وقصص. ثمة هاتان العينان المرحتان اللتان تنظران إليها بودّ.

فتحت فرنسواز عينيها وأغمضتهما على الفور. كان الفجر يبزغ. كانت واثقة من أنها لم تنم. سمعت الساعات تدقّ الواحدة تلو الأخرى، غير أنه تهيأ لها أنها لم تخلد إلى النوم سوى بضع لحظات. حين عادت في منتصف الليل بعد أن أعدّت مع جيربير

برنامجاً مفصّلاً لرحلتهما، لم يكن بيار عاد بعد. قرأت لبضع لحظات ثم أطفأت الضوء وحاولت أن تنام. من الطبيعي أن يكون النقاش مع كزافيير دام طويلاً. لم تكن ترغب في التساؤل حول النتيجة والإحساس مجدّداً بطوق يشدّ على عنقها. لم تكن تريد الانتظار. لم تتمكن من النوم غير أنها انزلقت في خدر تردّدت فيه الأصوات والصور إلى ما لا نهاية كما في زمن مرضها المحموم. بدت لها الساعات قصيرة. ربما تتوصّل إلى عبور نهاية هذا الليل بلا قلق.

ارتعشت حين سمعت وقع خطى في الأدراج الأرضية الخشبية تطقطق وكأنما تحت أقدام ثقيلة، لم يكن هذا بيار. أكملت الخطوات نحو الطبقات العليا. استدارت صوب الحائط. إن بدأت تترقّب أصوات الليل وضجيجه وتعد الدقائق، سيكون الوضع فظيعاً. أرادت الاحتفاظ بهدوئها. أمر جيد أنها مستلقية في سريرها الدافىء. ثمة في هذه اللحظة متشرّدون يفترشون أرصفة الهال القاسية، مسافرون منهكون واقفون في أروقة القطار وجنود يحرسون أبواب الثكنات.

تقوقعت أكثر بين الملاءات. لا شك أن بيار وكزافيير كرها بعضهما ثم تصالحا مراراً وتكراراً خلال هذه الساعات الطويلة، لكن كيف عساها تعرف أياً من الحب أو الكراهية انتصر مع طلوع الفجر؟ كانت تبصر طاولة حمراء في صالة مترامية وشبه فارغة، فوق الكأسين الفارغين وجهين منتشيين أحياناً وحانقين أخرى. حاولت تثبيت الصورتين الواحدة تلو الأخرى. لم تكن أي منهما تحمل مخاطر وتهديدات على أي حال، لم يعد ثمة في الوضع الذي وصلت إليه الأمور ما يمكن تهديده. عليها فقط أن تتوقف

عند إحدى الصورتين بيقين. ذاك الفراغ الحائر هو الذي يبعث الجنون في القلب في نهاية الأمر.

ثمة نور خافت ينفذ إلى الغرفة. سيصل بيار بعد قليل، لكن لا يمكنها أن تلج مسبقاً الدقيقة التي سيملؤها حضوره، لا يمكن حتى الإحساس بتيار يجرفها نحوها، لا مكانها هي لم يتحدّد بعد. عاشت فرنسواز في الماضي لحظات انتظار تشبه سباقاً مسعوراً، لكنها هذه المرة تراوح مكانها. بين الانتظار والهروب انقضت السنة بكاملها. والآن، ماذا يمكن أن تأمل؟ انسجاماً موفقاً لهذا الثلاثي؟ انفصاله النهائي؟ لن يكون أي من الحلّين ممكناً يوماً، إذ لا سبيل للتحالف مع كزافيير ولا للتخلّص منها. حتى المنفى لن يلغي هذا الوجود الذي لا يدع أياً كان يضمّه إلى وجوده. تذكرت فرنسواز كيف أنكرتها في بادىء الأمر بلا مبالاة. غير أن اللامبالاة هزمت، والصداقة فشلت للتو. لم يبق لها أي خلاص. يمكنها الهروب، لكن سيتحتم عليها العودة، فتغرق في انتظار آخر وهروب آخر، إلى ما لا نهاية.

مدّت فرنسواز ذراعها نحو المنبّه. إنها الساعة السابعة. في الخارج ينشر نور النهار، جسدها بكليته متيقظ والسكون يتحوّل إلى سأم. ردّت الأغطية عنها وبدأت تغسل وجهها. باغتتها رغبة في البكاء انتابتها بعد أن نهضت في نور النهار صافية الذهن. اغتسلت، تبرّجت وارتدت ثيابها ببطء. لم تشعر بأي عصبية لكنها لا تدري ماذا تفعل بنفسها. بعد أن انتهت وبانت جاهزة، استلقت على السرير مجدّداً. لم يعد هناك في هذه اللحظة مكان لها في أي بقعة من العالم. ليس ثمة ما يجذبها إلى الخارج، لكن ليس ثمة كذلك ما يستبقيها هنا سوى غياب، باتت مجرّد نداء فارغ مجرّد

من أي اكتمال أو أي حضور، حتى أن جدران هذه الغرفة حتى تدهشها. انتصبت فرنسواز. هذه المرة عرفت وقع الخطى هذا. افتعلت تعبير وجهها ووثبت نحو الباب. ابتسم لها بيار.

ـ نهضت في مثل هذه الساعة؟ قال. آمل ألاّ تكوني قلقت كثيراً؟

ـ لا، توقعت أن تكون لديكما أمور كثيرة تقولانها لبعضكما. نظرت في وجهه. بدا واضحاً أنه من جهته لم يكن خارجاً من العدم.وجهه المشرق، نظرته المتّقدة، حركاته، كلها عكست كثافة الساعات التي عاشها للتو إذاً؟ قالت.

ظهر على وجه بيار ارتباك مغتبط تعرفه جيداً.

ـ إذاً، عاد كل شيء من جديد. لامس ذراع فرنسواز. سأخبرك ما جرى بالتفصيل، لكن كزافيير تنتظرنا لتناول الفطور. قلت لها إننا عائدان على الفور.

ارتدت فرنسواز سترة. فقدت للتو فرصتها الأخيرة في استعادة حميمية هادئة وصافية مع بيار. لكنها بالكاد تجرأت وآمنت بهذه الفرصة لبضع دقائق. أما الآن، فهي متعبة ولم تعد تشعر بالأسف ولا بالأمل، هبطت الأدراج. لم تعد فكرة الإنتماء مجدّداً إلى الثلاثي تبعث في نفسها سوى قلق مستسلم.

ـ أوجز لي ما حصل ببضع كلمات، قالت.

ـ حسناً، وصلت مساء أمس إلى فندقها. شعرت على الفور أنها مضطربة للغاية. وهذا أثرّ كثيراً في نفسي. جلسنا لوقت نتحدّث بكل بساطة عن أمور عادية، ثم ذهبنا إلى البول نور حيث جرى بيننا حديث طويل. صمت بيار لبرهة ثم أكمل بتلك النبرة المغرورة

والعصبية التي لطالما آلمت فرنسواز. يخيّل لي أنه لا يتوجب علي القيام بالكثير حتى تتخلّى عن جيربير.

ـ هل طلبت منها أن تقطع علاقتها معه؟

ـ لا أريد أن أكون دخيلاً.

لم يكترث جيربير للخلاف الذي قام بين بيار وكزافيير. صداقتهما برمّتها لم تبد له يوماً سوى نزوة عابرة. سوف تكون الحقيقة بمثابة صدمة قاسية له. الحقيقة أنه كان يجدر ببيار إطلاعه على الوضع منذ البداية، لكان جيربير عدل بسهولة عن التقرّب من كزافيير، في حين أن خسارتها الآن ستكدّره بالتأكيد رغم أنه ليس متمسكاً بها بشكل عميق.

ـ حين تذهبين في رحلتك مع جيربير، سأتولى أمر كزافيير. وإن لم تسوّ المسألة من تلقاء نفسها بعد انقضاء الأسبوع،فسوف أنذرها بالاختيار.

ـ أجل، تردّدت قليلاً: عليك أن تشرح القصة لجيربير، وإلا بدوت نذلاً حقيقياً.

ـ سأشرح له، أجاب بيار بحدّة. سأقول له إنني لم أشأ إملاء أي شيء عليه، لكنني اعتبرت أن من حقي منافسته على قدم المساواة.

ـ موقفك متماسك.

صحيح بمعنى ما أنه ليس ثمة ما يدعو بيار إلى التضحية بنفسه من أجل جيربير، لكن جيربير من جهته لم يفعل شيئاً حتى يستحق الخيبة القاسية التي تنتظره. دفعت فرنسواز بقدمها حصاة صغيرة مستديرة. لا شك أن عليها ألا تحاول إيجاد الحلّ المناسب لأيّ مشكلة كانت. يبدو منذ وقت الآن أن الواحد لا بدّ أن يكون دوماً

على خطأ مهما كان موقفه. في مطلق الأحوال، لم يعد أحد يأبه كثيراً لمعرفة الخير من الشرّ. هي نفسها لم تعد تبالي.

دخلا الدوم. كانت كزافيير جالسة إلى طاولة خافضة رأسها. لامست فرنسواز كتفها.

ـ صباح الخير، قالت مبتسمة.

ارتعشت كزافيير ورفعت نحو فرنسواز وجهاً تائهاً، ثمَ إبتسمت بدورها مكرهة.

ـ لم أظن أنك ستحضرين بهذه السرعة، قالت.

جلست فرنسواز بجانبها. لمست في هذا الاستقبال شيئاً أليفاً ومؤلماً.

ـ كم تبدين نضرة! قال بيار.

لا شك أن كزافيير اغتنمت غياب بيار لتهتم بوجهها بعناية. فبشرتها صافية ملساء، شفتاها متألقتان وشعرها يلتمع.

ـ لكنني متعبة، قالت كزافيير. قلبت النظر بين فرنسواز وبيار ووضعت يدها أمام فمها لإخفاء تثاؤبة صغيرة. أظن حتى أني بحاجة للنوم، قالت بارتباك وحنو لا يتوجهان إلى فرنسواز.

ـ الآن؟ تعجّب بيار. أمامك النهار بكامله.

تجهّم وجه كزافيير.

ـ لكنني أشعر بالتعب. ارتعشت ذراعاها ملوّحتين بكمي القميص الفضفاضي. من المزعج إرتداء الثياب ذاتها طوال ساعات.

ـ تناولي على الأقل فنجان قهوة معنا أصرّ بيار خائباً.

ـ كما تشاء.

طلب بيار ثلاثة فناجين من القهوة. تناولت فرنسواز كرواسان

وشرعت في أكله بلقم ضئيلة. لم تكن تقوى على التفكير في جملة ودودة يمكنها قولها. عاشت هذا المشهد أكثر من عشرين مرة حتى الآن. إشمأزّت مسبقاً من تلك اللهجة المفعمة بالحيوية. وتلك الابتسامات المتملّقة التي شعرت بها على حافة شفتيها، ومن تلك الخيبة الغاضبة التي غمرتها. كانت كزافيير تتأمل أصابعها نعسة. عبر وقت طويل من غير أن يتفوّه أيّ منهم بكلمة.

ـ ماذا فعلت مع جيربير؟ سأل بيار.

ـ تناولنا العشاء في القرية ونظمنا رحلتنا. أعتقد أننا سننطلق بعد غد.

ـ ستتسلّقين جبالاً مرّة جديدة، قالت كزافيير بصوت سئم.

ـ أجل، أجابت فرنسواز بنبرة جافة. هل تجدين هذا عبثياً؟

ـ رفعت كزافيير حاجبيها.

ـ طالما أنك تجدين الأمر مسلّياً، قالت.

عاد الصمت. نظر بيار إليهما الواحدة تلو الأخرى بقلق.

ـ تبدوان تعستين، قال بلهجة اللوم.

ـ ليس هذا بالوقت المناسب لالتقاء الناس، أوضحت كزافيير.

ـ لكنني أذكر وقتاً ممتعاً أمضيناه هنا في مثل هذه الساعة، قال بيار.

ـ آه! لم يكن ممتعاً بالقدر الذي تصفه، أجابت كزافيير.

تذكر فرنسواز جيداً ذلك الصباح حيث انبعثت رائحة الصابون. في هذا المكان ظهرت غيرة كزافيير إلى العلن للمرة الأولى. وها أنها تجدها اليوم لم تتبدّل رغم كل جهودها لتبديدها.

ما ودّت كزافيير محوه في هذه اللحظة لم يكن حضورها فحسب بل وجودها نفسه.

دفعت كزافيير الكوب بعيداً عنها.

ـ سوف أنسحب، قالت بتصميم.

ـ المهم أن تستريحي جيداً، أجابت فرنسواز بسخرية.

مدّت لها كزافيير يدها من دون أن تتفوّه بكلمة. ابتسمت لبيار إبتسامة واهنة وعبرت المقهى بسرعة.

ـ إنه مأزق، قالت فرنسواز.

ـ أجل، بدا بيار مستاءً. لكنها بدت مسرورة جداً حين طلبت منها أن تنتظرنا.

ـ لا شك أنها لم تكن ترغب في الافتراق عنك. ضحكت ضحكة هزيلة لكن الصدمة كانت قوية حين رأتني أمامها.

ـ سيكون الوضع مريعاً من جديد. تأمل بيار متجهماً الباب الذي خرجت منه كزافيير. أتساءل إن كان يجدر بنا البدء من جديد، لن نتوصل إلى أي شيء.

ـ ماذا قالت لك عنيّ؟

تردّد بيار.

ـ بدت علاقتها بك جيدة.

ـ لكن ماذا قالت؟ نظرت باستياء إلى وجه بيار الحائر. هو الذي يشعر الآن بضرورة مراعاتها. لديها بالتأكيد بعض المآخذ، أليس كذلك؟

ـ تبدو وكأنها ناقمة عليك قليلاً، أقرّ بيار. أعتقد أنها تدرك أنك لا تحبينها بشغف.

تشنّجت فرنسواز.

ـ ماذا قالت بالضبط؟

ـ قالت إنني الشخص الوحيد الذي لا يدّعي معالجة مزاجها المتقلّب ببرودة. لمست فرنسواز خلف لامبالاة صوته سروراً طفيفاً بعد أن أيقن مدى فرادته. ثم في لحظة ما أعلنت لي بافتتان: أنا وأنت لسنا مخلوقين أخلاقيين، في وسعنا القيام بأعمال قذرة. وحين احتجّجت أضافت: أنت تصرّ على التظاهر بالأخلاقيات بسبب فرنسواز، لكنك في العمق ماكر وشرير مثلي تماماً.

إحمرّ وجه فرنسواز. هي أيضاً بدأت ترى في قيمها الأخلاقية الأسطورية عاهة مضحكة يسخر منها الجميع في سرّهم، متساهلين حيالها. لن يطول بها لأمر ربما قبل أن تتحرّر منها. تالتفتت إلى بيار. كان وجهه حائراً، لا يعكس ضميراً مرتاحاً. من الواضح أن كلام كزافيير دغدغ كبرياءه إلى حدّ ما.

ـ محاولة المصالحة هذه، أفترض أنها تلومني عليها كدليل على فتوري، قالت.

ـ لست أدري.

ـ وماذا أيضاً؟ أفصح عن كل شيء، قالت وقد ضاقت ذرعاً.

ـ حسناً، ألمحت بحقد إلى ما اعتبرته الحبّ المتفاني.

ـ كيف هذا؟

ـ كانت تشرح لي عن أطباعها، وقالت بتواضع متصنع: أعرف جيداً أنني غالباً ما أكون مزعجة وصعبة المراس مع الآخرين، لكن ماذا تريدني أن أفعل؟ الحب المتفاني لا يناسبني.

ذهلت فرنسواز. في هذا الكلام غدر ذو حدّين: فكزافيير تلوم

بيار لأنه لا يزال مأخوذاً بحب حزين كهذا. أما هي، فتبعد هذا الحب عنها بحدّة. لم يخطر لفرنسواز البتة مدى هذا العداء حيث تمتزج الغيرة بالخيبة.

ـ هذا كل شيء؟

ـ أعتقد.

لم يكن هذا كل ما هنالك، لكن فرنسواز أحسّت فجأة أنها ملّت طرح الأسئلة. تعرف ما فيه الكفاية لتشعر على شفتيها بالطعم الماكر لهذه الليلة حيث انتزعت ضغينة كزافيير المنتصرة من بيار ألف خيانة ضئيلة.

ـ على كل حال، أتعرف، لا أكترث لمشاعرها.

كان هذا صحيحاً.. ففي ذروة التعاسة هذه، لم يعد شيء، يهمّ فجأة. بسبب كزافيير كادت تخسر بيار وكزافيير لا تبادلها بالمقابل سوى الإزدراء والغيرة. ما إن تصالحت مع بيار حتى حاولت أن تقيم بينهما تواطؤاً خبيثاً لم يكن بيار يقاومه تماماً. تخلّى كلاهما عنها، فوجدت نفسها في عزلة كئيبة لا مكان فيها للغضب أو للدموع. لم تعد فرنسواز تأمل شيئاً من بيار. حتى لا مبالاته لم تعد تهمّ. في مواجهة كزافيير، شعرت فرنسواز بما يشبه الغبطة إذ انقشع في داخلها إحساس حالك ومرير لم تعرفه بعد، إحساس بدا لها كانعتاق. متفلتة وجبّارة تفتحت في نفسها أخيراً بلا قيود الضغينة.

الفصل (١٦)

ـ أظن أننا وصلنا أخيراً، قال جيربير.

ـ أجل، هذا هو البيت الذي نراه في الأعلى، أجابت فرنسواز.

مشيا طويلاً خلال النهار ومضت ساعتان وهما يتسلقان منحدرات وعرة. بدأ الليل يهبط والبرد يشتدّ. نظرت فرنسواز بحنو إلى جيربير وهو يتقدّمها على الدرب المتعرّج. كانا يسيران بخطى متماثلة، يسكنهما التعب ألفرح ذاته، ويترقبان معاً بصمت الخمر الأحمر، الحساء والنار التي يأملان إيجادها في أعلى الجبل. يبدو على الدوام الوصول إلى قرى نائية معزولة أشبه بمغامرة. لا يمكن أن تعرفا إن كانا سيجلسان عند قعر نزل مقفر أو سيصلان إلى فندق بورجوازي صغير يعجّ منذ الآن بالمصطافين. في مطلق الأحوال، سيرميان حقائبهما في زاوية ويمضيان جنباً إلى جنب وقد استرخت عضلاتهما واستكان قلبهما ساعات هادئة يستعيدان هذا النهار الذي أمضياه معاً ويضعان خططاً للغد. كانت فرنسواز تسرع إلى دفء هذه الحميمية أكثر منها نحو العجّة الشهية والكحول القروية القوية. لفحت عصفة ريح وجهها. وصلا إلى ممرّ

جبلي يطلّ على امتداد من الوديان التائهة في غبش الغسق.

ـ لن نتمكّن من نصب الخيمة، قالت، الأرض رطبة جداً.

ـ سنعثر بالتأكيد على مستودع.

مستودع. أحسّت فرنسواز في داخلها بفراغ يبعث الغثيان. قبل ثلاثة أيام أمضيا الليل في مستودع. نام كل منهما على مسافة بضع خطوات من الآخر، لكن أثناء نومهما انزلق جسد جيربير نحوها وأحاطها بذراعيه. فكرت بحسرة ضئيلة: يظنني فتاة أخرى، وحبست أنفاسها حتى لا توقظه. راودها حلم. كانت بالحلم في المستودع ذاته، وجيربير يعانقها مشرّع العينين. استسلمت بين ذراعيه وغمر قلبها إحساس بالعذوبة والأمان. ثم وسط هذا الارتياح الرقيق إنتابها قلق. إنه حلم، قالت، ليس صحيحاً. ضمّها جيربير أكثر إليه وقال برفق: بل هو صحيح، من السخيف ألاّ يكون صحيحاً. بعد قليل عبر جفونها نور باهر، وجدت نفسها بين القشّ ملتصقة بجيربير، ولم يكن شيء ممّا أبصرته صحيحاً.

ـ ظلّ شعرك يدغدغ عيني طوال الليل، قالت ضاحكة.

ـ ومرفقك أنت ظل يلطمني، أجاب جيربير ساخطاً.

فكّرت يائسة في احتمال أن تستيقظ من جديد غداً بعد ليلة مماثلة. تحت الخيمة كانت تتقوقع في زاوية ضيقة، محتمية بقسوة الأرض، بوضعيتها غير المريحة وبالوتد الخشبي الذي يفصلها عن جيربير. لكنها تعلم أنها لن تجد بعد قليل الشجاعة الكافية لوضع فراشها بعيداً عنه. لا جدوى في الاستخفاف بذلك الحنين المبهم الذي حاصرها خلال هذه الأيام. لم ينفكّ يتزايد طوال تلك الساعتين من التسلّق الصامت حتى أضحى رغبة خانقة. هذه

الليلة، مستلقية إلى جانب جيربير النائم ببراءة، ستحلم، تأسف وتتألم سدى.

ـ ألا تظنين أن هذا مقهى هنا؟ سأل جيربير.

صعد الدرجات الثلاث ودخلا صالة فسيحة دافئة تعبق برائحة الحساء والخشب اليابس. وجدا امرأتين جالستين على مقعد تقشّران البطاطا وثلاثة فلاحين خلف طاولة وضعت عليها كؤوس من الخمر الأحمر.

ـ مرحباً، بادرهم جيربير.

التفتت كل الأنظار إليه. تقدّم من المرأتين.

ـ هل يمكننا تناول شيء ما إن سمحتما؟

تأملته المرأتان بريبة.

ـ هل أنكما قادمان من بعيد؟ سألت الأكبر سناً بينهما.

ـ صعدنا من بورزيه، أجابت فرنسواز.

ـ إنها مسافة طويلة، قالت المرأة الأخرى.

ـ لذلك نحن جائعان.

ـ لكنكما لستما من بورزيه، أضافت العجوز بنبرة لوم.

ـ لا، إننا من باريس، قال جيربير.

خيّم صمت لبرهة. تبادلت المرأتان النظرات متشاورتين.

ـ ليس لدي الكثير من الطعام أقدّمه لكما، قالت العجوز.

ـ أليس لديك بيض؟ أو قطعة باتيه؟ أيّ شيء... قالت فرنسواز. رفعت العجوز كتفيها.

ـ لدينا بيض بالطبع. نهضت ومسحت يديها بوزرتها الزرقاء. تفضّلا إلى هنا، قالت وكأنما رغماً عنها.

دخلا خلفها إلى غرفة خفيضة السقف حيث تستعر نار موقد. كانت تشبه غرفة طعام ريفية وبورجوازية. فيها طاولة مستديرة، صوان مليء بالآنية المزخرفة والتحف. على الكنبات وضعت أرائك من الساتان البرتقالي تحمل رقعاً من المخمل الأسود.

ـ اجلبي لنا على الفور لو سمحت زجاجة من الخمر الأحمر، قال جيربير. ساعد فرنسواز على إنزال الحقيبة عن ظهرها ووضع حقيبته هو أرضاً.

ـ إنها جلسة ملوك هنا، قال مسروراً.

أجل، الغرفة مريحة جداً.

اقتربت فرنسواز من النار. تعلم جيداً ما الذي ينقص هذه السهرة الدافئة. لو أنها تستطيع فقط أن تلامس يد جيربير وتبتسم له بحنو، عندها لكانت ألسنة النار، رائحة العشاء، القطط وظلال البهلوانات المخملية السوداء غمرت قلبها بغبطة عارمة. لكن كل هذا ظل مبعثراً من حولها من دون أن يؤثر في نفسها. بدا لها وجودها هناك عبثياً.

عادت العجوز تحمل زجاجة من الخمر الكثيف.

ـ هل يمكننا أن نجد لديك مستودعاً نمضي الليل فيه؟ سأل جيربير.

كانت المرأة تضع الصحون والأكواب على الغطاء المشمّع. رفعت رأسها.

ـ هل ستنامان في مستودع؟ سألت وكأنها أصيبت بصدمة.

فكرت لبرهة لديّ غرفة، لكن إبني الذي يعمل كساعي بريد عاد للتو إلى القرية.

ـ سنكون على ما يرام في القشّ إن لم يزعجك ذلك، قالت فرنسواز. لدينا أغطية. أشارت إلى الحقيبتين. لكن الطقس بارد جداً ولا يمكننا أن ننصب الخيمة.

ـ لا يزعجني الأمر، أجابت المرأة. خرجت من الغرفة وعادت حاملة طبق حساء يتصاعد منه الدخان. هذا سيدفئكما قليلاً، قالت بصوت ودود.

ملأ جيربير الصحنين وجلست فرنسواز قبالته.

ـ بدأت تأنسنا، قال جيربير بعد أن تركتهما المرأة وحيدين. تسير الأمور بشكل جيد.

ـ بشكل جيد، ردّدت فرنسواز بحماس.

اختلست النظر إلى جيربير. الغبطة التي كانت تشعّ من وجهه بدت أقرب إلى الحنان. هل إنه حقاً لا يمكن إدراكه؟ أم أنها لم تجرؤ مرة على مدّ يدها إليه؟ من الذي يمنعها من ذلك؟ لم يكن بيار، ولا كزافيير. فهي لم تعد ملزمة بأي شيء حيال كزافيير التي تستعد من جهتها أيضاً لخيانة جيربير. أنهما وحيدان في أعلى ممرّ جبلي تعصف به الرياح من كل اتجاه، منفصلان عن باقي العالم. قصّتهما لا تعني سواهما.

ـ سأقوم بشيء ما ستشمئزين منه، قال جيربير متوعداً.

ـ ماذا؟

ـ سأسكب هذا النبيذ في حسائي، قال ممتثلاً.

ـ لا شك أن النتيجة مقزّزة.

شرب جيربير ملعقة من السائل الدامي.

ـ إنه شهيّ. جرّبي قليلاً.

ـ لن أفعل مهما كان.

شربت جرعة من الخمر. كانت راحتا يديه دبقتين. لطالما تغاضت عن أحلامها ورغباتها، لكنها باتت تكره هذه الحكمة التي تملي عليها التواري والإمحاء. لماذا لا تصمّم على أن تريد ما تشتهيه؟

ـ يبدو المشهد رائعاً من الممرّ الجبلي، قالت. أظن أننا سنمضي نهاراً رائعاً غداً.

نظر إليها جيربير غاضباً.

ـ هل ستجعليننا ننهض عند الفجر؟

ـ لا تتذمّر. فالتقني الماهر تجده عند القمم منذ الخامسة صباحاً.

ـ إنه مجنون. أمّا أنا، فلا أساوي شيئاً قبل الثامنة.

ـ أعلم. ابتسمت. أتعرف، إن قمت برحلة إلى اليونان، سيتوجب عليك الانطلاق قبل الفجر.

ـ حسناً، لكنه يحق لنا عنده بقيلولة. فكّر مطرقاً. كم أودّ ألاّ يخفق مشروع الجولة هذا.

ـ إن استمر التوتّر، أخشى أن يفشل.

تناول جيربير بعزم قطعة ضخمة من الخبز.

ـ على كل حال، سأجد حيلة ما. لن أبقى السنة المقبلة في فرنسا. إحتدم وجهه. يقال إنه في جزيرة موريشيوس ثمة أموال طائلة يمكن أن يجنيها الواحد.

ـ ولماذا جزيرة موريشيوس؟

ـ رامبلان هو الذي قال لي هذا. تجدين هناك أثرياء بالملايين قد يدفعون مبالغ باهظة من أجل بعض الترفيه.

فتح الباب ودخلت العجوز حاملة عجّة ضخمة محشوة بالبطاطا.

ـ هذا ترف حقيقي، قالت فرنسواز. سكبت بعض العجّة في صحنها ومدّت الطبق لجيربير. انظر، تركت لك القسم الأكبر.

ـ لي وحدي؟

ـ لك وحدك.

ـ إنك حقاً لائقة.

رمقته بنظرة سريعة.

ـ ألست لائقة معك على الدوام؟ حمل صوتها قدراً من الجرأة جعلها ترتبك.

ـ بلى، عليّ أن أقرّ بالحقيقة، أجاب جيربير بعفوية.

كانت فرنسواز تضغط بين أصابعها كرة صغيرة من الخبز. يجدر بها التشبّث بإصرار بهذا القرار الذي وصلت إليه فجأة. لم تكن تعلم كيف، لكن شيئاً ما يجب أن يحصل قبل حلول الغد.

ـ تود الرحيل لفترة طويلة؟

ـ لسنة أو سنتين.

ـ ستكون نقمة كزافيير عليك فظيعة، قالت فرنسواز مراوغة، دحرجت الكرة الصغيرة الرمادية على الطاولة وقالت بوجه بشوش: ألا يزعجك الإفتراق عنها؟

ـ بل على العكس، قال بحماس.

خفضت فرنسواز رأسها. أحست في داخلها بانفجار نور عنيف حتى خشيت أن يراه جيربير من الخارج.

ـ لماذا؟ هل إنها تزعجك إلى هذا الحد؟ كنت أظن أنك متمسك بها قليلاً.

غمرها السرور لفكرة أن جيربير لن يتألم كثيراً إن قطعت كزافيير علاقتها به لدى عودته من هذه الرحلة. لكن لم يكن هذا سبب هذا الفرح الوقح الذي انفجر فيها.

ـ لا تزعجني فكرة أن كل هذا سينتهي قريباً. لكنني أتساءل من حين لآخر إن لم تكن الارتباطات تبدأ هكذا. سأجد الأمر بغيضاً.

ـ حتى لو كنت تحبّ الفتاة؟

مدّت له كأسها فملأه حتى الشفة. إنتابها القلق الآن. ها هو أمامها، وحيداً، بلا روابط، حرّاً طليقاً. شبابه والاحترام الذي يكنّه لها ولبيار لا يسمحان لها بتوقع أي حركة منه. إن أرادت فرنسواز أن يحصل شيء ما بينهما، لايمكنها الاعتماد إلاّ على نفسها.

ـ لا أظن أنني سأحبّ امرأة في حياتي.

ـ لماذا؟ كانت متوترة للغاية حتى أن يدها كانت ترتجف. إنحنت وشربت جرعة من غير أن تمسّ الكأس بأصابعها.

ـ لا أعلم. تردّد جيربير. لا يمكن القيام بأي شيء مع الفتيات. لا التنزّه ولا السكر ولا شيء آخر. لا يفهمن المزاح، ثم على الواحد أن يتكلّف كثيراً معهنّ، ويشعر على الدوام بالذنب. أضاف بقناعة تامة: أحبّ أن أكون كما أنا مع الناس، من دون تصنّع أو افتعال.

ـ لا تكبّد نفسك هذا العناء من أجلي، قالت فرنسواز.

ضحك جيربير.

ـ آه، أنت! إنك كرفيق، قال بودّ.

ـ صحيح، لم تنظر إليّ مرة كامرأة.

أحست بابتسامة غريبة ترتسم على شفتيها. نظر إليها جيربير مستغرباً. أشاحت بوجهها واجترعت كأسها. كانت مبادرتها هذه خرقاء. تخجل من اللجوء مع جيربير إلى دلال أخرق. كان يجدر بها مواصلة الحديث بصراحة: هل سيدهشك الأمر كثيراً إن عرضت عليك أن تضاجعني؟ أو شيء من هذا القبيل. لكن شفتيها امتنعتا عن التلفّظ بهذه الكلمات. أشارت إلى الطبق الفارغ.

ـ هل تظن أنها ستقدّم لنا المزيد من الطعام؟ لم يكن صوتها كما أرادت أن يكون.

ـ لا أعتقد.

طال الصمت، وانسلّ شيء ما ملتبس بينهما.

ـ يمكننا على كل حال أن نطلب المزيد من الخمر، قالت.

نظر إليها جيربير من جديد بقلق.

ـ نصفيّة، قال. ابتسمت. إنه يحبّ المواقف البسيطة، هل أدرك لماذا هي بحاجة للاستعانة بالخمر؟

ـ من فضلك سيدتي، نادى جيربير.

دخلت العجوز ووضعت على الطاولة قطعة لحم مطهي محاطة بالخضار.

ـ ماذا تودان بعد ذلك؟ جبنة؟ مربّى؟

- أعتقد أننا لن نشعر بالجوع بعدها، قال جيربير. اجلبي لنا المزيد من الخمر، أرجوك.

- لماذا ادّعت تلك العجوز المجنونة في البدء أنه ليس لديها طعام؟

سألت فرنسواز.

- غالباً ما تجدين الناس هنا يتصرّفون بهذا الشكل. أظن أنهم لا يهتمون كثيراً بكسب عشرين فرنكاً، ويخشون أن نكون مزعجين.

- أو ما شابه.

عادت المرأة حاملة زجاجة. قرّرت فرنسواز بعد التفكير ألاّ تشرب سوى كأس أو كأسين. لا تريد أن ينسب جيربير تصرّفها إلى خلل عابر.

- باختصار، قالت، مأخذك على الحب هو أنه لا يبعث الارتياح في النفس. لكن ألا تظن أن الحياة تمضي هزيلة إن امتنعنا عن إقامة أي رابط عميق مع الآخرين؟

لكن ثمة روابط عميقة غير الحب، أجاب جيربير بحدّة. أنا أضع الصداقة في منزلة أرقى من الحب. يمكنني تماماً الاستمتاع بحياة لا تحوي سوى صداقات.

كان ينظر إلى فرنسواز بإصرار. هل يريد هو أيضاً أن يقول لها شيئاً؟ إن صداقة حقيقية تربطه بها وأنها عزيزة عليه؟ من النادر أن يتكلم بهذا القدر عن نفسه. وكأنه هذه الليلة يكشف عن ذاته مسروراً بوجودها.

- على أي حال، لن أتمكن أبداً من أن أحبّ شخصاً ما لا أكنّ له في بادىء الأمر الصداقة، قالت فرنسواز.

تكلّمت في صيغة الحاضر لكن بلهجة غير آبهة وإيجابية. ودت

لو تضيف أمراً ما، لكنها لم تتمكن من التلفّظ بأي من الجمل التي تبادرت إلى ذهنها. قالت في النهاية: أجد الصداقة وحدها جافة.

ـ ليس هذا رأيي، قال جيربير.

بدا عليه بعض الاستياء. كان يُفكّر في بيار، يفكّر أنه لا يمكن أن يمثل أي شخص ما يمثله بيار بالنسبة له.

ـ نعم، لا شك أنك على حق، قالت فرنسواز.

وضعت الشوكة، نهضت وجلست قرب النار. نهض جيربير بدوره، حمل من قرب الموقد حطبة ضخمة دائرية ووضعها بمهارة فوق القضبان الحديدية.

ـ والآن ستدخّن غليونك، قالت. أضافت بحنان: أحبّ أن أراك تدخّن الغليون.

قرّبت يدها من ألسنة النار. شعرت بالارتياح يغمرها، ثمة صداقة معلنة هذا المساء بينها وبين جيربير، فلم تطلب المزيد؟ كان يمجّ غليونه بحذر، منحني الرأس قليلاً، والنار تحيط وجهه بهالة ذهبية. كسرت عوداً من الخشب اليابس ورمتها في النار. لا يمكن لمطلق أمر أن يمحو تلك الرغبة التي انتابتها، الرغبة في إمساك هذا الرأس بين يديها.

ـ ماذا نفعل غداً؟ سأل جيربير.

ـ سنتسلق حتى منطقة جيربييه دو جون، ثم إلى ميزينك. نهضت ونقبت في حقيبتها. لست أدري بالضبط أي طريق علينا أن نسلك للعودة. فلشت الخريطة على الأرض، فتحت الدليل وتمدّدت على الأرض.

ـ أتريد أن ترى؟

ـ لا، أسلّمك أمري.

تفحّصت شاردة شبكة الطرقات الصغيرة المحاطة بالأخضر والمنقّطة ببقع زرقاء تشير إلى المشارف. ماذا يحمل الغد؟ لم يكن الجواب في الخريطة. لا تريد أن تنتهي هذه الرحلة في الأسف الذي سيتحوّل إلى ندم وكره لنفسها. ستتكلّم. لكن هل تعرف فقط إن كان جيربير سيستمتع بتقبيلها؟ لم تراوده الفكرة على الأرجح. لن تحتمل أن يخضع لرغبتها بدافع ما تريد. تلك الفكرة كانت تقزّزها. نظرت إلى جيربير واطمأنّت قليلاً. يكنّ لها الكثير من العطف والتقدير، حتى أنه لا يمكن أن يسخر منها في سرّه. المهمّ أن تفسح له المجال للرفض صراحة. لكن كيف عساها تفعل؟

ارتعدت فرنسواز. كانت المرأة الأصغر سناً واقفة أمامها حاملة مصباحاً ضخماً يتأرجح في يدها.

ـ إن كنتما ترغبان في النوم، قالت، سأقودكما.

ـ نعم، شكراً. أجابت فرنسواز.

حمل جيربير الحقيبتين وخرجوا من المنزل. كان الليل حالكاً والريح تهب مثل إعصار. أمامهما كانت دائرة ضوء مرتجف تنير الدرب الموحل.

ـ لست أدري إن كان المكان مريحاً لكما، قالت المرأة. ثمة زجاج نافذة مكسور. ثم إن الأبقار تثير بعض الضجيج في الحظيرة الملاصقة.

ـ آه! لن يزعجنا الأمر، أكّدت فرنسواز.

توقفت المرأة ودفعت لوحاً خشبياً ثقيلاً. تنشقت فرنسواز بمتعة

رائحة العلف. كان مستودعاً شاسعاً، ميّزت فيه بين رزم العلف حطباً، صناديق وعجلة.

ـ ليس لديكما عيدان ثقاب، أليس كذلك؟ تأكّدت المرأة.

ـ لا، معي مصباح كهربائي، قال جيربير.

ـ إذاً عمتما مساءً.

أغلق جيربير الباب وأقفله بالمفتاح.

ـ أين سنتمدّد؟ قالت فرنسواز.

تفحّص جيربير الأرضية والجدران على ضوء مصباحه الشاحب.

ـ في الزاوية في القعر، ألا تظنين؟ فالقشّ هناك كثيف وسنكون بعيدين عن الباب.

تقدّما بحذر. جفّ حلق فرنسواز تماماً. عليها أن تقوم بخطوة الآن وإلاّ فوّتت الفرصة عليها للأبد. لديها حوالي عشر دقائق لأن جيربير يغرق على الدوام في نوم عميق. لم تعلم إطلاقاً من أي زاوية تثير المسألة.

ـ هل تسمعين صوت الريح؟ قال جيربير. النوم هنا أفضل منه في الخيمة. كانت جدران المستودع تهتزّ تحت وطأة العاصفة. رفست بقرة في الحظيرة المجاورة الحاجب ونفضت أغلالها.

ـ سوف ترين كيف أعدّ لنا مكاناً رائعاً للنوم.

وضع المصباح الكهربائي على لوح خشبي حيث صفّ بعناية غليونه، ساعته ومحفظته. أخرجت فرنسواز من حقيبتها كيسها للنوم وبيجامة قطنية. ابتعدت بضع خطوات تعصر معدتها. لا وقت لديها لابتكار مناورة ما، لكنها متشبثة بفكرتها. إن انطفأ

المصباح الكهربائي قبل أن تتكلّم ستنادي «جيربير!» وتقول دفعة واحدة «ألم يخطر لك يوماً أنه يمكننا أن نتطارح الغرام؟». ما يحصل بعدها لن يهمّ. رغبتها الوحيدة هي أن تتخلص من هذا الهوس.

ـ كم أنت دؤوب، قالت وهي تعود إلى النور.

كان جيربير بسط كيسي النوم جنباً إلى جنب وحشا كنزتين من العلف ليتوسّداها. إبتعد وانسلّت فرنسواز داخل كيس النوم حتى خصرها وقلبها يختلج. رغبت لوهلة في التخلّي عن كل شيء واللجوء إلى النوم.

ـ أجل، أحببت هذا العشاء وهذه النار التي جلسنا أمامها نتحدّث كعجوزين.

ـ ولماذا كعجوزين؟ سأل جيربير.

ـ كنا نتكلّم عن الحبّ والصداقة مثل كهلين تخطّاهما الزمن.

حمل صوتها سخرية حاقدة لاحظها جيربير. نظر مرتبكاً.

ـ هل أعددت خططاً جيدة للغد؟ سأل بعد برهة صمت.

ـ أجل، لم يكن الأمر معقّداً.

تخلّت عن المسألة. أحسّت بسرور ما إن الجو بدأ يتثاقل. قام جيربير بمجهود جديد.

ـ تلك البحيرة التي تكلّمت عنها، سيكون الأمر ممتعاً إن تمكنا من الغطس فيها.

ـ سنتمكّن بالتأكيد.

ـ تقوقعت من جديد في صمت متشبّث. لا ينقطع الحديث عادة بينهما. سوف يحدس جيربير شيئاً ما في نهاية الأمر.

ـ انظري ماذا يمكنني أن أفعل، قال فجأة.

رفع يديه فوق رأسه وحرّك أصابعه. ألقى المصباح على الجدار المواجه ظلّ حيوان مبهم.

ـ كم أنت ماهر! قالت فرنسواز.

ـ يمكنني كذلك أن أقلّد القاضي.

باتت واثقة الآن من أنه يحاول المحافظة على رباطة جأشه. أحسّت بغصّة في حلقها وهي تتأمله يشكّل باجتهاد ظلال أرنب، جمل أو زرافة حين استنفد مخيّلته، خفض يديه.

ـ الظلال الصينية جميلة، بادرها بحماس. تكاد تكون بجمال الدمى المتحرّكة. ألم تشاهدي يوماً الظلال التي رسمها بيغراميان؟ لكنه كان ينقصنا السيناريو. سنحاول العمل مجدّداً في هذا المجال السنة المقبلة.

توقف فجأة عن الكلام. لم يعد بوسعه التظاهر بأنه لم يلحظ أن فرنسواز لا تستمع له. فهي استلقت على بطنها وراحت تحدّق في المصباح الكهربائي الذي بدأ نوره يضعف.

ـ فرغت البطارية، قال. سنطفىء.

لم تردّ فرنسواز. كانت تتصبب عرقاً رغم الريح الباردة المنسلّة من الزجاج المكسور. خيّل لها أنها متوقفة فوق هوة سحيقة، لا تستطيع التقدّم ولا التراجع، معدمة الفكر والرغبة. فجأة بدا لها الوضع بكل بساطة عبثياً. ابتسمت بعصبية.

ـ لماذا تبتسمين؟ سأل جيربير.

ـ لا شيء.

أخذت شفتاها ترتجفان. تمنّت من كل روحها هذا السؤال، وها أنها الآن خائفة.

ـ خطر لك شيء ما؟

ـ لا، أجابت، لا شيء.

إغرورقت عيناها فجأة بالدموع. لم تعد تحتمل هذا التوتّر. قامت بمبادرات كثيرة، وجيربير هو الذي سيرغمها على الكلام. ربما أفسد ذلك نهائياً تلك الصداقة اللذيذة القائمة بينهما.

ـ على كل حال، أعلم جيداً الفكرة التي خطرت لك، قال جيربير بنبرة تحدّ.

ـ وما هي؟

أومأ جيربير مترفّعاً.

ـ لن أقول.

ـ قل لي، وأنا سأقول لك إن كان الأمر صحيحاً.

تفرّس كل منهما في وجه الآخر لبرهة مثل عدوين. هدأت فرنسواز من روعها وخرجت الكلمات أخيراً من فمها.

ـ كنت أضحك وأنا أتخيّل كيف سيبدو وجهك إن عرضت عليك أن تضاجعني، وأنت تمقت التعقيدات.

ـ ظننتك فكّرت أنني أرغب في تقبيلك من غير أن أجرؤ على ذلك.

ـ لم يخطر لي مرة أنك أنت نفسك ترغب في تقبيلي، قالت فرنسواز متعجرفة. صمت كلاهما. كان صدغا فرنسواز يطنّان. حسم الأمر الآن، تكلّمت. إذاً، أجبني: كيف سيبدو وجهك؟

تقوقع جيربير على نفسه، كان يراقب فرنسواز من غير أن يحوّل نظره عنها وبدا محترساً.

ـ لا تنقصني الرغبة في ذلك، قال، لكن الأمر سيرهبني كثيراً.

استعادت فرنسواز أنفاسها وتمكّنت من الابتسام له بعفوية وطيبة.

ـ أجبت بحذاقة. قالت. اشتدّ صوتها وتماسك. إنك على حق، سيكون الأمر سطحياً ومزعجاً.

مدّت يدها نحو المصباح. عليها أن تطفىء الضوء بأسرع ما يمكنها لتلجأ إلى الظلمة. ستسترسل في البكاء لكنها على الأقل ستتخلّص من هذا الهوس الذي يلازمها. كلّ ما تخشاه هو أن يكون الاستيقاظ في الصباح مرتبكاً.

ـ عمت مساءً، قالت.

كان جيربير لا يزال يحدّق بها بعناد بعينين شرستين وحائرتين.

ـ كنت واثقاً أنك قبل الانطلاق في الرحلة راهنت مع لابروس على أنني سأحاول أن أقبّلك.

خفضت فرنسواز يدها.

ـ لست على هذا القدر من الاعتداء، قالت. أعرف جيداً أنك تعتبرينني رجلاً.

ـ هذا ليس صحيحاً. سقط اندفاعه فجأة وخيّم على وجهه ظلّ من الحذر. سوف أكره أن أكون في حياتك مثل كاتزيني وأمثالها في حياة لابروس.

تردّدت فرنسواز.

ـ تعني أن تقيم معي علاقة أستخفّ بها؟

ـ أجل.

ـ لكنني لا أستخف بشيء على الإطلاق.

نظر إليها جيربير متردّداً.

ـ ظننتك لاحظت المسألة ووجدتها طريفة، قال.

ـ لاحظت ماذا؟

ـ إنني أرغب في تقبيلك، الليلة الماضية في المستودع وأمس على ضفة الساقية. إزداد تشنّجه وقال على شفير الغضب: قرّرت أن أقبّلك على رصيف المحطّة لدى عودتنا إلى باريس. فكّرت أنك ستسخرين منّي.

ـ أنا! تعجّبت فرنسواز. كان الفرح هو الذي يلهب وجنتيها.

ـ وإلا لكنت رغبت في تقبيلك مرات كثيرة. أودّ أن أقبّلك.

بقي قابعاً بلا حراك في كيس النوم، وكأن خطراً ما يهدّده.

ـ افعل، أيها الأحمق الصغير، قالت وهي تقرّب فمها.

بعد لحظات قليلة كانت فرنسواز تلامس باحتراس مندهش ذلك الجسد الشاب الأملس والقاسي الذي ظنت لوقت طويل إنها لن تتمكن من الوصول إليه. لم تكن تحلم هذه المرة إنها تعانقه حقاً في يقظته، ملتصقاً بها. كان جيربير يلامس ظهرها، عنقها، وضع يده على رأسها.

ـ يعجبني شكل رأسك، همس. أضافت بصوت لم تسمعه بعد: حين أقبلك ينتابني إحساس غريب.

كان الضوء إنطفأ والريح لا تزال تعصف بعنف فيتسلّل تيار بارد من النافذة المحطّمة. وضعت فرنسواز وجنتها على كتف

جيربير ومكثت متهالكة عليه مسترخية. لم تعد تشعر بأي إحراج في أن تكلمه.

ـ تعرف، قالت، ليست الرغبة وحدها التي جعلتني أرتمي بين ذراعيك، بل الحنان.

ـ صحيح؟ سأل جيربير مسروراً.

ـ بالطبع. ألم تشعر مرة بحناني؟

تشنّجت أصابع جيربير على كتفها.

ـ هذا يسرّني كثيراً؟ يسرّني حقاً.

ـ ألم يكن الأمر واضحاً؟

ـ لا، أبداً. كنت جافة تاماً. حتى أنه كان يصعب عليّ أن أراك تنظرين نظرة خاصة إلى لابروس أو كزافيير. كنت أقول لنفسي إنني لن أراك مرة تنظرين إليّ بهذه الطريقة.

ـ أنت الذي كنت تكلمني بقسوة، قالت.

إلتصق بها جيربير.

ـ لكنني لطالما أحببتك. أحببتك كثيراً.

ـ كنت تخفي مشاعرك بشكل ممتاز. قبّلت الجفنين الطويلي الرموش. أول مرة أحسست بالرغبة في إمساك هذا الرأس بين يدي كانت في مكتبي، عشية عودة بيار. هل تذكر؟ كنت نائماً على كتفي، لم تكن تكترث لي، لكنني كنت مسرورة لوجودك هناك.

ـ آه! لم أكن نائماً تماماً. أنا أيضاً كنت أحب أن أشعر بك ملتصقة بي، لكنني ظننت أنك تعيرينني كتفك كما يمكن أن تعيرينني وسادة، تابع مذهولاً.

ـ كنت مخطئاً. مررت يدها في الشعر الأسود الناعم. تعرف،

ذلك الحلم الذي رويته لك اليوم الفائت، في المستودع، حين قلت لي: «بل هو صحيح، ليس حلماً، من السخيف ألاّ يكون صحيحاً»... كذبت عليك، لم أخش أن أستيقظ لأننا كنا نتنزّه في نيويورك بل لأنني كنت بين ذراعيك، كما في هذه اللحظة.

ـ أيعقل هذا؟ خفض صوته. خفت أن تشتبهي في الصباح بأنني لم أكن نائماً تماماً. تظاهرت فقط بالنوم لأتمكن من ضمّك إليّ. لم يكن تصرّفي نزيهاً، لكنني كنت أرغب بذلك كثيراً!

ـ لم أكن لأشك بالأمر. شرعت فرنسواز تضحك. كان يمكن أن نستمرّ في هذه اللعبة لوقت طويل. أحسست حين ارتميت بين ذراعيك بهذه الطريقة الفظة.

أنت؟ تعجّب جيربير. لم تفعلي إطلاقاً. لم ترضِ أن تقولي شيئاً.

ـ أتدّعي أننا إن وصلنا إلى هنا فبفضلك أنت؟

ـ قمت بما عليّ مثلك. تركت النور مضاءً وأكملت الحديث بيننا لأمنعك من النوم.

ـ كم أنت جريء! لو تعرف كيف نظرت إليّ خلال العشاء حين قمت بمناورة خرقاء للتقرّب منك.

ـ ظننت أن الخمر بدأ يؤثر فيك.

ضغطت فرنسواز وجنتها على وجنته.

ـ كم أنا سعيدة لأنني لم أفقد الأمل، قالت.

ـ وأنا أيضاً سعيد لذلك.

وضع شفتيه الدافئتين على فمها وأحسّت بجسده يلتصق بها.

اندفعت سيارة الأجرة بين أشجار الكستناء التي ترصف جادة

أراغو. فوق البيوت العالية امتدّت السماء زرقاء صافية مثلما فوق الجبال.

إبتسم جيربير بخفر محيطاً كتفي فرنسواز بذارعه. إتكأت إليه.

ـ أما زلت مسروراً؟

ـ أجل، إنني مسرور. نظر إليها بثقة. ما يسرّني هو أنك تبدين مولعة بي حقاً، حتى أنه لا يهمني إن لم أقابلك لفترة طويلة. قد لا يبدو كلامي لطيفاً، لكنه كذلك.

ـ أفهم.

غمرتها موجة انفعال رقيقة. تذكرت الفطور في المنزل بعد ليلتهما الأولى. كانا ينظران إلى بعضهما مبتسمين، وهما يشعران بدهشة مغتبطة وبعض الاضطراب. سارا على الدرب وكل منهما يمسك أصبع الآخر مثل مخطوبين سويسريين. حين وصلا إلى مرجة عند أسفل جيربييه دوجون، قطف جيربير زهرة صغيرة زرقاء قاتمة وقدّمها لفرنسواز.

ـ هذه حماقة، قالت ينبغي ألاّ أفكر بهذه الطريقة، لكنني أكره مجرّد التفكير بأن امرأة أخرى ستنام الليلة بقربك.

ـ أنا أيضاً أكره هذه الفكرة، قال جيربير بصوت منخفض. تابع يائساً: أودّ لو أنك وحدك تحبينني.

ـ أحبك كثيراً.

ـ لم أحبّ مرة امرأة كما أحبّك أنت. قال جيربير. لم أشعر بحبّ يشبه هذا ولو بقدر ضئيل.

إغرورقت عينا فرنسواز. لن يرسخ جيربير في أي مكان، لن

يكون يوماً ملكاً لأحد. لكنه يقدّم لها من دون تحفّظ كل ما يسعه أن يهب من نفسه.

ـ عزيزي جيربير، حبيبي الصغير، قالت وهي تقبّله.

توقفت سيارة الأجرة. مكثت لحظة قبالته زائغة العينين، عاجزة عن إفلات أصابعه. غمرها قلق جسديّ وكأنها مضطرة للقفز في مياه عميقة.

ـ إلى اللقاء، قالت فجأة أراك غداً.

ـ إلى اللقاء.

دلفت من باب المسرح الصغير.

ـ هل السيد لابروس في مقصورته؟

ـ أجل، بالطبع. لم يدقّ الجرس بعد، قالت البوابة.

ـ اجلبي لنا قهوتين بالحليب أرجوك، قالت فرنسواز، مع بعض شرائح التوست.

عبرت الفناء. كان قلبها يختلج بأمل مذهول. الرسالة تعود إلى ثلاثة أيام. قد يكون بيار بدّل رأيه. لكن من أطباعه أن ينفصل كلياً عن شيء ما حين يتخلّى عنه. قرعت الباب.

ـ أدخل، هتف صوت نعس.

أشعلت الضوء. فتح بيار عينين حمراوين. كان ملتفاً بأغطيته وبدا مغتبطاً وبليداً مثل يسروع ضخم.

ـ يتهيأ لي أنك كنت نائماً، قالت ممازحة.

جلست على حافة السرير وقبّلته.

ـ كم أنك دافىء! تجعلني أرغب في النوم.

كانت نامت جيداً، ممدّدة على مقعد، لكن تلك الملاءات البيضاء بدت مريحة.

ـ كم أنني سعيد لوجودك هنا! قال بيار. فرك عينيه. إنتظري قليلاً، سأنهض.

اقتربت من النافذة وأزاحت الستائر بينما ارتدى بيار مبذلاً رائعاً من المخمل الأحمر خيط من بدلة مسرح.

ـ تبدين مشرقة.

ـ ارتخت جيداً. ابتسمت هل وصلتك رسالتي؟

ـ أجل. ابتسم بدوره. أتعلمين، لم أفاجأ كثيراً.

ـ ليست ممارسة الحب معه التي أدهشتني، قالت فرنسواز، بل فوجئت بولعه بي.

ـ وأنت؟ سأل بيار بحنو.

ـ وأنا أيضاً. أحبه كثيراً. ثم أن ما يفتنني هو أن علاقتنا اكتسبت عمقاً كبيراً من غير أن تفقد من خفّتها.

ـ نعم، هذا جيد. هذا من حظه بقدر ما هو من حظك.

كان يبتسم لكنها لمست في صوته بعض التحفظ.

ـ ألا يزعجك الأمر؟ سألت فرنسواز.

ـ لا، طبعاً.

دقّ أحدهم على الباب.

ـ إنه الفطور، قالت البوابة.

وضعت الصينية على طاولة. تناولت فرنسواز شريحة من الخبز،

كانت محمّصة من الخارج وطرية من اللبّ من الداخل. دهنتها بالزبدة وملأت الكوبين بالقهوة بالحليب.

ـ قهوة بالحليب حقيقية، قالت، شرائح توست حقيقية. هذا رائع. لو رأيت التفل الأسود الذي كان جيربير يعدّه لنا.

ـ أعوذ بالله! قال بيار. بدا مغتماً.

ـ ما الذي يجول في بالك؟ سألت فرنسواز قلقة.

ـ آه، لا شيء. تردّد: إن كنت حائراً قليلاً، فبسبب كزافيير. ما يجري هنا سيكون ضربة قاسية لها.

إمتقعت فرنسواز فجأة.

ـ كزافيير! قالت. لكنني لن أغفر لنفسي إن قمت بأي تضحية من أجلها.

ـ آه! لا تظني أنني أسمح لنفسي بتوجيه أي لوم إليك! قال بيار. لكن ما يزعجني قليلاً هو أن أقنعها للتو ببناء علاقة متينة وحقيقية مع جيربير.

ـ بالطبع، ليست هذه بالصدفة السعيدة، قالت فرنسواز ضاحكة. التفتت إليه: ما الذي توصلت إليه مع كزافيير؟ كيف جرت الأمور بينكما؟

ـ آه! المسألة بسيطة. تردّد للحظة: حين غادرتك، أتذكرين، كنت أريد إرغامها على قطع علاقتها بجيربير. لكن حين تحدّثنا عنه، شعرت على الفور بمقاومة تفوق تصوّري. إنها تحبّه كثيراً مهما قالت. جعلني هذا أتردّد. لو أصرّيت لكنت انتصرت على ما أظن. لكنني تساءلت إن كنت أرغب بذلك حقاً.

ـ أجل، قالت فرنسواز.

لم تكن تجرؤ بعد على تصديق وعود هذا الصوت المتعقّل وهذا الوجه المليء بالثقة.

ـ اضطربت كثيراً في أول مرة ألتقيها من جديد. رفع بيار كتفيه: ثم حين وجدتها رهن إشارتي من المساء إلى الصباح، نادمة، مفعمة بالارادة الطيبة، عاشقة تقريباً، فقدت فجأة أي أهمية في نظري.

ـ لا يمكن القول أن أطباعك جيدة، علّقت فرنسواز بمرح.

ـ لا. أتفهمين، لو أنها ارتمت بين ذراعي بلا تحفظ، لكان هذا أثر في نفسي بالتأكيد. ولكانت ربما استهوتني المسألة من جديد لو لزمت موقعها الدفاعي. لكنني رأيتها متعطشة لاسترجاعي وحريصة على عدم تقديم أي تضحية من أجلي. لم يوح لي الأمر سوى بشفقة ممزوجة ببعض الاشمئزاز.

ـ رغبت رغم ذلك لوهلة في أن أصرّ على الاستمرار في العلاقة، لكنني شعرت بأنني منفصل عنها حتى أن الأمر بدا لي كالخداع: خداع لها، لك ولجيربير. صمت لبرهة: ثم عندما تنتهي قصة ما، تكون انتهت، ليس ثمة ما يمكن القيام به حيال ذلك. مضاجعة جيربير لها، الشجار الذي دار بيننا، الأفكار التي راودتني عنها وعّني، كل هذا لايمكن إصلاحه. ثم في صباح اليوم الأول في الدوم، حين انتابتها من جديد نوبة غيرة، تقزّزت لفكرة أن كل شيء سيعود كما كان.

ثلقت فرنسواز بلا استياء الفرحة الشديدة التي ملأت قلبها. حاولت في الماضي الحفاظ على نقاوة روحها، لكن الأمر كلّفها ثمناً باهظاً.

ـ لكنك تواصل إلتقاءها رغم ذلك؟ سألت.

ـ طبعاً، واتفقنا حتى على أن ثمة صداقة فريدة بيننا.

ـ آه! كنت حاذقاً. تظاهرت بالتنحّي على مضض، لكنني في الوقت ذاته كنت أقنعها بما أنها لا تقوى على التضحية بجيربير بالاستسلام كلياً لهذا الحب. نظر إلى فرنسواز. لم أعد أتمنى لها الشرّ إطلاقاً، تعلمين. كما قلت لي مرة، لا يجدر بي أن ألعب دور مقدّم الأخطاء. إن كانت أساءت التصرّف، فأنا أيضاً فعلت.

ـ كلنا فعلنا، قالت فرنسواز.

ـ أنا وأنت خرجنا من هذه التجربة سالمين. أودّ أن تنجو هي أيضاً. راح يعضّ أحد أظافره مطرقاً. بلبلت خططي قليلاً.

ـ هذا من سوء حظّك، أجابت غير آبهة. لكن كان يجدر بها الاّ تتظاهر بكل هذا الإزدراء حيال جيربير.

ـ هل كان هذا أوقفك؟ سأل بيار برقّة.

ـ لكان أحبّها أكثر لو أبدت المزيد من الصدق. ولكان هذا بدّل الأمور كثيراً.

ـ في مطلق الأحوال، ما حصل قد حصل. علينا فقط توخي الحذر حتى لا تساورها أي شكوك. أتعين الأمر؟ لن يبقى لها سوى أن تلقي بنفسها في النهر.

ـ لن تشكّ في الأمر، أكّدت فرنسواز.

لم تكن لديها أي رغبة في أن تدفع كزافيير إلى اليأس. في وسعهما منحها حصّة يومية من الأكاذيب المطمئنة. لم تعد كزافيير تلك المحتقرة والمخدوعة هي التي ستنتزع من فرنسواز مكانتها في العالم.

نظرت فرنسواز إلى نفسها في المرآة. مع مرور الزمن انكشفت

هشاشة النزوات، التشدّد، الأنانية المتعجرفة، كل تلك القويمة الزائفة، لتنتصر الفضائل القديمة المستهانة.

ـ انتصرت، فكرت فرنسواز فرحة بظفرها.

عادت موجودة وحدها من جديد في قلب مصيرها الخاص، ولا عقبة تعترضها. أما كزافيير القابعة في عالمها الوهمي الفارغ، فلم تعد سوى اختلاجة حيّة بلا جدوى.

الفصل (١٧)

عبرت اليزابيت الفندق المقفر ووصلت إلى الحديقة. كان الإثنان جالسين قرب كهف من الحصى يغلّفها بظّله. كان بيار يكتب وفرنسواز ممدّدة في كرسي طويل. لم يكن أي منهما يتحرّك وكأنهما لوحة حيّة. مكثت اليزابيت مسمرّة في مكانها. حين يريانها سوف يتبدّل وجهاهما. عليها ألاّ تظهر قبل أن تكشف سرّهما. رفع بيار رأسه قال بضع كلمات لفرنسواز وهو يبتسم. ماذا قال؟ لا فائدة في تأمل كنزته القطنية البيضاء وبشرته المسمّرة. ستظلّ حقيقة سعادتهما مختبئة خلف حركاتهما ووجهيهما. ذلك الأسبوع من الحميمية اليومية لم يترك في قلب فرنسواز سوى الخيبة، تماماً مثل لقاءاتهم العابرة في باريس.

ـ هل جهّزت الحقائب؟ سألت.

ـ نعم. وحجزت مقعدين في الباص. لدينا ساعة بعد.

لمست فرنسواز بأصبعها الأوراق المنبسطة أمامه.

ـ ما هذه المخطوطات؟ هل بدأت بكتابة رواية؟

ـ إنها رسالة لكزافيير، أجابت فرنسواز مبتسمة.

ـ هذا جيد، لا شك أنها لا تشعر أنها منسية، علّقت اليزابيت.
لم تكن تدرك كيف أن تدخل جيربير لم يؤثر على تناغم الثلاثي.
هل ستستقدمينها إلى باريس هذه السنة؟

ـ بالطبع، إلا إن كان هناك قصف حقيقي.

نظرت اليزابيت من حولها. تمتدّ الحديقة لتشكل مصطبة مطلّة على مرجة واسعة خضراء ووردية. الحديقة صغيرة جداً حول المسكبات زرعت يد على هواها صدفاً وحصى ضخمة غريبة الشكل. ثمة عصافير مصبّرة مبعثرة في كوّات مبنية بالحجارة وبين الأزهار تتلألأ كرات معدنية، شظايا زجاجية وأشكال من الورق اللمّاع. بدت الحرب نائية. يحتاج الواحد لبذل مجهود حتى لا ينساها.

ـ سيكون قطاركما مزدحماً، قالت.

ـ نعم، الكلّ يهرب، أجاب بيار. نحن آخر النزلاء.

ـ للأسف! قالت فرنسواز. أحببت كثيراً فندقنا الصغير. أمسك بيار يدها.

ـ سنعود. حتى لو أن الحرب اندلعت، حتى لو طالت، ستنتهي في أحد الأيام.

ـ كيف ستنتهي؟ سألت اليزابيت شاردة.

كان المساء يهبط. ها هما ثلاثة مثقفين فرنسيين يتأملون ويتناقشون وسط الهدوء القلق المخيم على قرية فرنسية، إزاء الحرب التي تلوح في الأفق. خلف بساطتها المضلّلة، إتسمت هذه اللحظة بعظمة صفحة من صفحات التاريخ.

ـ آه! حبذا وجبة ما بعد الظهر.

كانت عاملة الفندق تتقدّم حاملة صينية وضعت عليها أكواب من الجعة والعصير، أطباق من المربّى وصحن من البسكويت.

ـ هل تفضلين المربّى أم العسل؟ سألت فرنسواز بحماس.

ـ لا يهمّ، أجابت اليزابيت باستياء.

لكأنهما يتعمّدان تجنّب النقاشات الجدية. مع الوقت تصبح هذه اللباقة مزعجة. نظرت إلى فرنسواز بفستانها الكتّاني وشعرها المسترسل. بدت شابة جداً. تساءلت اليزابيت فجأة إن لم تكن سكينتها المثيرة للإعجاب تقوم على قدر من الخفّة.

ـ ستكون حياتنا غريبة، تابعت.

ـ أخشى خاصة أن نسأم كثيراً، قالت فرنسواز.

ـ بل على العكس، سيكون الأمر مشوقاً.

لم تكن اليزابيت تدري بالضبط ماذا سنفعل. فالميثاق الألماني السوفياتي سدّد لها ضربة قاسية. لكنها واثقة من أنها لن تهدر طاقتها.

شرع بيار في التهام شريحة مطلية بالعسل وابتسم لفرنسواز.

ـ ينتابني إحساس غريب حين أفكر أننا غداً صباحاً نكون في باريس.

ـ أتساءل إن كنا سنجد هناك كثيرين. ممّن عادوا قالت فرنسواز.

ـ على كل حال، سيكون جيربير هناك. انشرح وجه بيار. سنذهب مساء غد إلى السينما بالتأكيد. ثمة أفلام أميركية كثيرة تعرض في هذه الفترة.

باريس على أرصفة مقاهي سان جيرمان دي بري، كانت

النساء بفساتينهن الحقيقة يشربن أكواباً من عصير الليمون المثلّج. من الشانزيليزيه إلى ساحة «إيتوال» تمتد صور فوتوغرافية ضخمة جذابة. قريباً تتبدّد كل هذه العذوبة الخمولة. اتنقبض قلب اليزابيت. لم تحسن الاستمتاع بكل هذا. بيار هو الذي جعلها تمقت الخفّة الطائشة. غير أنه لا يبدي الكثير من التشدّد الصارم حيال نفسه. هذا كان الانطباع الذي بعث فيها الاستياء وطوال هذا الأسبوع. ففي حين كانت هي تحيا مشدودة إليهما كما إلى نموذجين متطلّبين، كانا يستسلمان بطمأنينة لنزواتهما.

ـ عليك أن تسدّد حسابنا، قالت فرنسواز.

ـ سأفعل حالاً. نهض بيار. آخ! صاح تلك الحصى اللعينة. إلتقط صندليه.

ـ لماذا تمشي دائماً حافي القدمين؟ سألت اليزابيت.

ـ يدّعي أن بثوره لم تشفَ بعد، أوضحت فرنسواز.

ـ إنها الحقيقة. جعلتني أمشي مسافات.

ـ قمنا برحلة ممتعة، قالت فرنسواز متنهّدة.

ابتعد بيار. بعد بضعة أيام ينفصلان. لن يعود بيار في لباسه المرقّط سوى جندي مجهول ووحيد. سترى فرنسواز المسرح المقفل وتقابل أصدقاءها المبعثرين. أما كلود، فسيغرق في السأم في ليموجْ، بعيداً عن سوزان. حدّقت اليزابيت في الأفق الأزرق حيث تذوب تماوجات المرح الوردية والخضراء. نور التاريخ المأسوي هذا يجرّد الناس من غموضهم المخيف. كل شيء هادىء. العالم بأسره متوقف وفي غمرة هذا الانتظار الكوني شعرت فرنسواز بسكينة المساء تنفذ إليها، تغسلها من الخوف والرغبة. بدا لها أن هدنة طويلة أتيحت لها أخيراً، فلم يعد عليها القيام بأي شيء.

ـ حسناً، سوّيت الأمور، قال بيار. الحقائب في الباص.

جلس. هو أيضاً بدا أصغر سناً بوجنتيه المسمرّتين في الشمس وكنزته القطنية البيضاء. فجأة غمر قلب اليزابيت إحساس مجهول، منسي. سوف يرحل. قريباً يصبح بعيداً، في عمق منطقة نائية وخطرة. لن تراه لوقت طويل. كيف لم تحسن اغتنام حضوره؟

ـ تناولي قطعة بسكويت، قالت فرنسواز. إنها لذيذة.

ـ شكراً، أجابت اليزابيت لست جائعة.

الألم الذي كان ينتابها لم يكن يشبه الآلام التي اعتادتها. وإن كانت هذه آخر مرة أراه؟ فكّرت. أحسّت بالدم ينحسر في وجهها.

ـ عليك الالتحاق في نانسي؟ سألت.

ـ أجل، ليست المنطقة هناك خطيرة.

ـ لكنك لن تبقى هناك للأبد. لن تقوم بأعمال بطولية على الأقل، أليس كذلك؟

ـ ثقي بي، أجاب بيار ضاحكاً.

نظرت إليه فرنسواز بقلق. قد يموت بيار. شقيقي. لن أدعه يرحل من دون أن أقول له... ماذا يقول له؟ ذلك الرجل الساخر الجالس أمامها لم يكن بحاجة إلى عطفها.

ـ سأرسل لك رزماً جميلة، قالت.

ـ صحيح، سأتلقّى رزماً. هذا رائع.

كان يتبسم بحنان لا يخفي أي أفكار مضمرة. غالباً ما بدا وجهه هكذا خلال هذا الأسبوع. لماذا كانت مرتابة إلى هذا الحد؟ لماذا فقدت إلى الأبد بهجة الصداقة؟ ما الذي كانت تبحث عنه؟

ما الفائدة من هذه الصراعات وهذه الأحقاد؟ كان بيار يتكلّم.

ـ أتعلم، قالت فرنسواز، يجدر بنا الانطلاق.

ـ هيا بنا، أجاب بيار.

نهضا. تبعتهما اليزابيت وفي حلقها غصّة: لا أريد أن يقتلوه، فكّرت يائسة. كانت تسير إلى جانبه من غير أن تجرؤ على إمساك ذراعه. لماذا الحركات والكلمات الصادقة مستحيلة؟ الآن صار اندفاع قلبها العفوي يبدو لها شاذاً. لكانت وهبت حياتها من أجل إنقاذه.

ـ كم أن المكان مكتظّ! قالت فرنسواز.

كان حشد متجمهراً حول الباص الصغير المتوهّج. السائق يقف وحيداً على السطح بين الحقائب والصناديق. مدّ له رجل تسلّق سلّماً عند مؤخر الباص درّاجة. ألصقت فرنسواز أنفها بإحدى النوافذ.

ـ مقعدانا محفوظان، قالت بارتياح.

ـ أخشى أن تضطرا إلى السفر في الممرّ، قالت اليزابيت.

راحوا يدورون حول الباص الصغير. لم يبق سوى بضع دقائق.مجرّد لكمة، إشارة: ليعلم... لن أجرؤ. نظرت اليزابيت إلى بيار يائسة. ألم يكن من الممكن أن يكون كل شيء مختلفاً؟ ألم يكن في وسعها أن تعيش كل هذه السنوات إلى جانبهما بثقة وبهجة بدل أن تحتمي من خطر وهمي؟

ـ في السيارة، صاح السائق.

ـ فات الأوان، فكرت اليزابيت وسط ضياعها. كان يتوجب عليها تحطيم ماضيها وشخصها كاملاً حتى تتمكن من الاندفاع

نحو بيار والارتماء بين ذراعيه. فات الأوان. لم تعد سيّدة اللحظة الحاضرة. حتى وجهها لم يعد يطيعها.

ـ أراك قريباً، قالت فرنسواز.

قبّلت اليزابيت وتوجهت إلى مقعدها.

ـ إلى اللقاء، قال بيار.

صافح أخته بعجلة ونظر إليها مبتسماً. أحسّت [illegible] تغرورقان بالدموع. أمسكته بكتفيه وقبّلته على وجنته.

ـ عليك أن تحترس. قالت.

ـ لا تخافي.

قبّلها بسرعة وصعد في الباص. شاهدت وجهه لبرهة عبر النافذة المفتوحة. إنطلق الباص. لوّح بيده. لوّحت اليزابيت بمنديلها وبعد أن توارى الباص خلف السور استدارت.

ـ من أجل لا شيء، همهمت. كل هذا سدى.

ضغطت المنديل على شفتيها وولّت راكضة نحو الفندق.

كانت فرنسواز تتأمل السقف مشرّعة العينين. إلى جانبها كان بيار نائماً نصف عار. كانت فرنسواز غفت قليلاً، لكن صرخة قوية انبعثت في ليل الشارع فاستيقظت. تخشى الكوابيس كثيراً، حتى أنها لم تغمض عينيها بعد ذلك. لم تكن الستائر مغلقة، فولج نور القمر الغرفة. لا تتألم. لا تفكر بشيء فقط تلك الدهشة إزاء السهولة التي ترافق حلول الإعصار في مجرى حياتها الطبيعي. إنحنت فوق بيار.

ـ أوشكت أن تحل الساعة الثالثة، قالت.

تأوّه بيار وتمطّى. أشعلت الضوء. ثمة حقائب مشرّعة، أكياس

نصف ممتلئة، معلّبات وجوارب مرمية على الأرض وسط فوضى عارمة. حدّقت فرنسواز في الأقحوانات الحمراء المتفتحة على ورق الجدران واجتاحها القلق. غداً تبقى الأقحوانات في مكانها، على القدر ذاته من التشبث الخمول. نصب الديكور الذي ستعيش فيه غياب بيار. حتى ذلك الوقت كان الفراق المرتقب لا يزال تهديداً فارغاً، لكن هذه الغرفة إنما هي المستقبل وقد تحقّق. يسكنها، حاضراً بكليته، وسط عزلته الكئيبة المحتومة.

ـ هل أخذت معك كل ما يلزمك؟ سألت.

ـ نعم، على ما أظن. إرتدى بيار أقدم بدلة له وراح يدسّ في جيوبه محفظته، قلمه الحبر، كيس التبغ.

ـ من الحماقة في نهاية الأمر أننا لم نشتر لك حذاء خاصاً للمشي. أعرف ما عليّ أن أفعل، سوف أعطيك حذائي الخاص بالتزلّج. كان يريحك كثيراً.

ـ لا أريد أن أحرمك من حذائك المسكين.

ـ ستشتري لي حذاءً جديداً حين نعود للتزلّج، قالت حزينة.

أخرجت الحذاء من قعر خزانة وناولته إياه، ثم ضبّت الثياب الداخلية والمؤن في كيس.

ـ ألن تأخذ معك غليونك المصنوع من الرخفة؟

ـ لا، أدعه للمأذونيات. إسهري عليه جيداً.

ـ لا تخف.

كان الغليون الجميل الأبيض راقداً في علبته وكأنما في نعش صغير. أغلقت فرنسواز العلبة وخبأتها في درج. إلتفتت إلى بيار. كان إنتعل حذاءه وجلس على حافة السرير يقضم أحد أظافره.

كانت عيناه متورّدتين وبدت على وجهه ملامح البلاهة التي كان يتظاهر بها في ما مضى خلال بعض ألعابه مع كزافيير. وقفت فرنسواز أمامه من غير أن تدري. ماذا عساها تفعل. تكلّما طوال النهار، ولم يعد ثمة ما يمكن قوله الآن. راح يعض ظفره وهي تراقبه منزعجة، مستسلمة وفارغة.

ـ هلا خرجنا؟ قالت أخيراً.

ـ هيا بنا.

علّق الكيسين على كتفه وخرج من الغرفة. أغلقت فرنسواز خلفهما ذلك الباب الذي لن يعبراه مجدّداً لأشهر طويلة. أحسّت بساقيها قطعتين وهي تنزل الأدراج.

ـ لدينا متّسع من الوقت لتناول كأس في الدوم، قال بيار. لكن علينا توخّي الحذر، لن يكون من السهل العثور على سيارة أجرة.

خرجا من الفندق وسلكا للمرة الأخيرة الطريق المعهودة. القمر غاب والظلام مخيّم. مضت بضع ليالٍ وسماء باريس مطفأة. لم يبق في الشوارع سوى بضعة مصابيح صفراء صغيرة تلقي نوراً شاحباً على الأرض. الضباب الوردي الذي كان في مامضى يشير إلى تقاطع مونبارناس تبدّد. غير أن أرصفة المقاهي لا تزال تلتمع واهنة.

ابتداءً من غد يقفل الجميع في الساعة الحادية عشرة، قالت فرنسواز. هذه آخر ليلة من زمن ما قبل الحرب.

جلسا على رصيف المقهى. المقهى يغصّ بالناس، بالأصوات والدخان. كانت مجموعة من الشبان تغني. ظهر خلال الليل حشد من الضباط باللباس العسكري انتشر مجموعات حول الطاولات. كانت بعض النساء يلاحقنهم بضحكات لم تأتِ على

بنتيجة. الليلة الأخيرة، الساعات الأخيرة. كان صخب الأصوات العصبي ينتابني مع الركود المخيّم على الوجوه.

ـ ستكون الحياة غريبة هنا، قال بيار.

ـ أجل، سأصف لك كل شيء.

ـ آمل ألا تشكل كزافيير عبئاً كبيراً عليك . ربما كان يجدر بنا ألاّ نستقدمها بهذه السرعة.

ـ لا، من الأفضل أن تكون رأيتها مجدّداً. لما كان من المجدي أن نكتب لها كل هذه الرسائل الطويلة حتى ندمّر مفعولها دفعة واحدة. ثم يجب أن تكون بقرب جيربير خلال هذه الأيام الأخيرة. لم يكن من الممكن أن نبقى في روان.

كزافيير لم تعد سوى ذكرى، عنوان على غلاف، جزء يسير من المستقبل. يصعب عليها التصديق أنها ستراها فعلاً بعد بضع ساعات.

ـ طالما أن جيربير سيكون في فرساي، لن يصعب عليك التقاؤه من وقت لآخر، قال بيار.

ـ لا تقلقي بشأني، سأتدبّر أمري.

أمسكت يده. سوف يرحل. لا شيء غير ذلك يهمّ. مكثا وقتاً طويلاً؛ يتأملان اضمحلال السلام من غير أن يتلفّظ أي منهما بكلمة.

ـ أتظن أن المكان سيكون مكتظاً هناك؟ سألت فرنسواز وهي تنهض.

ـ لا أعتقد، فقد استدعوا معظم المجندين.

تسكّعا لوقت على الجادة ونادى بيار سيارة أجرة.

إلى محطة لافيليت، قال للسائق.

عبرا باريس صامتين. أخذت النجوم الأخيرة تشحب. إرتسمت ابتسامة طفيفة على شفتي بيار. لم يكن متوتراً. بدا على وجهه اجتهاد ولو مواظب. أحسّت فرنسواز بهدوء الحمّى يعمّها.

ـ هل وصلنا؟ قالت مندهشة.

توقفت سيارة الأجرة عند حافة ساحة صغيرة مستديرة ومقفرة. في وسط الفناء إنتصب عمود وقرب العمود وقف شرطيان يعتمران قبّعتين عسكريتين مزدانتين بشرائط فضية. دفع بيار للسائق أجرته واقترب منهما.

ـ أهنا مركز التجمّع؟ سألهما وهو يمدّ بطاقته العسكرية.

أشار أحد الشرطيين إلى ورقة معلّقة على العمود الخشبي.

ـ عليك الذهاب إلى محطة الشمال.

بدت الخيبة على بيار. ثم رفع إلى الشرطي وجهاً ساذجاً. أحياناً يعكس وجه بيار تلك البراءة غير المتوقعة التي تؤثر في قلب فرنسواز.

شرع الشرطي يضحك.

ـ لن يهيّئوا قطاراً من أجلك خصيصاً، لا داع للعجلة.

عاد بيار إلى فرنسواز. بدا صغير القامة وفي غير مكانه في هذه الساحة المهجورة، حاملاً حقيبته ومنتعلاً حذاء التزلّج. بدا لفرنسواز وكأن تلك السنوات العشر لم تكن كافية لتعبّر له عن مدى حبها له.

ـ ما زالت لدينا مهلة صغيرة، قال. وأدركت من ابتسامته أنه يعرف كل ما ينبغي أن يعرفه.

انطلقا عابرين الشوارع الضيقة حيث أخذ الفجر يرشح. كان

الجو عذباً وفي السماء تصطبغ الغيوم بالورديّ، وكأنهما يقومان بنزهة كالنزهات التي كانا يقومان بها غالباً بعد ليالٍ طويلة من العمل. توقفا عند أعلى الأدراج المؤدية إلى المحطة. بعد أن تنحصر السكك الحديد الملتمعة بين رصيفي الإسفلت، تفلت فجأة وتتشابك منسابة إلى ما لا نهاية. تأملا للحظة السقوف المسطحة المتطاولة للقطارات المتوقفة عند حافة الأرصفة حيث تشير عشر ساعات جدار سوداء ذات عقارب بيضاء إلى الخامسة والنصف.

ـ هنا سيحدث ازدحام كبير، قالت فرنسواز متخوّفة.

كانت تتصوّر شرطيين، ضبّاطاً وحشداً مدنياً هائلاً، المشهد يشبه الصور الفوتوغرافية التي رأتها في الصحف. غير أن ردهة المحطة كانت شبه مقفرة ولم تبصر أي بدلة عسكرية. ثمة عائلات قليلة جالسة بين كوم من الرزم وبعض الأشخاص المنفردين الحاملين حقيبتهم على كتفهم.

اقترب بيار من أحد شبابيك التذاكر ثم عاد إلى فرنسواز.

ـ القطار الأول ينطلق في السادسة وتسع عشرة دقيقة. سأصعد في السادسة لأعثر على مقعد. أمسك ذراعها. ما زال في وسعنا القيام بجولة صغيرة.

ـ يبدو هذا الانطلاق غريباً، قالت فرنسواز. لم أكن أتصوّره على هذا الشكل. كل شيء يبدو مجانياً إلى حد بعيد.

ـ أجل، لا يحسّ الواحد بأي ضغط في أي مكان. لم أتلقّ حتى ورقة صغيرة الاستدعائي، لم يأت أي كان لاصطحابي، أسأل عن ساعة الإنطلاق كمدنيّ عاديّ. أكاد أخال أنني راحل بمبادرة فردية.

ـ لكننا نعلم رغم ذلك أنه لا يمكنك البقاء، وكأن حتمية داخلية هي التي تدفعك. تقدّما بضع خطوات خارج المحطة. إمتدّت السماء صافية ورقيقة فوق الجادات المقفرة.

ـ لم تعد تعبر أي سيارة أجرة، لاحظ بيار والمترو متوقف. كيف ستعودين؟

ـ مشياً. سأذهب لأرى كزافيير ثم أرتّب مكتبك. غصّ صوتها. ستكتب لي فور وصولك، أليس كذلك؟

ـ بل أكتب لك في القطار. لكن الرسائل لن تصل قبل وقت بالتأكيد. عليك أن تصبري.

ـ آه! أشعر أن لدي مخزوناً من الصبر.

تقدّما قليلاً في الجادة. بدا الهدوء المخيّم على الشوارع في نور الفجر الضئيل عادياً. لم تكن الحرب في أي مكان. فقط تلك الملصقات المعلّقة على الجدران: ملصقة كبيرة مزينة بشريط من ألوان العلم الفرنسي يحمل نداء إلى الشعب الفرنسي، وأخرى صغيرة متواضعة مزينة بأعلام سوداء وبيضاء على خلفية بيضاء، هي أمر التعبئة العامة.

ـ سأذهب الآن، قال بيار.

عادا إلى المحطة. فوق البوابات أعلنت لافتة أن دخول الأرصفة مخصص للمسافرين. كان بعض الأزواج متعانقين قرب الموانع. إغرورقت عينا فرنسواز بالدموع فجأة لهذا المشهد. بتحوّلها إلى مجهولة بين أشخاص مجهولين، صار الحدث الذي تعيشه ملموساً. على هذه الأوجه الغريبة، في ابتساماتها المرتجفة، كان الفراق يكشف مأسويته. التفتت إلى بيار، لم تشأ الاستسلام للانفعال. وجدت نفسها غارقة في لحظة مبهمة بعثت فيها طعماً لاذعاً

متبخّراً لم يكن حتى أليماً.

ـ إلى اللقاء، قال بيار. ضمّها إليه برفق. نظر إليها للمرة الأخيرة واستدار.

عبر الباب. رأته يتوارى ماشياً بخطى سريعة وعازمة تكشف توتر وجهه. ستدارت بدورها واستدارت معها امرأتان. إنهار وجهاهما كلياً وأجهشت إحداهنّ بالبكاء. تشنّجت فرنسواز ومشت نحو المدخل. لن تجدي الدموع. في وسعها البكاء ساعات مديدة، ستبقى لديها دموع كثيرة تذرفها. انطلقت بخطى طويلة منتظمة، تلك الخطى الخاصة بالرحلات، عابرة هدوء باريس غير المألوف. لم تكن المصيبة تظهر بعد في أي مكان، لا في الجو الدافىء، ولا في أغصان الأشجار الذهبية، ولا حتى في رائحة الخضار الطازجة القادمة من الهال. سيبقى الشؤم مضمراً طالما أنها تواصل السير، لكن إن توقفت، يبدو لها أن هذا الوجود الخبيث الذي تحسّ به من حولها سيغمر قلبها ويجعله ينفجر.

عبرت ساحة شاتليه وسلكت جادة سان ميشال صعوداً. كان حوض لوكسمبورغ أفرغ، فتراءى قعره تتآكله برك من المياه. في شارع فافان إشترت فرنسواز صحيفة. عليها الانتظار لوقت طويل قبل أن تتمكن من قرع باب كزافيير. قرّرت فرنسواز الجلوس في الدوم. لم تكن تكترث لكزافيير، لكنها كانت مسرورة لفكرة القيام بشيء ما قبل الظهر.

دخلت المقهى واحتقن وجهها فجأة. كان ثمة رأس أشقر وآخر أسمر خلف طاولة قرب النافذة. تردّدت لكنه لم يتسنّ لها العودة إلى الخلف: جيربير وكزافيير أبصراها. أحسّت بنفسها هشّة ومحطّمة واعترتها ارتعاشة عصبية وهي تقترب من طاولتهما.

ـ كيف حالك؟ قالت لكزافيير وهي تشدّ على يدها.

ـ جيّدة، أجابت كزافيير بلهجة حميمة. حدّقت في وجه فرنسواز. أنت تبدين متعبة.

ـ رافقت لابروس للتو إلى القطار، قالت. لم أنم كثيراً.

كان قلبها يختلج. لم تعد كزافيير منذ أسابيع سوى صورة غامضة مطبوعة في الذهن. وها أنها تنبثق فجأة في فستان لا تعرفه فرنسواز. فستان أزرق مكسو بزهور صغيرة، أكثر شقاراً منها في أي ذكريات. إنشقت شفتاها المنسيتان في ابتسامة نضرة. لم تتحوّل إلى شبح خانع. عليها أن تواجه من جديد حضورها الحقيقي من لحم ودم.

ـ أمّا أنا، فتنزّهت طوال الليل، قالت كزافيير. تلك الشوارع الحالكة رائعة وكأنها نهاية العالم.

أمضت تلك الساعات بكاملها مع جيربير. عادت بالنسبة له أيضاً حضوراً ملموساً. كيف تراه استقبلها في قلبه؟ لم يكن وجهه يعبّر عن مطلق إحساس.

ـ سيزداد الوضع سوءاً بعد أن تقفل المقاهي، قالت فرنسواز.

ـ أجل، سيكون هذا كئيباً. إلتمعت عينا كزافيير: أتظنين أننا سنتعرّض حقاً للقصف؟

ـ ربما، أجابت فرنسواز.

ـ لا شك أنه إحساس فظيع أن نسمع صفارات الخطر تدوّي في الليل ونرى الناس يركضون هاربين في كل الإتجاهات كالجرذان.

ابتسمت فرنسواز إبتسامة مرغمة. فصبيانية كزافيير المفتعلة

تزعجها.

ـ سيرغمونك على النزول إلى القبو، قالت.

ـ آه! لن أفعل.

حلّ صمت ضئيل.

ـ أراك لاحقاً، قالت فرنسواز. مرّي عليّ لاصطحابي، سأجلس في آخر المقهى.

ـ أراك لاحقاً، أجابت كزافيير.

جلست فرنسواز أمام طاولة وأشعلت سيجارة. كانت يدها ترتجف. أدهشها عنف اضطرابها. لا شك أن توتر تلك الساعات الأخيرة إذ انكسر تركها عزلاء هكذا. شعرت أنها دفعت إلى فضاءات غامضة تتقاذفها وقد اقتلعت من جذورها، فلا تجد في نفسها ملاذاً. كانت تقبّلت بسكون فكرة عيش حياة زهد وقلق. إلاّ أن وجود كزافيير لطالما شكّل تهديداً لها حتى خلف حدود حياتها. وها أن هذا القلق القديم يعاودها، زارعاً الذعر في نفسها.

الفصل (١٨)

ـ لسوء الحظّ، لم يعد لديّ زيت، قالت كزافيير.

نظرت بإحباط إلى النافذة التي يكسوها طلاء أزرق حتى منتصفها.

ـ أنجزت عملاً جيداً، قالت فرنسواز.

ـ آه! أظن أن أينيس لن تتمكن بعد الآن من استعادة نوافذها.

كانت أينيس فرّت من باريس غداة أوّل إنذار خاطىء فاستأجرت منها فرنسواز شقتها. ذكرى بيار كانت طاغية الحضور في غرفة فندق بايار. ويشعر الواحد بالحاجة إلى مأوى في تلك الليالي المفجعة حيث لا توفّر باريس نوراً ولا ملاذاً.

ـ يلزمني زيت، ردّدت كزافيير.

ـ لم يعد من الممكن العثور على زيت في أي مكان.

كانت فرنسواز تدوّن بأحرف ضخمة عنوان طرد من الكتب والتبغ تعتزم إرساله لبيار.

ـ لم يعد يمكن العثور على أي شيء، قالت كزافيير بحنق.

تهالكت على كنبة. إذاً كأنني لم أفعل شيئاً، قالت بصوت حانق.

كانت مدثرة بمبذل طويل مشدود على خصرها بحزام. أخفت يديها في الكمّين الفضفاضين. بدت أشبه براهب صغير بشعرها المقصوص بشكل متساوٍ والمنسدل مستقيماً حول وجهها.

وضعت فرنسواز قلمها. كان المصباح الكهربائي الملفوف بوشاح من الحرير يسكب من الغرفة نوراً بنفسجياً ضئيلاً.

ـ عليّ الذهاب والعمل، فكرت فرنسواز. غير أنها لم تشعر بأي رغبة في ذلك. حياتها فقدت أي صلابة، باتت مادة رخوة يخال الواحد أنه يغوص فيها عند كلّ خطوة، ثم يعود ويثب لينغرز في بقعة أخرى. وفي كل لحظة يساوره الأمل في الغرف نهائياً، وفي كل لحظة يأمل أن يطأ أرضاً صلبة فجأة. لم يعد هناك مستقبل. وحده الماضي ظلّ حقيقياً والماضي يتجسّد في كزافيير.

ـ هل تلقيت أخباراً من جيربير؟ سألت فرنسواز. كيف يتدبّر أمره في حياة الثكنة؟

كانت التقت جيربير قبل عشرة أيام، يوم أحد بعد الظهر. لكنه لما كان بدا طبيعياً ألاّ تستفهم عنه أبداً.

ـ يبدو أنه لا يشعر بالسأم. ابتسمت كزافيير ابتسامة حميمية خفرة. خصوصاً وأنه يحبّ الإحساس بالسخط.

عكس وجهها اليقين الرقيق بامتلاك تام.

ـ لا شكّ أن الظروف غالباً ما تبعث فيه هذا الإحساس.

ـ ما يقلقه، قالت كزافيير وعلى وجهها مسحة تساهل وانبهار، هو أن يعرف ما إذا كان سيشعر بالخوف.

ـ من الصعب تصوّر الأمور مسبقاً.

ـ آه! إنه يشبهني، تراوده صور في رأسه.

حلّ الصمت بينهما.

ـ أتعلمين أنهم وضعوا بيرغمان في معسكر اعتقال؟ قالت فرنسواز. مصير السجناء السياسيين قاسٍ جداً.

ـ لا تهتمي، كلهم جواسيس.

ـ لا، ليسوا كلهم جواسيس. فالعديد من المناهضين الحقيقيين للفاشية يسجنون باسم حرب ضدّ الفاشية.

كشّرت كزافيير بازدراء.

ـ حين أفكر كم أن الناس سخفاء. لن أحزن عليهم إن ظلموا قليلاً.

نظرت فرنسواز بنفور إلى الوجه النضر القاسي.

ـ إن لم نكترث للأشخاص، فماذا سيبقى؟

ـ آه! لسنا من طينة واحدة، قالت كزافيير وهي تغلّفها بنظرة احتقار وخبث.

صمتت فرنسواز. الأحاديث مع كزافيير تتحوّل على الفور إلى مواجهات حقودة. ما تكشفه الآن نبرة كزافيير وابتساماتها الماكرة لم يعد عداءً صبيانياً متقلباً، بل حقد امرأة حقيقي. لن تغفر لفرنسواز يوماً احتفاظها بحبّ بيار.

ـ ما رأيك لو نضع أسطوانة؟ اقترحت فرنسواز.

ـ كما تشائين.

وضعت فرنسواز على الفونوغراف الأسطوانة الأولى من بيتروشكا.

ـ دائماً المعزوفة ذاتها، قالت كزافيير بغضب.

ـ لا خيار لدينا.

ضربت كزافيير الأرض برجلها.

ـ هل سيدوم هذا طويلاً؟ قالت وهي تصرّ أسنانها.

ـ ماذا؟

ـ الشوارع الحالكة، المتاجر المقفرة، المقاهي المقفلة في الحادية عشرة. هذه القصّة برمّتها، قالت منتفضة من شدّة الغيظ.

ـ قد يطول الأمر.

غرزت كزافيير يديها في شعرها وشدّته.

ـ لكنني سأجنّ.

ـ لا يجنّ الواحد بهذه السرعة.

ـ لست صبورة، أنا، أجابت كزافيير بيأس ونقمة. لا أكتفي بتأمّل الأحداث في قعر مقبرة! لا يكفيني أن أقول لنفسي إن الأشخاص مازالوا موجودين في الطرف الآخر من العالم إن كنت عاجزة عن لمسهم.

إحمرّ وجه فرنسواز. كان يجدر بها أن تقول شيئاً لكزافيير. فكلّ ما تقوله لها تعكسه كزافيير لتوجهه ضدّها. نظرت كزافيير إلى فرنسواز.

ـ من حسن حظك أنك منطقية ومتعقلة، قالت بتواضع ملتبس.

ـ يكفي ألاّ تنظري إلى نفسك بمأساوية، أجابت فرنسواز بنبرة جافة.

ـ آه! لكلّ ميوله.

قلّبت فرنسواز النظر بين الجدران العارية، النوافذ الزرقاء التي بدت وكأنها تحرس جوف قبر. يجدر ألاّ أكترث، فكّرت متأمّلة.

لكنها مهما فعلت، لم تفارق كزافيير خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة وستستمر في العيش إلى جانبها حتى تنتهي الحرب. لم يعد في وسعها إنكار ذلك الحضور المعادي الذي يلقي عليها وعلى العالم بأسره ظلاً خبيثاً.

رنّ جرس الباب قاطعاً الصمت. عبرت فرنسواز الممرّ الطويل.

ـ ماذا هناك؟

مدّت لها البوابة غلافاً لا يحمل طابعاً كتب العنوان عليه بخطّ مجهول.

ـ سلّمني سيد ما هذه الرسالة للتو.

ـ شكراً، قالت فرنسواز.

فتحت الرسالة. كان هذا خطّ جيربير.

«إنني في باريس. أنتظرك في مقهى راي. لديّ الأمسية بكاملها».

أخفت فرنسواز الورقة في حقيبتها. دخلت غرفتها، أخذت معطفها وقفازيها. كان السرور يملأ قلبها. حاولت تمالك تعبير وجهها وعادت إلى غرفة كزافيير.

ـ تطلب مني أمي الانضمام إليها في لعبة بريدج، قالت.

ـ آه! إنك خارجة، أجابت كزافيير بنبرة لوم.

ـ سأعود حوالي منتصف الليل. ألن تذهبي إلى أي مكان؟

ـ إلى أين تريدينني أن أذهب؟

ـ إذاً إلى اللقاء.

هبطت الأدراج المظلمة وسلكت الطريق راكضة. كان نساء يذرعن الرصيف في شارع مونبارناس وقد علّقت كل منهن بكتفها

العلبة الأسطوانية الرمادية التي تحوي قناع الغاز. خلف جدار المقبرة تعبث بومة. توقفت فرنسواز فاقدة أنفاسها عند زاوية شارع لاغيتي. شاهدت جمرة ضخمة حمراء قاتمة تلتمع على جادة مين: إنه مقهى راي. جميع الأمكنة العامة بستائرها المشدودة وأنوارها المكبوتة. إتخذت مظهراً مغرياً كأمكنة شاذة. أزاحت فرنسواز الستائر المنسدلة على المدخل. كان جيربير جالساً أمام كأس من مشروب الفاكهة، قرب أرغن السينما، وقد وضع قبّعته العسكرية على الطاولة. ظهر شعره المقصوص قصيراً. بدا فتياً إلى حد مثير للضحك في بدلته الكاكي.

ـ كم يسرّني أنك تمكنت من المجيء! قالت فرنسواز.

أمسكت يده فتشابكت أصابعهما.

ـ هل نجحت الحيلة في نهاية الأمر؟

ـ أجل، لكنني لم أتمكن من إخطارك بالأمر. لم أكن أعلم مسبقاً ما إذا كنت سأنجح في الفرار. ابتسم. إنني مسرور جداً. المسألة سهلة للغاية يمكنني إعادة الكرّة من حين لآخر.

ـ هذا سيسمح بانتظار أيام الأحد. فهي قليلة جداً خلال الشهر. نظرت إليه بحسرة. خصوصاً وأنك ستضطرّ لمقابلة كزافيير.

ـ سأضطرّ إلى ذلك، قال جيربير بفتور.

ـ أتعلم، لديّ أخبار جديدة وصلت للتو من لابروس. رسالة طويلة يعيش حياة ريفية تماماً. إنه يصطاف عند كاهن في اللورين يشبعه كعكاً بالجانركة وفراريج بالكريمة.

ـ الوضع سيىء. حين سيحصل على أوّل مأذونية له سأكون أنا

بعيداً. لن نلتقي لوقت طويل.

ـ أجل. لو كان من الممكن فقط وقف القتال.

نظرت إلى المقاعد الحمراء الزاهية حيث جلست مراراً إلى جانب بيار. المكان يغصّ بالزبائن الجالسين إلى الكونتوار وخلف الطاولات. غير أن الستائر الزرقاء الكثيفة التي تخفي النوافذ أضفت إلى ذلك المقهى المكتظّ بعضاً من التعفّن داخل ثكنة.

ـ لن يزعجني أن أخوض معركة، قال جيربير. لا شك أن القتال أفضل من التعفّن داخل ثكنة.

ـ إنك تسأم إلى حدّ مخزٍ ككلب مسكين.

ـ غير معقول كم يمكن أن يضايقونا. أخذ يضحك: استدعاني النقيب أوّل من أمس. أراد أن يعرف لماذا لست برتبة تلميذ ضابط، ورده أنني أتناول العشاء كل ليلة في مطعم براسوري شانتوكلير. قال لي ما مفاده «لديك بعض المال، مكانك بين الضباط».

ـ وماذا أجبته؟

ـ قلت إنني لا أحب الضبّاط. أجاب بعزّة نفس.

ـ قلت إنك أثرت انطباعاً سيئاً.

ـ على الأرجح. حين غادرت النقيب كان غاضباً. هزّ رأسه. ينبغي ألاّ أخبر هذا لكزافيير.

ـ تريدك أن تكون ضابطاً؟

ـ أجل. تظن أننا سنرى بعضنا أكثر في هذه الحال. النساء حقاً غريبات الأطوار، قال جيربير واثقاً من نفسه. يظنّ أن القصص العاطفية وحدها تهمّ.

ـ كزافيير لم يعد لها سواك.

ـ أعرف، وهذا ما يرهقني تحديداً. ابتسم: لكن كان ينبغي أن أكون أعزب.

ـ هذا من سوء حظّك.

ـ لكن لا علاقة لكل هذا بك، قال جيربير وهو يلطمها لطمة طفيفة. لا اشعر بأي إنزعاج معك. يمكنني أن أقول لك أي شيء، أشعر أنني حرّ تماماً.

ـ أجل، أمر جيد أن نحبّ بعضنا إلى هذا الحد ونبقى أحراراً.

ضغطت على يده. لم تكن عذوبة رؤيته وملامسته ما يشدّها الأكثر إليه بل تلك الثقة التي يمنحها إيّاها بشغف.

ـ ماذا تودّ أن تفعل الليلة؟ سألت ببهجة.

ـ لا يمكنني دخول الأمكنة الأنيقة في هذه البدلة.

ـ لا، لكن ما رأيك مثلاً أن ننحدر مشياً إلى الهال، نتناول طبقين من البفتيك عند بنجامين ونذهب بعدها إلى الدوم؟

ـ هذا يناسبني. سنتناول كأس بيرنو على طريقنا. فظيع كيف صرت أحتمل البيرنو الآن.

نهض وأزاح الستارة الزرقاء أمام فرنسواز.

ـ لا يمكن أن تتصوّري كم نشرب في الجيش! أعود كل ليلة ثملاً.

كان الليل طلع وسكب نوره على الأشجار والسطوح: ليلة مقمرة كما في الريف تماماً. عبرت سيارة الجادة الطويلة المقفرة مضيئة كشافيها الزرقاوين كقطعتي ياقوت ضخمتين.

ـ هذا رائع، قال جيربير متأملاً الليل.

ـ أجل، الليالي المقمرة رائعة. لكن حين يكون الليل حالكاً لا

يبعث البهجة أبداً. لا يسعنا سوى أن نقبع في بيوتنا. دفعت جيربير بمرفقها: هل لاحظت أن الشرطيين لديهم الآن خوذات جديدة جميلة؟

ـ مظهرهم حربيّ. أمسك جيربير ذراع فرنسواز. يا لك من كلبة تعسة! لا شك أن هذه الحياة غير سارّة. ألم يعد هناك أحد في باريس؟

ـ هناك اليزابيت. سوف يسرّها أن تعيرني كتفها لأبكي عليها، لكنني أتجنّبها قدر المستطاع. أمرها مضحك حقاً، لم تبد يوماً أكثر ازدهاراً من الآن. كلود في بوردو. لكن طالما أنه وحيد من دون سوزان، أظنّ أنها تتقبّل غيابه.

ـ ماذا تفعلين طوال النهار؟ هل عاودت العمل؟

ـ لم أفعل بعد، لا. أمضي نهاري مع كزافيير. نعدّ الطعام، نبحث عن تسريحات جديدة. نستمع إلى أسطوانات قديمة. لم تكن علاقتنا يوماً أكثر حميمية مما هي الآن. رفعت فرنسواز كتفيها. وأنا واثقة من أنها لم تكرهني يوماً كما تفعل الآن.

ـ أتعتقدين هذا؟

ـ إنني واثقة. ألا تكلّمك أبداً عن علاقتنا؟

ـ لا، ليس كثيراً. إنها حذرة. تظنني من طرفك.

ـ كيف هذا؟ لأنك تدافعين عني حين تهاجمني هي؟

ـ أجل نتشاجر دائماً حين تكلّمني عنك.

أحسّت فرنسواز بغصّة لاذعة في قلبها.

ـ وماذا تقول؟ سألته.

ـ آه! تقول أي شيء.

ـ تعرف، يمكنك أن تخبرني. لم نعد نخفي عن بعضنا شيئاً.

ـ كنت أتكلم بصورة عامة.

تقدّمنا بضع خطوات بصمت. فاجأتهما صفارة اندلعت قربهما. كان قائد مجموعة ملتحياً يصوّب نور مصباحه الكهربائي إلى نافذة يرشح منها شعاع ضئيل.

ـ إنه احتفال بالنسبة لهؤلاء العجّز.

ـ أفهم ذلك، قالت فرنسواز. في الأيام الأولى هدّدوا بإطلاق النار على نوافذنا. أخفينا جميع المصابيح والآن تطلي كزافيير النوافذ بالأزرق.

كزافيير. بالطبع. تتكلّم عن فرنسواز. وربما عن بيار أيضاً. من المزعج أن تتصوّرها متفاخرة بتسامح من قلب عالمها الضيّق المرتب بعناية.

ـ هل كلّمتك كزافيير مرة عن لابروس؟

ـ كلّمتني عنه، أجاب جيربيير بصوت لاينمّ عن أي انفعال.

ـ أخبرتك القصة بكاملها، قالت فرنسواز مؤكدة.

ـ أجل.

احتقنت وجنتا فرنسواز بالدماء. قصّتي. أكتسب ذهن فرنسواز داخل هذا الرأس الأشقر شكلاً مجهولاً لا يمكن استدراكه، وهو الشكل الذي تراءى لجيربيير عبر بوحها له.

ـ إذاً تعرف أن لابروس أغرم بها؟

صمت جيربيير.

ـ إنني آسف جداً. لماذا لم يحذّرني لابروس؟

ـ كبرياؤه منعه من ذلك... أمسكت بذراع جيربيير. لم أخبرك

لأنني كنت أخشى أن تراودك أفكار خاطئة. لكن لا تخف. لابروس لم يغضب منك أبداً. حتى أنه في النهاية كان مسروراً جداً لانتهاء القصة بهذا الشكل.

ـ نظر إليها جيربير بارتياب.

ـ كان مسروراً؟

ـ أجل، أكّدت فرنسواز. لم تعد تعني له شيئاً، أتعرف.

ـ حقاً؟ بدا جيربير وكأنه عاجز عن تصديق كلامها. ماذا يظنّ؟ نظرت فرنسواز بقلق إلى قبّة جرس سان جيرمان دي بري المنتصبة في سماء معدنية، صافية وهادئة كقبّة جرس قرية ما.

ـ ماذا تدّعي؟ سألت. أن بيار مازال متيّماً بها؟

ـ تقريباً، قال جيربير مرتبكاً.

ـ إذاً فهي مخطئة تماماً.

كان صوتها يرتجف. لو كان بيار هنا لكانت ضحكت بازدراء، لكنها بعيدة عنه ولا يسعها سوى أن تقول لنفسها «لا يحبّ سواي». أمر لا يحتمل أن يكون ثمة يقين مضاد في مكان ما من العالم.

ـ أودّ أن تعرف كيف يحدّثني عنها في رسائله، تابعت. ستكون مذهولة. إن كان يتظاهر بالصداقة لها، فبدافع الشفقة رمقت جيربير بنظرة تحدّ.

كيف تبرّر تخليه عنها؟

ـ تقول إنها هي التي لم تعد ترغب بهذه العلاقة.

ـ آه! فهمت. ولماذا؟

نظر إليها جيربير مضطرباً.

ـ هل تدّعي أنها لم تكن تحبّه؟

كانت فرنسواز تضغط بيديها الرطبتين على منديلها.

ـ لا، أجاب جيربير.

ـ إذاً؟

ـ تقول إن الأمر كان يزعجك، قال بلهجة متردّدة.

ـ هي قالت هذا؟

كان الانفعال يخطف صوت فرنسواز. ملأت دموع الحنق عينيها.

ـ يا لها من عاهرة صغيرة!

لم يقل جيربير شيئاً. بدا في غاية الاضطراب. ضحكت فرنسواز ضحكة ساخرة.

ـ باختصار، إن بيار متيّم بها وهي تجابه هذا الحبّ بالرفض مراعاة لي لأنّ الغيرة تتملّكني.

ـ خطر لي أنها تنسّق الأمور على طريقتها، قال جيربير مخففاً من غضب فرنسواز.

عبرا السين. إنحنت فرنسواز فوق الدرابزون وتأملت المياه الحالكة التي عكست صفحتها الملساء قرص القمر. لن أحتمل هذا، قالت يائسة.

هناك في نور غرفتها الجنائزي، كانت كزافيير جالسة، مدّثرة بمبذلها الداكن، مقطّبة وشريرة، وحبّ بيار المعذّب يلامس رجليها، ذليلاً.

وكانت فرنسواز تائهة في الشوارع، محتقرة، مكتفية ببقايا حنان متهالك.

ودّت إخفاء وجهها.

ـ كذبت عليك، قالت.

ضمّها جيربير إليه.

ـ إنني واثق من ذلك، قال.

بدا قلقاً. ضغطت شفتيها. في وسعها أن تكلّمه، أن تقول له الحقيقة. وسوف يصدّقها. لكن مهما فعلت، ستظل البطلة الشابة هناك، الفتاة العذبة التي قدّمت نفسها ضحية، تحسّ في جسدها بطعم حياتها المثيرة والنبيلة.

ـ سأكلّمها هي أيضاً، فكرت فرنسواز. وستعرف الحقيقة.

ـ سأكلّمها.

عبرت فرنسواز ساحة رين. كان القمر يشعّ فوق الشارع المقفر والبيوت المكفوفة، يشعّ فوق السهول العارية والغابات حيث يسهر رجال على رؤوسهم خوذات. في هذا الليل المجهول والمفجع، كان ذلك الغضب الذي يبعث الاضطراب في قلب فرنسواز حصتها من هذه الدنيا. اللؤلؤة السوداء، الغالية، الساحرة، المعطاء. أنثى، فكرت فرنسواز باحتدام. صعدت الأدراج. إنها هنا، قابعة خلف الباب، في وكر أكاذيبها. ستستولي من جديد على فرنسواز وتدخلها عنوة في قصّتها. تلك المرأة المهجورة، المتسلّحة بصبر لاذع، ستكون أنا. دفعت فرنسواز الباب ودقّت على كزافيير.

ـ أدخل.

كانت رائحة دبقة وباهتة منتشرة في الغرفة. وجدت كزافيير واقفة على سلّم صغير تدهن نافذة بالأزرق. نزلت عن السلّم.

ـ انظري ماذا وجدت. قالت.

كانت تمسك بيدها قارورة مليئة بسائل ذهبي. مدّتها في إشارة مسرحية إلى فرنسواز. على البطاقة الصغيرة كتب: «زيت للإسمرار».

ـ وجدتها في الحمام. يمكن تماماً استخدامه مكان الزيت. نظرت إلى النافذة مترددة. ألا تعتقدين أنه ينبغي طلاء طبقة أخرى؟

ـ آه! النتيجة كما هي ممتازة بالنسبة لنعش! قالت فرنسواز.

خلعت معطفها. أن تتكلم كيف تتكلم؟ لا يمكنها أن تأتي على ذكر جيربير. غير أنه لايمكنها العيش في هذه الأجواء المسمومة. بين النوافذ الملساء والزرقاء، في رائحة زيت الإسمرار الدبقة، كان شغف بيار الخائب وغيرة كزافيير الخسيسة يفرضان وجودهما. ينبغي أن تسحقهما. كزافيير وحدها تستطيع ذلك.

ـ سأعدّ بعض الشاي، قالت كزافيير.

كان في الغرفة موقد على الغاز. وضعت عليه قدراً من الماء وجلست قبالة فرنسواز.

ـ هل كانت لعبة البريدج مسلّية؟ سألت بازدراء.

ـ لم أذهب إليها من أجل التسلية.

عبرت لحظة صمت. وقع نظر كزافيير على الرزمة التي أعدّتها فرنسواز من أجل بيار.

ـ رتّبت رزمة جميلة، قالت بابتسامة شاحبة.

ـ أظن إن لابروس سيكون مسروراً لتلقّي بعض الكتب.

ظلت ابتسامة كزافيير منفلشة ببلاهة على شفتيها في حين راحت تشد على الخيط بأصابعها.

ـ أتظنين أنه يمكنه القراءة؟ سألت.

ـ إنه يعمل، يقرأ. ولِمَ لا؟

ـ أجل، سبق وقلت لي إنه شجاع، حتى إنه يمارس الرياضة.
رفعت كزافيير حاجبيها: كنت أراه مختلفاً.

ـ لكن هذا ما يقوله بنفسه في رسالة.

ـ بالطبع.

شدّت كزافيير على الخيط وأفلتته، فبعث صفقة مائعة. أطرقت لبرهة، ثم نظرت إلى فرنسواز بسذاجة بريئة.

ـ ألا تعتقدين أن الواحد لا يروي أبداً في رسائله الأمور كما هي؟ وإن لم يكن يقصد الكذب، أضافت بلباقة. لمجرّد أنه يخبر أحداً ما؟

أحسّت فرنسواز بالخنق يطبق على عنقها.

ـ أظن أن بيار يقول ما يريد قوله تماماً، قالت بلهجة لاذعة.

ـ آه! أفترض في الواقع أنه لا يبكي في الزوايا مثل طفل صغير.
كانت كزافيير وضعت يدها على رزمة الكتب.

ـ قد أكون مخطئة، قالت ساهمة، لكن حين يكون الأشخاص غائبين، يبدو لي من العبث أن أحاول الاحتفاظ بعلاقة معهم. يمكننا التفكير فيهم. لكن أن نكتب رسائل، نرسل رزماً. كشّرت قليلاً: أفضل إستحضار الأرواح.

نظرت إليها فرنسواز بغيظ عاجز. ألا توجد أي وسيلة لسحق تلك الغطرسة الوقحة؟ في ذهن كزافيير كانت مرتا ومريم يتنافسان على بيار. هي التي يستحضرها الغائب حين يرفع وجهه الشاب الحزين إلى السماء الحزينة فيغمره الحنين في عمق وحشته. لو عانقت كزافيير بولع جسد بيار الحيّ، لما كان هذا أثر في نفس

فرنسواز كما فعلت تلك الملامسة الغامضة التي تغلّف بها صورته.

ـ ما ينبغي معرفته، هو ما إن كان الأشخاص المعنيون يشاطرون وجهة النظر هذه، قالت فرنسواز.

إبتسمت كزافيير إبتسامة ضئيلة.

ـ أجل، بالطبع.

ـ هل تقولين إن وجهة نظر الآخرين لاتهمّك؟

ـ لا يعلقون جميعاً أهمية كبرى على ما يكتب.

نهضت.

ـ هل تريدين كوباً من الشاي؟ سألت.

ملأت فنجانين. رفعت فرنسواز الفنجان إلى شفتيها. كانت يدها ترتجف. تذكرت ظهر بيار تتدلّى منه الحقيبتان، وهو يتوارى على رصيف محطة الشمال. تذكرت وجهه حين التفت إليها قبل دقيقة. ودّت لو تستبقي هذه الصورة الصافية، لكنها مجرّد صورة تستمدّ قوتها من نبضات قلبها وحدها، وهذا لا يكفي في مواجهة تلك المرأة من لحم ودم. في تلك العينين الحيّتين انعكس وجه فرنسواز المتعب القاسي. راح صوت يهمس: لم يعد يحبّها، لم يعد من الممكن أن يحبّها.

ـ أظنك تنظرين إلى لابروس نظرة رومنطيقية أكثر مما ينبغي، قالت فرنسواز بفظاظة. أتعلمين، لا تؤلمه الأشياء إلا بالقدر الذي يشاء هو. ولا يتمسّك بها إلا بالقدر الذي يريد. انعكست تكشيرة صغيرة على وجه كزافيير.

ـ هذا ما تظنين.

كانت تبرئها أكثر وقاحة في نفي شرس.

ـ بل أعرف هذا، قالت فرنسواز. أعرف لابروس جيداً.

ـ لا يمكن أن تعرف الأشخاص أبداً، أجابت كزافيير.

نظرت إليها فرنسواز غاضبة. ألا يمكن بأي طريقة التأثير على ذلك الدماغ المتعنّت؟

ـ لكن علاقتنا أنا وهو مختلفة، قالت. لطالما تقاسمنا كل شيء. كلّ شيء على الإطلاق.

ـ لماذا تقولين لي ذلك؟ سألت كزافيير بغطرسة.

ـ تظنين أنك وحدك تفهمين لابروس. كان وجه فرنسواز يلتهب: تظنين أنني أنظر إليه نظرة فظة ومبسّطة.

نظرت إليها كزافيير مذهولة. لم يسبق لفرنسواز أن تكلّمها بهذه اللهجة.

ـ لديك أفكارك عنه. ولديّ أفكاري، قالت بجفاف.

ـ تختارين الأفكار التي تناسبك.

قالت فرنسواز هذا بثقة تامة، حتى أن كزافيير تراجعت تلقائياً.

ـ ماذا تعنين؟

ضغطت فرنسواز شفتيها. كانت تشعر برغبة كبيرة في أن تقول لها وجهاً لوجه: «تعتقدين أنه يحبك، لكن شعوره حيالك ليس سوى شعور بالشفقة». كانت ابتسامة كزافيير الوقحة تبدّدت. بضع كلمات بعد وتغرورق عيناها بالدموع، فينهار ذلك الجسد المزهوّ. كانت كزافيير تحدّق فيها خائفة.

ـ لا أعني شيئاً محدّداً، أجابت فرنسواز سئمة. تظنين إجمالاً ما يلائمك.

ـ مثلاً، تابعت فرنسواز بصوت أكثر هدوءاً، كتب لك لابروس

قائلاً إنه ليس بحاجة لتلقّي رسالة حتى يفكّر في الناس، وهي طريقة لطيفة لإيجاد عذر لصمتك. فاقتنعت أنت أنه يؤمن في اتحاد روحي يتخطى الكلام.

كشّرت كزافيير عن أسنانها الناصعة.

ـ كيف عرفت بما كتب لي؟

ـ هو أخبرني في رسالة.

رمقت كزافيير حقيبة فرنسواز.

ـ آه! يحدّثك عني في رسائله؟

ـ عرضاً، أجابت فرنسواز. تشنّجت يدها على الحقيبة الجلدية السوداء. أن ترمي الرسائل في حضن كزافيير. وفي غمرة الاشمزاز والغضب ستعلن كزافيير نفسها هزيمتها. لا انتصار ممكناً من دون اعترافها هي. وستجد فرنسواز نفسها وحيدة، سيدة حياتها، طليقة للأبد.

تقوقعت كزافيير في كنبتها واعترتها ارتعاشة:

ـ أكره التفكير في أن أحداً ما يتكلّم عني.

كانت منقبضة على نفسها، مذعورة قليلاً. أحسّت فرنسواز فجأة بتعب عظيم. تلك البطلة المتغطرسة التي كانت تودّ هزمها لم تعد موجودة في أي مكان. لم يبق سوى ضحية مسكينة واقعة في فخّ، لا يمكن الانتقام منها. نهضت.

ـ سأخلد إلى النوم، قالت. أراك غداً. لا تنسي أن تقفلي سكر الغاز.

ـ عمت مساءً، أجابت كزافيير من غير أن ترفع رأسها.

أوت فرنسواز إلى غرفتها. فتحت مكتبها، أخرجت من حقيبتها

رسائل بيار ووضعتها في درج إلى جانب رسائل جيربير. لن يكون هناك انتصار. لن يكون هناك خلاص أبداً. أقفلت المكتب وخبأت المفتاح في حقيبتها.

ـ أيها النادل! نادت فرنسواز.

كان نهاراً مشمساً رائعاً. كان الغداء أكثر توتراً من العادة وقصدت فرنسواز منذ مطلع ما بعد الظهر رصيف الدوم حيث جلست حاملة كتاباً. الآن بدأ الجوّ يبرد.

ـ ثمانية فرنكات، قال النادل.

فتحت فرنسواز محفظتها وأخرجت منها ورقة نقدية. نظرت بدهشة إلى قعر الحقيبة. هناك أخفت مفتاح مكتبها مساء أمس.

أفرغت حقيبتها بعصبية. علبة البودرة. أصبع أحمر الشفاه. المشط. لا بدّ أن المفتاح في مكان ما. فهي لم تفارق حقيبتها لحظة. قلبت الحقيبة ونفضتها. راح قلبها يخفق بعنف. دقيقة واحدة، الوقت : الضروري لتحمل صينية الغداء من المطبخ إلى غرفة كزافيير. وكانت كزافيير في المطبخ.

دفعت بظهر يدها جميع الأغراض المبعثرة على الطاولة داخل حقيبتها وولّت راكضة. الساعة السادسة. إن كان المفتاح في حوزة كزافيير، فلم يبق لها أي أمل.

ـ هذا مستحيل!

كانت تركض وكل جسدها يطنّ. أحسّت بقلبها بين ضلوعها، تحت جمجمتها، عند أطراف أصابعها. صعدت الأدراج. كان البيت هادئاً وباب المدخل على مظهره الاعتيادي. في الممرّ كانت رائحة زيت الاسمرار لا تزال منتشرة. أخذت فرنسواز نفساً

عميقاً. لا شك أنها أضاعت المفتاح من دون أن تتنبه للأمر. لو حصل شيء ما لكانت لمست بعض الإشارات في الجوّ. دفعت باب غرفتها. كان المكتب مفتوحاً ورسائل من بيار وجيربير مبعثرة على البساط.

«كزافيير تعرف». راحت جدران الغرفة تدور. انسدل فوق العالم ليل شرس لاهب. تهالكت فرنسواز على كنبة، رازخة تحت وزر قاتل. كان حبّها لجيربير هنا أمامها، حالكاً مثل خيانة.

«إنها تعرف». دخلت الغرفة لقراءة رسائل بيار. كانت تنوي دسّ المفتاح مجدّداً داخل الحقيبة أو إخفاءه تحت السرير. ثم رأت خطّ جيربير:

«عزيزتي فرنسواز»، فسارعت إلى أسفل الصفحة الأخيرة: «أحبّك». قرأت الرسائل سطراً تلو الآخر.

نهضت فرنسواز وعبرت الممرّ الطويل. لم تكن أي أفكار تراودها. أمامها وفي داخلها يخيّم ذلك الليل الدامس. اقتربت من باب كزافيير ودقّت. لم يرد أي جواب. كان المفتاح في الداخل، موضوعاً في القفل. لم تخرج كزافيير. دقّت فرنسواز من جديد. ظلّ الصمت المطلق مخيّماً. قتلت نفسها، خطر لفرنسواز. اقتربت من الجدار. قد تكون كزافيير تناولت منوّماً، قد تكون فتحت سكر الغاز. أنصتت. لم تسمع شيئاً. ألصقت فرنسواز أذنها بالباب.

لاح وسط ذعرها بصيص أمل. كان هذا حلاً. الحلّ الوحيد الممكن. لكن لا، كزافيير لا تستعمل سوى المسكنات غير الضارّة. ولكانت إشتمت رائحة الغاز لو فتحت السّكر. على كل حال، لكانت نائمة فحسب. لكمت فرنسواز الباب بعنف.

- إغربي من هنا، قال صوت مخنوق.

مسحت فرنسواز العرق عن جبينها. كزافيير على قيد الحياة. خيانة فرنسواز على قيد الحياة.

ـ افتحي لي، صاحت فرنسواز.

لم تكن تعلم ما ستقول. لكنها تريد أن ترى كزافيير على الفور.

ـ افتحي، ردّدت وهي تهزّ الباب.

فتح الباب. كانت كزافيير التفت بمبذلها. عيناها جافتان.

ـ ماذا تريدين منّي؟ قالت.

دخلت فرنسواز الغرفة وجلست قرب الطاولة. لم يتبدّل شيء منذ الغداء. لكن شيئاً ما فظيعاً كان رابضاً خلف كل قطعة من هذا الأثاث الأليف.

ـ أريد أن نتفاهم.

ـ لا أطلب منك شيئاً.

كانت كزافيير تحدّق في فرنسواز بعينين متّقدتين. كانت وجنتاها ملتهبتين وبدت رائعة.

ـ إنصتي لي، أرجوك، قالت فرنسواز.

ارتجفت شفتا كزافيير.

ـ لماذا جئت تعذبينني بعد؟ ألا يرضيك ما فعلت حتى الآن؟ ألم تنزلي بي من الشرّ ما يكفي.

ارتمت على السرير وأخفت وجهها بين يديها.

ـ آه! نلت مني حقاً.

ـ كزافيير، همست فرنسواز.

نظرت حولها يائسة. ألا يمكن أن تستغيث بأي شيء؟

ـ كزافيير! ردّدت متوسّلة. حين بدأت هذه القصة، لم أكن أعلم أنك تحبين جيربير. ولم يكن هو أيضاً يظن ذلك.

أسدلت كزافيير يديها. كانت تكشيرة تلوي شفتيها.

ـ ذلك النذل الصغير، قالت ببطء. هذا لا يفاجئني من قبله. ليس سوى رجل حقير قذر.

تفرّست بوجه فرنسواز.

ـ لكن أنت! أنت! كم هزئت بي.

كانت ابتسامة لا تحتمل تكشف أسنانها النقية.

ـ لم أهزأ بك، قالت فرنسواز. لكنني فقط اكترثت لنفسي أكثر مني لك. أنت لم تدعي لي أسباباً كثيرة لأحبّك.

ـ أعرف. كنت تغارين مني لأن لابروس يحبّني. جعلته يمقتني وليكون انتقامك كاملاً، سلبت مني جيربير. احتفظي به، أتركه لك. إنه كنز رائع لن أنافسك عليه.

كانت الكلمات تتبادر إلى شفتيها متدافعة بعنف فظيع، حتى بدت وكأنها ستخنقها. تأملت فرنسواز بهول عيني كزافيير المتقدتين، تلك المرأة التي كانت هي نفسها.

ـ هذا ليس صحيحاً، قالت.

أخذت نفساً عميقاً. من العبث أن تحاول الدفاع عن نفسها. لم يعد ثمة شيء يمكن أن ينقذها.

ـ جيربير يحبّك، قالت بصوت أكثر هدوءاً. أخطأ تجاهك. لكنه في ذلك الوقت كانت له مآخذ كثيرة عليك؟ وكان من الصعب أن يكلّمك بعدها. لم يتسنّ له بعد بناء علاقة متينة معك.

انحنت نحو كزافيير وقالت بإلحاح:

- حاولي أن تغفري له. لن أعترض طريقك بعد اليوم.

ضمّت يديها إلى بعضهما. كان ترجٌّ صامت يتصاعد في داخلها: «ليمحّى كل شيء وأتخلى عن جيربير! لم أعد أحب جيربير، لم أحبّه يوماً، لم تحصل أي خيانة!

أومضت عينا كزافيير.

- يمكنك الاحتفاظ بهداياك، قالت بعنف. وارحلي من هنا، إرحلي على الفور.

تردّدت فرنسواز.

- اذهبي، بحقّ الله.

- إنني ذاهبة.

عبرت الممرّ مترنّحة مثل ضريرة، والدموع تحرق عينيها: «غرت منها سلبتها جيربير». الدموع تلهب جفونها، الكلمات تحرقها مثل حديد حام. جلست على حافة الكنبة وردّدت مذهولة: «فعلت هذا. أنا». في العتمة كان وجه جيربير يحترق باعثاً ألسنة نار سوداء، والرسائل على البساط سوداء مثل تحالف شيطاني. رفعت منديلها إلى شفتيها. كانت حمم سوداء ملتهبة تجري في شرايينها ودّت لو تموت.

«هذه أنا إلى الأبد». سيبزغ فجر ما. سيطلع غد ما سترحل كزافيير إلى روان. كل صباح ستنبعث تلك المرأة الكريهة، هي . استعادت وجه كزافيير المنهار تحت وطأة الألم. جريمتي. ستبقى موجودة للأبد.

أغمضت عينيها. راحت الدموع تسيل، الحمم الحارقة تسيل وتلهب القلب. عبر وقت طويل. فجأة لمحت في البعيد، في

كوكب آخر، ابتسامة عذبة رقيقة: «قبّلني أيها الأحمق الصغير». كانت الريح تعصف والبقرات تهزّ أغلالها في الزريبة. إتكأ رأس شاب بثقة على كتفها وقال الصوت: «إنني مسرور، مسرور جداً». أعطاها زهرة صغيرة. فتحت عينيها. تلك القصة أيضاً كانت حقيقية. مفعمة بالخفّة والحنوّ مثل ريح الصباح فوق المروج النديّة. كيف تحوّل هذا الحبّ البريء إلى تلك الخيانة الخسيسة؟

«لا، قالت، لا». نهضت واقتربت من النافذة. كان غطاء من الحديد الأسود المسنّن مثل قناع بندقي يغطي المصباح الكهربائي في الشارع. بدا نوره الأصفر أشبه بنظرة. استدارت، أشعلت النور. انبثقت صورتها بغتة في قعر المرآة. واجهتها: «لا، ردّدت، لست تلك المرأة».

كانت هذه قصّة طويلة. حدّقت في الصورة. يحاولون منذ وقت طويل سلبها صورتها. متصلّبة مثل إرشادات. صارمة ونقية مثل قطعة ثلج. متفانية، محتقرة، متمسّكة بالقيم الأخلاقية الفارغة. فقالت «لا». لكنها قالتها بصوت خفيض. قبلت جيربير خفية. «أليست هذه أنا؟». تردّدت مراراً، مذهولة. والآن وقعت في الفخ، ها هي بين مخالب ذلك الوعي الجشع الذي انتظر قابعاً في الظلّ اللحظة التي سينقضّ فيها عليها ويلتهمها. غيورة، خائنة، مجرمة. لا يمكن أن تدافع عن نفسها بكلمات خفرة وأفعال خفية. كزافيير حيّة، الخيانة حيّة. حيّ أيضاً وجهي المجرم من لحم ودم.

لن تعود موجودة.

غمر فرنسواز فجأة هدوء عظيم. توقف الزمن للتوّ. كانت فرنسواز وحيدة وسط سماء جليدية. إنها وحدة عظيمة ونهائية تشبه الموت.

عليّ أن أختار، إما هي أو أنا. وسأختار نفسي.

سمعت وقع خطى في الممرّ وانسياب المياه في الحمام. عادت كزافيير. ذهبت فرنسواز إلى المطبخ وأغلقت سكر الغاز. دقّت الباب. ربما ما زال من الممكن تجنّب الأمر...

ـ لماذا تعودين؟ قالت كزافيير.

كانت ممدّدة في سريرها، متكئة على الوسادات. وحده المصباح الصغير قرب سريرها كان مضاءً. على الطاولة الصغيرة وضعت كوب ماء قرب أنبوب من البيلادينال.

ـ أودّ أن نتحدّث، قالت فرنسواز. تقدّمت خطوة واتكأت إلى الكومودينة حيث موقد الغاز.

ـ ماذا تنوين أن تفعلي الآن؟ سألت.

ـ هل أن هذا يعنيك؟

ـ اقترفت ذنباً تجاهك. لا أطلب منك أن تسامحيني. لكن اسمعي، لا تجعلي من المستحيل إصلاح خطئي. كان صوتها يرتجف من شدّة الانفعال. لو تستطيع فقط إقناع كزافيير... لوقت طويل ظلّت سعادتك همّي الوحيد، في حين لم تفكري مرة بسعادتي أنا. تعرفين جيداً أن تصرّفي له أعذار مخففة. حاولي قليلاً، باسم ماضينا. إمنحيني فرصة حتى لا أشعر أنني مجرمة إلى حد فظيع.

كانت كزافيير تنظر إليها بعينين فارغتين.

ـ ابقي في باريس، تابعت فرنسواز. عاودي عملك في المسرح. ستقيمين حيثما تشائين، لن تريني بعد الآن...

ـ وأقبل المال منك؟ قالت كزافيير. أفضل الموت حالاً.

لم يكن صوتها ووجهها يتركان أي أمل لفرنسواز.

- كوني سخية، إقبلي، أضافت فرنسواز. جنبيني ذلك الندم بأنني هدمت مستقبلك.

- أفضل الموت، ردّدت كزافيير بشراسة.

- على الأقل، قابلي جيربير من جديد. لا تحكمي عليه قبل أن تكلّميه.

- وأنت من يسدي لي النصائح؟ قالت كزافيير.

وضعت فرنسواز يدها على موقد الغاز وأدارت المفتاح.

- ليست هذه نصائح بل التماس.

- إلتماس! شرعت كزافيير تضحك. إنك تهدرين وقتك. لا أملك روحاً سامية.

- حسناً، قالت فرنسواز، وداعاً!

قامت بخطوة نحو الباب وتأملت بصمت ذلك الوجه الصبياني الشاحب الذي لن تراه حياً بعد الآن.

- وداعاً! ردّدت.

- ولا تعودي، ردّت كزافيير بصوت حانق.

سمعتها فرنسواز تثب من سريرها وتغلق المزلاج خلفها. إنطفأ شعاع النور المتسرّب من تحت الباب.

- والآن؟ تساءلت فرنسواز.

ظلّت واقفة تراقب باب كزافيير. وحيدة. بلا عون. لم تعد تعتمد سوى على نفسها. إنتظرت وقتاً طويلاً ثم دخلت المطبخ ووضعت يدها على قبضة السّكر. تشنّجت يدها. بدا الأمر مستحيلاً. في مواجهة وحدتها، خارج المساحة، خارج الزمن، كان

ذلك الوجود المعادي الذي ترزح منذ وقت طويل تحت ظلّه الأعمى. إنه هنا، حاضر من أجل ذاته فحسب، منطو على نفسها، يحوّل كل ما يستبعد إلى عدم. يلفّ العالم بأسره بوحدته المنتصرة، يمتدّ متفرّداً، بلا حدود، إلى ما لا نهاية. كل ما هو عليه يستمدّه من ذاته، يرفض أي تأثير عليه. إنه الفراق المطلق. ورغم ذلك يكفي أن تخفض هذا المقبض حتى تدمّره. تدمّر وعياً. كيف يمكنني؟ فكّرت فرنسواز. لكن كيف لوعي غير وعيها أن يوجد؟ عندها تكون هي نفسها غير موجودة. ردّدت «إما هي أو أنا». أخفضت المقبض.

عادت إلى غرفتها، لملمت الرسائل المشتتة على الأرض، رمتها في موقد الحطب. أشعلت عود ثقاب وتأملت الرسائل وهي تحترق. كان باب غرفة كزافيير مقفلاً من الداخل.. سيظنون أن الأمر حادث أو انتحار. «على كل حال، لن يجدوا أيّ دليل»، فكّرت.

خلعت ملابسها وارتدت بيجامة، «غداً صباحاً تكون ماتت». جلست قبالة الممرّ المعتم. كانت كزافيير نائمة. في كل لحظة تغرق أكثر في سبات عميق. مازال هناك على السرير شكل حيّ، لكنه لم يعد أحداً. لم يعد هناك أحد. فرنسواز وحيدة.

وحيدة. تصرّفت وحيدة. وحيدة مثلما في الموت. سيعلم بيار ذات يوم. لكن حتى هو لن يعرف من هذا العمل سوى المظاهر الخارجية. لن يتمكن أي كان من إدانتها أو الغفران لها. عملها يعود لها وحدها. «أنا التي أردته». مشيئتها هي التي تتحقق، لم يعد أي شيء يفصلها عن نفسها. اختارت أخيراً. اختارت نفسها.

* * *

إنتهى

المدعوة

هذه الرواية هي الرواية الأولى التي كتبتها الكاتبة الفرنسية سيمون دو بوفوار وقد نشرتها سنة ١٩٤٣ تعبيراً عن نقمتها وتذمرها . من احدى تلميذاتها التي كادت في حينه أن تدمر علاقتها مع الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر سنة , ١٩٣٥

تعتبر هذه الرواية من أغرب وأقوى روايات السيرة الذاتية في القرن العشرين ،التي كشفت فيها المؤلفة عن مواهبها الأدبية وأسلوبها الأنيق والساخر .

«المدعوة» هي حكاية شخصين بيار وفرنسواز كان من المستحيل أن يتفرقا عن بعضهما ولكنهما كانا يشعران بجموح نحو أحاسيس وعلاقات جديدة فأقاما علاقة مع تلميذة معجبة بفرنسواز هي غزافيير التي ما لبثت أن استأثرت ببيار لوحدها وأقامت هوة بين الطرفين أدت إلى نتائج مدمرة وغير متوقعة .





ISBN 1- 841170-127

